
أرض الكلام
FIFA WORLD CUP
RUSSIA 2018
ممدوح عزام
رواية

ممدوح عزّام

أرض الكلام

رواية

أرض الكلام

أرض الكلام - رواية
تأليف: ممدوح عزّام

تصميم الغلاف: تمّام عزّام
ISBN: 2 - 43 - 540 - 9933 - 978
الطبعة الثانية: 2018



دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

سوريا - دمشق - ص ب: 9838
هاتف-فاكس: 6133856 11 963+
جوال: 557195187 971+
البريد الإلكتروني:
addar@mamdouhadwan.net
الموقع الإلكتروني:
addar.mamdouhadwan.net
fb.com /Adwan.Publishing.House
twitter.com /AdwanPH



دار سرد للنشر

جوال: 81756938 961+
البريد الإلكتروني:
info@darsard.net
الموقع الإلكتروني:
www.darsard.net
facebook.com /Sard.Publishing
twitter.com /SardPublishing

إلى عتاب (فوفو)

1

أيار 1959

«مجانين!». صرخ الملازم عصام الديدي، وهو يقرأ الاقتراح المقدّم إليه من قبل لجنة، سمّت نفسها «لجنة المال في السماقيات»، للموافقة على شراء مكتبة للبلدة، والمساعدة في اختيار الكتب لها، للمرة الثالثة.

كان الحقوقيّ المعيَّن حديثاً مديراً لناحية المنارة، أول ضابط شرطة يتسلّم ذلك المنصب، بعد عشر سنوات من الاستقلال. ولم يستطع أن يخفي دهشته: «مكتبة! جوعانين وبدّهم مكتبة؟!».

ما فاجأه هو أن انطباعاته الأولى، وكذلك نصف آرائه، عن الذين يديرُ ناحيتَهم، كانت من طينة أخرى؛ ففي الأيام الأولى، بعد استلامه لمركزه الجديد، شعر أن رأسه تسمّم، من تكرار زيارات المجاملة التي قام بها رؤوس العائلات، لتهنئته بالمنصب الإداري. ضاق بالخطابات المحشوّة بالتعابير والكلمات المنتزَعة - كما خمّن - من معجم أكاذيب حاشد بالمراءاة، والنفاق، وُصف بها، (ودون أن يكون لدى أيٍّ واحد منهم، معرفة سابقة به) وزيِّن، ووُضع في مصافّ المصلِحين. لماذا؟ صحيح أنه يعرف تأثير الشرطة، كسلطة حاضرة في تماسٍّ مباشر مع حياة الناس، لكنه

لم يكن يتخيّل أن تكون قد تغلغلت إلى الوجدان الأخلاقي لهم، بحيث تضطرّهم لتكبّد كل تلك الوسائل، من أجل اكتساب رضا ضابط مجهول.

وحين تأمل، في مساءاته الأولى، البلدة، من شرفة منزله، لم يستطع اكتشاف أيّ معنى؛ فالمكان من حوله، وأمامه، بدا كتيماً، مغلقاً بتلك البيوت الحجرية السوداء المتكدسة. كيف يمكن لأيّ شخص، أن يفهم أسرار الحجارة المغلقة؟

ما استنتجه وما تعلّمه، في كلّية الشرطة، هو أن وجودهم ضرورة حياتية لضمان استقرار القانون. وقد خاض نقاشاً ساخناً مع شابٍّ التقى به، ذات مرة، في منزل حميه، حين سمعه يقول إنّ الشرطة أداة قمع تتذرع بالقوانين (وهي أساساً قوانين الأقوياء) دون أن تنفّذها. فسأل ذلك المأفون: ما الذي يفعله المجتمع، دون الشرطة، إذا تشاجر اثنان؟ أو أربعة، أو عشرون؟ كيف يمكن حماية الضعفاء؟ من يعيد الحقوق إلى أصحابها؟ من يضبط المخالفات، في أيّ مكان؟ إلى آخر تلك الأسئلة التي جعلت ذلك الشاب صامتاً مطأطئ الرأس. يذكر أنه قال، في آخر نقاشه، إنّ الشرطة، كالأنبياء، يأتون لمقاومة الفساد الأخلاقي والقيمي، في المجتمع، مع فارق أنهم يحملون العصيّ والخيزرانات، بدل الكتب والآيات والمواعظ.

وبسبب يقينه من الرسالة، ازدادت شكوكه بالناس، وفكّر في أن الشعور بالذنب وحده (وهو ذنب، أو ذنوب آيلة إلى أن يكتشفها) هو الذي يمكن أن يجعل الناس مرائين، كذّابين. وهذا يعني، بالضرورة، إذا ما استخدم الطريقة الأرسطويّة المدرسية وحدها، أنّ كل واحد هنا، مذنب حتى تثبت براءته. استنتاج منطقيّ طيّب أراحه. لكن الطلب الذي قُدّم قبل أيام، كشف ضعفه من جديد؛ فالتفكير بإنشاء مكتبة، من قبل بلدة فقيرة، متهالكة، تكاد تضيع على حافة الأرض، لغز غامض (وخطر) ينتهك جميع الأفكار الجاهزة، والاستنتاجات المبتكرة.

وأمامه على الطاولة البنيّة، كان الملفّ الذي أعدّه الرقيب بيرم، والذي يتضمن سيرة حياة أعضاء اللجنة، يزيد الأمر غموضاً؛ فالجماعة المؤلفة من خمسة أشخاص، لم يكن بين أفرادها، أيُّ معنى سوى كونهم أبناء بلدة واحدة. لم يكن قد قرأ التقارير بعد، وقد آثر أن يتركها لليل (وهو ليل طويل وموحش يرقد تحت وطأة صوت اللوكس المعلّق فوق رأسه، كاللعنة) لعلّه يتمكّن من كسر الهزيع الثاني المملّ منه، قبل أن ينام.

كالعادة، كانت الصفحات مكتوبة بخط شرطيّ، إذ تزدحم الأسطر، وتميل إلى الأسفل، أو إلى الأعلى، بلا نظام، وتأكل الكلمات الهوامش، وأطراف الورق، دون أيِّ اعتبار لأصول الكتابة. (وقد لام الرقيب أكثر من مرة، لمعرفته بأنه تعلّمها في مدرسة رتباء الشرطة بدمشق). وعلى الرغم من أن الرقيب (وكذلك أفراد المخفر الباقون) لم يُحسّن خطّه، فقد احتفظ الملازم بما سمّاه نقطة الضعف الضرورية، لتوبيخ مرؤوسه، في الوقت الذي يلائمه.

هذه المرة، تجاهل رداءة الخط، كي يلاحق المادة المكتوبة، بعد استطلاع جدّيٍّ وواسع، قام به الرقيب بيرم، من أجل استقصاء التفاصيل والمنمنمات الخاصة بكلّ واحد من الأعضاء الخمسة، وبضمن ذلك، محاولة معرفة ما إذا كان اختيارهم مرتبطاً بتقديس العدد خمسة أيضاً (وهي فكرة شرحها له الرقيب شفوياً، خشية أن تُفهم، ملغومة في النصّ الكتابي).

قرأ بضعة مقتطفات، من هنا وهناك، بغرض الإثارة، كما كان يفعل بكتب المطالعة. كان الرقيب قد كتب التقارير بروح إبداعية جمعت بين الأسلوب الشرطي البخيل المكثف، والروح المباحثية الرقابية المفصلة. وقد أشار إلى أن ترتيب الأسماء لا يخضع لأيّ قاعدة:

توفيق الخضرا – معلّم متقاعد:

في شبابه، رفض التعاون مع الفرنسيين الذين نجحوا في تجنيد عدد كبير من المعلّمين. وأغلبهم جاؤوا بهم من لبنان، والمحافظات السورية الأخرى، ليعملوا جواسيس لديهم. ويرجّح أكثر من مصدر أنه اتصل بمعظم الأحزاب التي بدأت عملها هنا، دون أن ينتسب إلى أيّ واحد منها، واستطاع أن يكون صديقاً للجميع. درس في مكتب عنبر في دمشق، بفضل معونة قدّمها له تاجر أقمشة جوّال كان يأتي إلى المنطقة، في العشرينيات، والثلاثينيات. لقبه «أبو معروف» واسمه الحقيقي «بدر الدين أبو عون». ونال شهادة «البروفيه» ثم عاد إلى السماقيات، حيث بدأ يعمل في حقل التعليم.

في عام 1948، اشترى بندقية، من داود العجيب، بثلاث ليرات ذهبية (وهذا مبلغ لم يستطع أيٌّ من مصادرنا أن يعرف من أين جاء به) ثم تطوّع في الجيش الأهلي الذي شُكّل للمشاركة في الحرب ضد اليهود، في فلسطين، وعرف باسم: جيش الإنقاذ. وقد أصيب هناك بطلقة في فخذه (يقول بعض العارفين إنها قنبلة ملأت فخذه بالندوب، وإن شظيّة منها مستقرّة بين عظمتين حتى اليوم)، أخرجته من المعارك. لكن توفيق الخضرا، لم يعد إلى السماقيات بعد إصابته. وهناك أكثر من سبب يجعلنا نعتقد أنه تزوج هناك، أو تورّط في علاقة عاطفية أثمرت ولداً، مما وضعه أمام معضلة خطيرة جداً. فالدّين هنا يمنع تعدّد الزوجات. ولديه في السماقيات، زوجة وثلاثة أولاد كانت أعمارهم كما يلي: خمس سنوات، وثلاث سنوات ونصف السنة، وثلاثة أشهر. ولا يعرف أحد، حتى اليوم، مصير زوجته وابنه (أو ابنته) في فلسطين. وحين عاد كان العرَج الخفيف في رجله اليمنى ظاهراً. ولكنه اختفى وتلاشى مع الزمن، بينما أخذ توفيق الخضرا يبدي اهتماماً بالقراءة، وصار يشتري

الكتب، ولديه في بيته مكتبة، لا نعرف عدد الكتب فيها. والملاحظ أن تلامذته (وهم جميع شباب القرية) يحبّونه. وبعضهم متعلّق به، وبأفكاره. (وقد شكّل هذا خطراً على العصبيات العائلية، وسبّب إحراجاً للزعماء، حين وجدوا أن عدداً من أبنائهم لا يشيلون وزناً لهذا الانتماء). ويشير المصدر (ع) إلى أن تلك هي أفكار الشيوعيين، أما المصدر (س) فيقول إن توفيق بعثي. ولكننا لم نعثر على أيّ برهان، يثبت أن الخضرا كان شيوعياً أو بعثياً.

حليم الزهر - فلاح:

متديّن، متعصّب، من جماعة الشيخ زرعة، وهو شيخ غريب خارج عن حدود تعاليم المذهب نفسه. وقد لاقى غضب مشايخ العقل أكثر من مرة، وأعلنوا إبعاده، في بيان مشترك. ولكنه تمكّن من استقطاب العشرات من الشبان المتحمسين، من حوله. وما يزال لديه أنصار كثيرون متفرقون، في أنحاء المحافظة. وفي سيرة حياة حليم، لم نعثر على أيّ سلوك غريب، أو شاذّ. وهو يبدي تعاوناً مطلقاً مع السلطات، ويحرص على استضافة دورياتنا، وتكريم رجالنا.

متزوج، وله بنتان. ويُرجح أنه لا يحب زوجته (ضحك الملازم هنا، وتمتم بحبّ: «آه يا بيرم... آه!») أو أنه يحمّلها مسؤولية هذه الذرية المؤنثة المكروهة. ولكنه لا يحب أخاه الصغير أيضاً. ولدينا معلومات تؤكد أن هناك أكثر من سبب: انتماء الأخ إلى حزب يكرهه (لم نعرف الحزب، فالأخ الصغير لا يظهر أيّ نشاط خارجي في القرية). تدخينه المستمر. شرب العرق (رغم صغر سنّه)، وكل هذه أهواء ومحرّمات يخوض حليم ضدّها حرباً شعواء.

يكره الكلاب أيضاً. وقد ساعد الرجال الذين كلّفتهم البلدية بقتل

الكلاب الشاردة، والمريضة. ولكن العجيب أن أسرته ما تزال تحتفظ بكلب رمادي كبير، يسمّونه «بارود»، متحدّين إرادة حليم - كما يظهر - ورغبته في قتله، أو طرده. ولم يتسنَّ لنا فحص ذلك الكلب، أو معرفة القدرات المهمة التي يدّعي عدد من الناس أنه يملكها.

بالمقابل، فإن حليم لا يترك فرصة، دون أن ينذر الناس بالعقاب الذي ينتظرهم في الآخرة، ويحاسبهم على كل صغيرة، أو كبيرة، وبضمنهم المشايخ البسطاء الذين يستغلّ أمّيّتهم، أو ضعفهم في القراءة، كي يوجه إليهم أقسى الاتهامات بالتزوير الديني، بسبب كلمة يقرؤونها خطأ، أو بالجهل (وهي صفة يستصعبها رجل الدين هنا، لأنها تحمل معاني شبه تكفيرية). ولديه مكتبة تضم عشرات المخطوطات التي أوصى عليها النسّاخين. وقال المصدر (ع) إنه دفع مئة ليرة ثمن مخطوط أحضروه له من لبنان. لكنه مزّق مرة، كتاب العلوم المدرسي لأخيه، حين رأى كيف كان ذلك الكتاب يشرح هطول المطر، دون أن يذكر مشيئة الله، أو يحلّل وجود القمر، ومداره حول الأرض، وراح يصرخ: «كفر! كفر!». وصار في ما بعد، يروّج لفكرة أن جميع الكتب الدنيوية (خاصة كتب العلوم والتاريخ والجغرافيا) إنما كتبتها نفوس شيطانية، غايتها إلغاء دور الله تعالى، وتثبيت قيمة إبليس. ونستغرب هنا كيف وافق على المشاركة، في لجنة تريد شراء مكتبة؟

هذا السؤال جعلنا نبحث عن صاحب الاقتراح الأول، بهذا الخصوص. وقد ادّعى كلٌّ من لقمان لقمان، وتوفيق الخضرا، وحليم الزهر، حقّ الأولوية. ولكننا نرجّح دور المعلّم أكثر من الرجلين الآخرين.

ملاحظة: احتفظ حليم بالمبلغ الإجمالي، المتحصّل من الرعاة، وقدره أربعة آلاف ليرة سورية، متباهياً بأنه رجل الأمانات الذي لا يمكن الشكّ بأمره.

عمار التوت (الملقب بالشوفير):

حين رجع من الهند الصينية، وجد أن أبويه قد ماتا، وأن إخوته الثلاثة قد تقاسموا إرثه بينهم، ظانّين أنه قُتل في الحروب هناك.

وقد تطوّع في الجيش الفرنسي، منذ أن كان عمره ثمانية عشر عاماً، وتدرّج في الرتب العسكرية، إلى أن وصل إلى رتبة سرجان. وفي ذلك الوقت، تمّ ترحيله إلى إحدى دول آسيا (نرجّح أنه كان في فيتنام، وأن خبر مقتله جاء بعد المعركة الشهيرة التي انتصر فيها الفيتناميون على الفرنسيين، حين تمكنوا من محاصرتهم، وسحق جيشهم، في مكان اسمه «ديان بيان فو»، ونتج عن تلك المعركة، القضاء على الوجود الفرنسي كله، في ذلك البلد الآسيوي). أما صفاته حسب المصدر (س) فهي أنه مشاكس، مشاغب، يحب المغامرات ويهوى الحديث عن النساء (قال مصدرنا إنّ عمار تباهى أمام شبّان القرية، بعد عودته، بأنه ضاجع ستين امرأة، في ثلاثة أشهر، وأنه عاشر إحدى النساء ست مرات، في ليلة واحدة).

واللافت أنه رغم تبجّحه، وزهوه، واعتداده بقدرته على الجماع، فقد ظلَّ بلا زواج. لماذا؟ قال المصدر (س) إنّ عمّار سُرّح من جيش المرتزقة بسبب الإصابة، في خصيتيه، مما أدى إلى عجزه الجنسي. ويمكن أن تكون المعلومة صحيحة، لأن الفحل لا يتباهى، بل ينطّ ويجامع. (يضحك الملازم).

وقد كان عمار منتسباً إلى فرقة فرنسية اسمها «الفرقة الأجنبية». وكانت كتائب منها في بلادنا، أيام الاحتلال الفرنسي البغيض. والمعروف أنهم جنود مرتزقة، بلا أخلاق، وبلا أصل، يسرقون، وينهبون، ويقتلون دون رحمة.

كما صادفنا أمراً غريباً في شأن عمار التوت، فهو لم يُظهر أيَّ حقد على إخوته الذين نهبوا حقّه في الميراث. سامحهم على كل شيء، وقال لهم:

صحتين، ثم ابتعد عنهم، واشترى أرضاً صغيرة، وبنى بيتاً، وزرع بعض الأشجار واتصل بعالِم فرنسي، يقال إنه ظلَّ في سورية، ليبحث عن بعض أنواع الحشرات ويسجل صفاتها وعاداتها وأسماءها، على دفتر خاص. لماذا؟ لا نعرف. وقال أحد مصادرنا وهو (س) الذي تعرّف إلى العالم الفرنسي، إن هدفه استعماري، وإن الاستعمار يريدُ أن يعرف، عن بلادنا، كل شيء. وقال إنه سمع عن عالم آخر كان يدرس الأحجار والتراب، وعالم ثالث، كان يدرس الحيوانات، ورابع يدرس الآثار... وهكذا.

عمار صار مساعداً له، وقدّم عوناً كبيراً، لأنه يعرف الفرنسية، وأمسى (أمسى يا بيرم!) يشجّع الأولاد كي يجمعوا له الحشرات من كل نوع، ومن أي مكان، في المنطقة، مقابل فرنك واحد لكل حشرة. وبهذا اكتسب رضا العالِم، ومحبّته، كما ربح تعاطف الناس.

المصدر (ع) اتهم عمار التوت بأنه نصّاب؛ فالعالم كان يدفع فرنكين للحشرة الواحدة (ودليله إلى هذا، أنه كان يزعق، ويرقّص يديه وتنفرج أساريره كلّما شاهد واحدة منها في يد ولد)، فيأخذ عمار النصف له، ويعطي النصف للأولاد. ومن المؤكد أن العالم لم ينتبه له، وظلَّ يتكل عليه، في كل صغيرة وكبيرة. ويقولون إنه آخى عمار في ما بعد. ويروي المصدر (س) عن الناس أن العالم الفرنسي، كان خارجاً لقضاء حاجة في العراء، فرشّه ضبع ببوله، وضبعه، فصار الرجل يركض وراءه، وهو يردد كلمات غريبة، وغير مفهومة. ومن حسن حظه، أن عمار كان قادماً ليسهر عنده، فطار إليه مثل الريح، ولحق به، قبل أن يدخل المغارة وراء الحيوان المفترس. وهناك ضربه، ثم شجّ رأسه، كي يستيقظ من انضباعه. فانتبه العالم، وأدرك أنه أُنقذ من موت محقَّق، فعانق عمار وقال له: «أنت أخي». والحكاية مثل الطرفة. وربما كان مصدرنا يخترعها من خياله. ولكنه أكّدها بالقول إن العالم الفرنسي وهب عمار سيارة اللاندروفر

التي كان يمتلكها، حين قرر أن يغادر البلاد، وأورثه أيضاً أثاث منزله كله، رغم أن عمار التوت أقسم أنه اشتراهما منه. وأخذ السيارة إلى دمشق، وأعاد إصلاحها، وصيانتها، وتأثيثها من جديد. ثم عاد بها بعد شهرين، وقد طلاها بلون رمادي جميل، ووقف وسط البلد، وأطلق أبواقها في الساحة. ثم دعا الكبار من أهالي السماقيات للصعود، ومضى بهم إلى السويداء، واستضافهم هناك في مطعم الساقية، ثم رجع بهم إلى البلد. وفي طريق العودة، غنّت صباح: «عَ العين يا بو الزّلف»، فكانت خاتمة مبهجة لهم. وصار يشغِّل السيارة بين السماقيات والسويداء، كل يوم. ولكن عمار السعيد، لم يكن يعلم أن المكافأة التي سيمنحها له أهل بلدته، ستكون تغيير نسبته إلى الأبد، من عمار التوت، إلى عمار الشوفير. لم ينفع غضبه، ولا اعتراضاته، فقد انطبع الاسم الجديد، في ذاكرة الناس، وترسخ على ألسنتهم، وتأكد بالاستعمال اليومي، حتى صار يشبه نفسه.

الطريف بخصوص تقريرنا، أن إخوة عمار، هم الذين رشّحوه ليمثِّل العائلة في لجنة المال. والظاهر أنهم أرادوا أن يعوِّضوا أخاهم (بعد أن ابتلعوا إرثه) عن ذلك، بعباءة الزعامة. وقال المصدر (ع) إنّ الإخوة، أرادوا استرضاء عمار، وتملّقه، خائفين من أن يورث أملاكه (أو يهدرها كلها) لغيرهم، وأنهم صاروا يتقرّبون منه، ويحاولون استمالته، واسترضاءه، واكتساب ودِّه المفقود، بجعله شيخاً لآل التوت. ولدينا قرائن تؤكد أنهم أقنعوا سليمان التوت الذي يكبر عمار بخمسة عشر عاماً، بأن يسمح له بالدخول قبله إلى الأمكنة العامة والخاصة، والكلام قبله، في اجتماعات العزاء، والجلوس إلى المناسف، ومخاطبة وجهاء العائلات الأخرى، باسم آل التوت.

ومنذ أن صار عضواً في اللجنة، بدأ يتحدث عن محبّته للكتب، منذ

صغره. وقال إنه كان يقرأ بالفرنسية أيضاً، وذكر أسماء فرنسية ادّعى أنها أسماء كتّاب معروفين. ولكن أحداً لم يعثر في بيته، على قصاصة ورق، باستثناء حسابات السيارة، ودستة من أوراق اللعب.

لقمان لقمان:

في شتاء عام خمسة وخمسين، قرع باب بيت لقمان لقمان رجل غريب، يسأل عن منزل «أحمد السماقي»، فقال لقمان إن أحمد هذا غادر البلد، منذ أكثر من ثمانية أشهر، مهاجراً إلى البرازيل. ودعا الرجل للدخول، وألحّ في دعوته، حين لاحظ أنّ رفاقاً له ينتظرونه في سيارة صغيرة، تقف عند طرف البوابة. قال: «معك ناس؟». قال الغريب: «نعم، زملاء». وهي كلمة غريبة عن أسماعه، جعلته فضولياً أكثر، فخرج إلى الشارع، ودعا الرجال للنزول: «أنتم في خربة يعني؟»، وكان غضبه كافياً لجعلهم يسرعون بالنزول، وهم يعتذرون عن ذنبهم.

وهكذا، استضاف الرجال الأربعة، وذبح لهم خروفاً بلا إبطاء، ثم أرسل ابنه، يدعو أهل القرية، إلى العشاء.

فعل ذلك بصدق العادات، لكنه لم يفسح المجال لأحد، كي يشرح للغرباء – ومن بينهم مدرس تاريخ من السويداء ذاتها – مغزى مجيء ذلك العدد الكبير من الناس، إلى مضافته، تاركاً لهم أن يستنتجوا ضخامة سلطته وحدهم. خاصة حين عرف أنهم يمثّلون الحزب السوري القومي، وأن زيارتهم إلى أحمد كانت بقصد التنسيق لعمل حزبي واسع، في المنطقة كلها. وهكذا، لم تنتهِ تلك الليلة، حتى كان لقمان لقمان قد صار المسؤول الأول عن منظمة الحزب، في السماقيات، وجوارها من القرى.

وأثبت لقمان صحة الاختيار، حين نجح، في وقت قياسي، في تحقيق حضور قياديّ راسخ داخل البلدة، وتمكّن من تجنيد أربعين شاباً ورجلاً

في صفوف الحزب، وأنشأ خليّة عسكرية، وكلّف العريف المتقاعد شاهر الخميري، بتدريبهم على استخدام السلاح، مستبدلاً بالبنادق العصيّ.

ويقول المصدر (س) إنّ لقمان تغيّر تماماً. صار جاداً، وخشناً أكثر، وامتلأ بالحكمة، حتى صار يفاجئ أتباعه، ورجال حزبه، بعبارات ثقافية عجيبة. وقال المصدر (ع) إنه صار يقرأ كثيراً، وخاصة تلك الكتب التي يزوّده بها الحزب، ومنها مؤلفات زعيمه أنطون سعادة الذي أعدمته الجمهورية اللبنانية.

وازداد إعجاب الناس به، حين علموا أنه سيكون مرشحاً للمجلس النيابي. وكانت الشائعة وحدها، كافية لإثارة نقاشات تجاوزت طاولة الاجتماعات وتسرّبت إلى شوارع السماقيات، والمنارة، والحفائر وغيرها.

قال المصدر (س) إن لقمان سمع الشائعة، مثلما سمعها غيره، ولكنه صدّقها أكثر مما فعل غيره، فتقبّل المباركات كنائب عن الشعب، وصار يفرح مثل الأطفال، إذا هنّأه أيّ واحد، ويقول إنّ مقعد البرلمان صار تحت إليته. وبدأ يولم للناس، ويتجوّل في المنطقة، ويزور وجهاء العائلات، ويطلب تأييدهم له شخصياً، إذا كانوا لا يؤيدون الحزب. وغيّر أسلوبه مع رجال الحزب، وخفّف من الصرامة العسكرية التي اتصف بها من قبل. ولكن الحزب لم يرشحه للانتخابات. وأعلن هو نفسه ذلك، مظهراً انضباطاً غريباً. وأخذ يختلق الأعذار للحزب، ولنفسه، ومنها أنه اكتفى بسعادة الشائعة، دون تطبيقها.

المصدر (ع) قال إن لقمان كذّاب، وإنه حين اختلى بنفسه يوم الانتخابات، اكتشف أنه لا يساوي قشرة بصل. فالرضا الذي أعلن عنه لم يكن سوى ادّعاء مزوّر، يخفي وراءه قهراً بدّد نصف قوته. أما أفكاره عن السعادة فهي ترّهات. وهكذا استمر في موقعه القيادي، دون حماسة، ثم بدأ بعد شهر يعاني آلاماً في البطن، وأصيب بعسر في الخروج، كاد يقضي

عليه، وامتلأ شرجه بالبواسير. وقد كابر وقال لسالم علي إنّ مشاغل الفكر، هي التي سببت أوجاع المعدة. ولكن قادة حزبه وبّخوه على خموله، وكسله، وانتحى به شاب منهم ذات يوم، وقال له إن عليه أن يرتفع فوق سفاسف المناصب والوجاهات.

ارتعدت ركبتاه؛ فالواعظ الشاب لم ينبت شعر لحيته بعد. وقال له في نفسه: «تعلّمني يا مخنّث!». ولكن كلام القائد الشاب سبّب له الكمد، ودمّر مزاجه، وأسهلت معدته هذه المرة، وانهار تماماً، بعد أن أمضى ثلاثة أيام، في ضيافة المرحاض.

وحين شُفي، بعد أن أكل نصف كيس من الرز والبطاطا، ذهب إلى القيادة، وقال شفهياً: «أنا مستقيل»، فقال الرجل المسؤول، الذاهل من القرار: «ليش يا بو علي؟».

فهزّ رأسه بضع هزّات، ثم قال: «من كثرة الخراء».

لكنه لم ينجُ تماماً؛ فالنبأ وضعه في زحام من الأسئلة، والاستفسارات: لماذا، وكيف... الخ.

لم يكن الرجل مستعداً لمواجهة الناس الذين لا يقبلون النتائج الجاهزة، إنما يحاولون أن يحفروا تحت الصدور، فاضطر أن يعتزل في بيته، ويغلق مضافته متلهّياً بشرب العرق وحيداً، تصحبه حبة بندورة، وقليل من اللبن الناشف. ولكن الكارثة كانت بانتظاره، بعد ثمانية أشهر. فانفصاله عن الحزب، لم يَعْنِ أبداً أنه انقطع عن الماضي. وقد ظلَّ اسمه مثبتاً في أرشيف الشعبة الثانية، كأحد القادة البارزين. (كان واجبه أن يتقدم ببيان وضْعٍ يوضح فيه انسحابه، ويعلن رفضه لأفكار الحزب، وينتقد نفسه حسب المقتضى). وهكذا وجد داره محاصرة بسيارتين وعشرة رجال، بعد مقتل العقيد عدنان المالكي، برصاص أحد عناصر الحزب في دمشق. ورأى نفسه مكبلاً بالحديد، يساق إلى السجن. ولم تنفع هتافاته، ولا

أيامينه، بأنه استقال. وقال لسالم علي، صديقه في ما بعد، إنه حين قال: أنا مستقيل، أول مرة، قال جملته هذه بكبرياء وفخر. لكنها أمام رجال الشعبة، امتلأت بالمرارة والجبن (الحقيقة أننا لم نفهم سبب جملته هذه). وتحوّلت بفعل رطوبة السجن (الظاهر أن الشعبة الثانية وضعت لقمان في زنازين الشرطة العسكرية، لا في سجن القلعة) إلى فراغ أكل كل ما لديه من قوة. وحين خرج، قال إنه مشى في طريق ليست طريقه، وغشَّ في الحياة، ونشر دخاناً من غير نار، وكان المصدر (ع) حاضراً في مضافته، حين قال له توفيق الخضرا إنّ ما ناله من عقاب (وكان يكشف ظهره ليريه آثار الكرابيج) لم يكن بسبب خروجه عن نص الحياد اللائق بالمواطنين الصالحين، بل إشارة إلى أن الحرية انتهت إلى الإفلاس، وأن لا حصانة لمن يسمى ابن آدم في هذه البلاد. (وهذه ملاحظة هدّامة كما تلاحظون، سيدي!).

ولكن لقمان صار يضحك، وقال له: «شبعت من هذا الكلام يا توفيق!»، وانقلب بعد ذلك، فصار يسخر من كل شيء. وركّب من عنده كلمتين صار يستخدمهما ليصف أي شيء: «كلّه بعر!».

سليم الصخري، معروف باسم ابن مالك:

لم نعرف بلده الأصلي. وهو يقول إنه من الصخرات. ولكن المعروفين أنكروا ذلك. ولم نجد له أباً ولا أماً ولا إخوة. وليس لدينا أي معلومة عن سبب تسميته ابن مالك. وهناك احتمال أن يكون من قرى حلب أو من جبل لبنان، لأن في لكنته، ثلماً يعوج فيه الكلمات. وربما قد قتل شخصاً في بلده وطُرد إلى هنا. ثم تزوج فتاة من آل الهراس. وهي امرأة سمينة جداً، وقوية، وتأمره حتى صار خاتماً في إصبعها. ولكن ابن مالك مثل الحرباء، لا يمكن أن تعرف وجهه. يقبل رأي الأقوياء. ولم يجازف مرة

واحدة في مخالفة أحد. ولا يكفّ عن نقل الكلام من شخص إلى آخر. ويطلقون عليه في السماقيات لقب «الفَسَدي» أو «الحريكي» ومعناه أنه مفتاح شرّ. ولاحظنا أن اسمه يتكرر في ضبوط الشرطة التي تحقق في المعارك الأهلية، دون أن يدان في أي مرّة. وأخبرنا المصدر (س) أنّ ابن مالك رفض، قبل عشر سنوات، أمراً من لقمان لقمان، بحمل محصول الحشيش الذي كانت تزرعه البلدة، لبيعه في الأردن أو لبنان، حين منعت الحكومة الوطنية، بعد الاستقلال، هذه الزراعة الخبيثة. وأن لقمان قال له: «إنت لا تكلفني سوى ثمن فشكة»، وكان يهدده بالقتل. ولكن ابن مالك قال إن القرش الذي سيدفعه لقمان، أفضل من مئات الليرات التي يمكن كسبها من تهريب المخدرات. وانتهى الموضوع بإحراق المحصول حسب ما علمنا، أو تهريبه من قبل آخرين، لم يشِ بهم أحد.

بعد ذلك، كان نهج ابن مالك، هو مسايرة الجميع، وأن يبعد عن الشر ويغني له، كما يقول. وهذا هو الخلق الحرباوي، كما يقول الناس هنا. ولكن الرجل لا يوضح موقفه أبداً. ونؤكد أنه اختير لهذه المهمة من قبل أنسبائه آل الهراس، الذين أرادوا وضع لغم داخل اللجنة.

2

آب 1959

اختفت محمودة!

وطوال سبعة أيام، ظلَّ كريم يكرِّر مجيئه ليلاً، إلى الحوليات العالية، ليختبئ وراء الصخرة البيضاء الكبيرة، ويطلق نداءه الكلبيّ، المغزول بأناقة تشبه أناقة الثعالب. منتظراً أن يراها تأتي - كما كانت دائماً - منسلّةً، راكضة، عبر الرواق الحجري المسقوف، قافزة كأرنبة إليه.

غير أنها لم تأتِ، وراحت نداءاته سدى: عووووووو!! وزاد في ارتباكه، أن بارود، كلبه، توقف عن الاستجابة كل الوقت، وفضّل الوقوف هناك في الأسفل، بلا حراك، تحت القشرة الخشبية المتبقية من شجرة التين المنخورة، يراقبه بحذر، دون أن يشارك - كما كان يفعل دائماً - في المؤامرة الطيبة التي اتفقا عليها منذ سنوات، لتزوير النداء البشري، كي يظهر دائماً، في أسماع الناس، على أنه صيحة ثعلب جائع وحيد، يحدّق في العتمة، بحثاً عن صيد.

وبانتفاضات الأمل واليأس، تغيّرت نبرة صوته: في البداية، أخذت شكل الاستغاثة، فصارت تطول، حين يستخدم الواوات المديدة، المستفيضة، أو تقصر، وتتكسّر، حين يجهر بالعَيْنات وحدها، ليفصح عن

غلّته، أو ضرامه إليها، ثم راحت تتبدد، وتضيع، حين لم تستجب محمودة لأيٍّ من تلك النداءات. «من شان الله!» كاد يصرخ في الظلمة الصامتة، رغم أن الكلمات كانت خارج معاهدة الحب التي عقداها. وقد فكر، أكثر من ذلك، بتسلّق الحائط الحجري المحاذي لوادي الزبدة، والاقتراب من المنزل، أو التسلل زحفاً، أو دَبّاً، لمعرفة سبب الغياب.

وما حيّره أن امرأة ناحلة (لم يرها من قبل) كانت تظهر في الباب، وتتطلع إلى الليل، ثم تعود، تاركة وراءها رائحة تساؤل. من هي؟ لم يعرف.

وفي النهارات، لم يجرؤ على السؤال العلني عنها. وهذه واحدة أخرى من بنود الكتمان، التي أقسم لها أن يلتزم بها، فضلاً عن أن أي إشارة علنية قد تخلّف وراءها تساؤلات وشبهات، لا يعرف نتائجها أحد.

وبسبب هياجه، كانت يده ترتجف أثناء حلاقة ذقنه، فصار خدّاه مثخنَين بجراح صغيرة متشابكة. وقد احتاج إلى جرعات زائدة من السجائر، زادت عن ستّ لفافات، كان يدخنها وحيداً، داخل خراب الغربان، في الوعر، وهو يفكر في سبب احتجاب محمودة عنه. هل ارتكب ذنباً بحقّ الهوى؟ لم يجد جواباً، ولم تنفعه المرأة التي كانت تكتفي، كل مرة، بإطلالة نبيلة، على مشارف المكان الذي يشغله عواؤه الأزرق المعطوب. لم لا تردّ؟ مرّة واحدة تجرّأ، واخترق الحي. وأدهشه أنه لم يلتفت نحو منزلها. لماذا؟ هل هو الخوف؟ أم الحياء؟ أم الكبرياء؟ أم الحذر؟ لا يعرف. وقد أجّل المحاسبات، خدمة للخطط. وسارع ليلاً، يحاول تعويض الخسارة، بإطلاق سلسلة من النداءات المدنفة التي ضمَّنها حروفاً من اسمها. لكن المنزل ظلَّ صامتاً يأبى أن ينطق. وفي الليلة الرابعة، مشّط الصخرات، مغامراً بالظهور في ضوء القمر. ثم انتحل صوت ذئب، وعوى في الفضاء، ولكن دون جدوى. ثم كاد، في الليلة الخامسة، يمضي إلى بيتها، ليقدّم نفسه إلى أمها: أنا كريم الزهر! نعم. ثم ماذا؟ سيقول: اسمحي لي أن أطلب يد

محمودة. ثم فكر أن الفصحى بلهاء، عاجزة عن إظهار الحب. سيقول إذاً: «أنيْ بحبّ محمودة، وما بقدر عيش من غيرها. وبتمنى توافقي على زواجي منها». وهنا يمكن أن يظهر كمذنب. ومن وين بتعرفها؟ عندئذ لن تكفي لغات الأرض كلها لإثبات البراءة. ألغى الفكرة، وعوى عواء كثيفاً حمَّله أشواقه، واحتجاجاته. لاحظ مرور رجلين في الطريق المحاذية للوادي، وقفا برهة، واستمعا إلى العواء. فتدخّل بارود حالاً، ونبح، متجهاً نحوهما، مغامراً بأن يصاب (إذ تطامن الرجلان، وجمعا حجارة، وقذفاه بها) ليحرف انتباههما. وقد نجحت مبادرته، وانشغل الرجلان به، وطارداه. فمرق بارود من وراء شجيرات الصبار التي تحمي منزل محمودة، من جهة الشمال، واختفى هناك. تخيّله كريم يربض في العتمة، يراقب الحركات المريبة، ثم يتسلل عائداً إلى موقعه الحارس، بعد انصراف الرجلين اللذين لم يعرفهما، بسبب الظلمة والأسى. ماذا يفعل بعد ذلك؟ هل يقترب من المنزل أكثر ليحاول أن يرى؟ سيكون هناك احتمال أن يُرى. وسوف يكون قد خرّب كل شيء، لا بسبب الارتباك الذي يمكن أن يسببه تسلُّل رجل إلى منزل نساء وحسب، بل لأن الرجل من آل الزهر أيضاً. هذا إضافة إلى استعداد محمودة لإنكار أيِّ علاقة بينهما، كما أوضحت له دائماً، إذا تعرضا لأي خطر (وهذا ما لم يفهمه في موقف العشق). كيف إذاً، إذا كان هو صانع الخطر؟ لا يمكن. وعلى كل حال، فإنّ طباعه لا تعينه. ولن يستطيع مواجهة فضيحة بهذا الحجم، تصيّره لصاً، أو بصّاصاً، يحاول سرقة نظرات من جسد امرأة (وهي دوافع حاضرة في القرى، يعرف الجميع أنها وراء المجازفات الداعرة التي يقوم بها الفتيان المراهقون).

اكتفى بالعواء، يحرث به المكان طولاً، متجاهلاً أن صراخه لم يمسّ شيئاً، وأن البشر، هناك في منزل الحبيبة، أغلقوا أسماعهم عنه.

وخُيِّل إليه أنه يسمع أنيناً، في الليلة السادسة. هل حبسوها؟ هل

اكتشفوا علاقتهما؟ كيف؟ هل باحت بحبّها لأحد ما؟ لكن هذا لم يكن من طباعها. وقد ظلت دائماً، تبدي حرص نملة، على صيانة الكلمات أو الحركات أو اللقاءات، من الانكشاف. فما الذي استجدّ كي تفرّط بالحكاية؟ لم يبقَ إلا أن يكون عابرٌ ما، رأى لقاء بينهما، ووشى بهما. وهذا يعني موت قصتهما. شعر بالرعب من ذكر الموت. هل يمكن أن تكون محمودة، لا القصة، قد مضت إليه؟ هذه المرة، عوى بصوت ليليٍّ لائق بالجنون: محموووووودااااه!

كان عليه أن يهلع على نفسه أيضاً. فالمصادفات، أو الله، وضعا في طريقه ابنة آل لقمان الذين لم يعرفوا، منذ أكثر من قرن، مصاهرة غريبة واحدة. وقد تمردوا ضد الأقدار، بحيث إنّ زواج القرابة الذي التزموا به، لم يترك ندبة واحدة في تاريخهم. وقد جادل شريف لقمان (وهو زميله في الدراسة) أستاذ الأحياء، بلا توقّف، ليدحض تلك النظريات التي يذكرها عن أضرار الاقتران المتواصل بين أبناء العمومة، بالمثال الناصع للعائلة الناجية. والأغرب أنهم فضّلوا أن تظل بضع نساء، من بينهم، عوانس، على أن يصرن زوجات لرجال من خارج الدائرة الدموية. وهكذا، ظلت الطرق الذاهبة إليهم مغلقة، كما كان يردد أبو علي لقمان، مشيراً إلى جغرافيا حيّهم، وتاريخ تقاليدهم. وبفضل العزلة، استطاعوا أن يحققوا نجاحات محلية جديرة بالمباهاة: فباستثناء الموت، والزواج، لم ينتقل من ذلك الحي، أيُّ خبر، أو خلاف، أو مشاجرة. مثلما لم تخرج امرأة. وقد فكّر كريم، أكثر من مرة، أن زواجه من محمودة، سيكون خروجاً أو تمرداً خطيراً في خط الشجرة المحسوبة، يمكن أن يسجل في الشهادة الكفاحية له. وتراءى له، أن انتشال تلك الفتاة التي ظلت تعلن ضيقها من تسويات التقاليد (وقد ذكرت مرة، شيئاً عن السجن) سيكون ثورة ضد خيلاء الفحولة والنقاء التي يبديها آلها المتفاخرون.

لا. لم يكن هلعه على نفسه، وإنما على الانكشاف المبكر لعلاقتهما (كان يهوى أن يسميها حباً)؛ فقد سبق خطة التنفيذ التي أجّلها راضياً، منتظراً قرار محمودة، فما الطارئ؟ لمَ يختار القدر فسخ عقدهما قبل أوانه؟ لمَ يفسخه أساساً وهما لم يفعلا شيئاً سوى أن يتحابّا؟ وفوجئ أنه يحيلُ ما يحدث إلى الأقدار. وشعر بالخذلان، حين وجد أنّ استنتاجه يعفي المحيطين بمحمودة (وهم سجّانها في الحقيقة) من السؤال.

غير أن الأمل ألغى الظنون. ومع أن محمودة لم تظهر، ولم تُجب على نداءاته، بأيّ إشارة، ولم تقدّم علامة واحدة تدل على وجودها، فإنه لم يتوقف عن اليقين بأن شيئاً ما، سيحدث. فظلّ يرسل عواءه معدِّلاً، كل مرة، شكل الصرخات: عووووه أو عوعوعوعو أو عاوووو. وقد استهواه ذلك، فانشغل في الليلة السادسة، بإحكام المخارج، ومراقبة اختلاجات الحنجرة، ورُقي الحروف، بحيث بدا أنه صنو ذئب، أو دليل بنات آوى، مولع بفنون الصوت.

وفي الليلة السابعة، بدّده الاشتياق، ولم يدرِ ماذا يفعل، فنداءاته بُحّت من التكرار، وأتلفها البرد. وقد أشرف الوقت على الانتهاء، ولن يستطيع العودة إلى البلدة، قبل نهاية الأسبوع التالي. فقد مضى أسبوع على افتتاح المدارس، وصار مرغماً على الذهاب إلى السويداء، خاصة أن والده بدأ يرتاب في خروجه الليلي المتواصل، وغيابه المستمر عن البيت، ويحذّره من متاعب سنة البكالوريا التي سيواجهها هذا العام. فيما كانت أعذاره تضعف، وترتطم بمطالب أخيه الكبير حليم الذي عنّفه صباح يوم الجمعة.

كانوا يتناولون إفطارهم، وقد لاحظت أخته زينب شروده، وبلباله، فقالت بلا حسابات: «مين أخذ عقلك يتهنّا فيه». لم يجب، ووقع الخبز من يده، فشزره حليم من وراء حاجبيه الكثيفين، وقال: «آه!» ساخراً، ثم أضاف معلّقاً: «إذا ظل عند خيّك عقل!». لم يقل كريم شيئاً، واكتفى بالتحديق

إلى وجه أخيه، ثم حكّ أرنبة أنفه، فثار حليم، وقال: «احمل الخبز وبوسو وحطّو على راسك!»، فتراجع كريم إلى الوراء، وغمغم: «شبعت». ونهض ليغادر الغرفة. فجأة وثب أخوه، وصار أمامه، يسدّ طريق الخروج، وصرخ: «شبعت! ما بتقول الحمد لله يعني؟»، ثم أمسك ياقة قميصه، وهتف آمراً: «قول: الحمد لله، قول: الحمد لله!»، قال كريم: «الحمد لله»، فدفشه حليم وعاد إلى طبق الطعام، وهو يدمدم: «يا كافر! يا ملحد!».

ران صمتٌ ميّت. ولم يعد أحد يأكل سواه، فصرخ: «كلوا!». مدّت خيرية، زوجته، يدها إلى المائدة، وانكمشت ابنتاه، وطأطأت زينب رأسها، فيما كان عبود الزهر، والدهما، ممتقعاً، يراقب الصدوع الغريبة التي لم تتوقف عن التوسع، لتشطر بيته، منذ أن افترق طريق ولديه؛ فقد انضم حليم، قبل سنوات، إلى جماعة «زرعة»، وهو اسم داعية غريب، لم يعرف أحد من أي مصدر جاؤوا به. وقد زاد ذلك في خفاء صاحبه الذي لم يعرف عبود شخصاً واحداً يستطيع أن يقدّم معلومة مفيدة عنه، فيما تمسّك أنصاره، ومنهم حليم نفسه، بالامتناع عن تسريب أوصافه البشرية، مكتفين بالكلام عن حضوره الروحاني، وثقله الرسولي. وثابر هو على «الغيبة» منذ أن فشل في حملة التحذير الشهيرة التي قام بها، من أجل الإعلان عن قرب يوم القيامة، في يوم صيفي حار، مرَّ، بيسر، وسلام، دون أن يعلن الله فيه عن أيّ شيء.

يذكر عبود أن الفشل لم يزعزع إيمان حليم، وملأه، بدل ذلك، بالغضب، لا من إلغاء القيامة، بل من انحلال الروابط والمعاهدات التي أقامها بعض المذعورين، مع الله، وأنبيائه، بعد نهار واحد من ذلك الموعد الرهيب الذي لم يأت. ما يعرفه هو أن حليم حوّل اتجاه الدعوة، من التبشير بالآخرة، إلى الدفاع عنها. وحين عرف أن شيخه تعرّض لنقد هازل من ثلاثة شيوعيين، عنّفوه بسبب ما سمّوه «التضليل»، صرخ: «والله

غير أدوس رقابهم». لكنه عدّل قسمه، في ما بعد، حين رأى أن أحدهم، وهو عدلي السند، يمكن أن يصرع أربعة رجال معاً، واستبدل به الحقد والدعاية ضد تلك الفكرة التي تنكر وجود الله، ولا تؤمن إلا بالحجر. وزاد في سخطه، أن شقيقه الأصغر، انتمى إلى حزب أولئك الأشقياء، في غفلة من زمنه، وكان يردد إن المدارس هي السبب، خاصة أن كريم ناكفه أكثر من مرة، بذلك الشك الرعديد بوجود الخالق، والتأكيد الوثني على تقديس الطبيعة.

كان عبود خلال ذلك، يظن أن خلافهما لا يزيدُ عن تناحر صبياني، يحاول كل منهما، الانتصار فيه، من أجل إثبات الحق في سلطة، ظلَّ كريم يرفض الإقرار بها، منذ بداية صباه. ولكنه، بدأ يحمّل نفسه مسؤولية التقاعس عن حلّ صراعهما. وها هو ينتفخ، ويمتلئ بالدمامل أمام عينيه. وبسبب رعبه، من انفجاره، استعجل تقسيم إرثه بينهما، ليأمن اقتتالهما بعد موته، من جهة، ويضمن، عدم انتقال شبر من أرضه، إلى صهره المحتمل الذي لم يظهر بعد.

ما لم يعرفه، هو أنه، ما إن قرر منح أرض السماق لكريم، حتى كان قد أشعل، بيده، نار قابيل في صدر حليم. فتلك الأرض، كانت القطعة الوحيدة، من بين أملاكه القليلة، التي تضمُّ شجرتي زيتون ضخمتين معمرتين. كان الجد الأول هو الذي زرعهما، منذ أن وصل إلى السماقيات، قبل مئة وخمسين عاماً، حسب تواريخ شجرة العائلة. الحكاية التي أشاعها أبناؤه، هو أن الشّجرتين كانتا رمزاً للذكر والأنثى اللذين أنجبا الأسرة، وأورثاها اسمها الجديد المتفرّد، واستقلالها القوي الذي جعلها شامخة؛ فلم تضطر أبداً، للالتجاء إلى الأشجار الكبيرة، من العائلات القوية.

أعداء العائلة قالوا إنّ الزهر الأول غرس الأشجار، ليعلن فلاحيّته! فالأشجار كانت آنئذٍ، دليلاً على الضعف، في زمن كان السيف سيّدَه.

وقد استفاد مفسّرو الظاهرة من اسم العائلة الذي نسبوه إلى تلك الوريقات الطرية التي وسمت تاريخهم كله.

ردَّ الأحفاد بأن الجد اختار أن يزرع الزيتون، كرمز لقراره بالبقاء في هذا المكان الذي يفخرون بأنه الأقدم (رغم أنهم يسكنون أطراف البلدة). وبمرور السنين، كان كل جيل يرثُ هذا السجال، ويضيف إليه حكاية جديدة، فيما كانت الشجرتان تكبران معاً، بفارق طفيف وغريب، هو أن إحداهما، شقّت جذعها، ووسعته حتى صار بإمكان طفل، المرور منه. هل كانت أنثى فعلاً؟ لم يستطيعوا فكّ شفرة أسرارها؛ فالثمر الذي كانت تطرحه، كان مزوّداً، مثل ثمر أختها، بشوكة جارحة في نواته، جعلته يبدو مثل ذكر منتصب، أو كإشارة إلى الرغبة المحصّنة بزيت الحياة.

حرب حليم ضد كريم، بدت للأخير، محرجة دائماً، حين عجز عن شرح أسبابها، أمام مسؤوله الحزبي الذي كان يلتقيه في السويداء، كل أسبوعين. فالمنطقي في رأي القائد، أن يتمكن شاب مثل كريم، من إقناع أخيه الأكبر شبه الأميّ، بأن الاشتراكية (وهي التلطيف اللغوي لكلمة الشيوعية) جنّة الفقراء. وقد زاد حرجه أكثر، حين صار مالك أرضٍ رغم أنفه. وهو الوضع الذي هلهل موقفه أمام قائده الذي كان يردد بأن الملكية الخاصة أمُّ شرور العالم. فأراد، أكثر من مرة، في مسعى لإرضاء المعتقد والانتماء، أن يتخلى عن أرض السماق، وعن الأراضي الأخرى، لأخيه، لولا زينب أخته التي ذُعرت: «ولك أنت مجنون؟»، ثم حدّقت إليه، وطعنته بسؤال شكّاك: «ولك منافق؟». فلم يدافع عن نفسه، ليس لأنه لم يكن كذلك (لم يكن هكذا أبداً، كما فكّر)، بل لأن إيضاح الدوافع الحقيقية، أمام زينب، كان حماقة. فالأخت الكبيرة التي أغوتها العنوسة بالمواريث، لن تفهم كيف يمكن أن تكون الملكية الخاصة سلّماً للضغائن، أو أصلاً للفظاعات. كما أنها لن تتمكن من إدراك روح البراءة التي تقوده، من أجل

تطهير النفس، من الرذائل اليومية، كما كان يقول لصديقه مسعود شمال، كل مرّة، وهو يستعيد مناكدات أخيه، ومساعيه المتواصلة لزلزلة كيانه، بسبب إرثٍ صغير لا يزيد عن ألف متر مربع. وسوف يضيف إلى هذه النقيصة، قمامات أخرى، مما سمّاها «الأشياء العابرة التي تشعل حروب الناس»: مقتل علي من أجل ساقية ماء، موت فرحان بسبب شربة ماء، جرح سالم في هوشة الدجاجة، رحيل آل العجل... كما أن زينب لن تستطيع أن تقبل انشقاق الأخوَّة، بسبب صراع الأفكار.

حليم ظلَّ ينكر التهمة الأولى. وقال إنها منحطّة، لا تليق باستقصاءاته اللادنيوية. وذكّر أخته أنه كان عليها، بدل أن تزيد نار الكراهية، لدى شقيقهما الأصغر، أن تغذيه بلهب الحياء، وزبد الحكمة. كانت تنظر إليه فاغرة، بنصف عين، وهي ذاهلة من تلك العبارات التي تزدحم فيها الصور، دون أن تعلم أنها كانت آخر محفوظاته من كتاب مواعظ ذي النون المصري، إلى أن أرغم أسرته، في المساء، عدا أبيه وأخيه، على الاستماع إلى قراءاته من الكتاب، من أجل تطبيق غاياته النبيلة.

ما جاهر به، هو عداؤه للحزب، حين أعلن أخوه أمامه، أن الطبيعة مخلوقة منذ الأزل، وأن الله فكرة بشرية محضٌ، أما الجنة - التي لن يجدها حليم بعد الموت - فسوف تكون هنا على الأرض. دفقات من الأفكار المتلاحقة، كان من الصعب عليه، أن يردّ عليها بالإيمان المباشر. وزاد في غضبه، أن والده كان يبتسم، وهو يرى صغيره يشوّش أفكار الكبير، أو يقتحم تحصيناته، دون أن يتمكن من صدّه: «ماذا كان يفعل الله، قبل خلق الإنسان؟ إذا كان قدّر علينا أفعالنا فلماذا يحاسبنا؟». ماذا يقول له؟ ولماذا يفرح الوالد، رغم أن كريم كان يردد كلمات وأسئلة كفر؟ لم تقنعه حجج أبيه، من أن «الولد» (وهو الاسم الذي كان يسمي به كريم) ما يزال جاهلاً وطائشاً، وكلامه في رأس قبعته. وقد عجز عن مواجهة تلك المفردات

التي كان يأتي بها كريم، مرفقة بالبراهين، والثبوتيات المرئية، كي يلغي بها مجموعة النواهي التي كان حليم يرسّخها في المنزل، بلا منازع، في الماضي.

وفي يقينه، أن الفتى يغلبه. ولم يكن لديه سوى سلاح الإنذارات الأُخرويّة، يهدد به أخاه بالجحيم الأبدي والنار وغضب الله. وشعر بالخذلان، حين سمع أنهم يخططون في الاتحاد السوفييتي للصعود إلى الفضاء في صاروخ كوني. «ملاحدة، كفّار، كذّابين!» كان يصرخ أمام الراديو الذي يذيع تلك الأنباء، أو في وجه الناس الذين يكرّرونها.

وفي غياب كريم، كان يصبُّ كراهيته، على بارود، إذ سمع نتفاً من أخبار ذلك الكلب الذي كان يقدّم خدمات خطيرة لشقيقه (هذا إذا لم ينسَ ولاءه المطلق له وحده)، فبدأ يطارده في أي وقت، ويرميه بكل القذائف المهينة: حجارة، ماء وسخ، طين، حزام جلدي، رسن حمار، حجر مقلاع، أو يشتمه.

كان الكلب يغمض إحدى عينيه، متفادياً الضربات بمهارة، أو يرمقه بلا مشاعر، حائراً في تفسير عدائه، أو يكتفي بالفرار من الدار، وهو يطلق عواء جارحاً، حاشراً ذيله بين قائمتيه الخلفيتين، باحثاً عن ملجأ، بين صخرتين من صخور الوادي القريب، أو خلف أحد حيطان الحواكير. لكنه هذا اليوم، لم ينجُ. كان قد نسي شجار الأخوين، فنام قرب العتبة، لاجئاً إلى فيء شجرة الكينا التي كانت أغصانها تتدلى من وراء حائط الحاكورة، إلى باحة الدار، فتعثّر به حليم، وكاد يقع. شزره بحقد، ثم رفسه بباطن قدمه، على وجهه. فتأوه الكلب، ونهض، وأراد الفرار، فتزحلق بالماء الراكد في قناة المطبخ. خبطه حليم بالعصا على كتفه، ثم رماه بها، حين تمكن من النهوض والركض سريعاً، وهو يسمع نداء كريم: «اهرب!»، وشفقة زينب: «حرام عليك!».

كان الكلب الذي نشأ في الدار، لا يقوم بأغراض الدفاع عن الممتلكات الصغيرة فيها فقط، وإنما أثبت دائماً أنه أعظم من تخويف لص، أو ملاحقة ثعلب أرعن؛ إذ تمكّن من الوقوف بجدراة، خالف فيها تقاليد الكلاب، في وجه ضبع متسوّل كان يقتحم أحد حقول البطيخ، قبل سنتين. حكاية لم يصدقها أكثرية الفلاحين، مشكّكين في واقعة كبيرة من هذا النوع، مشيعين بأن المغير على الحقل ما كان سوى ابن آوى، أو غريري في المحيط. لكن آل الزهر لم يبالوا بالتكذيب، وقدّروا أنه حسدٌ محض، واحتفظوا بالكلب، على الرغم من القحط الذي بدأ يرين على البلدة، ويدمر حيواناتها. ماتت ديوك الحبش أولاً، أو ذُبحت. ولحق بها الإوز، ثم أخذ عدد الدجاج يتناقص بتناقص مخزون الشعير والقمح، إلى أن خوَت الدار من ذوات الأجنحة. ولم يبقَ للكلب ما ينبح عليه سوى الظلال.

على الهامش، نشأت صداقة عادية بين كريم وبارود. بدأها الكلب أولاً؛ فكان يلاقيه حين يعود من الإعدادية في السويداء، كل خميس، يجري بين ساقيه، أو يقفز على خاصرته، أو يربض على الأرض أمامه. أما كريم فقد وجد فيه كنز حكايات، كان يثير بها خيال زملائه في المدرسة أو يسعد ابنة مؤجِّره، وهو الذي سماه بارود (دون سبب)، فالتصق الاسم به، وصار هو نفسه لا يستجيب لأي نداء صوتي عدا اسمه هذا.

لكن صداقتهما لم تتوطد إلا قبل سنتين، في شتاء الصف العاشر: فجأة وجد أنه لا يملك قرشاً واحداً، فقد ضاعت الليرات الخمس من جيبه، أو سُرقت. لا يعرف. وكان الأسبوع في بدايته. ورفض عمار التوت أن يوصل رسالة نجدة إلى والده. ثم غشّ في موعد السفر، وتحرّك قبل أن يأتي. كان يعرف أنه لن يقلّه بجيب فارغة. وهكذا، قرر ظهر يوم الأحد، أن يمشي من السويداء إلى السماقيات. وبحساب فلكيٍّ مستعجل، قدّر أنه يستطيع الوصول إليها، بعد العشاء بقليل. وهذا يعني أنه سيكون داخل العتمة

نصف الوقت. راقب السماء، ولم يستطع أن يحزر فيما إذا كانت ستمطر. لن تمطر، قال لنفسه، فما زالت تنفخ الهواء منذ أسبوع، لكنها بدأت تمطر حين وصل إلى تلال الصقر. اختفت أضواء الكون، وصار الليل مغلقاً. خُيِّل إليه بعد لحظات، أنه يمشي داخل سرداب سماوي. ثم بدأت قطرات المطر الأولى، أعقبتها زخّات شديدة متقطعة، ثم اتسقت في وقعٍ موحّد ثابت، بلا توقف. هل يندم؟ أيعود؟ اشتاق أن يسمع صوت إنسان، أن يرى لصاً، قاطع طريق، مسافر ليل تائهاً مثله. ولم تتمكن الكلمات الباسلة، من محو خوفه الذي بدأ يتسرب إلى روحه أولاً، ثم عمّ جسده، فبدأت خطواته تثقل، أو تتراخى. لعن المصاري والفقر. ولكنه تابع طريقه، مخترقاً الليل كأعمى، إلى أن اكتشف أنه ولج مكاناً محاطاً بشجيرات بلوط (كان يسمع صوت اصطفاق الشآبيب بأغصانها). وهذا يعني في الحسابات الجغرافية، أنه أضاع طريقه. أين الجهات؟ سمع عواء ذئب بعيد. ثم وقف شعر رأسه، حين أحس بتلك الأنفاس الرطبة الساخنة، تلهث قربه: «معقول!» قال لنفسه، «متى وصل؟». وقبل أن يفعل أي شيء، سمع تلك الزمجرة الطيّبة المطمئنة. أعقبها نباح أخويّ سعيد؛ «بارود؟!».

كلٌّ واحد منهما، مسح جسده بجسد الآخر. شبّ بارود على قائمتيه، وعانقه كريم بودّ، وهو يغمغم: «يا ولد! يا بارود!».

ما لم يصدّقه الناس، هو أن يحدس كلب شارد بوجود صاحبه، بعيداً عن السماقيات، بأكثر من أربعة كيلومترات، في شتاء عاصف، تذهب الريحُ فيه، في الاتجاه المعاكس. أما التفصيل الذي أحرجهم، فهو أن الحديث عن الخوف (وهي المشاعر التي عرضها كريم، بلا تردد، أمام كثيرين من أهالي البلدة) كان يُخجل أيَّ شاب؛ إذ من المحتمل، أن يوسم بالجبن، كلَّ عمره، ويحمل سمة الرعديد، في وقت كان من الممكن فيه، لكريم، أن يعرض صفات البطل، لا في مواجهة الليل وحده (وهذا أمر

اعتيادي لا يتباهى به أحد)، بل في المشي داخل العاصفة، أو القفز مسافة عشرين كيلومتراً، فيما توعوع الذئاب من حوله، باحثة عن فريسة.

لكن كريم آثر الصداقة على الفخر، كما قال لمسعود شمال، وفضّل الصدق، حتى لو كان يمدح حيواناً، على التباهي المرتجل. وبدلاً من أن يجزع من اللوم، نبضت مشاعره بالحب، تجاه بارود.

تلك الحادثة جعلت كريم (الذي كان يخطو أولى خطواته إلى الحياة) يؤمن بأن ذلك الوفاء، لدى كلبه، يؤهله لأن يرفع علاقته به، من مرتبة التابع إلى مصافّ الصديق. وقد أكدت الأيام أنها صداقة مكفولة، يندر أن تخلخلها الأمزجة والأهواء، أو تخرّبها المصالح. فلم يحدث أن أبدى بارود أي سلوك ينمّ عن خيانة أو احتجاج أو رفض أو نقمة، مهما أوغل أهل الدار في إغضابه. كما حافظ على عزة نفس نادرة، فلم يسطُ، يوماً، على رزق أصحابه (حين بدأت الكلاب الأخرى تكسر أعراف وجودها، بسبب الجوع، فتسطو على بيض الدجاج، أو تختطف الصيصان أو تنبش القمامة أو تمزق غسيلاً يراقصه الهواء)، مانحاً كريم، فرصة فخر حقيقي، دون أن يعبأ بالتسميات التي بدأ يلقبه بها عمار التوت أو إسماعيل لقمان أو رسلان شمال، مثل الجرو، أو السلوقي. وفي أحد الأيام، وجّه أبو النور (وهو قائده الحزبي الجديد الذي يشرف على خلية السماقيات والمنارة والحفائر) ملاحظة، أعلن فيها، أن هذه العلاقة (وصفها بالشاذة) تكلّف المنظمة والحزب كله، خسائر معنوية، قد تؤثر على الأداء الحزبي الدعائي كله. «ليش يا رفيق؟» سأل كريم، وذهل بعد ذلك من الإيضاحات السياسية، والأسباب الموجبة، والكلام عن مفاتيح الدخول إلى فكر الفلاحين، في مواقف يسخرون فيها، هم، من الداعية الشيوعي الذي يرافق كلباً. تأمّل كريم المدى الشاسع، من نافذة الغرفة التي كانوا يعقدون فيها اجتماعهم السري، وسأل: «كيف بتضمن يا رفيق إنو ما يكون هذا المكان مراقب؟».

قال أبو النور: «لا ضمان»، فقال كريم: «لأ، في ضمان»، ثم أمسك يده، وقاده إلى الخارج، وقال: «شوف!».

هناك، بعيداً عن الدار، قرب صخرات جرداء، كان بارود يربضُ ناصباً أذنيه، في وضع التأهب: «هذا يحرس نضالنا يا رفيق!».

لا أحد عرف كيف ارتحلت تلك الحكاية، في السماقيات، وقرى سهل الزرازير. واغتنت بسرعة، ثم تبدلت بفضل الخيال، واتخذت أشكالاً تشبه أشكال الرواة. واحدة أكدت أن الشيوعيين ضموا بارود إلى عضوية الحزب. وثانية أشاعت أنهم سيرسلونه إلى الاتحاد السوفييتي، وثالثة تحدثت عن قيام بارود، بتنفيذ مهمات سرية للحزب، مثل نقل المنشورات، أو إيصال الرسائل، بين الشيوعيين الذين ظلت أسماؤهم سرية.

وفي هذا الصيف، أكّد ابن مالك، لكريم، أن المباحث أجرت مسحاً وراقب أحد عملائها تحركات بارود. والمرجح أنهم وضعوه في خانة الخاملين؛ فالكلب ظلَّ طوال الوقت الذي شعر فيه بأنه مراقب، نائماً، بلا حراك في الشمس، لا يكلّف نفسه عناء كشّ الذباب عن جسده. والمرة الوحيدة التي اختفى فيها، اكتشفوا أنه كان يلاحق أنثى متطلبة، علق بها مساء.

كانت تلك هي الخاتمة للملف السياسي الخاص، لا ببارود وحده، بل بكريم أيضاً. وقد فُكِّكت الخلية التي كان يعمل بها، بعد افتضاح جملة كريم، الذي انتقل إلى المدينة، ليلتحق بخلية سرية، في ظل الملاحقة التي بدأتها المباحث، بعد الوحدة.

لكن بارود لم ينجُ تماماً. فقد وصل إلى السماقيات موظفان، من بلدية المدينة، مُكلّفان بإبادة الكلاب، في بادرة إنقاذ قررتها المحافظة، بعد سنة المجاعة الأولى، وانطواء الوجود المجاني للكلاب، على خطر الإصابة بالسعار، ونقله إلى بني الإنسان.

كان الموظفان يتجوّلان في شوارع السماقيات، حين رآهما حليم وبارود معاً. ابتسم حليم ابتسامة شماتة، ومشى متمهّلاً، متجاهلاً وجود الكلب، وراء ظهره، متصنّعاً البراءة والرغبة في التنزّه. وتوقف بارود عن مراقبة قطة أبناء عجيب، وقد أدرك أن الدقائق أو الأمتار القليلة القادمة الفاصلة بين حليم والموظفين القاتلين (لاحظ بندقيّتي الصيد اللتين يحملانهما)، هي آخر ما تبقى له من العمر.

كل من رآه في ذلك اليوم، وقد أرخى أذنيه، وأطال جسده مثل فهد، واندفع نحو الوادي، حيث الصخور السوداء، وأدغال شجيرات الريحان، متجاوزاً الحيطان العالية، ومتاريس الأشجار الميتة، والناس المتجمهرين خلف الساحة، أدرك أن حب الحياة، يبعث في الجسد الحي للكائنات، قوة الريح، وسرعة العين، بحيث لم يلحق الصيادان تسديد بندقيتيهما نحوه، حتى كان قد اختفى، وراء السد الذي يفصل البلدة، عن مجرى الوادي في الطريق الجنوبية.

«بتعرف وين محمودة يا بارود؟» قال كريم بيأس، في بحثه عن بصيص أخير. فرنا الكلب إليه وجِلاً، واضعاً رأسه بين ساقيه، يحاول أن يلجم ذلك العواء الحزين الذي رغب في إعلانه، متذمراً من فشله المريع، في تقديم أي مساعدة لصديق العمر المبدد. «ما بتعرف؟» أضاف كريم بأسى، ثم أطلق نداءه، في ليل السماقيات:

عوووو!

عووووووه!

3

أيار 1959

حين رأى سحابة الغبار الفلكية التي غطّت الأفق الشرقي، ولمح أولى طلائع تلك المخلوقات العاشبة التي تتقدم نحو السماقيات، من جانب تل الحصان، كانت أول كلمة خطرت بباله هي: «فرجت!».

هناك على مشارف السماقيات، كان يطلّ قطيع مواشٍ مؤلّف من ألفَي نعجة، ومئات الماعز، وأكثر من عشرة رعاة، وعشرات الكلاب، يتقدمون جميعاً نحو الغرب، حيث يفترض أن يكون الله ألقى برحمته الخضراء. وبينما كان مثل هذا العدد الرهيب من المواشي، يمكن أن يصيب بلده بالذعر، فإنّ شعور حليم هو أن كاهله، قد تخلّص من حملٍ كالح ظلَّ يعذّب ضميره، طوال الشتاء، بسبب يقينه من أنه كان سبباً في الكارثة التي حلّت بالبلدة.

فالفكرة التي استبدّت به، في تشرين الماضي، عند موعد افتتاح الشتاء، هي أن فلاحي السماقيات مشرفون على أيام كفر، وتجديف، منذ أن بدؤوا يعلنون أنهم لن يزرعوا الأرض إلا وفق شرط خاص جازم وضعوه أمام إرادة الله، وهو: «أمطِر.. نزرع!» وقد سمع تلك بترتيب مختلف للكلمات، دون أن يتغيّر مضمونها. مرّات، كان يحاول تشويش تلك الآراء بالنقاش

المنطقي المستند إلى كتبه. ومرّات، كان يعمد إلى استخدام لهجة التهديد الأُخرويّة. ومرات، حاول أن يضغط على الشيخ أبو أحمد السايس كي يصدر إبعاداً عن الدين، لا بحقّ من يجدف وحسب، بل أيضاً بحقّ من سيتأخر عن زراعة أرضه، حتى لو لم تمطر، في بداية الشتاء، لأن الامتناع عن ذلك، سيبدو من أشكال انعدام الثقة بالله. لكن السايس العجوز رفض اتخاذ سابقة دينية، لم يكن لها في معجم الكتب، أيُّ سند.

عذر الفلاحين كان حاضراً كل مرة؛ فقد خدعتهم أمطار العام الماضي المبكرة التي غطت سبعة أيام من أواخر تشرين الثاني، فزرعوا القمح والشعير في واجهات الأرض. لكن السماء ظلت تحدّق بهم، بعد ذلك، بلا أي غيمة، طوال أكثر من شهر ونصف.

الفلاحون اعتبروا ذلك نقضاً لمعاهدة الأمل القديمة التي أقاموها مع الطبيعة، منذ بدء الزراعة. والمشكلة أن الفهارس التي كانت بحوزتهم، عن تاريخ القحط، لم تكن مبوّبة، وليس لها عناوين يمكن أن تكون مدخلاً للوقائع. كما أن الطبيعة نفسها، لم يكن لديها ناموس منظّم يقيّد طقس الهطول فيها. لذلك، بدت خطوتهم الزراعية تبذيراً جهولاً، كان يمكن تفاديه بقليل من الصبر والانتظار، ريثما يتأكدون من لطف السماء. وهكذا، فإن الدرس البديهي المتاح لأي فلاح منهم، كان موجوداً على صفحة الأرض، إذ لم تنجح الأمطار القليلة التي هطلت في شباط، في ضمان الموسم. وكل ما فعلته هو إحياء تلك النباتات الضعيفة المنهارة، كي تطرح ثمار البقاء، وتموت دون أن تتمكن من إعادة، ولو نصف البذار الذي نُثر في أثلام الحراثة.

كان معنى ذلك أنهم سيقسمون مؤونة السنة الواحدة، على سنتين، وأن كل واحد منهم خسر نصف بذاره، للسنة القادمة. كان إحساسٌ بالخيبة يُهلك نفوسهم. وقد قوّاه صيف طويل جاف قاتل أحرق كل الخضرة

المتبقية. هنا يكمن ضعف الفلاحين الأبدي، كما فكر حليم، حين راحوا يعيشون محكومين بغرائز النمل، مذعورين من احتمال تكرار سنة المحل، مرة أخرى. وقد ساهم ابن مالك، في زيادة رعبهم حين تكشّف له، في القسم الخاص بتقلبات المناخ، وأحوال المطر، من كتاب الجفر الكبير، أن خط المطر مضى بعيداً عنهم. كما أيدته أكوام الملح التي فرّقوها على الأسطحة، بعد عيد الصليب، فظلت جافة يابسة لم تتخللها قطرة مطر.

وما أغضب حليم، أن العبارة الشَّرطية التي انتشرت بينهم، صاغها لقمان لقمان نفسه، لا بسبب العداء بين عائلتيهما، وإنما لأن كأس العرق، وقلة ملكيته، هما اللذان أنتجاها؛ في الوقت الذي ضاعت فيه العبارة الإيمانية المتحدّية التي حاول ترويجها وهي: «خيره قريب».

ما لم يصدِّقه، هو أن الوقائع تقنع الفلاحين أكثر من الكلمات، إذا كان الأمر يتعلق بشؤون الزراعة. وقد دمّر الصيف الناري الطويل المتكرر، هذه السنة، جذور آمالهم، فراحوا يرددون بحسم، إنهم لن يزرعوا إلا وفق شروطهم. وما راعه أن عدداً منهم، كان يناكده بإضافات أخرى من الأمثال السائرة مثل: «عصفور باليد ولا عشرة على الشجرة».

لذلك، فقد انصبّت جهوده على استقراء الماضي، مستنداً إلى شهادات المعمّرين الذين أغنوا رسالته بأمثلة من سني محْلٍ مماثلة. لكن القرار الأخير كان لأولئك الذين سيمشون وراء الفدان.

وقد رفضوا اقتراحه المهني، بإصرار يدعمه برنامج شرس لطبيعة عديمة الرحمة، خاوية، فكّكت كل شيء. وهكذا عبرت بهم فاتحة الشتاء، بلا أمطار. ويوماً بعد آخر، كانت عيونهم تراقب الأفق الغربي، وقد اصطبغ بلون القحط القرميدي، دون أي إشارة لمطلع الشتاء. فمن يصدّقون؟

صورة المؤمن التي حاول تعميمها في البلدة، لم تُجدِ شيئاً، فحاول الاستعانة من جديد، باستخلاصات الآباء والأجداد في تقاليد الزراعة.

ولاحظ أنه إذا كان تشرين الثاني قد أسرف في المحل، فإن كانون الأول يمكن أن يكون أكثر طيبة.

عبثاً؛ فالفلاحون الذين لم يبقَ في مخازنهم سوى أمداد قليلة من القمح والشعير، رفضوا المغامرة بمصيرهم لقاء وعود هوائية يبرزها شخص مثل حليم.

غير أنها أمطرت أخيراً.

هطل وابل عنيف مفاجئ أول كانون الثاني، بدأ منذ منتصف الليل واستمر حتّى الصباح. ثم انسكب ثانية في المساء برتابة متساوية، طوال الليلة التالية، واستمر بعد ذلك، متقطعاً، ثلاثة أيام. غيث حقيقي كافٍ لتسديد حسابات قحل عشرين شهراً من جهة، وحاسم لتبديد يأس مئتي فلاح.

الأهم من ذلك، أنه كان انتصاراً لحليم (وقد قال إنه انتصار للإيمان). «شفتوا!»، راح يردد أمام الفلاحين المشدوهين السعداء: «خيره قريب!».

لكن سلسلة الأحداث التي أعقبت تلك الأيام، كانت مليئة بالنكسات؛ فالفلاحون الذين بذروا كل ما لديهم في حقول الزراعة، فوجئوا أن السماء أقفرت من جديد. مرَّ كانون الثاني، ثم شباط، ثم آذار، ونصف نيسان، بلا أمطار. أما التربة الحمراء الطرية التي استجابت لأمجاد المطر، فسرعان ما أظهرت هلاكها تجاه القحط. تمزق نسيجها خلال أسبوع واحد، ثم راحت تتشقق مثل جلد عتيق، وتحوّلت، يوماً بعد آخر، إلى كتل متحجرة، طحنت الحبوب داخلها، ودفنتها، أو قصفت عمر البراعم الخضراء.

اختفى حليم خلال ذلك، فأمضى معظم وقته يقرأ في كتب الحكمة، ثم مضى إلى خلوات الشيخ زرعة، وحين عاد في أول أيار، لم يستطع مواجهة أبناء السماقيات. صار يذهب إلى الحقول كل يوم. وهناك كان يضرع إلى الله قائلاً: «سامحني يا رب!»، لأنه كاد في إحدى لحظات الضعف يسأله:

«ليش هيك؟». لكنه لم يسامح نفسه، وهو يرى إلى بقايا القمح والشعير الذابلة القزمة، وتجمعات الأعشاب والحشائش البرية التي ملأت السهل، وأطراف الصخور، وخبايا الحيطان، وهي تصفرّ، وتتيبّس، مشرفة على الموت.

الآن، بدأ يصرخ مستغيثاً بالبلدة، ورأى أكثر من أربعين رجلاً يفزعون إليه، ليشكّلوا حاجزاً على أطراف التل، ويمنعوا القطعان الهوجاء من التقدم نحو آخر ما تبقّى من زروعهم.

لكن دوافعه كانت مختلفة عن مطالبهم. ولهذا فقد تقدّم إلى حافة القطيع، في مواجهة الرعاة والكلاب، قبل أن يصل أول فازع إلى مشارف الكروم. وحين وقف فارداً ذراعيه، كجذعي شجرة، كان إلهامه قد اكتمل؛ فالحقيقة القاطعة هي أنه لا توجد قوة على الأرض تستطيع مجابهة الأغنام الجائعة. كما أن فلاحي السماقيات لن يحصلوا على أكثر من كمشات رخيصة من محاصيلهم. هذا فضلاً عن أن الريح سوف تذرو أعشاب البرية.

لذلك رأى فسحة أمل في ما رآه الفلاحون كارثة؛ فباع زرع السماقيات، وحشيشها، وبقية الماء المتجمع في برك الوعر، بألفي ليرة، في اتفاق سريع وحاسم مع رعاة الجوع. وحين وصل الرجال، كان قد قبض داخل كفه، على أربعين ورقة مزركشة، وراح يلوّح بها أمام الأعين المذهولة اللاهبة.

لكن الرعاة اجتاحوا البلدة كلها. وخلال ساعة، التهمت النعاج أعشاب الحواكير كلها (وهي نباتات مسجلة خارج الاتفاقية)، ورعت الحشائش الهشة، فيما قشرت الماعز شجيرات البلوط القزمة، والبطم الصخري، واللوز البري، وكسرت أغصانها، وهي تتقافز كالقِردة، متنقلة من واحدة إلى أخرى، تاركة وراءها أرضاً مداسة، منهوبة حتى العظام.

وزاد تدخّل رجال القرية، ونسائها وشبانها وأولادها، في هياج المواشي. وبدل أن ترتد الكباش القائدة، والتيوس المتقدمة، اندفعت هاربة نحو داخل القرية. وبالغريزة الأبدية الملتحفة باللون الأخضر، أذهلها وجود الأحواش الآهلة بخضار المنازل، فاخترقت الحواجز الحجرية، ونطحت البوابات، مقتحمة المنازل بلا وجل، راكضة نحو أعشابها الخضراء.

قاد حليم الدفاع المضاد، وبدؤوا يردّون المواشي عن البيوت. وكاد يُقتل حين نطحه كبش ثائر. وقع، وأحس أن عظام وركه تحطمت، لكنه رفض الهزيمة، ونهض، وقد عراه شعور بالعجز، والخسارة. شعر أن المواشي ستأكل البشر، ثم انتبه فجأة إلى بارود. كان الكلب قد مرق من جانبه، واندفع نحو معمعة النعاج، فتفرقت هاربة، مذعورة من الحيوان الذئبي الصارخ. وسريعاً انتقى بارود كبش القيادة، وطارده، فيما لحقت به مئات النعاج تثغو، واشتبك في معركة موت مع كلاب الرعاة. كانت البلدة الآن قد صارت خارج فوضى الحيوانات العاشبة، وارتدت القطعان، بفضل نداءات رعاتها إلى أطراف السماقيات، في حين بدا بارود لاهثاً، نازفاً، يرمق حليم.

في المساء، تمكّن حليم من انتزاع ألفي ليرة أخرى، من الرعاة، مقابل الخسائر التي ارتكبتها النعاج.

كان هذا عدلاً جميلاً في رأيه. وقد قدّم المبلغ، في اجتماع البلدة، في مضافة لقمان، لهم جميعاً، مقترحاً أن يظل بحوزته، ريثما تقرر البلدة ماذا ستفعل بالمال الجماعي.

لكنّ ذلك العدل الإنساني، لم يَطُلْ بارود. وقد رقد متصدّعاً، مدمّى، يلهث وراء جدار بيت الزهر، حزيناً، بلا سند. وحين جاء كريم من السويداء بعد يومين، كانت معجزة بانتظاره؛ فالكلب الذي ظنّ الجميع أنه يحتضر، تفتّح فجأة، بعد العلاج التمريضي الأول الذي قدّمه له كريم، فتحمّل جرعة

الكحول الحارقة، التي صبّها على جرحه، ولم يصدر إلا صوت أنين بعيد، وارتجافة جلد، ثم هدأ حين مسح كريم إصابته بالدواء الأحمر، وتناول الوجبة الدسمة، المؤلّفة من بقايا مجدرة، وكسر خبز ونصف رغيف مدهون بالزيت، من يد صديقه، وهو يتطلع إليه، بعينين دامعتين. «معافى!» قال كريم، وهو يربت على رأسه، فانتفض بارود واقفاً، وعوى عواء مزهراً طاهراً، ملأ به أرجاء الدار كلها.

عووووو!

4

أيلول 1959

في اليوم الأول لافتتاح المدارس، كان هاجسها - كالعادة - ألّا يستطيع أحد رؤيتها، وهي تجلس وراء النافذة العلوية المستطيلة المشرفة على الغرف الخلفية، لمنزل آل الجزيري. وقد أحكمت وضع ستارة الدانتيلا (الدانتيلا بثقوبها السداسية الناعمة) فشدّت أطرافها الأربعة، إلى خشب الإطار، وثبّتتها بمسامير صغيرة. ثم ضبطت وضع مقعدها، بحيث يعطيها زاوية الرؤية التقليدية، مع قليل من الاستطالات، ضمِنتْها بالزحف قليلاً، إلى جوار الكرسي الآخر الذي سيظل فارغاً، دائماً.

طلبت الغفران لنفسها، ودون عذاب من هذا الخرق الطفيف المباشر، بإشارة من رأسها، وغمزة من عينيها لصورة الزوج الميت المعلّقة على يمينها، وقد كان ذات يوم صاحب هذا المقعد، بزاوية الرؤية المنفرجة، وعظَمة الإطلالة المدبّرة على شكل شرفة. «موافق؟!» سألته وهي تمسح الغبار عن زجاج الصورة، وإطارها. كان واضحاً أنه لم يعترض؛ فابتسامته ظلت على حالها، وهي ابتسامة موجهة إليها، منذ أن وقفت أمامه في ستوديو الغزال بدمشق، تسخر من جموده تحت الأضواء الحارقة. ومع اكتمال التحضيرات (وهي أساساً، بسيطة ومباشرة)، جلست، وراحت تراقب.

لم يكن المكان الآخر معدّاً بعد، فالأتربة، وأوراق الشجر اليابسة، والأوساخ والنفايات المتطايرة ما تزال تزحم العتبات أمام الغرفتين والممر جوارهما. كما كان غبار الصيف (وهو صيف طويل فاجع) يبهت حجارتهما من الخارج، ويغطّي حيطانهما في الداخل (كما تخيّلت). والغريب أن هذا كله يسعدها؛ فسوف يتيحُ لها معرفة أعمق بالمستأجرين الجدد القادمين من القرى، إلى مدارسهم، الذين سيكون أول عمل ينفذونه، بأمر من أبي محمود الجزيري، هو تنظيف الممر، ورفع النفايات، وترحيل ما تبقى من قمامة الصيف، وغسل الجدران، قبل أن يسمح لهم بإدخال أيّ أثاث إلى أي من الغرفتين. وعندئذ تتمكن من اكتشاف عددهم (وغالباً ما يقطن كل ثلاثة، أو أربعة طلاب معاً) وأسمائهم (وهو ما سيباغتهم في ما بعد)، والقرية التي جاؤوا منها. وهي أمور لا تشكّل مفاصل في تكوين العلاقات، أو استمرارها، لكنها ضرورية كخلفية، أو إطار للتعارف المقبل.

لم يظهروا صباح الثلاثاء، وكان عليها أن تفقد الأمل عند الظهر، لو لم تعرف من الجزيري نفسه، أنه أجّر الغرفتين. يمكن الانتظار إذاً، وقد انتظرت الأربعاء كله، والخميس، والجمعة، ومضت ليلة صعبة وفارغة، فرمت نصف كمية الخضار التي اشترتها، حين ظهر الاهتراء والعطن على أطرافها السفلية. لم يعد للخيار طعم، وفقد الكوسا والباذنجان نضارتهما. وصار وجهها هي ذاتها، صلصالياً، مخططاً بتجاعيد مفاجئة عند الشفتين (ربما بسب العطش) في وسط الجبين، ثم جاء نهار الجمعة المشبع بالتثاؤب، أو مجاملات التزاور بين الجيران، أو مشاريع التنظيف المرفقة بخيلاء النساء، والممتلئ، فوق ذلك، بغبار خريفي أرعن، محمّل بروائح عفن، وأوراق ممزقة، ونتف ثياب. ولم تفلح الزهورات في تهدئتها، فأكلت كراميلا. حتى إذا جاء المساء، شعرت بالرعب، بسبب تفاهته، وإحساسها بالخواء من المشاعر، فانسلّت من مقعدها، واستبدّت بها رغبة في البكاء.

«لن يأتوا» فكّرت، وافترضت أن الجزيري أرعبهم، وهي تستعيد صورته. لم تستطع تحاشي الارتباك حين تذكرت نظراته، وكلماته الزيتية.

خذلها الليل أيضاً، فانقطعت الكهرباء، وانهدمت الساعات في متاهة من العتمة، والجهات الضائعة، ثم عاد التيار، واهناً، مبلبلاً، فزاد في حنقها، وبدأت تتوعد الجزيري، وتهدده، وشتمت شركة الكهرباء.

كل ذلك تبدل في الصباح؛ فهناك، إلى الممر الإسمنتي، حيثُ مسرح فرجتها، وصل ولدان وشاب في الثامنة عشرة من عمره، كما قدّرت. كانوا ما يزالون يجلبون أغراضهم من الشارع، حين سمعت جلبتهم، وهي فرش ولحف ووسائد محزومة بأمراس رفيعة، طناجر وصحون وأباريق (وملاعق لا ترى بالتأكيد) في سحّارتين من الخشب، بوابير كاز (هما اثنان فقط كما استنتجت بعد التدقيق)، كتب مبعثرة، ربما انفرط العقد الذي ربطت به (وهو انفراط سعيد) لأنها استطاعت أن تعرف اسم الشاب من المرة الأولى، بسبب الشجار بينه وبين الولدين، وأن تحب ذلك الاسم؛ فقد ذكّرها بالطائر المغتبط الذي كان يضرع في شبّاك غرفة نومها قائلاً: «يا كريم!»، كما تمكنت من تكوين انطباع (وهو انطباع عابر متسرّع، كما ستعرف في ما بعد) بأن مهارات كريم (وقد قررت أن ترفع المخاطبة إلى مستوى الصداقة، بينها وبينه، كإعلان مباشر عن حسن الجوار، حتى لو لم يتعارفا بعد) مضعضعة، إذ بدا مرتبكاً، ومعكوراً، لا قوة لديه على لمِّ شعث الأشياء، أو شكم غضب الولد الصغير (ذاك الذي يلبس قميصاً أحمر) المقاتل الذي وقف، منذ اللحظة الأولى، يواجه حنقه، أو زعله الذي عبّر عنه بهزات من رأسه ولوم خفيف، معزّز بكلمات التساؤل: «ليش هيك؟»، «ولو؟» أو «شو صاير، وليش العجلة؟»، ثم راح يلمّ كتبه، بحزن، إلى أن كوّمها على حافة العتبة، ونفض يديه، وقال: «خلص لا تزعل!».

استطاعت أن ترى، بعد ذلك، كيف اقتسموا الغرفة. كان نصيب كريم

بجانب النافذة (وهو وضع إيحائي أسعدها، لا بسبب الإطلالة المباشرة المواجهة لنافذتها، بل بفضل الاختيار الذي قرّب الشاب أكثر إلى قلبها، حين رأت أنّ وجه الشَبه بينهما مشوِّق). هناك مدَّ بساطاً ملوناً، وطوى فراشه ولحافه ووسائده، بينما استقر الفتى ذو القميص الأحمر (عرفت أنّ اسمه فيصل) في الركن الداخلي، بعيداً عن ناظريها، وتُركت الزاوية، قبالة الباب، للولد الثالث الصموت المبدّد، حيث وضع أثاثه قرب تجهيزات المطبخ، التي باتت مرئيّة بوضوح الآن، من النافذة المستطيلة الثانية المشبكة بمربعات من الحديد. فوجئت أنها ترى، لأول مرة، طبقَي قشّ ملوّنين، أضفيا على المشهد، من الجدار الذي علّقا عليه، مناخ ريفٍ بعيد.

شجارهم واستقرارهم داخل الغرفة، حَرَمَاها من اكتشاف الملامح الكلية الخارجية لكل واحد منهم. لكنها استطاعت أن تلتقط تلك السمات التي لا تنمحي في حركاتهم؛ فإضافة إلى صفة الارتباك التي صبغت سلوك كريم، رأت أنه كامد، ضجران، ولاهٍ عن كل شيء. ويمكن أن يكون الفتى الثالث شقيقه. فهو تائه مثله، نحيف، بطيء. أما الأحمر (وهي تسمية استهوتها) فهو مثل الملوك، يجعل حضورُه المكان، منذ اللحظة الأولى، نابضاً مشغولاً. ومن الصعب، ضبطه أو الإمساك به أو معرفة ماذا يريد.

فرحت باستنتاجاتها، وبالخبرة النوعية التي اكتسبتها في بضع ساعات، ورغبت في مشاركة الأولاد (وهي الكلمة الأمومية التي ظلت تستخدمها في إشاراتها إلى المستأجرين الصغار) في أعمال التنظيف التي بدؤوا ينفّذونها. ثار غبار، وتكدست أهرامات صغيرة، ومتناثرة من النفايات. وقربها صفحات كتبٍ فالتة، وأوراق شجر. ونقلوا القمامة إلى خارج الدار ووضعوها في برميل الشارع، وأُرغموا بعد ذلك، بتدخّل مباشر من الجزيري نفسه، على استخدام كميات قليلة من الماء (وهو إجراء تقنيني يتّبعه أبو محمود، لمنع الأولاد من تكبيده أثمان مياه تزيد عن الإضافات

التي يحمّلها، عادة، على أجرة الغرف) من أجل شطف الغرفة، والممرات. وقد لعنت الجزيري في سرّها. فمنظره الرهيب، وهو واقف في آخر الممر، مكتوف اليدين، يراقب العمل، بعيني العقاب الراسختين، فوق الشاربين الضخمين المنتهيين بمسلّتين، وثباته، وصمته، والزيّ الملفّق الذي يجمع بين القميص الإفرنجي، والسروال الشعبي، والحذاء الأبيض (حذاء فريد الأطرش كما فكّرت)، كل ذلك عطّل طقوس رؤيتها. فقد أرغم الأولاد على العمل بصمت، بلا مشاغبات المناكدة، ولا ألعاب الخفّة، أو مجادلات اللوم، وصراخ: «الحقّ عليك» أو «هذا شغلي» أو «ما دخلك»، ومنع رشق الماء، ورمي المكانس إلى الأعلى، والتزلج على الأرضية الأسمنتية.

لكنها سرعان ما اكتشفت مزايا جديدة للحالة الطارئة. فحضوره الضاغط، منع الأولاد من اللعب المكشوف وحده، ولذلك ابتكروا ألعاباً سرية، لم يستطع الجزيري ملاحظتها: انقلاب تنكة مليئة بالنفايات، بفعل رفسة خفية من الوراء، اندلاق سطل ماء تعثّر به فيصل، دفشة خفيفة لكريم كي يدوس قدم الجزيري. أعقب ذلك، اصطناع طرائق عشوائية لتحصين ضحكهم الخفي الدفين العميق المملوء بالشهقات والدموع.

صارت تضحك هي أيضاً، وهمست لهم من وراء ستارتها: «يا عيوني أنتو!».

*

طقسها هذا، كان إرثاً من نظام حياة، اعتادت عليها منذ كان زوجها حياً، أو منذ أن اضمحل أملهما بالإنجاب، وذوى، وتلاشى حتى صار حبة رمل.

في السنة الأولى لزواجها من فؤاد التلي، كان الولد سؤالاً، ثم تحوّل خلال السنة الثانية إلى مطلب، وغدا توقاً، حاولا أن يحققاه بجموح الفراش، مؤمنين بأن الحب وحده قادر على إنتاج تلك الثمرة المشتهاة. غير أنه لم يأتِ. وما ترجّياه من الحب، أحالاه إلى الله، آملين أن يكون ما

يجري، تأجيلاً مؤقتاً، أو إرجاء اختبارياً يقيس مدى قدرة العبد على قبول إرادة الرب. ثم راحا يمارسان الحب كل ليلة، في محاولة لملاقاة حكم السماء، إلى منتصف الطريق.

وطوال الوقت، كان فؤاد يرفض زيارة الأطباء. وصرخ مرة واحدة في وجه لؤلؤة: «مش أني السبب». وبقدر ما كان هذا تصريحاً بأنها عاقر، فقد حمل في هوامشه، قراراً باستحالة ذهابها هي أيضاً، لمشورة تلامذة أبقراط. فلم يكن في المدينة سوى طبيبين، أحدهما تخرّج في باريس، قبل خمس وعشرين سنة، والثاني مهاجر غامض ظلَّ عازباً حتى الموت. لم يكن ممكناً، بسبب التحفظات ولوائح العيب، انكشاف بطن امرأة، أو فرجها هنا، أمامهما. ولم يكن معقولاً السماح بمدّ أصابعهما إلى مهبلها. كما لم تكن لديهما وسائل مخبرية كافية يستطيعان بها، أن يكشفا ما إذا كانت عاقراً، أم ولوداً. وبفضل هذا الوضع، كان الرجال مستعدّين دائماً لإحالة العقم إلى النساء، والانتصار للذكورة البريئة.

ولأن الجنس لم يثمر، فقد بدأت جرعاته تتناقص. في وقت، لم تستطع لؤلؤة فيه، أن تمنع الخيبة عن زوجها، ولا استطاع هو أن يمنع الحزن عنها. وصار غرامهما يمضي باهتاً، خائباً، معطوباً، يرتطم بهما مثل إسفنجة.

وبمرور الأيام، لم يبقَ لأيٍّ منهما سوى الذكريات: أطلال غامضة من الأشياء، كلمات (بدأت تذوي)، حركات (أخذت تتلاشى)، جلسات (بدأت تبرد، وتتسمر وسط الرتابة القاتلة). إلى أين؟ كانت تسأل نفسها. ماذا ستفعل؟ كلُّ ذلك أنهكها، فبدأ جسمها ينحل، وفقدت شهيتها إلى الطعام، ولم تعد لديها إرادة شغل، فصارت تهمل البيت، حين بدا كل شيء بلا لون. واستيقظت ذات يوم، فوجدت حلقها مرّاً. ولم ينفع الماء في إزالة الطعم الرمادي القاتم، ففركت أسنانها بالسماق، ثم أكلت غصن نعنع، وشربت ماء. وفي المساء نصحتها صديقتها هدى بالكراميلا المحشوة

بسائل دهني لزج. فاشترت كيساً مغلقاً من دكان الجزيري. وقد تمكنت الحبات الحلوة، من إشاعة طعم حلوٍ مشّط آثار المرارة. بعد ذلك، صارت الكراميلا جزءاً من وجودها، تأكله في كل وقت، حتى أثناء المضاجعة.

فجأة، سمعا ضوضاء أولاد. زحفا معاً إلى النافذة. كان أربعة فتيان صغار مستأجرين، ينقلون أغراضهم إلى الغرفتين الخلفيتين من دار الجزيري. لم يكن الشغل المزهو الذي ينفّذه الأولاد، هو الذي شدَّ انتباههما. بل شعور بالغبطة، هيّج في داخلهما، مشاعر أبوة وأمومة، غابت عنهما منذ سنوات. كأنهما يريان أولاداً لأول مرة. وزاد في اندفاعهما العاطفي، أن أولئك الصغار سيبقون أمام أعينهما، طوال تسعة أشهر، كاليتامى محرومين من آبائهم وأمهاتهم.

منذ تلك اللحظة، استقرّا وراء النافذة. اقتسما الأولاد حسب التعلّق والمزاج: هذا لي، وهذا لك. ثم راحا يراقبان كل شيء بروح الرعاة الرحيمة: استيقاظَ الصباح، صمتَ الإفطار، لغطَ الذهاب إلى المدرسة، قلقَ المذاكرات والامتحانات، فرحَ الدرجات العالية، خيبةَ الفشل، ثم أخيراً، مهرجانات تقليد الأساتذة، عند المساء.

لكنّ فؤاد التلي كان في متناول الموت، وذات يوم، طلب شربة ماء، وحين عادت، وجدته هناك، على كرسيّه، يتطّلعُ نحو سطوح المنازل، حيثُ كانت ترفرف أسراب حمام.

الغريب، أن ذلك الرجل الذي مات في بياضه، كان قد باع كل ما يملك لاسم لؤلؤة. وخسر شقيقاه دعوى المطالبة بالإرث سريعاً، أمام حقيقة العقود، لتجد لؤلؤة أنها صارت مالكة لمنزل حجري من طابقين، وكرم عنب يضمُّ مئة وخمسين كعباً مثمراً، وشجرتَي كرز، وثلاث شجرات سمّاق، ونبعاً خجولاً قرب شجرة صفصاف ضخمة.

ولم يكن الإرث الذي امتلكته، هو السبب الذي جعلها تتحدى إرادة

أشقائها، من أجل العودة إلى مضارب العائلة، بل ذعرها من خفة الحياة، بعيداً عن صغارها التلاميذ. فخاضت معركتها بإصرار شجرة، ورفضت الحلول التصالحية، حين عرض شقيقها نصر الدين أن يكون الحامي الذكر للمنزل الكبير، ليقينها من أن هبوطه الذي يدّعي شكل خيمة، لم يكن سوى حيلة ماكرة، للاستيلاء على الملكية، فضلاً عن تخريبه لطقوس العناية الأمومية.

عند الظهر، اخترقت مستطيل النافذة بسلّة، دلّتها نحو الأسفل ببطء، إلى أن لامست الأرض، ونادت: «يا فيصل! يا فيصل!»، فأطلّ الصغير برأسه من الباب المفتوح. تطلّع حوله حائراً، فأعادت النداء، مرة ثالثة، وأشارت له كي يقترب. قال: «أنا؟!»، «تعال! يا الله!» قالت، ثم هزّت الحبل وابتسمت له، وهمست، وهي تشير إلى السلة: «خذها!». بدا الولد الآن واضحاً: كان شعره أسود ناعماً يغطي جبينه بلا أي تسريحة، فوق عينين عسليتين (رأتهما جيداً في نور الشمس، حين تطلّع إليها) وكان أنفه صغيراً بفتحتين واسعتين، وله شامة بنيّة فوق شفة رقيقة. أخذ السلة دون أن يسأل، فابتسمت، وتابعت حركته العوجاء، إذ أثقله الحمل المليء. ولم تستطع الصمود، حين رأت كيف هتف الصغيران معاً لهداياها، فغطّت وجهها بكفّيها، وهي تكاد تختنق، ثم بدأت تبكي بصمت.

*

لم تعرف أنهم تشاجروا هناك. فمجيء السلة المكتظة بأصناف الطعام فاجأ كريم، وأربكه الترحيب الثنائي الذي أبداه فيصل وطلعت معاً للأوعية الساخنة والباردة، المعبأة بأكثر من نوع: مربى مشمش، ملفوف، فاصولياء، رز. فقفز نحوهما، وأبعدهما عن السلة، وبدأ يعيد الأواني إليها بطريقة عشوائية، فازداد حجمها، وطفت على الوجه الخيزراني، في حين ذهل الولدان، وجزعا، وسأل فيصل: «ليش؟!». لم يجبه كريم؛ ففي السؤال

لهجة عداء، ستفجِّر شجاراً بينهما، لم يكن مستعداً له. لكنه لم يستطع منع نفسه من تأنيبه: «ما دام سكنت معي اسمع كلمتي ولا تناقش!». كانت العبارة حلاً حاسماً لخلاف محتمل كما فكّر، ومحاولة للمرور الآمن من المأزق الذي ورّطه فيه معلّمه، فأسكن ابنه معه. لم تكن حاجة المعلّم هي الدافع، وإنما رغبته في حماية ابنه (الذي يأتي إلى المدينة لأول مرة، كي يتابع دراسته، بعد انتقاله إلى المرحلة الإعدادية) من غوائل الغربة. وقد كانت المشاركة في استئجار الغرف مسلّمة، يخضع لها جميع الطلاب القادمين من القرى. وغالباً ما يتم اختيار الشركاء، في اتفاقيات شفوية، تراعي علاقات القرابة أو المصاهرة أولاً، مما يضمن للآباء، طمأنينة ناجحة على رعاية الأقرباء بعضهم للآخر، أو وشايتهم بعضهم بالآخرين. كانت هذه هي القاعدة، وقد نجح كريم في الإفلات منها، طوال سنوات الدراسة الثانوية، مما أتاح له أن يتحرك دائماً، في الفسحة الشاسعة لحرية الشباب. وبفضل ذلك الاستقلال، حافظ على سرية انتمائه السياسي وخفايا حياته: كالتدخين مثلاً، والحديث عن البنات مع الأقران، وممارسة العادة السرية في أوقات الشدة.

لكن فيصل جاء في تفاصيل أخرى، احتجزت كل إمكانية، لديه، للإعلان عن رفض مشاركته. فقبل أسبوعين من افتتاح المدارس، جاء توفيق الخضرا إلى بيتهم. دخّن ثلاث سجائر، وشرب القهوة مرة واحدة، وظلَّ يستمع إلى عبود الزهر، وهو يحدّثه، ثم التفت نحو كريم، وسأل فجأة: «مين ساكن معك عمي كريم؟».

أذهل الخطاب المستخدم كريم، فطوال سنوات الدراسة، لم يسمح المعلّم لأي طالب سابق، أن يخاطبه بكلمة «يا عمي». وكان يقول إنها كلمة خاوية، وبلا معنى، حين تستخدم بعيداً عن حقيقتها. وقد أحب لقب المعلّم. ولم يغضب أبداً من أولئك الذين ينادونه باسمه وحده، مجرداً من

أي إضافات. وبسبب شعوره بأن السؤال يحمل غرضاً ما، لم يدرك كنهه، فقد شعر بالشفقة تجاه أستاذه القديم، وقال بلهجة قاطعة، وشت باستعداده لسماع ما يلي: «ما حدا أستاذ».

«عال!» قال المعلّم: «يعني ممكن يسكن فيصل معك؟!».

لم يفاجأ تماماً، وإن كان قلبه انقبض. لم يكن راغباً في أي شريك. وقد دبّر غرفة معقولة لا يزيد إيجارها عن عشر ليرات، وأقنع والده، أن سنة البكالوريا جديرة بالعزلة، حين سمع عرضاً من عمه سعيد، يطلب فيه أن يشارك ابنه طلعت في الغرفة. هذا فضلاً عن أنه كان يرفض فيصل نفسه، إذ كان الولد يثير قلقه، منذ أن التقى به قبل أشهر، وراء صخور الحوليات ليلاً، وتنفس الولد في وجهه مباشرة قائلاً: «شفتك!» ولم يزد كلمة واحدة، تاركاً إياه في عطن المفردة المومئة بالتهديد. ماذا شاف ذلك الولد؟ وسريعاً تحوّل سؤاله العاجز إلى كراهية، على الرغم من أن فيصل هو ابن معلّمه توفيق. وقد ظلَّ دائماً مولعاً بالمعلّم؛ ففي منطقة شاسعة ترطن بالأمية، وثقافة السوالف، المغطّسة بصراعات العائلات، ونقائض أشعار الربابة، بدا توفيق، حامل البروفيه الفرنسية، المطّلع على فلسفة الأنوار، والمثقل بمكتبة تضم أكثر من مئتي كتاب، مثلاً مضيئاً له. وهذا ما أحرجه. ماذا يقول له؟ «أكره فيصل» مثلاً؟ حاول أن يجد أعذاراً، ثم حاول أن يجد مسوغات للقبول. فكر أن الصبي رائد كتب حقيقي، وأنه يعشّش تقريباً في مكتبة البلدة، منذ أن بنوها. لكن هذا قد يكون مصدر خطر، إذ إن معارف الصبي يمكن أن تكشف انتماءه الحزبي، في الوقت الذي قررت المنظمة أن تحيله إلى السرية التامة. ولهذا وجد نفسه يقول: «خايف ما نتفاهم يا معلم».

«صحيح معك حق، لكن أنت بمكان وفيصل بمكان».

«لكنها غرفة واحدة».

«فهمت، والمطلوب هو رعايتك».

قال كريم مستخدماً آخر أسلحته: «لكن أنت قلت مرة إنو ما حدا بيقدر يعيش بمكان، وما يفهم لغة أهله».

فضحك المعلّم من قلبه، وربت على ظهر كريم وقال: «حاول تخلّيه يفهم لغتك. لغتك حلوة. حاول!»، ثم ابتسم ورمق عبود الزهر وقال: «شايف يا عبود. انطبق علينا قول الشاعر: أعلّمه الرماية كل يوم، فلما اشتد ساعده رماني!».

جفّ حلق كريم، وامتلأ بالمرارة، وغمره عرق غزير نزف من صدغيه، ووجنتيه، وقفا رقبته. بدا البيت الذي أتى في لحظة مزاح، إشارة حاسمة إلى أن رفضه تعبير عن عقوق خطير، لا يريده أبداً. فرنا إلى معلّمه وغمغم برفق: «وافقت يا أستاذ، غالي والطلب رخيص!». فنهض المعلّم سعيداً، وقال: «طيب. السلام عليكم».

بعد ذلك، اضطر لقبول طلعت الزهر أيضاً. وقد رأى أن وجود الولد الثاني، مجايل فيصل، يمكنُ أن يخفّف ضغط ابن المعلّم، وحشريّته.

*

الآن، كان فيصل يحدّق إلى عينيه مباشرة. بدا حائراً من الإجراء التعسفي المباغت الذي نفّذه كريم. «ليش؟» سأل مرة ثانية. وظلَّ كريم صامتاً: «ماذا يوضح له؟» فكّر، شرد قليلاً، ساعياً لاختلاق حكاية، فلم يجد. بدت الحكايات معطوبة. وكان طلعت يراقب الموقف منتظراً حلّ المشكلة، بروح ثعلب. وأخذ الوقت ينفد. وكان كريم مضطراً لنزع غطاء الغموض في موقفه. وبدأ يفكر في الأبجدية الممكنة لتوضيح أن ما يفعلانه ليس سوى خنوع، أمام ما يمكن اعتباره رشوة أغنياء. ولكن، كيف يعادل اللحظة (التي يفكر بها بمصطلحات الكتب)، خاصة أنه حين حاول أن يتكلم، خرج صوته رفيعاً خاطفاً مؤلّفاً من نتف كلمات مقطعة: «نحنا شحاذين شي؟ صرنا نستاهل الحسنات يعني؟». ولم يستطع

اقتناص كلمات أخرى أكثر من ذلك، في تلك اللحظة. كان غاضباً جداً، ومقهوراً. وشعر أن الدماء صارت تغلي في جسده، وأراد أن يخرج إلى العتبة ويصرخ: «أيتها المرأة! لسنا متسوّلين على قارعة قصرك!». ولكن الجملة المستمدة من كتب الصراع الطبقي، بدت سخيفة وعاجزة أمام حقائق الواقع. أين القصر؟ فمنزل المرأة لا يزيد عن بضع غرف مكوّمة مقحمة في المكان، بلا سموّ. لكن ذلك لا يعفيها من دور المحسنة المهين الذي أرادت أن تتقلّده في ساعة وصولهم.

تذكّر فجأة، كلمات المعلّم عن اللغة، وقرر أن يتابع نظريته عن الإحسان المرفوض أمام الولدين، بدلاً من التوجه إلى العدو. وهكذا بدأ يشرح لهما أن قبول الطعام، بهذه الحماسة، من امرأة لا نعرفها، سوف يبدو ذلاً. ومن المؤكد أن امرأة العلّية ستقول إنّ أبناء الفلاحين يأتون إلى المدينة، لتقبُّل الصدقات، لا من أجل العلم. طيّب. بدّل الآن لهجة خطابه، معجباً بنفسه: «صحيح إنو السنة الماضية، كانت سنة محل، لكن الفلاحين ما جاءوا». كان طلعت منكّس الرأس، وانبطح فيصل أرضاً، واضعاً ذقنه بين كفيه. هل يسخر منه؟ لا يهمّ، قال لنفسه، ثم أضاف بصوت مرتعش: «اسألوا بتعرفوا إنّو الفلاحين بفضّلوا ياكلوا حشيش، ويسفّوا التراب، ولا يقبلوا حسنة». وفكّر في هذه اللحظة، أن يرمي السلة إلى الخارج. غير أن طلعت بدأ يبكي، وقال فيصل: «أني جوعان». بدا صوته مخنوقاً، وخالياً من الرواء. ولم يدرِ كريم ما إنْ كان ذلك بسبب الجوع فعلاً، أم بسبب الحنق والغضب، فازدادت حيرته بشأن السلة، إذ إنّ رمي محتوياتها، ما يزال يلاقي مصاعب أخرى لديه هو، هذه المرة. فداخل صدره، تحت العظام، افترسه خوف أرعش بدنه، وتفكيره: هل يمكن أن نرمي الطعام والخبز؟ (وحين سيخلو إلى نفسه في المساء، سيكتشف أنه أنقذ سمعة أفكاره أيضاً). صار يعلك حيرته مثل بغل ملجوم، كما فكّر، فالتراجع

يقوّض كل شيء: موقعه القيادي، إرادته، خطابه الذي توّج به أول يوم لتجربة المشاركة في السكن. وإعادة السلة (وقد قرر الولدان أن يقوم هو بهذه المهمة، إذا أراد ذلك) عمل ضغائني أحمق يناقض الذوق، ويرطم المشاعر (التي ما تزال غامضة) للجارة المشفقة. ما العمل؟ أفلت منه سؤال الأفكار بلا جدوى. كانت السلة الطافحة ما تزال قرب الباب، وكان الولدان ما يزالان يرنوان إليها، بعيون مشتاقة، وقلبين جامحين مزلزلين من الروائح الكثيفة المختلطة بعبق الخيزران. ثم شعر أن معدته نفسها بدأت تضغط على أعصابه، متتبعة آثار التوابل التي زحفت في أرجاء الغرفة. ما العمل؟ اختفى الجواب خلف اللحظة. من سينتصر الآن: الأمعاء أم الروح؟ الفاصولياء أم الإرادة الرافضة؟ فكر أن يشرح لفيصل ماذا كان يقول أبوه؛ «أبوك يا فيصل لم يعلّمنا ألف باء تاء فقط. أبوك قال لنا لا شيء يساوي كرامة الإنسان، إذا زالت عزة النفس، زالت الروح، وإذا نسي الإنسان روحه، صار رأسه في الطين. صار حيواناً يسيل لعابه كلما سمع جرس طعام. أبوك ترك عمله، وحارب في فلسطين. أتعرف لماذا؟ هو قال لنا لماذا. لأن الأوطان تموت إذا أدار لها أبناؤها ظهورهم. أبوك قال إن من يتغلب على الشهوات يقاتل الجوع».

انتبه إلى أنه كان ينظر إلى رقعة رطبة صفراء في حائط الغرفة. وحين التفت نحو الولدين، رأى أنهما ناما، فارتدى ملابسه، وانتعل حذاءه، وخرج يبحث عن هواء.

*

حين عاد، التفت نحو الأعلى، قبل أن يصل إلى باب غرفته، هناك رآها. كانت تشبه تمثالاً، في الضوء الشاحب الذي طفا وراءها داخل العلّية. نبح كلب صغير، كان ينبش قمامة، فنهره، وانكشف وجوده. لا بدّ أنها رأته. لكنها لم تتحرك. تململت قليلاً، وحاولت أن تتفحص الممر. لم

تره. حزر ذلك من تطلّعها الفوضوي المتفرّس. فانسلّ إلى الغرفة مسرعاً. كان الولدان يلعبان الباصرة، بورق قديم مهلهل، وكانت السلة منهوبة، والأواني فارغة، لم يبقَ فيها سوى سمن ناشف جمّده البرد. خوت طنجرة الملفوف، وظلت طبقة شاحبة من البقايا في قعرها. «بلهاء!» هتف في سره، وهو يتساءل كيف تمكّن ولدان من التهام طعام يكفي عائلة ليوم كامل؟ كانت رائحة الأوعية نفّاذة، ما تزال تعبق في الغرفة. لا شك أن يداً بارعة هي التي صنعت الخلطات المباغتة. أمر فيصل وطلعت أن يغسلا الصحون الفارغة، والطنجرة.

استلقى على فراشه. بانت السماء. بان القمر من فرجات الأغصان المتراقصة في شجرة الخرّوب. شعر بودٍّ غامض تجاه امرأة الشباك. تمنى أن يرى وجهها. قد يقول لها إنها جميلة. صعب. لن يجرؤ. وربما يثمل يوماً ما، عندئذ سيقول لها: «شكراً». وهذا أفضل، وسيكون مقدمة مناسبة، لنصيحة مبدئية، فحواها أن ما تقوم به لن يحل مشاكل العالم. إذا عرفها أكثر، يعطيها كتاباً لتقرأه: الأم مثلاً، أو بائعة الخبز أو المصابيح الزرق.

سمع صوت أبي محمود يأمر المستأجرين بإطفاء الأنوار، فنهض وأطفأ الضوء. تطلّع من النافذة إلى الأعلى. كانت المرأة قد اختفت من مستطيل الشباك. هبّت ريح شديدة، وبعثرت أشياء الحاكورة. ورأى الصغيرين مكشوفين، فهمس: «تغطّوا!»، ثم غمغم بحب: «يا ملاعين!» حاسداً شبعهما اللامبالي. وحين ناما، تسلّل إلى العراء، واختبأ بعيداً، وعوى عواء قصيراً واحداً، وعاد إلى فراشه.

في الخارج، كان أبو محمود الجزيري يبحث لاهثاً، بضوء سراج، عن آثار الواوي المقتحم، دون جدوى. ابتسم كريم، وأغفى.

5

منتصف أيلول 1959

لوّح له مسعود، بيده من بعيد حين رآه. كان بيت صديقه يطلّ على المنطقة الوعرية الممتدة من خراب الغربان إلى آخر الأفق، من الجهة الجنوبية للتل المزدحم بمنازل القاطنين الأوائل. عبَر الساحة، ثم انعطف يميناً، صاعداً في الطريق التي كانت تقطعها، بين مسافة وأخرى، درجات حجرية عريضة. سلَّم وجلس قرب مسعود، على مصطبة صيفية تظلِّلها شجرة كينا. كانت لوزية في الداخل، تعصب رأسها بمنديل أسود، يشيرُ إلى صداعها الدائم، فحيّاها: «كيف زوجة صديقي؟»، قالت: «مش مليحة». شدّه مسعود من يده، وقال: «قرِّب!» وهو يبعده عن منظور لوزية. «عرفت أخبار جديدة!» همس بخيلاء، ثم استدرك، وهو يغمز بعينه: «يعني مش أخبار، لكن يمكن يكون فيها أخبار». ثم أضاف أنه يريد ألّا يسأله كريم عن اسم الشخص الذي زوّده بالمعلومات، ولكنه صار يعرف أن نازي حطاب يملك أسراراً تخصّ محمودة. «صور يعني؟» هتف كريم. قال مسعود: «نعم». «مستحيل!» هتف كريم «ويعني نازي عرف شي؟». «لا تخاف» قال مسعود، ثم أضاف: «لكن بدّو يعرف».

ارتعد جسده، «مستحيل!».

«لا تقول مستحيل، مستحيل. أخبار محمودة عندو وبس، لكن الأسرار مش رح تصير عندو».

كانت رغبة كريم في معرفة الأخبار، لا تقل عن خشيته من انكشاف السر. فالوحيد الذي سمح لنفسه أن يخبره، بعلاقة الحب، هو مسعود. وعلى الرغم من انتماء صديقه إلى آل شمال، الذين يرتبطون بأواصر قرابة عائلية مع آل لقمان، فإنه لم يظهر التسامح وحده، تجاه ذلك، بل قدّم تعاطفاً صريحاً جعله يتطوع، هو أو لوزية، لنقل رسائل الحب الشفهية، أو تحرير اللقاءات الممكنة، مع قسَمِه بأن يحمي كريم، إذا افتُضح أمره.

المصادفات هي التي صنعت صداقتهما، قبل سبع سنوات. ففي اليوم الأول من المدرسة، أمر المعلّم توفيق كريم أن يجلس بجانب مسعود شمال، في المقعد الأخير، من المجموعة المخصصة لتلاميذ الصف السادس. لا ينكر كريم أنه كاد يفقد وعيه، حين جاور ذلك الفتى العملاق الحانق، الذي كان يعلن جهاراً أنه يكره المدرسة. أراد أن يرفض، لكن المعلّم أرغمه على البقاء هناك، إذ كان معياره هو الطول وحده، في غرفة تضم تلاميذ الصف السادس والخامس والرابع، معاً.

جلس بلا حراك، وتحاشى النظر إلى جاره، خوفاً من أن تشي عيناه، باعتراضاته. لكنه لم يفهم كلمة، من الدرس الأول الذي كان يلقيه المعلّم. كما أنه لم يتمكن من ملاحظة تلك النظرات السريعة، والسرقات المتقطعة المنظّمة في درس الإملاء، من قبل مسعود، إلا حين أُعلنت النتائج. سأل المعلّم: «هل نقلت من كريم؟»، فنهض مسعود، وقال بلا تردّد: «نعم أستاذ، لكن كريم ما شافني»، ثم أضاف: «اضربني وحدي أستاذ».

كان ذلك انتحاراً دوّخ كريم. وفي الباحة، صافح مسعود بحبّ، ووعد ذلك الراسب القديم، أن يقدّم له كل مساعدة ممكنة، ليتمكن من النجاح. فقال مسعود: «يلعن.أبو السرتفيكا!». كانت قد مضت ثلاث سنوات، دون

أن يتمكّن من نيلها، ودون أن يسمح له والده، علي شمال، بترك المدرسة، في وقت صار فيه العلم مقدّساً، غاية لأبناء الفلاحين الطامحين إلى وظائف الدولة، التي تضمن، لأيٍّ منهم، حياة رغيدة تحميه من مزاج السماء حين بدأ القحط يتكرر، وترفع مقام العديد منهم من رفقة فدّان الحراثة، إلى وجاهة كراسي المكاتب، وسلطات الموظفين. وكانت السرتفيكا نفسها شهادة دخول إلى رتباء الجيش، أو الدرك، حيث القوة والحضور.

في ما بعد، اتفقا على الطريقة. إذ كان مصرّحاً لمسعود أن ينقل الضروريات من معلومات المذاكرات، وكلمات الإملاء. ويسمع الهمس المجاور، للإجابة عن الأسئلة الشفوية، مقابل تقديم حماية شاملة لكريم، يقيه بها، من أي اعتداء محتمل، من قبل أولاد العائلات الأخرى، الذين كانوا يشكّلون عصابات ترث قصص الهوشات القديمة، وخلافات الآباء، والأجداد، لتفلشها في باحة المدرسة أو أزقّة البلدة وساحاتها.

ولكن صداقتهما التي ظنّ الجميع، أنها تحالف مصالح، تغذّت في ما بعد من مؤامرة. فقد اكتشفا دسيسة حاول ولد اسمه راكان الكبش، أن يمرّرها بينهما، فأشاع أن كريم يحب نزهة شمال شقيقة مسعود. لم يُخفِ هذا غضبه وهزّ ياقة كريم بلا رحمة: «صحيح؟ قول! صحيح؟». عندئذ اضطر كريم لإفشاء سرّه الآخر، وقرأ لمسعود رسالة الغرام الفتية الأولى، التي بعثت بها بنت الصف الخامس محمودة لقمان: «أكتب لك بالأزرق لأنك أحلى من الزنبق. أكتب لك بالأحمر لأنك أحلى من السكر». ثم يلي ذلك جملة مقلوبة هي: «القلوب في المحبة تدوم كي، بالمقلوب لك أكتب». كانت يده ترتعش، وهو يُقدِم على كشف سرٍّ مرعب، يمكن أن يحطّمه، لقاء إنكار تهمة، يمكن أن تحرقه. وراح يتطلع إلى رفيقه الضخم بعيني بريء: «شوف كمان». وعرض عليه رسم قلب جريح ينزف دماً من سهم نفاذ. ابتسم مسعود بحب، وربت على ظهره، وقبّل جبينه، وقال:

«استنّاني! راجع» ومضى إلى الجانب الآخر من البلدة، وفرك أنف راكان الكبش، وهو يقول: «أنت الجحش مش الكبش، تسمع؟ مين أنت؟»، فقال الولد المخنوق: «أنا الجحش». فتركه، ورفع إصبعه الضخمة أمام وجهه وقال: «لا تعيدها أبداً!».

انطمر سرٌّ كريم داخل صدر مسعود، بعد أن عاد، وحافظ الاثنان على صداقة، لم تزعزعها حروب العائلات أو معاركها أو شتائمها. وأعاد مسعود تكرار تلك الجملة القديمة، التي قالها له بعد راكان: «رح نشوف شو في عند نازي ونقول له: هون حفرنا، هون طمرنا، ولا تخاف!».

نازي فوجئ بهما، وازداد وجهه شحوباً، حين طلب منه مسعود أن يريهما الفيلم الجديد الذي التقطه. لم يستطع أن ينكر. وأمسك صدغه بكفّه، وقال: «اسندني». وكاد يقع لولا يدا مسعود، قرفص قرب الحائط، وهمس: «العمى!».

كان نازي، وهو الابن الخامس، لصبحي حطاب، مصاباً منذ الطفولة بالدودة الوحيدة التي تغلغلت داخل أحشائه، فسلبت عافيته، حتى غدا ناحلاً (وطويلاً أيضاً) وشاحباً مثل ضيفته، مضاداً للصورة التي افترض أبوه أنه سيصير عليها، حين منحه اسم أولئك الأبطال الذين غزوا العالم. كان الاسم هو المباركة الأخيرة التي منحها صبحي للمهزومين التعساء الذين تألّب عليهم الأعداء، بسبب قوّتهم، وبسبب هدفهم المقدّس لإبادة اليهود.

وفي حين حبا الله ولديه رومل وهتلر عافية الثيران، وأنصف ألمانية وبرلين فمنحهما جسدين كالحور، فقد أعطب الصغير نازي بهذه الإصابة التي لم تجدِ فيها العيادات، ولا أعشاب الطبيعة. لكنه عوّضه بالمقابل، بقِسمة أخرى. فمنذ صغره، ظهرت موهبته في الرسم. كانت براعته تظهر في نقل الطبيعة، فإذا الأحجار الضخمة التي تغطيها الطحالب والأعشاب

اليابسة المهلهلة، والحصى المتناثر، والعيدان المحطمة، وبقايا الروث، وأشلاء الحشرات الوجلة، تعود إليها الحياة ثانية في رسوم الشتاء. وإذا بمنازل السماقيات، تظهر ملونة سعيدة، في رحاب سماء زرقاء تتخللها غيوم طاهرة مرّة، أو سحب داكنة ماطرة (رغم سنوات القحط) مرة أخرى. وبسبب الرسم، بدّل المعلّم توفيق ألوان أبواب منزله، فمحا البنّي الخائب، وطلاها بالأزرق الراسخ الذي ابتكره نازي.

صبحي حطاب الذي هاجر إلى كولومبيا، أرسل إلى ابنه المعلول، الذي يلتهم صحتَه وحشُ أمعائه، آلة تصوير كوداك، مع رسالة يشرح فيها طريقة عملها، وعهد شرف بأن يموّل جميع الأفلام التي يستهلكها، دون شروط.

كانت هديّته، كما عرف الجميع، نوعاً من الضريبة، أو التكفير عن إصابة أدرك ذات يوم، أنه مسؤول عنها، حين شرح له المعلّم توفيق أحد اكتشافات الطب الذي أثبت وجود بيض تلك الدودة القاتلة، داخل لحم الأبقار الذي كان يأكله في الكبّة النيئة الشهية.

وسرعان ما بات التصوير غواية. وراحت البيوت والأشياء والبشر يتكدسون في أبدية الصور، وبرود اللونين الأبيض والأسود.

كان نازي يشتري أفلامه من السويداء، أو يوصي من يحضرها له من دمشق، أو تأتيه في أطقم كاملة، من الديار الأمريكية. وقد استخدم مهاراته القديمة في اختيار مواقع الرسم، من أجل التقاط الباقي والدائم في الحياة.

في الشهور الأخيرة، اكتشف، أن مجموعته، ازدحمت بصور عجيبة، يظهر، في أكثرها، بشرٌ يلوّحون بأيديهم، وآخرون يحملون حقائب، ويمضون: رجال، ونساء، فتيات، وشبّان، أولاد، أُسر كاملة. وبسبب الرعب من ذلك الرحيل، وضع تلك الصور في ألبوم سمّاه: «كتاب العائدين». كناية تعويذية عن وضع مرعب جعل قلب نازي يرتعدُ من الاكتشاف المتأخر الذي

وصل إليه. فالسماقيات كانت تفرغ من قاطنيها، يوماً بعد يوم. وأولئك الذين سجّلوا رحيلهم في الصور التي مضى عليها سنة أو سنة ونصف، لم يعودوا أبداً. وقد اختفت أسرة علي البط، ولم تعد بنات الحارث، واستوطنت أسرة جميل الخشب في الجزيرة البعيدة... سلسلة من الغياب المتلاحق يرشّح اسماً حقيقياً آخر لذلك العنوان.

نهض، وأحضر من الداخل ألبوماً ذا غلاف أحمر قاتم. ألصق عليه قصاصات ورق شكّلت كلمتي العنوان. قلّبا الصفحات بحذر، خائفين مما سيريانه، إلى أن وجدا فجأة صور محمودة: كانت تقف بين ثلاث نساء كبيرات (قدّر كريم أن الأولى منهن هي أمها، لأن حبيبته كانت تلتصق بها)، كن يقفن قرب حقيبتين مليئتين، في فراغ أبيض. بدت محمودة ساخطة، ومتعبة، وهي تنظر إلى عين الكاميرا مباشرة، كأنها تراقب شيئاً ما، لحظة، وجهاً. في الصورة الثانية، اقتربت الكاميرا كثيراً منها. ظهرت ضفيرتاها المربوطتان بفراشتين من قماش غامق. وكانت مضاءة بنور شاحب مغبرّ، تنظر إلى عمق آخر فسّره كريم على أنه جزع عميق. في الثالثة، ظهرت وحيدة تضع كفّها فوق عينيها، في مواجهة الشمس وعين الكاميرا. كانت ترتدي فستاناً طويلاً يلامس كاحليها، وجوارب بيضاء، وكندرة سوداء، وقد ضمّت شعرها في كعكة كبيرة على صدغها الأيمن. وفي الرابعة، بدت كأنما ترغب في أن تنطّ خارج الإطار، ووراءها كان يظهر شبح بلا ملامح. في الخامسة ظهرت محمودة واقفة على حافة طريق، عند الضحى (وهو موعد مجيء الباص الكبير)، (كان يعرفه بسبب بوقه الهوائي الزاعق الذي يملأ أطراف سهل الزرازير، وقمة المنارة، وقصر المطر، ويصل إلى أطراف السماقيات)، ترقب المدى. أغلق الألبوم مقهوراً. وحدج نازي غاضباً، وهدّده في سرِّه «والله! والله!»، لكنّ محمودة كانت تبتسم في السادسة.

نازي ظلَّ يرتعش، وقد امتصّ سخط كريم، وغيظ مسعود أمام الصور، دون أن يعلم هوية البنت التي يريدان معرفة خبرها. كان يعرف أخطار هوايته. وقد أيقن (منذ أن مزق سلمان الجدي إحدى صوره) أنه يمسّ، بهذه الأوراق الكرتونية، وجود البشر. كان سلمان يظهر في الصورة، وقد حمل بارودة قصيرة، وعلّق على كتفه جناد فشك. كان جالساً على حافة الحائط الغربي لدارهم، حين رأى سلمان يخرج بهما. المرجح أنه يبحث عن مخبأ جديد، فالمباحث والدرك، كانوا يغيرون على البيوت، غارات مفاجئة لاصطياد الحيازات المخالفة، كل بضعة أسابيع. أما المخبرون فكانوا يترجمون أيَّ التواءٍ بشريّ لا يعجبهم إلى معارضة سلمية أو مسلحة. وبسبب الخوف من الاعتراف بوجود السلاح، وهو إرث قديم من زمن الاستعمار، كان مالكو الأسلحة يقضون معظم أيام الأسبوع، في ارتباكات البحث عن أماكن آمنة. لا يعرف لماذا التقط الصورة. ولكن مرأى سليمان بقامته القصيرة، وثيابه السوداء ومشيته المختالة، قابضاً على البارودة القصيرة، بلبلَ خياله. «انسحرت يا أستاذ، كأن الجدي طالع من حرب، فكّرت إنو الصورة غير الحقيقة. لكن لما شاف سلمان الكرت جنّ»، قال لتوفيق الخضرا، «ومسك الصورة وشقّها ونتّفها حتى صارت مثل الذرة المجروشة».

درسه الأول ذاك، جعله حذراً من غوايات الهواية، من جهة، ومن تسرُّب الصور، من جهة ثانية. وقد تعلّم، بسرعة، جملة المحرّمات التي تضع شخصه في الخطر: كشف المستور من خفايا الرجال، وأسرار النساء. فوضع أسماء رمزية لألبومات الممنوع: «كهف الزنابق»، وهو الكتاب الذي ضمّ صور الرجال الذين يتبعون النساء والبنات، إلى الحقول، أيام الربيع، من أجل مغازلتهن، أو التحرش بهن، وهنّ يحوّشن نباتات المائدة البرية. «عقد الجوز» وهي تسمية مستمدّة من اسم عامّي لإحدى الأفاعي

القاتلة، وضعها عنواناً لألبوم جمع فيه صور الشجارات، والمعارك، بين عائلات البلدة. وما حيّره هو انكشاف سرّ «كتاب العائدين». وما غاظه، أنه لم يعرف سرَّ كريم. فالألبوم كان يضم أكثر من سبعين صورة، أرّخت لرحيل نساء السماقيات، خلال سنة ونصف، فمن هي فتاتهما؟ لم يجرؤ على السؤال. وانتظر، حتى أعاداه له، فقال: «عرفتوا شي؟». حدجه الشابان، وقال مسعود: «نحنا ما جينا لعندك. ولا شفنا الصور. صحيح؟».

أجاب: «صحيح»، بصوت جافّ نشّفه الذعر.

قال مسعود: «عظيم!!».

وفي طريق العودة، سأل كريم: «شو رأيك؟». فردّ كريم، حزيناً، جامداً: «راحت يا مسعود، راحت!».

في البيت قالت زينب، أخته، وهي ترتّب غرفته: «انساها!»، فأصغى إلى كلمتها الآمرة مذهولاً، وسأل: «شو قلتِ؟»، قالت: «ما قلت شي». لم يجرؤ على تأكيد الكلمة، ولا على تأويلها. أما زينب، فظلت تعثر على أثاث مغبرّ، لتمسحه بخرقة مبللة، أو رداء يحتاج إلى الطيّ داخل الخزانة، أو كتب مبعثرة تلمّها.

قلبها كان يرتعش، وقد أقلقها سواد وجه أخيها، ورائحة العطن التي تثقب ثيابه، وتدبغ جلده. لكن أكثر ما خافت منه، هو أن تكون روحه قد تعطلت. لماذا؟ سألت نفسها، وهي تراقب لوبته وشروده اللذين يمخر بهما الأيام، صمته المطفأ، حضوره الخامل، تحديقه في فضاء البيت والطعام والسماء. من يفعل هذا؟ لا أحد - فكّرت - سوى المرأة. تأملت أخاها الأصغر بعيني أمّ، وهي تتساءل ما إن كان ذلك الولد المطعوج، المتوحد، قد أحب. متى، وأين؟ كانت تعتقد أنها تعرف البلدة جيداً، فالبيوت فيها سجون أو منافٍ للبنات، يولدن فيها، ويكبرن، وينضجن من أجل غاية وحيدة، ينتظرنها منذ الرابعة عشرة من أعمارهنّ. وهي تقديمهن لأول

طالب يد يريدُ إنجاب نسل. أما اللواتي انتسبن إلى المدرسة، فسرعان ما استعادهن آباء سمعوا شائعة، وأين يمكن أن يحبّهم أحد، أو يحببن أحداً؟ لم يستطع عقلها رسم أي خطة ممكنة لحب آخر. فتجربتها كانت بلا زرع. وقد ظلت حتى اليوم تتجرع إرادة الآخرين: أبيها، شقيقها حليم، دون أن تجد نافذة واحدة، يمكن أن يأتي منها رجل عاشق ليأخذها. فكيف استطاع أخوها كسر ذلك التقليد الثقيل؟ وكان عليها أن تعجب به. فلا شك أن نجاح ولد مثله، بهذا العمر، في اكتساب حبيبة، بشارة برجولة مبكرة. غير أن انفراطه السريع، وانهياره، جعلاها ترتدّ إلى أرض الذعر. من هي البنت التي تشغلُ أخاها؟ تمنّت أن تعرفها، كي تذهب إليها، وتشدّها من شعرها قائلة: «اسمعي! ما عاشت يللي بدّها تعذّب كريم!»، ثم تعود إليه لتهتف: «ولك قوم! اشتدّ! الدنيا مش نسوان بس».

لم تستطع فعل شيء، لا لأنها لم تعرف الصبيّة فحسب، بل لأن دنف كريم، جعله ممتلئاً ببريق داخلي وأضاء جسده، وكاد عشقه يسيلُ من أطراف أنامله وشفتيه، ومن وجهه الذي اكتسى سمرة غامقة، آمنت أنها سمرة الهوى. فجميع الأغاني لا تتحدث إلا عن الكيّ والنار والشوق الحارق. ومن المحتمل، أن اللون الوحيد اللائق به هو السمرة. وبدل أن تردّ على سؤاله، فاجأته بالطلب: «قول يا زينب!».

فقال: «يا زينب».

«قول مرة ثانية: يا زينب!».

قال: «يا زينب!».

«خلص» قالت: «فكّرت إنك نسيت اسمي!».

راح ينظر إليها مستغرباً. كان في أسئلتها، فراغ من العبارات المضمرة التي لا تريدُ قولها. فهل كانت رسولة العائلة الشفوقة تحاول تحريره؟ أم

تزيد الحصار حوله؟ ها هي تكاد تنهي ترتيب الغرفة، ولم يبقَ إلا كناستها، دون أن يتمكن من مفاتحتها، أو اكتشاف مخابئ الكلام. والمحيّر أنّ وجهها كان طاهراً من كل شبهة. «فيا زينب» همس لها في نفسه «قولي، يا زينب». وكأنما كانت خواطره ترفرف في المكان، لأن زينب التفتت نحوه، وسألت: «بتعرف ليش قلت لك انسَ؟».

كانت زعلانة من اقتراحها الطائش.

«ها!» ردّ كريم خارجاً من شروده.

«ما بتعرف» قالت: «لأن النسيان هو المكان الأخضر الوحيد بالدنيا».

كانت زينب مغرمة بإسباغ الألوان على كل شيء. فقال: «أخضر؟ لا والله يا زينب».

قاطعته، وهي تنظر إلى السماء: «يا الله ما أجمل هالكلمة منك!».

«النسيان أصفر. صدقيني يا أختي، أصفر مثل...

«مثل الذهب».

«لأ، مثل الصحراء».

«ما شفت صحرا ولا مرة».

«ولا أني، بس يمكن يتخيّل الواحد إنو مثل الصحراء، أصفر وما إلو نهاية».

كان يعرف أنه يغامر بالانكشاف. ليكن! قال لنفسه، دون أن يكون مستعدّاً للبوح بأيّ سرّ. لكنه لم يعد يستطيع مواراة مشاعره خلف أي ساتر. وهو على يقين من أن زينب قادرة على احتضان انشغالاته بروح الأم. فالأخت الكبيرة التي كان نصيبها أن تظل بلا زوج، استطاعت أن تجد في العنوسة، نسبة كافية من المكاسب. فاستبدلت بشريك العمر، همومَ البيت. وتحوّل وقت البنات الفارغ في القرى، إلى حركة اهتمام،

ورعاية، للدار كلها، بحيث صارت تنافس حليم نفسه، في الإشراف على المصالح البيتية. ولهذا فقد توقع ألا تقف عند حدود النصيحة، فقال: «لكن ظنّك راح بعيد، ما في شي! صدقيني!». غير أن زينب لم تصدقه، فقالت في محاولة لاستكمال الإيضاحات التي قررت تقديمها له عن قصة النسيان: «إذا الإنسان ما نسي، يمكن يدوّد راسه»، فرمقها بحب. عندئذٍ انهارت قربه، وقالت: «دخلك لا تحزن!». أربكه عبق شعرها وهي تعانقه، وكاد يفشي لها أسراره كلها؛ لكن هذا سيجعله مكشوفاً أكثر. كما أنه سيهدر قسمه لمحمودة بألا يخبر أحداً (سوى مسعود) عن علاقتهما. لقد برّ بالقسم دائماً، دون أن يفكر بأسباب ذلك الإصرار الذي بدا بريئاً في المراهقة، وصار هاجساً عندما كبرا، يكفي أنها تريدُ ذلك كي ينفّذه؛ فالدوافع عميقة. أما النتيجة التي توصل إليها، فقد كانت كافية لمنعه من ارتكاب هفوة، قد تكلّفه خسارات لا يمكن توقعها، نتيجة واضحة تقول بأن زينب لا تعرف شيئاً، وهي ما تزال في منطقة التوقعات، والاختبارات، وفحص الحالة، ولم تصل إلى وضوح الحقيقة.

غير أنه سوف يبقى، الآن، وقد رحلت محمودة، تاركة وراءها أشتات الذكرى والوعود، دون إشارة، مرتبكاً، حائراً، مثل زيزٍ صيفيّ أخرق، يدور حول ضياء مصباح طيب.

في الليل، مضى إلى الحوليات العالية، وعوى:

عووووووو!

عوووووووو!

6

لم يكن لديه سوى ملمس يديه كي يستعيد الذكرى. فالليل حجب عنه رؤية ذلك الجسد النحيل الناعم، الذي تمدَّد قربه، تحت شجرة البطم.

كانا مذعورين، يرتجفان مثل ريشتين. لم يعرف ما إن كان البرد هو السبب (كان ثمة برد كما يذكر) أم التجربة الغضة. وكانت تلك هي المرة الأولى في عمره، التي ينام فيها قرب امرأة. بدا كالأبله، وكاد في لحظة غباء شامل، أن يرتكب غلطته الأولى، حين فكر أن يتحدث عن الليل (وقد بدا القمر مسرعاً وسط غيوم بيضاء) أو يهمس عن جمال الطبيعة، أو يتلاعب بشذرات من كلمات كتاب الرسائل الجديد الذي كان الطلاب يتناقلون مقتطفات منه. لكنه قلب الصفحات سريعاً، ورمقها بصمت. كيف كانت عيناها؟ لا بدّ أنهما كانتا عميقتين، ينسكب فيهما شعاع النجوم اللامعة. لم يرهما. ومدَّ يده، ولامس بشرة خدِّها. كان لها ملمس وردة. هذا ما يخطر له الآن، وكانت وجنتاها ساخنتين (رغم البرد! رغم البرد!) واصطدمت، أو مسّت أصابعه أسنانها (وكانت رطبة ودافئة) فامتلأ حوضه بقشعريرة دافقة. وندّت عنه آهة حمقاء جعلتها تطبق كفّها على فمه. «دخلك!» همست، فلحس بطرف لسانه باطن الكف الصغيرة المنقبضة، ثم عضّ طرفه بأسنانه الأمامية، عضّاً خفيفاً. أنعشته الملوحة الخفيفة، في اللحم

الطري، لكنها أبعدت يدها مجفلة، فخجل من تصرفه الكلبي، وملأ الدم وجهه، ورأسه.

استطاع بعد ذلك، أن يحسّ بالجسد الأنثوي المستلقي قربه. لا يذكر ماذا حدث. ربمّا كانت حركة اعتباطية، أو أنه اختلق وضعاً جديداً لجسده الذي حشره بالصخرة، ليترك تلك المسافة الضرورية لمنحها الثقة.

لكن ما فعلاه، لم يخلخل الفراغ بينهما فقط، بل أرغم يده - بالمصادفة وحدها (كما فكر أن يقسم لها) - أن تستند إلى وركها المائل الممتلئ قبالته.

بعد تلك اللحظة، لم يجرؤ على فعل شيء. فقد أذهلته كومة اللحم تحت يده. هاله أن يكون قد توصّل، لأول مرة، إلى تلك الهضاب السعيدة.

هذه المرة، تفوّقت اللذة على الحياء، فأراح يده، وسوّى إقامتها، بحركة رجوع بطيئة نازلة، من أعلى الورك، نحو منحدرات الفخذ. هناك وجد ركبتها عارية. باغته الوهج الحار، في اللحم المسفوح، والشكل المنتفخ كتفاحة، والوجود الصلب المتقدم كمتراس. ترك كفّه ترتاح قليلاً، حيث وصلت، ثم فحص المكان بسبابته. فوجئ أنه لم يجد أثراً لفستانها. أغمض عينيه، ومشّط اللقية، محاولاً أن يؤبّد اللحظة الخرافية الطارئة. لم يصدّق أنه غنم هذا المكان، دون قتال. وفكر أن يبقى هناك طوال الليل. لكن اكتشافات سبابته وسّعت أطماع شهوته، فتسلّل ببطء، نحو الأعلى. أذهله - أيضاً - استسلام محمودة، وصمتها، وتجرّأ مرة واحدة، فسرق من العتمة، نظرة قصيرة إلى وجهها. كانت راضية ومضاءة بظلال الليل. وزاد ملمس لحمها، أعلى الركبة، في جرأته، فمضى بعيداً، صاعداً (تحت جنح الفستان) إليها. شعر بدفء الغطاء القماشي السميك، وغليان اللحم الكستنائي. لم يكن يعرف طول المسافة التي يتنزّه فوقها، ولم يدرك ما الذي حدث، حين وصل إلى باطن فخذها المشعر المخبأ وراء لباس

ناعم مشدود بمطاط حماية. صرخت حين مرَّ بكفه، وحاول أن يتسلل من تحت: «يا أمي!»، فانشغل الوقت والمكان بصدى النداء المذعور. ارتدّ إلى الوراء، وقال: «مش قصدي». عبارة غبية، أخذها من غشمه، وجهله. «عفواً» أضاف بلهجة صارمة، وباردة. فرآها تستدير نحوه، وتتأمله في الظلمة. أكانت تريدُ أن تقول شيئاً ما غير ما قالت؟ لن يعرف ذلك، لأنّ وجهها كان وراء الضوء. قالت: «قوم! روح!»، فردَّ: «إي». نهض، ومضى عبر مسيل الوادي، يتخفّى بالصخور.

7

أيلول 1959

هذه الليلة، وجد أنه في ورطة. فالبوابة الخشبية في دار الجزيري، كانت مقفلة من الداخل، ولم تتحرك أكثر من بضعة سنتمترات، حين زحزحها بيده لمرة واحدة. صرّت، وارتجّت. فبدا كأن صوتها ملأ الحي كله. سار بمحاذاة الحائط الحجري. كانت الدار كلها نائمة، باستثناء ضوء شحيح كان يتسرب من شقّ، أسفل الباب الخشبي، في مدخل منزل الجزيري نفسه. نادى: «أبو محمود!» لكن صوته ارتطم بالحجارة، وعاد إليه ضعيفاً وصدئاً. لن يسمعوه، فكّر. والمؤكد أنهم ناموا، هذا فضلاً عن أنه لن يستطيع تقديم أي فكرة عن أسباب تأخره. لا شك أنّ الساعة تجاوزت منتصف الليل، ولن يتمكن من الاستنجاد بفيصل أو طلعت، إذ إنهما لن يسمعاه، لا بسبب بُعد المسافة، بين الشارع الأمامي، والغرفة الخلفية وحسب، بل لأنهما سيكونان متلاشيين في نوم الليل الثقيل. فكّر أن يتمشّى في الشارع، ثم سخر من نفسه، حين تخيّل أنهم سيجدونه في الصباح نائماً في زاوية، خلف أحد البيوت، مثل مشرّد. لماذا؟ غضب من حيائه، وصرخ مرة ثانية باسم صاحب الدار: «يا بو محمود!». المشكلة أن الحنجرة مسدودة ومجرّحة، ولا تقوى على تنظيم النداءات، سيصرخ

مثل واوٍ مرة أخرى، مستخدماً الحروف النفيسة ذاتها. لكنّه لاحظ مرور الحارس الليلي، من التقاطع الذي يحيط بالحي من جهة الشمال. ولن يُنجيه الليلة أيُّ عذر أو تعريف شخصي، إذا ما وقع في قبضة شرطي الليل الساهر. عندئذٍ تسلّق الجدار الخلفي لآل الجزيري. كانت الحجارة ناتئة، تترك بين مداميكها فراغات تكفي لوضع كفّ مفتوحة. دبَّ، حين صار في الأعلى، على السطح المزروع بكسور زجاج مبعثرة، نجا منها مصادفة، ونزل من الجناح الأيمن للبوابة. لم يعرف ماذا حدث؛ فقد عثرت يده فجأة، على حجر قلِق بلا حواف. شعر أنه يصير خفيفاً، وفارغاً، وبلا قوة. أفلت الحجر من مكانه داخل الحائط، وسمع قرقعة، وضجيجاً، فقفز إلى الداخل، وهو يعض على أسنانه كي لا يصرخ. تفادى، بمهارة قطّ، الحجر الساقط الذي جرَّ وراءه سيلاً من الحجارة الداعمة الصغيرة، في ضوضاء ساخطة ومتلاحقة. ثم توقف كل شيء، قبل أن يتحرك مزلاج باب المنزل الكبير. أنّت المفاصل الحديدية وخرج أبو محمود يحمل سراجه. راحت الريح تشتد. «مين هذا؟» صرخ بصوت أجشّ ساخط، ثم رفع صوته أكثر، وزعق بلهجة غاضبة: «مين؟!». وحين صار قرب البوابة، رأى الحجر المنهار. زمجر بحقد: «يا أولاد الحرام!». كان كريم يزحف قرب المنعطف القريب نحو غرفته. فتح الباب مثل لصّ، وانسلّ إلى الداخل. ابتلع سعالاً طارئاً كاد يفضحه. وذعر حين عاندته أزرار القميص قبل أن يشلحه، ويلبس بيجامته، ويندسّ في الفراش، وهو يشعر أن قلبه يكاد ينفجر.

انتبه إلى أن غمغمة ضحكات مسروقة، كانت تشوّش الصمت، فدمدم: «ناموا! اسكتوا!»، فيما كان صوت أبي محمود، يهدر في الدار، قرب البوابة. وبدل أن يبقى فيصل وطلعت، في فراشيهما، نهضا، واقتربا منه، وهمس فيصل: «شو في؟»، فقال كريم بصوت راعش: «حبيبي نام!»،

ثم همس: «هس!» حين رأى ظل أبو محمود العملاق يظهر على الحائط، متراقصاً في انعكاسات السراج المحمول. بكى طلعت، حين رفع أبو محمود السراج، وراقب الغرفة من خلال النافذة. دفن فيصل رأسه في لحاف كريم، وجمد الثلاثة؛ انسدّت مجاري أنفاسهم، واختفى الهواء، حين حرّك الجزيري مقبض الباب. كان مقفلاً. لا يذكر كريم أنه أقفله. لكنه أقفله بالتأكيد. ورأى صاحب البيت، يغادر صامتاً. قال فيصل: «تأخرت كثير. وخفنا عليك». تمنى لو رأى عينيه الآن، ولكنه أجاب: «شكراً. مرة ثانية لا تخافوا!»، ثم أضاف: «كنت عَ بدرس عند رفيقي». كانت هذه هي الذريعة المناسبة، دائماً، للتخلص من أسئلة الاستفسار. «يا الله. ناموا!». ربت على شعر فيصل بلطف، ثم راح يراقب القمر. بدا الآن ساكناً وأليفاً في الزاوية السماوية اليمنى المهجورة. تساءل عمّا إذا كان هذا هو نفسه القمر الذي باغته قبل ثلاث ساعات. فظهوره من فتحة الزقاق، حيث كان ينتظر، جعله طريدة مكشوفة، مخالفاً التعليمات الحازمة التي لقّنه إياها أبو النور، قبل أيام، ونصّت على وقوف عابر، لا يزيد عن وقت إشعال سيجارة، مع تساهل يسمح بانطفاء عود الثقاب مرتين، لا أكثر، قرب عمود الهاتف الذي ينتصب عند مدخل الزقاق. ومن هناك، سوف يأخذه شخص ناحل، طويل القامة، يرتدي قميصاً مخططاً. لكن ريح المساء الخريفية (التي أطفأت الثقاب كل مرة)، وانقطاع التيار الكهربائي، ضيّعا علامة المكان. وبلبلت العتمة حساب الوقت. وعندما ظهر القمر فجأة، اكتشف أنه يقف في مكان آخر. أطلّ رجل من فوق جدار، وسأل: «مين بدّك؟» فردّ بلا تفكير: «هذا بيت سليمان الجدي؟»، قال الرجل: «لا! ما في أي واحد من بيت الجدي بالحارة كلها». قال: «شكراً»، ثم عاد من حيث أتى يحاول تدبير الموعد من جديد. نظر إلى القمر، وهمس: «فضحتني». تذكّر أنه كان يخشى ذلك الكوكب في السماقيات، ويختار أوقات غيابه، في مواعيده مع

محمودة. وكاد يضيع الليلة بسببه، لولا أن رجلاً طويلاً صدمه تقريباً وقال: «تعال وراي»، بصوت محايد يغشاه التسرع. كان واضحاً أنه مرتبك مثله. هل السبب هو اختفاء شارة اللقاء؟ أراد أن يمزح، فقال: «لو اتفقنا نلتقي تحت غيمة كان أحسن»، لكن الطويل لم يضحك، وتصنّع اللامبالاة، وهمس: «نحكي عن الطقس أفضل». كان أمامهما رجل يحمل صغيراً، وامرأة تحتضن رضيعاً، وتقود بنتاً تبكي. كانت لهجة الطويل ذي القميص المخطط جافة، ومستنكرة، وبدا مستثاراً، وراغباً في اشتباك مباشر. شعر كريم بالغضب، ولكنه تحاشى مساجلته، ثم تجاهل استفزازه اللاحق حين سأله عمّا إن كان يدخن، فقال: «إي». قال الطويل: «بس نارك مطفية»، ولم يخفِ حنقه. كان واضحاً أنه لم يغفر له ضياعه.

كانت الدار التي ولجاها شبه مهجورة. ثمة غرفتان مغلقتان، وثالثة نزلا إليها عبر درج داخلي، مدعّم بدرابزين من الحديد المزخرف. كان فيها أربعة كراسيّ من الخيزران، وطاولة خشبية مربعة، وإبريق مسودّ، وبضع كؤوس التصق الشاي بكعبها. وفي الزاوية، مدفأة صغيرة صدئة، فوقها صورة غامضة لرجل ينهض فوق خراب شامل، وهو يحمل شعلة. كانت الصورة معتقة، ومائلة، بحيث تلاشت التفاصيل، ولم يبق بارزاً سوى عيني الرجل الزاهيتين. قال القميص المخطط قبل بداية الاجتماع إنه يتمنى أن ينقد كريم نفسه بسبب استهتاره بأمان الموعد. فقال كريم إنه التزم بالفعل، وإنه ضاع في العتمة. قال: «لا، ما التزمت!». سمعا قرعاً على الباب، فنهض، وفتحه، ورحّب بشابٍّ مربوع ممتلئ الجسم. همس: «كمال، كريم» معرِّفاً أحدهما بالآخر، ثم رتب الكراسي حول الطاولة. عمَّ صمت ثقيل. خوت الغرفة فجأة من الأنس، وانقبض صدر كريم. رغب في التدخين، ثم فكر أن استهلاك سيجارة الآن يعني أنه قد يواجه ليلاً فارغاً بلا عزاء، إذ سيضطر لتدخينها كلها، خلاف ما يفعل كل مساء، بعد

أن ينام فيصل وطلعت، ويسهر وحده قبالة العتمة، يدخنها على دفعات. «كيفك؟» سمع جاره الجديد كمال يهمس له. كان يبتسم، وهو يحاول إرسال مشاعر ودّ. بدت ابتسامته حرة، لا تنتظم في المناخ الذي يحاول القميص أن يفرضه. حركاته أيضاً كانت عفوية، حين نهض، وصحح وضع الكرسي الذي يجلس عليه، مخلخلاً البناء التناظري الذي رسمه القميص. سأل فجأة عن موعد الاجتماع القادم، وتجاهل نظرات المسؤول الحانقة، وعاد يبتسم لكريم، معلناً رغبته في صداقته (في ما بعد سيقول إن الصداقة كالحب، تبدأ من النظرة الأولى أيضاً). لم يستطع كريم أن يجاريه. وعزا ذلك إلى طبيعته الحذرة من جهة، وإلى اللقاء الحطبي الذي تطامن فيه (كما فكر) للقميص المخطط، دون أن يكون مذنباً.

الثالث، اسمه شاكر. وهو صموت، يتقوقع وراء نظارة سميكة تظهر عينيه كعيني ثور. راح يكتب أجزاء من الملاحظات التي يسردها القميص عن الوضع السياسي والحالة الاجتماعية وعلاقات العالم ونظرة الحزب إلى التناقضات. وبين كل فقرة وأخرى من جدول الأعمال، كان يطلب الكلام، فلا يسمح له القميص، إلى أن انتهى، قال: «نعم رفيق؟». كان في لهجته، سواد وشى بضيق قديم، فقال شاكر: «إيوة»، ثم بدأ ينتقد تحليل القميص قائلاً إن السجون ملأى بالرفاق، وأبوابها مفتوحة بانتظار من تكتشفه عيون عملاء المباحث. ونحن نتحدث عن تناقض رئيسي وآخر ثانوي. وبينما نساعد عبد الناصر في أن يتألق، ويسطع، حين نصف نظام حكمه بالوطني، يصفّي هو حزبنا، ويدمر نضالنا.

بدا شاكر حانقاً جداً، وقال شيئاً ما عن زمن الخيبة، وعن العجز والخسارات. ثم راح يمسح وجهه بمحرمة بيضاء. لم يخفِ كريم إعجابه بالكلمات الناسفة التي جعلت القميص يرتعد، لولا رائحة فم شاكر التي كانت تطفئ دقات قلبه. ولم يستطع تفادي ذلك العطن المدمر الذي يفوح

من أسنان سوداء أكلها نخر مُزمن. وحين انتهى الاجتماع، أمرهم القميص أن يخرجوا واحداً بعد آخر، بفارق خمس دقائق على الأقل، وفوجئ كريم أن كمال كان ينتظره عند ناصية الشارع، ضارباً حذر التنظيم. وقال، وهو يتأبط ذراعه، بأن شاكر الصوص (قال كريم إنه سمّاه: رائحة الفم) فقهقه كمال بلا انضباط، وتابع كلامه موضحاً بأن رائحة الفم - يضحك أيضاً - لا يستطيع أن ينسى الارتقاء المفاجئ لأبي سهيل (ضحك أيضاً حين قال كريم أنه سمّاه: القميص المخطط) إلى قيادة الفرقة، متجاوزاً إياه، على الرغم من قدمه.

القميص المخطط تجاهل خطاب شاكر، وسجَّل في دفتر صغير ملاحظة، سيعرف كريم بعد خمسة عشر يوماً، أنها تطالب شاكر بنقد ذاتيّ يراجع فيه مواقف التطرف التي تغشاه بين فترة وأخرى، ثم حاضر عن السرية في العمل، وقال إن تفكيره ألهمه خطة للعمل السري الذي يجب أن يضمن تغطية آمنة لوجودهم. ولذلك فهو يقترح ألا ينشئ أي واحد منهم صداقة مع الآخر، خارج حدود الاجتماع الحزبي.

أشعل سيجارة، ونفخ دخانها من النافذة، فرأى القمر مرة أخرى، ونافذة العلّية. تمنى أن يرى المرأة هناك. وفكر أن يسمّيها «امرأة القمر».

كمال الذي أضاف إلى اسمه نسبة «النعماني» مخالفاً أوامر السرية التي تحبّذ الأسماء الحركية أولاً أو الاسم مجرداً من الكنية، قال إن أفضل الطرق في العمل السري، هي النشاط العلني، «الصحيح أننا نأكل ونشرب ونغني ونحكي مثل الناس، عَ المكشوف». ثم قال إن سلوك القميص المخطط يشبه التمثيليات في الراديو، يشبه ناس الراديو. أصوات تحكي من قماش كتاني ملون، وأنت لا تعرف أين هم. وتطبيقاً لنظريته، دعاه إلى بيته. «خمس دقائق» قال. ولأول مرة، يعرف كريم أن شاباً آخر يكبره بسنة واحدة، يمكن أن يستأجر غرفة من أجل العمل، لا من أجل الدراسة.

فتنه هذا، خاصة حين فكر أنه سيكون قد تعرّف إلى شخص ينتمي إلى البروليتاريا (فكمال النعماني، حسب تعريفه لنفسه، كان فرّاناً).

لكن الغرفة لم تكن تختلف عن غرف الطلاب، باستثناء مكتبة صغيرة مؤلّفة من أربع سحاحير خشبية، تضم روايات، وكتباً في الفلسفة، ودفاتر. وكان هناك فراش واحد، ولحاف ووسادة وأواني مطبخ بسيطة. «تشرب شاي؟». كاد يهتف بالموافقة، بسبب شهوة حارقة إلى ذلك السائل النبيذي الساخن، ولكنه قال بهدوء: «إي». شرباه بعد قليل بصمت. قال النعماني: «القميص المخطط مثل كعب الجمل لا يلعب ولا يلاعب». قال كريم: «الرجل متحمس»، فقال كمال: «شاكر متحمس مثله». ثم أضاف إن القميص يقول إنه طفل يساري وإنه سيذهب حتماً إلى الأحزاب اليمينية.

بعد الشاي، أخذه إلى الفرن الذي يعمل فيه. كان فرناً قديماً في زقاق بلا ظلال، بدا بائساً من الخارج. أما في الداخل، حيث كان ثلاثة عمال يعجنون الطحين في عجانات كبيرة من المعدن، فقد كان سواد طحيني، أو طحين مسودّ يغطي جميع جدرانه. يتخلل ذلك خيوط عناكب متهالكة، أو جديدة. وبرز بيت النار، بشدقه المعتم المفتوح على آخره، مثل جنّي. مشهد باذخ للمكان الذي ينتج مادة الحياة. شعر بالرهبة، حين عرف أن الموكّل بالخَبز هو كمال نفسه. وازداد إعجابه به، ولم يخفِ سعادته، عندما اقترح عليه أن يبقى برفقته، ليرى كيف يعمل، «الليلة بدنا نبدا بكير». ومع أن قبوله يعني خرق الاتفاق الذي عقده مع الجزيري، الذي اشترط، منذ البداية على كل مستأجريه، ألّا يتأخروا خارج غرفهم ليلاً. غير أن المعادلة رجحت لصالح ما حدث: تعشّيا جبناً، وشاياً (للمرة الثانية) وخبزاً إفرنجياً طافحاً بالبياض. ثم بدّل كمال ملابسه، وارتدى بدلة عمل تفوح منها رائحة طحين، وتبقّعها آثار عجين يابس. وخُيِّل إليه، حين قاده

كي يقف قريباً منه، أن التحالف المعقود بينهما، سيكون شرارة لتحطيم الحاضر، أو وقوداً لتخطيط المستقبل. وهو أمر لم يكن متوقعاً، أو محسوباً ضمن أي فكرة من أفكاره. ثم أتت أخيراً، تلك اللحظات المختارة، حين بدأ كمال العمل. أشعل النار بهدوء أولاً، فشبّت صفراء على قواعد من الزرقة، أخذت تسخن ببطء. كان صوت هدير يلحق بالشعلة، داخل البيت القرميدي، حيث أخذ كمال يؤجّج النار، بمفتاح دائري لاصق بالحائط، إلى أن اكتمل خطّان شيطانيّان من لهيبٍ سعيريّ هادر.

ستمرّ أيام كثيرة، دون أن ينسى تلك الحركات البارعة التي أدخل فيها كمال الأرغفة الدائرية إلى ناره، مرفقة بالإيقاعات المتضاربة لمراحل الخبز الأخرى. وباستثناء القلق من نتائج اقتحامه الليلي لسور دار الجزيري، فإن كل شيء بدا له منسجماً، ومليئاً.

راح يراقب السماء قبل أن يغفو.

8

أول حزيران 1959

حين سمع أن كريم سيسافر مع الوفد، لم يستطع عمار التوت أن ينام إلا في الهزيع الأخير، من ليلٍ صيفيّ ملأه برذاذ الشتائم التي كان يبرّد بها سخونة حلقه، أو أرتال الجمل الساخطة التي كان يحاول أن يرتق بها قهره من تلك الدسيسة الغامضة التي أوصلت كريم إلى عضوية اللجنة. لم يستطع ردع غيظه، لكنه لم يتراجع عن عرضه الذي وعد فيه أن يضع سيارته في خدمة المشروع الجماعي مجاناً، على الرغم من أنه لم يؤمن بتلك البضاعة قط. وقد علّمته الجندية أن الكتب حصون الضعفاء، ملاجئ الواهمين العاجزين الذين يختارون العزلة، بدل أن يخرجوا إلى الشمس. ولكن أحداً لم يُصغِ إليه. والمشكلة أنهم قارنوا انفراده في الوعر، بالصورة الخائبة لقرّاء الكتب.

لا ينكر أن سكنه المتطرف بات حماقة محضة، وقد قال لحسن اللوف إنه قادر أن يثبت لإخوته أنه أكبر من حفنة تراب، ومن كومة حجارة منخورة. ولكن الوقت، والحوادث، امتصّا موقفه، وقزّما وجوده، بحيث بدا مثل ثعلب وحيد ومحطّم وخجل من حيلته؛ إذ لم تصل رسالته إلى أحد. وكل ما استنتجوه هو أن اختياره لم يكن مسيّجاً بالشهامة. ابن مالك

قال إنهم يظنّون أنه عاجز، لا يستطيع أن ينام مع امرأة. وتلك الوشاية (التي رجّح أن كريم الزهر روّجها عنه) أخرجته من وكره، وقد أيقن، ذات ليلة، فيما كان يدخن، ويرقب النجوم، أنه ظهر مثل متصوّف كاذب بالفعل، بحيث أعطى ذلك الولد الملحد، الفرصة كي يجعل من صومعته التي اعتصم فيها كرسول، نفق جرذان، ومن تبتّله الذي زها به، فراغَ خصيّ.

لقمان حاول أن يبرّد غضبه؛ إذ لم يكن في حسابه، أنّ ذلك الحلاق سيرسل ابنه كريم برفقته إلى الشام، من أجل تسليمه مئتي ليرة، ثمناً لأرض التل التي باعها له، قبل يومين من السفر، يأخذها دَيناً من صديقه الشامي القديم عبد الله عمّار.

وقد رفض فكرة تكليف حليم بذلك، دون أن يقدّم أعذاره. «هذا يخصّني»، قال له، واشترط أن يُسلّم عقد البيع لكريم أيضاً، أثناء استلام المبلغ. «هذا كل شي» قال لقمان معتذراً: «والولد مش رح يرافقنا إلا بالطريق».

غير أن عمار ظلَّ يشك بأن وجود كريم كان مؤامرة. وربما اتفق المعلّم توفيق مع عبود الحلاق من أجل دسّه بين أفراد المجموعة، ليشكّل ثقلاً خاصاً في اختيار الكتب. وكان هذا يقهره، وقد أيقن أنها ستكون معركة خاسرة بين متعلّمين، وأشباه أميين، دفعتهم حسابات القرى ليكونوا أعضاء لجنة كتاب.

كريم تجاهل البرود الذي قابلوه به، واكتفى بالفرجة على الطريق. وحين وصل إلى دمشق، لم تكن المدينة المكتظة، ولا الشوارع المتقاطعة، ولا الضجيج البشري المتقدم بلا توقف في كل اتجاه، هي التي أدهشته وحسب، بل ذلك الضوء الشمسي الغريب الذي غمره، حين نزل من السيارة، ووقف على الرصيف الغريب المشغول بأصوات، وسلال باعة، وعربات قديمة. شعر بالدفء (وسوف يستعيد هذه الثواني القاطعة المداهمة، دون

إرادة، مستبدلاً بالشوارع طريقَ أسفار ممتدّة بلا نهاية، وبضعة منازل مسوّرة على أطراف صحراء).

لم يكن يعرف متجر عبد الله عمار. وقبل أن يخاف، وجد لقمان يضع ذراعه تحت إبطه، ويقول لوفد السماقيات: «يا جماعة، أني ما بفهم بالكتب وما بعرف أكثر من تغريبة بني هلال، وسيرة الأميرة ذات الهمة. اعفوني!».

البراعة التي تخلّص بها من رفقة وفد الكتب، أذهلت كريم. بدا لقمان متوعّكاً مثل عجوز، وقد ارتعش صوته، وارتخى فكّه، وتشبّث بذراعه، قبل أن يرفع يده بتحية وداع للجماعة: «اشتروا، وتعالوا عَ قهوة البرازيل، رح نكون هناك». وقاد كريم، متجاهلاً نظرات حليم الحانقة، وارتباكه المحرج.

شعر أنه في لعبة نزوة كهل وهَنَت حماسته، وكاد ينتزع نفسه من ذراع لقمان، لكنه لم يفعل، وانقاد ضعيفاً، رخواً، يخالط تحرُّكَه فضولُ ولد. كانت دمشق هادئة في راحة الضحى، فسأل لقمان: «منروح لعند عبد الله عمار؟»، فقال لقمان: «طبعاً، شو جايين نساوي؟!».

مشيا إلى الحريقة. وهناك دلّه على متجر عبد الله من بعيد، وقال: «رح استنّاك على باب السوق. بهذا المكان» وأشار إلى زاوية بين بناءين: «لا تتأخر. لا تاكل، ولا تشرب! أنا عازمك».

ومن هناك اتجها ثانية، في رحلة عودة (كانت مظفّرة هذه المرّة، فلقمان الذي صار مالكاً لمئتي ليرة، سرعان ما أخذ سيارة أجرة). تغدّيا في مطعم زجاجي، ثم أخذه من يده، صاعداً نحو البرامكة. هناك ولجا بناء قديماً تفعمه روائح عطور رخيصة، ومنظفات حريفة، ومشاهد غريبة، حيث كانت ثلاث نساء يدخّنّ. فهمس كريم حين رآهن: «فكّرت إنو مستشفى». ضحك لقمان، وألقى التحية على امرأة تستلقي نصف عارية على سرير حديدي فضّي: «مستشفى؟ إي صحيح. بس هذا بداوي الأرواح». «شو

يعني؟» سأل كريم، دون أن يفهم. فقال لقمان بلا مواربة: «هذه كرخانة». شعر أنه سيتقيّأ، وفكّر أن يعود. ولكن لقمان شدّه من يده، صاعداً به إلى فوق. استغرب ركاكته، وقال إنه يبدو مثل تيس. فلقمان لم يكن في أي يوم صديقاً له، ولم يكن فارق السن هو السبب، وإنما افتراق عالمين. وسخر من اللحظة العجيبة التي تمكّنت من جمع اثنين من الخصوم السياسيين، لم تحمل أي فكرة إمكان جمعهما، وأين؟ في محل شهوات رخيص. وازداد سخطه، حين تذكّر أن هذا الرجل كان ذات يوم يخطّط لاستلام سلطة وطن. وها هو يتصاغر إلى حجم بيك مفلس مبذّر باحث عن فاحشة عابرة.

أما الترحيب الذي قوبل به لقمان، فقد كسا كريم بأسمال التابع، ووجد نفسه يسير متخلّفاً خطوة، عن قامة أبي علي، ويهرول مثل ولد، وراء الأب النشيط، في الممر المطلّ على غرف تظهر فيها نساء خامدات على أسرّة عتيقة، بنات صغيرات بشعور منفوشة، سمينات مترهّلات يشربن الشاي، نحيلات طويلات يتنزّهن وراء النوافذ. نشف حلقه، وتباطأ في مشيه. فالتفت لقمان نحوه وأمره: «عجّل!». كانت لكمة معبأة بلهجة جافة بلا ودّ. وكان يقودهم رجل قصير يضحك. وارتقوا درجاً جانبياً معتماً. وحين صاروا في الأعلى، لاحظ وجود غرفتين مغلقتين، تطلان على صالون صغير فيه ستة مقاعد ضخمة. وضع القصير الضاحك يده على صدر كريم وقال: «خلّيك هون!»، ثم فتح باب إحدى الغرفتين، ودخل إليها برفقة لقمان. تلك اللحظة لن تنمحي من ذاكرته. عذّبه عجزه عن فعل شيء مناسب يليق بما سيحكي، وانطباعه القاتم عن المكان، وازدراء القوّاد له. وهلع من فكرة أنه لن يستطيع نسيان ما يحدث. سوف تبقى هذه التفاصيل لاصقة برأسه كعلقة، يشدّها إليه صمغ ضعفٍ لا إرادة فيه.

ثم إن اعتذار لقمان اللاحق لم يكن تصحيحاً، بل مجرّد إعادة إلحاق،

حاول أن يعيده فيه إلى موقع آخر؛ فقد خرج بعد عشر دقائق، وصاح: «أيقظها»، ثم قال له: «هذه اختصاص شباب، شوف!»، ثم دغدغ خاصرته وقال: «ارفع راسنا هه!». ظلَّ كريم يحدّق إليه ذاهلاً. هل سيطالبه، بعد قليل، بشرشف دم؟ وانتصبت أمام عينيه فجأة، كل تلك الكلمات التي حفظها. كانت العاهرة قد تعرّت، وشمّ رائحة صابون يحبها. ثار جسده، واشتعل جلده بحبيبات برغلية، غابت المفردات المضادة، المندّدة، وحلّت فيه رغبة جهيرة، كي يقترب من تلك المرأة التي يرى عبرها، أول جسد أنثى. سمعها تقول: «تعال!». فقال: «لأ».

«شو لأ يعني؟».

«يعني ما بدّي».

أعادت الغطاء، وقالت بجفاء: «اطلع من هون لكان!».

فخرج فوراً.

ضحك لقمان حتى الموت، وقال له: «ولك كلّه بعر، بس بتعرف؟ حبّيتك!». وقد أحبّه فعلاً، وفرح في أعماقه، لأن الولد مضى وراء أيّ شيء يخصّه. وحين مشيا باتجاه المقهى الموعود، فكّر أنه دبّر هذا المشوار، منذ أكثر من شهر، من أجل نفسه وحدها، لا حبّاً بالكتب (اللعنة على الكتب)، بل شوقاً إلى عصمت التي لم يرها منذ أكثر من ثلاثة أشهر؛ فجيبه الفارغة، منعته من المجيء إلى الشام طوال تلك المدة، واكتفى بقدح العرق الذي كان يلطّف به مزاجه الناري المعبأ بالشوق إلى النساء.

صار العرق، بمرور الأيام، أكثر أصحابه قرباً إلى روحه. وكان يكلّم الكأس في لحظة البداية، ويشمّ البطحة الصغيرة بعمق، يتلمّظ بعد أن يرشف الشفافة الأولى، ويطلق آهة استحسان، ثم يمسّ لسانه بكسرة من الخبز، ويأخذ نفَساً عميقاً من هواء الوعر.

مرة، سمع أن أعداءه يقولون إن كأس المساء هي التعويض الأبيض، عن الخسائر السوداء في الحياة، فسخر من ذلك التفسير الخائب الخالي من الإشراق، يخترعه معلولون مرضى، لم يذوقوا تلك اللذعة الملوكية المرعشة، التي تنعش الروح والجسد معاً. تعويض؟! هه. عن المال الذي راح مثلاً، أم عن الأرض، أم عن الفشل؟ لا يمكن. فوقته لا يزهو، إلا في اللحظة التي يرشف فيها من الكأس البيضاء المتأججة. ووجود بطحة صغيرة ممتلئة في خزانة غرفته، يبعث في نفسه، إحساساً بالطمأنينة والرضا، لا يوفره أي وجود آخر. تعويض؟ لا. صحبة؟ نعم. وحين يتوفر المال، فإن عناق امرأة مثل عصمت، يضفي على المذاق فخامة نوعية، تبدّد لفحات القرف أو القلق التي تنتابه. ولعل حظّه أو عطف الله عليه، هو الذي وضع هذه المرأة في طريقه. «أنت عاهرة مباركة» قال لها بعد المضاجعة الأولى، قبل خمس سنوات، فقهقهت من أعماقها، بسبب المفارقة، الطيبة، ثم عانقته بودّ، وقالت: «وأنت ثور برّي».

لم تكن تعرف أي شيء عنه، عدا الجغرافيا التي جاء منها. ولهذا لم تدقّق في ملاءمة الوصف (الذي اعتبره لقمان طائشاً وخالياً من الود) للرجل. كانت تتحدث وفق معايير المحل، كما قالت له، وهي تسخر، في أعماقها، من اعتراضه على الكلمات، في الوقت الذي يغرق فيه، حتى أذنيه في الأفعال. لكن الزمن تكفّل بإصلاح الانشقاق، فصارت تحذر من مخاطبته، بأسماء الحيوانات، أو صفاتها (وهي مجازات كانت تحبّها)، فيما صار هو يرغب، مرة بعد أخرى، في سماع تلك المفردات التي ظهر أن لها مفعولاً منشطاً يثير رجولته، بدل أن يغضبه. «عجيب!» كان يتساءل حين ترك المحل، ما الذي يحدث هنا، مشيراً إلى رأسه، أو هنا، مفكّراً في عضوه، حتى يكون للكلمات ذاتها، وجهان، تأثيران مختلفان؟ هل هو المكان؟ أم الزمان؟ أم البشر أنفسهم؟ لكنه لم يتمهل كثيراً ليعرف

الجواب، فاللحظات كانت أقوى من المعاني. وما يهم في نهاية الأمر، إنما هو المذاق، كما قال لعمار.

لم يعلم أيضاً أيّ شيء عن عصمت، ولم يحاول أن يفرض عليها إقامة مختلفة. وفي السنوات التي كان ما يزال لديه إرث من والده، كانت زياراته لها تطّرد، فكان يقيم نصف الصيف، عند حسن شمال الذي هاجر من السماقيات، منذ منتصف الأربعينيات، واستقر في العاصمة. وكان حسن خزّافاً أتقن مهنة لم تكن معروفة في جهات الجنوب. وقد رحّب دائماً بشيخ بلده، متباهياً، أمام جيرانه، وأصدقائه، بالتشريف الخاص الذي اختصّ به.

اشتاق لذلك الفاخوري الآن. لكن زياراته تباعدت كثيراً إلى دار متعته. ورغم أن عصمت استطاعت أن تقدّم له منحة نصف شهرية مجانية، لزيارة المحل، فإن كرامته، وهي كل ما تبقى له، كانت تجعله يرفض أن يعاشر بنت هوى مجاناً. قال لها: «اطلعي من المحل، وننام مثل زوجين». فنظرت إليه حائرة، ثم ضحكت، وضربت كفّاً بكفّ.

لكنه لم يتراجع. ومع أن رفضه لم يكن أخلاقياً، فقد استطاعت المرأة أن تنفذ إلى قلبه بالفعل. «هل يحبها؟»، سأل نفسه. لكن ما هو الحب؟ أن تنشغل بالحبيب، معظم أوقاتك؟ أن تسامحه؟ أن تهبه اللحظات الحميمة من جسدك؟ إذا كان هذا هو الحب، وهو ما لم يجرّبه في حياته، فإن تعلّقه بعصمت، ينتمي إليه. صارحها بذلك، فقهقهت أيضاً. «بجدّ!»، قال: «إذا كنت مستعدة لنتزوج. أنا حاضر». قدّم العرض بشجاعة محبّ، وآمال صياد، وانتظر متكئاً على الحافة. نهرته بغضب المرأة التي اعتادت على سماع مثل هذه الترّهات، منذ صباها. فقد اعتادت على ولاءات الغلمة، وطاعة الأهواء المبذولة على شرشف اللذة. وكانت تعلم أن الإغواءات التي يبذلها الرجال بسخاء، وهم بين فخذيها، ليست سوى مكر مرهون

بقدرات الظَهر. فكانت الكلمات تدخل من هذه الأذن، وتخرج من الأخرى. ليأتي رجل آخر، ويكرر العبارة ذاتها، أو مرادفاتها، ثم يمضي. غير أنها أدركت، هذه المرة، أنها تواجه حالة أخرى. وبعيني خبيرة، اكتشفت أن جميع المعطيات كانت تؤكد فكرة السذاجة؛ فأمّية الرجل في شؤون النساء، وطبعه الفلاحي، وأصوله المذهبية المتشددة تجاه الرذائل هي التي قادت خطاه إلى تقديم الطلب البيتوتي الدافئ.

لم تجد في فمها سوى «لأ»، بحمولة ثقيلة وحاسمة من الرفض والمسايرة في آن واحد، خشية أن يظل في رأسه (الذي أحبت فيه تلك اللبدة السوداء الراسخة من الشعر الكثيف) أيّ هامش عشقيّ، أو أي إشارة ازدرائية.

بعد الظهر، وصل توفيق الخضرا، وحليم، وعمار، وابن مالك. سلّموا وجلسوا. وطلب المعلّم شاياً، وقال إن الكتب جاهزة.

بدا حليم غاضباً؛ فالتفاصيل التي حدثت اليوم، لم تكن متوقعة أبداً. ومع أن انشقاق لقمان وكريم لم يزعجه - بل نظر إليه كاختبار مناسب - فإن وجعاً خفيّاً استقر في صدره، وظلَّ يخزه، بسبب التمييز الأبوي الذي فضّل كريم عليه ومنحه الثقة، في وقت كان يفخر فيه، هو، في البلدة كلها بأنه لم يكن خازن المال فقط، بل القائد وصاحب الاقتراح أيضاً.

تغاضى عما حدث، تجاه قلقه من ذلك النقص الخطير في عناوين الكتب التي كان يرغب فيها، ويخطط لشرائها. وقد اكتشف أن ثقافة العالم كله، زبالة، لا تتحدث إلا عن شؤون الدنيا الفانية، مهمِلة، عمداً بكل يقين، شأن الله. أما المكتبة العربية فكانت شبه قاحلة، من كتب الله التي تخدم أغراضه. ولم تكن الكتب الدينية الأخرى متينة، بحيث اقتصرت على التعاليم، والعبادات، والتكاليف البسيطة التي يعرفها جميع الناس دون كتب. الأهم - كما قال لخيرية زوجته - أن يكون لدينا كتب

تعرف كيف تجعل أي واحد من هؤلاء الناس الكافرين، يتأكد من أن الله لا يمزح. وأضاف: «بتعرفي شو بتمنّى؟». قالت: «شو؟». «إنو يكون عند ربنا كاميرا تصوير مثل آلة نازي، ويبعث لنا صور جهنم. ساعتها رح قول شوفوا! صدقتوا! ويومها شو بيصير؟ كل الناس بيتركوا لينين، وعبد الناصر وعفلق، وبيمشوا صحّ».

فجأة، لاحظ أن كريم، كان قد أشعل سيجارة، وبدأ يدخنها (قال لخيرية في ما بعد إنّ كريم بدا مثل داعر)، فانقضّ عليه، وانتزعها من فمه، ورماها، وداسها وهو يصرخ: «استحِ! احترم الناس!».

ذُهل الجميع، والتفت زبائن المقهى نحوهم. ولكن حليم لم يستطع ضبط غضبه، فهاجم أخاه، وهزّه من قميصه: «شيوعي! ملحد!». حجّز لقمان، وعمار، وابن مالك بينهما، ووضع المعلّم كفّه على فم حليم، وهو يغمغم: «هس! هس!».

كانت تلك الاتهامات، قد بدأت تشكّل خطراً على الناس. وبسبب اندفاع السلطة، لاعتقال الشيوعيين الذين لم يعلنوا عن تأييدهم للوحدة، وأبدوا تحفظات مكتوبة تجاهها، فقد انتشرت التهمة كقرار إدانة، يستخدمه الخصوم بعضهم ضدّ بعض، للتعجيل في تصفية الآخرين. المرعب، كما فكر المعلّم، في اللحظة الخاطفة التي كال فيها حليم اتهاماته ضد أخيه، أن السلطة كانت تعتقل الأفراد بجريرة الظن أو الإشارة العلنية. وعلى الرغم من أنه لم يكن متأكداً من ارتباطات أعضاء اللجنة (وإنّ بعض الظن إثم)، فإنه لا يستطيع أن يجزم ببراءة أيّ واحد منهم، من علاقة ما، سرّية بالمباحث أو الشرطة. وقد اشترك في اللجنة، لأنه يعلم أن المشتريات ستكون علنية بالضرورة، ولأن أي واحد فيهم لا يعرف شيئاً عن الكتب، أو المؤلفين. هذا إضافة إلى أنه يميل دائماً إلى حساب الفضيلة. وحين يفكر بالأسماء، كلقمان أو عمار التوت أو ابن مالك أو حليم، يصبح أكثر رحمة، ويغدو من

الصعب عليه أن يصدّق أن هذا الرجل الذي يعرفه منذ أن وعى الدنيا، يمكن أن يكون واشياً. تذكّر الآن ذلك الشاب الذي كان يدرس في مكتب عنبر، يقدّم نفسه لإدارتها: توفيق الخضرا. ثم يعود بعد ثلاث سنوات، وقد تلقى إلى جانب العلوم، جرعات ملهمة من ثقافة تمجّد وحدة الوطن، وتزدري انتماءات القبائل، أو مظاهر الفخفخة المشيخية التي تعطب تفكير الغالبية، ثم يجازف، دون تردد، في رفض الانخراط تحت عباءة أحد، ليجد نفسه يعيش عزلة ثعبان. الغريب أن أول من أبعده، هم آل الخضرا أنفسهم، وقد أحبطهم أن المتعلّم القادم من العاصمة، يدعو إلى مصالحة، بينهم وبين آل لقمان وآل التوت، في وقت كانوا يستعدّون فيه للمفاخرة بابنٍ جسور، اخترق سقف الطموح، لا في السماقيات وحدها، بل في المقرن كله، واستطاع أن يعيش في مدينة، ويتحدث إلى شكري القوتلي ذاته، ويعرف فارس الخوري، وأن يرتدي بدلة رمادية مع ربطة عنق. كل ذلك تلاشى، واختفى، حين زار علي التوت وشرب القهوة أمام دارته البيضاء، شمالي السماقيات. كان لآل الخضرا، ثأر بائت عند آل التوت، منذ خمسة عشر عاماً، يتوارثه أبناؤهم جميعاً، مع الأحرف الأولى التي يتعلمونها. وقد عجزوا دائماً عن استرداده.

كان ذلك بعد مذبحة العين التي قُتل فيها اثنان من آل الخضرا، وواحد من أبناء التوت، وهو ميزان هالك، تمكّن قانون القبائل من تصحيحه (بعد تدخّل حمود السراب زعيم آل الخرفان): الديّة المالية بدلاً من الدم. كان آل التوت خلال ذلك، قد استطاعوا اختلاق خؤولة ضائعة مع آل لقمان، ومصاهرة مستعجلة مع آل عجيب، وهي مكاسب كافية لجعل التحالفات القبلية قوة ضغط حاسمة، في قبول الخضران للبديل المالي.

غير أنهم استطاعوا الانتصار لأنفسهم من الداخل؛ إذ نجحوا في تجنيد جميع أبناء العائلة، ذكوراً وإناثاً، لاحتضان جبل من الضغائن، أمكن له

أن يقطع الطريق على أيّ محاولة للنسيان. وحين زار توفيق، علي التوت، كانت الدماء قد جفّت حقاً. ولكن التعصب والانغلاق المدروس، أبقيا حزازات القلوب خضراء طوال الوقت. وكان التأنيب الأول الذي تلقّاه على زيارته، من كبير آلِه نصر الدين الخضرا، قد اقتصر على جملة واحدة: «القهاوي رخوة يا توفيق. والدم سميك». لكن المتعلّم المتحمّس، خرّيج مدرسة الليبرالية المدينية، قال: «هذا انتهى من زمان يا نصر الدين، وما علينا إلا ننسى».

فقال نصر الدين: «ليش بالمكتب علّموك تنسى ولّا تتذكّر؟».

قال توفيق: «قصدت التسامح مش النسيان».

«هذه كلمات الجبناء» ردّ نصر غاضباً من الموقف، ومن ذِكر اسمه مقشّراً من أي لقب.

فقال توفيق بهدوء: «الجبناء بيتحركوا بالظلام يا نصر الدين (ردّد الاسم مرة ثانية بغيظ استفزازي، ودون أي لقب)، وأنت شفت إنّي رحت بضوء الشمس». عندئذ تغيّرت سحنة نصر الدين، وقد أدرك أن استعادة مارق مثل توفيق، تحتاج إلى مشاعر أبوّة، بدل توبيخ السيد. فزفر وقال: «طيّب ليش رحت؟»، فقدّم توفيق المطالعة الأولى من أفكاره النقيضة. واختار منها تلك الآراء التي تركّز على إظهار الفارق الإنساني، بين قانون العشائر والقانون المدني؛ فالثأر القبلي يولّد ثأراً موازياً، والدائرة التي تنفتح تظل نازفة إلى ما شاء الله. ولكن القانون لا يريد للضحية أن تلبس رداء القاتل. وهو يكفل معاقبته بروادع بديلة تمنعه من الانتقام مرة أخرى. ثم ذكّره بأنه هو الشخص الوحيد المكلّف بالثأر، لأن آخر قتلى آل الخضرا، كان شقيقه شفيق الخضرا. ولكن الموضوع انتهى، ولم يكن على استعداد لأن يَقتل، أو يُقتل، كما أن ضميره، لا يمكن أن يرضى بالتضحية بأيّ واحد من أولاد عمه، من أجل رذيلة اسمها الانتقام.

«لا تقتل» قال نصر الدين: «لكن لا تزور القاتلين».

«لا تنسَ إنّا قتلنا راسهم شي يوم».

«ومين بدأ؟»

«مش مهمّ مين يبدأ، المهم مين بيعرف كيف ينهي كل شي».

كان يعتقد أن الكلمات أقوى من الأعراف، لكن أقرباءه عبثوا بجمله وسخروا من ذرائعه، وأبعدوه (أو ابتعدوا عنه) قسراً إلى عزلته، دون أن يسمحوا له، بعد ذلك، بتقديم أي واحدة من مرافعاته التخريبية، حين لم يستطع أيٌّ منهم فهم دوافعه.

لكن تلك الإجراءات العقابية - مثل عدم زيارته، وعدم دعوته إلى مناسباتهم الخاصة، والامتناع عن إلقاء التحية عليه أحياناً - لم تستطع أن تهزّ قناعات الشاب (كان آنئذ شاباً!) المفعم بحسٍّ رسوليّ (يذكر هذا بحزن) ولا أن يشكم اندفاعه. وقدّمت المصادفات دعماً استثنائياً له، فقد بادلته غازية بنت صافي السهلي، الإعجاب حين التقى بها، في الحفائر. كانت في العشرين من عمرها، منسيّة، ومضطربة، بسبب حظ قاحل جعلها على حافة عنوسة مرعبة. لكن نظرة واحدة منها إليه، كانت كافية لجعلها تلج إلى حبة قلبه. كان جمالها معكوراً بسبب الانتظار. لكن حركة تبرّج واحدة ستجعل وجهها صافياً كالماء، هادئاً، يشفّ عن مخابئ جماله. وقد استطاعت النظرات المتبادلة أن تفي بكل شيء. وحين سأل صديقه - نواف السهل - عنها اكتشف أنها كانت قد تحققت من شخصيته أيضاً. وبعد أسبوع حضر مع والديه وشقيقه وطلب يدها.

أقرباؤه، وأبناء عمومته، لم يرفضوا دعوته إلى العرس. لا حبّاً به، بل من إحراج عائلي لا يستطيعون فيه، كشف أسباب غيابهم عن مناسبة خاصة. وسيكون نصر الدين نفسه هو من سيتولى الإشراف على جميع

الاستعدادات، ابتداء من تقرير قيمة المهر، وانتهاء بصبِّ السمن على وجه المناسف المليئة باللحم والبرغل.

المصادفة الثانية انتشلته تماماً، حين تم اختياره من قبل سلطة الانتداب، ليكون معلّماً، في مدرسة السماقيات التي كانت ستضم تلامذة منها، ومن ثلاث قرى مجاورة هي الحفائر، وعين الزبدة، والصخرات، ولم يكن بوسع آل الخضرا الذين فوجئوا بالمكانة الرفيعة التي تبوّأها ابنهم (كما صاروا يطلقون عليه الآن) إلا أن ينسوا مروقه السابق، ويمسحوا عن أفواههم ألقاب الازدراء، مقابل الزهو والخيلاء والشعور بالتفوّق الذي منحه مركزه الجديد للعائلة المعذّبة من العجز عن تحقيق توازن الموتى مع آل التوت.

وقد أتعبه حليم اليوم - قبل خاتمته التهريجية هذه - في المكتبة الأولى التي زاروها. كانت جزءاً من بناء جامع يمتد مجاوراً لرصيف عريض مطل على ساحة الملكة فكتوريا، ولها واجهتان زجاجيتان مليئتان برفوف الكتب. وثمة مقهى صغير صُفّت فيه الطاولات والكراسي، كان يعبق بروائح التنباك، والدخان والشاي وأصوات خشخشة طاولات الزهر. وفي الداخل كان بائع كتب نحيل وطويل يرتّب رفاً، فأخرج حليم فجأة الأوراق الثلاث التي كتبها الملازم لهم، وهي توضّح رغبة الشرطة في عناوين الكتب، وقال بلهجة استعلائية قاطعة: «أيّ كتاب ما بيعجبني ما بدفع ثمنو». لم يقل توفيق شيئاً، ووضع سبابته أمام فمه، مشيراً لعمار وابن مالك كي لا يتدخلا. وقد راهن على أن حليم الذي يريد أن يسوق أهواءه، سيسقط جانباً بعد دقائق. فحدوده الضيقة، والقاحلة، لا توفّر له إلا بضعة استعراضات غامضة، سرعان ما يبدّدها الجهل وقلة المعرفة. وقد رأى أن الاختبار ذاته سيكبح خيلاء حليم، وهياجه.

معظم العناوين التي طلبها حليم، لم تكن موجودة. ولكنه عثر على

كتاب مترجم إلى العربية، بعنوان: «سلمان الفارسي»، فاشتراه، وأضاع نصف ساعة، وهو يستفسر عن كتب أخرى، ويحثّ المكتبي على مراجعة دفاتره، لعله يعثر على ما يريد. لكن الرجل ظلَّ يردد: «لا. آسف» إلى أن صرخ فجأة: «ما في. سامحني. روح اسأل عنهم بالسما»، ثم تنهّد، وغمغم: «أستغفر الله».

ردُّه العنيف، قدّم معونة طارئة وحاسمة لتوفيق، وأنقذه من استخدام أي لهجة إرغام أو إكراه أو سلب، قد تضرّ بالمهمة، وهي تخالف طريقته أيضاً (وقد همس عمار بأن الواجب يقتضي الآن تذكير حليم بأن لائحة الكتب وضعت بتوجيه من قيادة الشرطة). ولكن توفيق ضغط على ذراعه، رافضاً الفكرة التي ستضرّ به هو أيضاً، وبمكتبة البلدة، حين سيخالف الأوامر الدركية. وهكذا، خطا إلى الأمام، وقال لحليم: «تسمح؟»، ثم أخذ الأوراق، وراح يعدّ الكتب التي سيشترونها، مضيفاً إلى قائمة الملازم، أسماء عناوين غير موجودة.

اشتروا روايات جرجي زيدان، وتاريخه، عبرات المنفلوطي ونظراته، رائعته الحزينة تحت ظلال الزيزفون، فيليب دي طرازي، تاريخ الصحافة العربية، وميض الروح لتيمور. تاريخ آداب العرب، على السفود، وحي القلم للرافعي. تحرير المرأة، المرأة الجديدة، لقاسم أمين. عابر سبيل، أعاصير مغرب، ساعات بين الكتب للعقاد. حديث الأربعاء، في الأدب الجاهلي، حافظ وشوقي، قادة الفكر لطه حسين، الشوقيات (أربعة أجزاء) لأحمد شوقي، عصفور من الشرق، عودة الروح، حماري قال لي (نسختان)، سجن العمر، زهرة العمر، عصا الحكيم، يوميات نائب في الأرياف لتوفيق الحكيم. رادوبيس، كفاح طيبة، خان الخليلي، زقاق المدقّ، السراب، بداية ونهاية، بين القصرين، قصر الشوق، السكرية، لنجيب محفوظ. سيرة عنترة بن شداد لمحمد فريد أبو حديد. رحلات ماركو بولو، العوامل الفعالة في

الأدب العربي لأنيس المقدسي. كيف يعمل العقل العربي لبرت، أدباء العرب لبطرس البستاني، عجائب الآثار في التراجم والأخبار للشيخ عبد الرحمن الجبرتي. قصة الفلسفة لزكي نجيب محمود. تعليقات على هامش حاضر العالم الإسلامي لشكيب أرسلان. الأعلام لخير الدين الزركلي. صفحات من تاريخ سورية الحديث لحسن الحكيم. الثورة العربية الكبرى لأمين سعيد. جبل الدروز لحنّا أبو راشد. الساق على الساق فيما هو الفارياق لأحمد فارس الشدياق. طبائع الاستبداد، أم القرى لعبد الرحمن الكواكبي، مشهد العيان لحوادث سوريا ولبنان لميخائيل مشاقة. ست روايات عن أرسين لوبين اللص الظريف. تغريبة بني هلال، سيرة الظاهر بيبرس، سيرة سيف بن ذي يزن، ألف ليلة وليلة، طفولتي، حياتي، الأم لمكسيم غوركي. قوي كالموت لموباسان، الإخوة كرمازوف لدوستويفسكي. ابنة الضابط لبوشكين. سقوط باريس لإيلي إهرنبورغ. مرتفعات وذرنغ لإملي برونتي. حب وحرب لرومان رولان. السلطانة لميشيل مورفي. أرخص ليالي، حادثة شرف ليوسف إدريس. السّقا مات، في بيتنا رجل، أرض النفاق، نائب عزرائيل ليوسف السباعي. الرغيف، قميص الصوف، الصبي الأعرج لتوفيق يوسف عواد. المصابيح الزرق لحنّا مينه. سيرة الأميرة ذات الهمة... اشتروا... واشتروا...

تركوا المقهى، ومضوا إلى المكتبة لتفقّد الصناديق. هناك قال عمار: «تعرف شو نسينا يا توفيق؟ - كان يخاطبه كرفيق طفولة - نسينا الخرائط»، فالتفت المعلّم نحوه مستفسراً، فقال: «نعم، مكتبة دون خرائط ومصوّرات للعالم بتكون عميا».

اشتروا مصوّراً للوطن العربي، وخرائط لدول العالم، تشير إلى المدن والمراكز والقرى والطرق والتقسيمات الإدارية في كل دولة. راح عمار يتأملها، ويهز رأسه، متفحصاً باحثاً عن مكان ضائع، وقال فجأة: «هون

كنا! هون!» وأشار إلى أطراف قارة آسيا، ثم قال: «اشتروا أدوات هندسة!»، وشرح لهم بأن الخرائط بلا منقلة ومسطرة لا تساوي شيئاً، فاشتروها كلها. والاعتراض الوحيد جاء من ابن مالك الذي قال إنّ المصوّرات تحوّل المكتبة إلى زنزانة تعذيب تشبه فصول المدارس؛ لأنه لم يتمكن أبداً أن يفهم ماذا تعني تلك الخطوط التي يقولون إنها حدود الدول. وحين رافق والده إلى العراق، لم يكن مستعداً أبداً للقبول بأن خطوة واحدة تعني أن الإنسان صار في العراق: «يعني بعد متر بتصير ببلد ثاني؟». وأمضى أكثر من دقائق وهو يضع قدمه اليمنى في العراق، واليسرى في سورية. ولكن - فكّر - هل تحتاج جدران غرفة المكتبة إلى المصوّرات فعلاً؟ فجأة، تذكر، ضرورة أخرى، فهتف: «وصورة الرئيس جمال؟ ما اشترينا صورة!».

شعر المعلّم أن قلبه يكاد يقف. وتلهّى لقمان بسؤال المكتبي عن لفّة قطن. وقال عمار إن عليه فحص وقود السيارة، فقال لقمان: «خذني معك». فيما أبدى حليم حماسته: «صحيح»، وأعطى ابن مالك مئة ليرة، وقال: «اشترِ صورتين، واشتر أحسن برواز في الشام كلها، وأفضل قزاز! تسمع؟».

اضطروا للانتظار على الرصيف أكثر من ساعتين. أكلوا فلافل، ومخللات، وتركوا حصة ابن مالك، ملفوفة في ورق جرائد. أما الصورتان اللتان جاء بهما، فقد كانتا من حجم واحد. يظهر عبد الناصر في الأولى، وهو ينظر إلى اليسار، وقد ارتسمت ابتسامة عريضة على شفتيه. أما في الثانية فيمشي بالطول الكامل، وحيداً، وضاحكاً، وهو يخطو برجله اليمنى إلى الأمام ويرفع اليسرى قليلاً، استعداداً للمتابعة. كان واضحاً أنها التقطت على أساس عاطفي. وقد حاول المصوّر فيها أن يجسد بالأحماض والعدسة، تلك العلاقة التي تربط القائد بالناس. فمن الواضح، أنه يسير نحوهم، وأنهم يحتشدون خلف الورق الأبيض المقوى (في ما بعد سوف

تتحوّل مشية عبد الناصر المرتجلة، وضحكته البيضاء إلى نموذج يسحر شباب السماقيات الذين سيأتون إلى نازي حطّاب، ليستخدم أقصى طاقاته الفنية من أجل التقاط الصور لهم، وهم ينفّذون تلك المشية الرئاسية السامية).

قال حليم لابن مالك: «يكثّر خيرك، كنّا تبهدلنا لولاك».

فشعر ابن مالك بالاعتزاز، لا لأنه أنقذ اللجنة من ورطة فقط، وإنما لشعوره بالقرابة مع الرئيس. فلم يَعنِه في يوم من الأيام، الخداع والرياء اللذان يظهرهما كثيرون في حبه، لأن ميثاقه الشخصي معه مكتوب بلغة تشبه رباط المشيمة. «أنا أحبّك» همس من أعماقه للوجه الحنطي. (في تلك الليلة، حلم أنهما وقفا معاً أمام كاميرا نازي، وكان شعر الرئيس أسود كالليل. وحين التفتا إلى اليمين، رفعا أيديهما لتحية الناس. ثم رآه يلقي كلمة، وهو بالزي العسكري أمام حشود كالنمل، تهتف وتهلل وترفع الأيدي، وهو يقول: أيها الإخوة المواطنون. رأى نفسه جالساً في السيارة المكشوفة قربه. وحين حملوهما انقلبت. فاستيقظ، وصار يقول: خير إن شاء الله خير!).

خارج المدينة، أوقفتهم دورية شرطة. فتح شرطي سمين الباب، وراقب رجال المنارة، ثم طلب أوراق السيارة. لم يكن لدى عمار، إجازة تسمح له بالعمل خارج محافظته. ثم لاحظ الشرطي وجود الكتب، وكاد يقول شيئاً حين رأى الصورة الكبيرة المتكئة إلى مسند المقعد، فابتسم وقال: «شو القصة؟»، فأخرج المعلّم ورقة أختام يطلب فيها المقدم بلال، قائد الشرطة، بلغة حكومية زرقاء، تقديم الخدمات الممكنة لحاملها. ولكن الشرطي قال إن الورقة لا تلزمه، ولكن الرئيس على الرأس. وسمح لهم بمواصلة الطريق. فبدأ لقمان يهتف بحياة عبد الناصر. وحيّوا ذكاء ابن مالك وخواطره الملهمة. وقال له عمار: «لك عندي عشا!» لأنه اعتقد أن

الشرطي سيحجز السيارة بسبب المخالفة. وقال حليم: «سبحان الله، حتى وهو بالصورة خاف منّو الشرطي!»، فصرخ ابن مالك: «لأ مش خوف. هذا حب!». أذعن حليم حالاً، وقال: «حب يا أخي. نعم حب».

عمار صار يسخر من ورقة المعلّم: «صورة الرئيس بتمشّي أحوال البلد أكثر من كل الأختام فيه».

فقال توفيق: «مع هذا، إذا مشينا عَ الأختام بتكون أحوالنا أحسن».

ذُهلوا جميعاً، ثم صاح لقمان فجأة: «عاش الرئيس!».

فردّد عمار وابن مالك وحليم معاً الهتاف: «عاش! عاش! عاش!». عمّ الصمت بعد ذلك. ولم يقل المعلّم شيئاً. وشعر كريم بالقرف، واستعاد كلمات أبي النور الذي كان يتحدث عن طيبة الفلاحين، وعن الطبيعة البشرية الخيّرة، وانتابه الشك في أن يكون هؤلاء، يشبهون تلك الصفات التي تحتشد بها الكتب التي يقرؤها عن أمثالهم، وتساءل: أين هم؟ هل يمكن ألا تشبه الكلمات الناس؟ صحيح أنه رأى بعضهم في الحكايات؛ ولكن الحكايات لا تستطيع أن تكسو أي واحد من الأحياء باللحم والدم. ويبدو له الآن، أن الكائنات التي يحلم بها، ستظل من حبر مطبوع، عاجزة عن الخروج، من استقامة السطور، إلى تعرجات الحياة. هل يمكن أن يكون عمار الشوفير، أو ابن مالك من عمال وفلاحي الكتب؟ سيقول هذا لأبي النور في الاجتماع القادم، حين سيطالبه من جديد، بنقد ذاته، لأنه لا يعرف، ولا يعمل، جيداً في صفوف الفلاحين، ولأنه يعجز عن استمالة أحد منهم إلى فكرة الاشتراكية.

سيحدِّثه هذه المرة، أن مسعود شمال يظل يسأل: «وين هذا يللي اسمه الصراع الطبقي؟»، وأن حليم يكرِّر يقينه: «كلّو من عند الله. وما حدا بيقدر يغيّر مشيئته». أما حكايات عمار التوت عن النساء، والمغامرات، فتشدّ إليها أسماع ثلاثة أرباع أبناء السماقيات. شعب هوامش، فكّر. غير

أن المعلّم قال في المساء إنّ الحكايات تريح الناس من غرامات الدنيا. أما النضال فيحمِّلهم أعباءها. فسأله ما إن كان على الإنسان أن يذوق طعم السوط، من أجل أن يقاومه. فقال المعلّم: «إي. ولازم يشوفوا فوق راسو. ومنشان هيك كانت الثورات تخسر. بتعرف ليش؟ لأن الثوار بيحاولوا يحرروا الناس من الكلمات. ومسعود معو حق. لأنو بيعرف الظلم، شايفه، شايف لونه، ومش ممكن يشوف الصراع الطبقي، وإذا بتسمعوا مني غيِّروا الكلمات، منشان تصير تشبه حياتنا، مش الكتب».

سأل كريم: «يعني الكتب كذابة؟».

«لأ. الكتب بيضا. حبر على ورق. والحياة ملونة».

«دلني يا أستاذ! وين الألوان؟».

قال المعلّم: «صعب، ولازم تشوفها لحالك، وكل شي بقدر عليه هو إني أعطيك ضو، يمكن ضو.. ويمكن عكازة».

«يا ريت، حاسس إني أعمى فعلاً. بحكي للناس عن الظلم والقهر والاستغلال. بشوفوا الحل إنهم يتركوا البلد ويرحلوا. ما عاد في سيرة بالسماقيات إلا فنزويلا، وأميركا، ولبنان! ما حدا مستعد يظل هون، منشان نبدّل حياتنا هون».

«يمكن لأنكم مش عارفين تحكوا مليح. وتشتغلوا مليح. ويمكن لأنو ما حدا عارف يمسك إيد الثاني. ويمكن لأنو كل واحد مش شايف غير ظهرو عَ بينكسر، منشان هيك بِروح يدوّر على طريق يخلّصه، وهذا لأنو كل إنسان لون. ولازم نشوف ليش عَ بيساوي هيك. أو لازم نشوف شو عَ بساوي. ويمكن نلاقي شي يوم جواب. يمكن».

9

أيلول 1959

تحقيقات الجزيري، وأسئلته كلّها، راحت سدى، فالأولاد الذين تعجّ بهم الدار حافظوا على السرّ - كما افترض - بإصرار لئيم وحماقة متسرّعة، سببها أن معظمهم لا يعرف من هو أبو محمود الجزيري.

هذه مسؤوليته. فالقاعدة التي كان يتبعها دائماً مع مستأجريه (وهم غالباً من أبناء القرى القادمين شتاء، للدراسة في الإعداديات أو في الثانوية الوحيدة هنا) هي أن يعقد اتفاقاً (شفهياً دائماً، إذ لا حاجة لكتابة أي شيء) يتضمن لائحة ممنوعات ومحرّمات، جعلت داره الكبيرة (التي كانت تضمّ ستّ غرف خاصة بالمستأجرين، إضافة إلى أربع غرف جانبية لأسرته) محصّنة ضدّ المخالفات التي كان يشكو منها المؤجرون الآخرون، في المدينة كلها. وبفضل صرامته (وهي صرامة تؤكدها قوته الجسدية) فإن الأولاد التزموا دائماً بالشروط المسبقة التي وضعها قبل تسليم المفتاح: يُمنع السهر بعد التاسعة ليلاً. يُمنع الزوار أيام الامتحانات. يُمنع استضافة أحد (عدا الوالدين). يُمنع الإسراف في استخدام المياه. يُغسل المطبخ، والمرحاض المشتركين دورياً. وكانت إجراءاته حاسمة، في ردع المخالفين أو سحق المعارضين، إذا تطلّب الأمر ذلك. فما إن

يُخلَّ أحدهم بشرط جوهري، مثل سرقة الكهرباء، حتى يحمل أبو محمود أغراضه، ويرمي بها إلى الشارع، في أي وقت، قائلاً: «ما عاد لك بيت عندنا». ولا توجد قوة، في الأرض، تستطيع إعادة المستأجر الصغير، ولا تنفع في ذلك الاعتذارات أو الضراعات. فمثل هذا القرار الحاسم، يجب ألا تزعزعه مظاهر الضعف التي يُظهرها أولئك الأولاد الخبثاء، كي يكسبوا الوقت، أو يربحوا الجولة.

وقد آمن دائماً بأن القاطنين في داره، من التلامذة، والطلاب، زعران بالفطرة، آتون من القرى، بإرث ضئيل من الالتزامات المدنية، أو هم صبيان جاهلون، باتوا الآن بعيدين عن رقابة العائلة. وحين يفكر الآن بكلّ ذلك، وهو عاجز أمام المجرم، يوقن أنه كان دائماً على حق. وبالأمس سخر أمام عشرة رجال من تلك المهزلة اللغوية، التي غيّروا فيها اسم وزارة المعارف، لتصير وزارة التربية والتعليم، قائلاً: «أيّ تربية إذا كان نصف الطلاب يتشرّدون في الشوارع، يدخنون، ويتحرّشون بالبنات، ثم يريدون منهم أن يصيروا معلّمين مثلاً؟!». وبسبب يقينه أن الشر أصيل في النفس الإنسانية، فقد افترض أنه يظهر صافياً مقطّراً في شخصيات الصغار أولاً، وفي أبناء القرى ثانياً. وقد شرح ذلك لأحد أصدقائه، مقدّماً وقائع مباشرة، عن شذوذ الطلاب الريفيين، وفسادهم الأخلاقي، وعبثهم، وانخراطهم السريع، من أول يوم يأتون فيه إلى المدينة، في اللهو، والتفاهات. «شوف!» قال له حين كانا جالسين، أمام دكانه، مشيراً إلى بضعة أولاد يركبون الدراجات المستأجرة، وهم يصرخون، ويتنادون، ويُفلت أحدهم المقود، ويشرع ذراعيه في الهواء كالطائر، ويهاجم آخر أحد المارة، ليلتفّ من جانبه، كالثعبان، مخلّفاً وراءه الشتائم، حاملاً الضحكات. أو يقول: «طلّع!» دالاً على ولدين يدخنان أو يجمعان (بلا حياء) أعقاب السجائر. «هذا جيل فاسد» يقول معلِّقاً. وما حدث بالأمس ليلاً، أكد له (خاصة حين أعلن

عن يأسه من اكتشاف الفاعل، في ظل صمت تآمريّ رآه في أعين الأولاد الملاعين) أنّ آراءه عن طبائع هؤلاء الناس لم تكن صحيحة فقط، بل عميقة أيضاً، لأنها استطاعت أن تطول الجوّاني المخبّأ في نفوسهم، وقلوبهم.

كان جالساً، في الصباح، أمام دكانه وحيداً، يفكر في طريقة يردُّ بها على الاختراق الخطير لتشريعاته، حين لاحظ رفّ العصافير على حافة سطوح دار آل الحجري، فضرب فخذه بكفّه ودمدم: «هذه هي!».

بعد الظهر، عقد اجتماعاً لجميع المستأجرين الذين بلغ عددهم ثمانية عشر ولداً، أعمارهم بين الثامنة عشرة، والثانية عشرة، في غرفة كريم، واستعرض شروطه، ومبادئه، في محاضرة غاضبة، نزع فيها عن مرتكب الجريمة، جميع الصفات الآدمية، دون رحمة. ولمعاقبة الصمت (هكذا قال وسط ذهول الأولاد) قرر أن يقفل البوابة في الثامنة، وينقص الوقت المخصص للإنارة نصف ساعة، بحيث ينام الجميع في التاسعة صيفاً، وفي الثامنة والنصف حين مجيء الشتاء. وهدّد المجرمَ بأنه سيكتشفه وسوف يُريه ما ينتظره من عقاب، ثم غادر الغرفة دون سلام.

حين صار بعيداً، قال شاب اسمه طارق، ساخراً: «يظن نفسه حمورابي»، فضحكوا جميعهم، دون أن يعلم معظمهم من هو صاحب الاسم. ولكن اللقب بدا بإيقاعه، واقترانه باللحظات الرهيبة، لصيقاً بالجزيري، وكلمة سرّ مناسبة للتعريف به.

كان يعرف أنهم سيخرقون تعليماته في أي وقت. ولم يكن يستطيع مراقبة الدار كلها، بسبب انشغاله الدائم بدكانه من جهة، واتساع الدار من جهة ثانية، ورفض زوجته القيام بهذا الدور في غيابه أيضاً. ولهذا فقد بدت فكرة الصباح أكثر غنىً، وزاد تصميمه على تنفيذها حين لاحظ أن تشبيه الأولاد بالعصافير، هو عطف عميق في القلب، ولكن نصب الفخاخ لهم، يمكنه أن يبدّد هذه العاطفة، ويعيدها إلى قلب الواقع.

في غيابهم، أقام ثلاثة شراك خفيّة، وراء اللبلاب الكثيف الذي كان يغطي الحيطان الشمالية والجنوبية والغربية، التي رجّح أن الأولاد يتسلقونها للهرب، أو يعودون إلى الدار عبرها. بنى الشراك مثل مصائد الأنياص، حيث يمكن لدعسة خاطئة (وسوف يخطئون بكل تأكيد) أن تشدّ الأنشوطة المُحكَمة التي ثبّتها إلى الحائط بمسامير حديدية كبيرة، كانت مزروعة هناك، منذ أكثر من ربع قرن. ثم أخفى حباله جيداً، وراء النبات، ومضى إلى دكانه، مطمئناً راضياً.

*

أول صيد له، كان طلال الترابي. وهو فتىً من الجورة، وهي قرية في الطرف الشرقي للجبل، تعرّف إلى فتاة من السويداء، وخطبها في السنة الماضية، حين كان في الصف العاشر. كان مسموحاً له زيارة الخطيبة مرتين في الأسبوع، إحداهما صادفت يوم اجتماع الجزيري. ولذلك فإنه حين أمضى سهرته في منزل الخطيبة، لم تكن أوامر مؤجره خافية عليه، ولم يكن أقل خوفاً من أقرانه. لكن إغراءات الحب، كانت أقوى وأكثر صلابة من جميع المحاذير. وهكذا وجد نفسه يعود في الحادية عشرة، متأخراً أكثر من ساعتين، عن مواعيد الجار. كان الحل (الذي حدس به أبو محمود) موجوداً في خلفية الدار؛ إذ عبَر دار آل التركي المهجورة، وحبا على السطوح وبدأ ينزل إلى الدار، محتمياً بخضرة اللبلاب الذي كان يغطي أرجاء الحيطان، دون أن يعلم أنه يخطو نحو فضيحته، ورحيله أيضاً.

حين صار في الوسط تماماً، اكتشف الشراك. كانت قدمه اليمنى قد علقت بأحدها. وكاد ينجح في التخلص منه، لولا الحركة المستعجلة التي سحب فيها رجله؛ فقد انشدّت الأنشوطة فجأة، وسحبته إليها، وهي ترتفع، وتعلو نحو الجسور الحديدية البارزة من السقوف. صرخ صرخة كتيمة، وهوى نحو الأرض، بعد أن انتزعه الحبل المشدود، والقوة الجاذبة من

مطرحه. شعر أن عظم ساقه طقطق، والتوى، وأحرقه ألم كاوٍ ثقيل غطى جسده كله، وفصد عرقه، ثم برد فجأة، وغاب.

في المشفى، ادّعى طلال أن ساقه انكسرت بسبب قفزة خاطئة. ولتغطية كذبه، أضاف أنه لم يشعر بما حدث إلا في البيت. وقد ظنّ أنه التواء طارئ، يمكن علاجه بالماء البارد. بينما اكتفى أبو محمود بالتحديق إلى الفتى المصاب، بعينين فاترتين، مليئتين بالأسئلة التي لم يجد لها جواباً.

وفي المساء، جمع المستأجرين، من جديد، وكانت لديه الحيوية لإلقاء درس آخر ندّد فيه، بمحاولات الخرق التي ستجد دائماً أن العقاب بانتظارها، ووصف ما فعله طلال بأنه شذوذ. كان غاضباً، ومكروباً، وقال مرة واحدة إنّ شِباكه، كانت مرصداً ألهمه إياه الله. وفي اللحظة ذاتها، شدّ المسبحة التي كانت في يده، فانقطع خيطها، وانفرطت حبّاتها في فوضى لاهية، وهي تتراقص في جميع الاتجاهات، أمام عينيه المذهولتين.

أهلكه الغمّ، ورغب في سحق هؤلاء الأولاد الخبثاء الذين اخضلّت عيونهم بالدموع، وقد عرف جيداً أنها ثمرة الضحكات المكبوتة، ولعن المسبحة، دون أن يتحرك لِلمّ حباتها، وقد خامره شعور بأنه خسر المعركة دون أي أمل. فدمدم بكراهية، وهو ينهض، ويغادر مضافته:

«بتشوفوا يا كلاب! يا أنذال!».

10

20 حزيران 1959

هذا اليوم قاد توفيق الخضرا ابنه فيصل إلى المكتبة. كانت الغرفة التي تبرّع بها حليم الزهر مجاناً، قد طُليت جدرانها الخارجية بلون شجريّ، تحيط بنافذة وباب أصفرين. أما في الداخل فقد أضاءها كلس ناصع، تفوح منه رائحة غراء ونيل أزرق. «شوف!» قال المعلّم لابنه.

تقدّم فيصل نحِو الرفوف الخشبية، وقد أذهله ذلك المشهد المثقل بالكتب، والمجلدات. راح ينظر إلى تلك الكائنات المحيّرة التي لا يعرفها، تظهر على الدفة الخارجية، أو على رأس الغلاف، سوداء ثابتة لا تنمحي: «سيرة عنترة!». كان يظن أن عنترة، مجرد كلمة طائشة مثل «بطل» أو «شرف»، لكنها الآن تظهر أمامه كحكاية. وهذا يعني أنه سوف يلقى داخل تلك الكتب إنساناً من لحم ودم. بجانبه كان يجلس حمزة البهلوان، وسيف بن ذي يزن، ثم تتلوهما أسماء وأسماء من أولئك الذين تمكّنوا من دخول الحكايات والقصص، ثم أسماء وأسماء من أولئك الذين يحكون الحكايات. ومن أحد الرفوف، تناول كتاباً أبيض طويلاً، تأمل الغلاف الذي يرتسم عليه تمثال رأسي لرجل كبير ذي شاربين متهدّلين، يتطلّع إلى مكان بعيد. وعلى يساره خط أحمر مشكول: «طفولتي». قلب الصفحات: «كان

والدي مستلقياً على الأرض، تحت نافذة صغيرة معتمة تزدحم بالغبار، وتعجّ. يبدو لي طويلاً بشكل يلفت الأنظار، ويبعث الاستغراب. وقد اكتسى بالبياض من قمة رأسه حتى أخمص قدميه». بدت الفقرة مذهلة. أيقن أنه رآها هذا الصباح، حين راقب أباه النائم في المضافة، باستثناء تفصيل واحد مختلف، هو ذلك الشعاع الشمسي الذي يخترق النافذة، ويعجّ بملايين الذرات. ربما نسي مكسيم غوركي تسجيله. لقد ظنّ أنه ميت وكاد يصرخ، لولا تلك الحركة المفاجئة التي هشّ بها ذبابة. ولم يُخفِ سروره من افتراق مصير أبيه عن المصير المؤسف المبكر الذي طال الوالد في الكتاب.

كان أبوه يشرف الآن على دفتر كبير مفتوح، معلَّم بخطوط طولية وعرضانية. وقربه يجلس حليم، مستمعاً إليه وهو يرشده إلى تعليمات الإعارة والاسترداد الضرورية للحفاظ على تراث السماقيات الجديد. قال فيصل: «اكتبوا اسمي أول واحد».

فابتسم حليم وسأله: «شو اسم الكتاب يللي بدّك ياه؟».

قال فيصل بحسم: «المكتبة كلها».

عقدا اتفاقاً سرياً، رعاه المعلّم، كي يستلم فيصل نسخة إضافية من مفاتيح الغرفة، ليقرأ ما يشاء، دون حاجة لإجراءات الاستعارة خارج المكتبة. وهكذا بدأ فيصل يتسلل كل يوم، إلى الغرفة، منذ الصباح. يجلس على كرسي وضعه قرب النافذة، ويقرأ. اختفى من السماقيات مثل مسافر، ولم يعد يراه أحد. ولكي يتفادى المارة، بدأ يأتي باكراً. وسرعان ما أضحى لا مرئياً - كما قال حليم - حين بدا كأنما هو موجود هناك دائماً (إذ لم يكن يعود إلى البيت إلا بعد غروب الشمس). صارت الصفحات تُلتهم، واحدة بعد أخرى، وهي تجرّ وراءها الفصول. وأضحى فيصل قادراً على الولوج إلى الكتب مثل خلد، يحفر أنفاق معارفه، وسط صمت المكان الممتلىء بأسرار الكون والحياة والبشر. هناك اختبر كل ما استطاع: نجوم السماء،

الكواكب، صخور الأرض، التراب والجذور والبصيلات والشعيرات والمياه. ومضى إلى الغابات والبحار والقفار (وهي أكثر الأمكنة غموضاً) والأنهار، وقرأ ملمس الوردة وصوت الحديد ولون النحاس وتذوّق الهواء وطعم الورق، وفكّك الحبر والنقاط والحروف والكلمات والجمل، وأطل على السّهل والوعر والصحراء، ونطق الطير، وحبا كالحشرات والقطط الصيادة والكلاب المنتظرة. حدّق وأمعن واقتات وسحق واستهلّ وتمدّد وصان ورمّم وأرسى وأوحى وانطوى على متون الكتب وهوامشها، مراقباً مدقِّقاً، كيف تنهض الكلمات، وتترتب، كيف تنطق الجمل واحدة واحدة مثل سلسلة، مثل جدول، مثل نهر، مثل وعر. طبيعية أو متعالية، هامشية أو باذخة. مسرفة أو لجوجة أو مريرة أو برية أو مربكة أو مجنحة أو زئبقية أو محرّضة. كيف تبنى كالحجارة، كحيطان الغرف، كالمنازل، كالقلاع. وثمة في كل مكان قرى ومدن وناس يعيشون، يحبّون، يكرهون، يعشقون، ينامون، يتشاجرون، يرحلون. حضور وغياب. وجود وعدم. مرة يبدي رجل، في أحد الكتب، تساؤلات وحيرة. ومرة يُظهر آخر (في كتاب آخر) حباً وعشقاً. «ترى كيف يستطيع الوصول إلى زبونة في هذه الساعة من الليل؟ هل يطرق الباب؟ ومن عسى أن يجيء لفتحه». ثم «تخيّلها في قميص النوم الأبيض الشفاف، الذي يتقوّس مطاوعاً فوق النهدين، وحول الردفين (بحث عن معنى الردفين: العجز والمؤخرة) ثم جنّ جنونه، وودَّ لو يثب فوق الدرجات». أحس فيصل بالارتياح، لأنه رأى (عكس كمال عبد الجواد) طيّة ركبة زينب، وجزءاً من فخذها، حين شدّت قامتها، لتنشر قميصاً على حبل الغسيل، في ضوء الشمس. واستطاع بعد ذلك، أن يتخيّل الرسوم العميقة وراء ثوبها الذي ألصقته الريح بجسدها. أهكذا تبدأ الكتابة؟ في البداية حيّرته تلك المصائر العجيبة التي يصنعها الورق، هنا على الصفحات البيضاء، بالحبر الأسود! حيث تتقاطع حياة البشر، وتتداخل، بجرّة قلم من

يد رجل جالس وراء طاولة، ليضع اسمه في ما بعد، على الغلاف الخارجي لأيّ كتاب، مؤكداً أنه قادر على رسم مصير من يخلقه داخل المتون الحبيسة. لا يمكن، فلا بدّ أن يكون أولئك الناس - الذين يبدون مخمّرين داخل أروقة الكتب - أحراراً، فحولاً، لا يجسر أحد (ولا يتمكن) من ليّ رقابهم أو كسر عظامهم أو قهرهم أو إرغامهم على فعل شيء لا يريدون أن يفعلوه. لن يستطيع أحد أن يصنع مارداً من فأر، أو خلق كتاب من نظرة. وسوى ذلك، لن يكونوا أكثر من دمى يحركها ذلك الحالم الصعب المهيمن القوي، المستقر على حافة الطاولة. أهكذا تكون الكتابة؟ ممكن. ويمكن أن تكون صناعة للمصائر، في جيوب الأحلام. يمكن.

بعد ثلاثة أشهر، كان عدد الذين يعرفهم، يزيد عن عدد أهالي السماقيات. وشعر بالفخر لأنه الوحيد من أبنائها الذي يعرف كل هذا العدد من البشر، من الشرق، والغرب، يعلم أسرارهم، ومشاعرهم. ويشرف على كهوف تفكيرهم، وتفاصيل معاشهم من حب وكره ومؤامرات وسفر وأحزان وأفراح وخذلان وتدنيس وسموّ ورزانة ولهفة. كلمات وكلمات وكلمات. كل ما حوله، من تلال الكتب، ليس سوى كلمات. ويبدو أن العالم كله من كلمات. تذكّر أن أخاه غازي بكى بالأمس، بسبب الكلمات. ففي الصباح (مثل كل صباح) جاءت أمّهما وأدخلت كفّها تحت لحافه، لتلمس هناك تلك البقعة الرطبة الساخنة التي تفوح منها رائحة حريفة قاتلة. كان غازي يرمقها بعينين ضارعتين، لم تنقذاه من كلماتها. «الله يغضب عليك يا غازي» قالت له، ثم أضافت: «ريت عمرك ندى ويطير»، فغطى غازي وجهه بيديه. «استحيت؟» ردّت أمه: «ريتني أعدمك. إذا كنت حُرّة، ودعوتي مُرّة». فبدأ غازي ينشج، ويتوسل إليها: «اضربيني! ولا تدعي عليّ»، لأن الكلمات أرعبته. ولكنه ظلّ يبول في فراشه. ولا أحد يعرف السبب، إلى أن كتب له الشيخ نجم حجاباً من كلمات، وضعها في حرز

جلدي، وعلّقها في رقبته. وعندما أصيب طارق بالأبوكعب، كتب الشيخ نجم، على خدّه، بقلم الكوبيا، كلمات وكلمات، لم نعرف من أي لغة، فشفي طارق. ولكن أكثر الكلمات مجداً هي تلك التي تستطيع أن تحكي عن أحد ما، وكأنها تحكي عن أبناء آدم. وهكذا وجد في النسخة التي استعارها كريم، من قصة «تحت ظلال الزيزفون»، خطوطاً مرتعشة بقلم الرصاص، تحت الكلمات: «الوداع يا أحب الناس إلي. إنني أفارق هذه الحياة، وأنت آخر من أفكر فيه، وكل ما آسف عليه»، أو «وظلَّ على ذلك ساعة، ثم أخذ يدور بعينيه، في تلك العرصات الخالية، يتلمس أثراً من آثار تلك المعالم التي قضى فيها أيام سعادته الأولى، كما يتلمس الساري في ظلمة الليل، نجمة القطب في أطياف السماء». في البداية، لم يدرك معنى خطوطه، إلى أن رآه ذات مساء، جالساً تحت شجرة البطم، يرنو إلى ذلك المنزل الحجري الخالي. عندئذ عرف أن الكلمات استطاعت أن تمتصّ النزوات، أو تجسِّد التخيّلات وأن بإمكانه أن يوحّد الكلمات بالأشياء، والمواقف والمشاعر، اللحظات الماضية، والحاضرة. لعبة استبدال بسيطة تضع الحوليات العالية التي كان كريم يرنو إليها، مكان العرصات الخالية، ليعاد تركيب الحكاية من جديد.

رائحة النساء

قصة: فيصل الخضرا

وحين وصل كريم إلى بيروت، اندهش كثيراً، من الضجيج الجميل الذي كانت تشارك فيه سيارات من كل نوع، ودراجات وعربات وباعة يصيحون وأولاد يلعبون. وصار يمشي من شارع إلى شارع، ويتعجب من جمال المدينة، ويتفرج، وهو مبسوط جداً، ووصل إلى البحر، ورأى أنه جميل وواسع جداً. وبدأ الهواء يملأ أنفه برائحة غريبة ولذيذة، ولم يعرف السبب، حتى رأى فوجاً من البنات الصغيرات، يسرن في الشارع، وهنّ يلبسن ثياباً زرقاء وبيضاء. وقال لنفسه: يا الله، ما أشطر الشاعر حافظ ابراهيم! وأُعجب به لأنه كتب قصيدة عن البنات الثائرات، وتخيّل أنهن يسِرْن في مظاهرة، وانبسط كثيراً من خياله. ثم ذهب من شارع البحر، إلى منزل حسن اللوف، فرحّب به حسن كثيراً، وقال: أهلاً بابن البلد. وفي اليوم الثاني، أخذه إلى البيت الكبير الذي كانت تعمل فيه محمودة. وهناك خافت كثيراً، وقالت: ماذا لو عرف أصحاب البيت؟ فقال لها حسن اللوف: وماذا يعنيني؟ أنت تحبّين كريم، وكريم يحبك. وأهل هذه البلاد، يحبون الحب. ففرحت محمودة وقالت لنفسها: يا بنت يا مهبولة! يا فقيرة! يا مسكينة! كيف تغلقين الباب في وجه حبيبك؟ ثم قالت: يا الله، ما أجمل وجهه! وكانت قد نسيت صورة وجه كريم، لأنهما كانا يلتقيان في الليل،

وقد غابت عنه كثيراً جداً. وصارت الآن، ترى أنه ناعم وأسمر وجذاب، وقريب من صور الشباب الذين تراهم في المجلات، فأمسكت يد كريم، وأدخلته، وقالت لحسن: مع السلامة. وعانقت كريم حين دخل، عانقته كثيراً، وشدّته إلى صدرها. وكان يحبس أنفاسه ولا يتكلم، ويرتعش مثل عصفور، مثل زغلول، ويدفن رأسه في صدرها. وصار يشمّ هناك، رائحة عجيبة، لم يكن يعرفها، لأنها رائحة النساء. ورائحة النساء، مثل رائحة العشب المبلل، في أول الربيع (كما أظن). وكريم شمّ تلك الرائحة في قميصها، وداخ وانبسط كثيراً، وتمنى أن يبقى هكذا، طول العمر. وقال لنفسه إنه لا توجد في الدنيا، سعادة أعظم من هذه السعادة. وقرر أن يبقى هكذا، لا يتحرك، ولا يتكلم، إلى ما شاء الله. وهي محمودة، انبسطت أيضاً، وتمنّت أن تظل تحضنه، وقالت لنفسها إنها لا تعرف ماذا يحدث. ولكن جسمها ساخن جداً، ولحمها، تدور فيه ارتعاشة لذيذة. شعرت أنها تريد أن تطير، وتطير من الفرح، وانتبهت إلى أن كريم كان يبكي، فأبعدته عن صدرها، وقالت: لماذا تبكي يا حبيبي؟ فقال إنه يبكي من الفرح. وقال: هذه أول مرة في حياتي، أفرح. وكل حياتي حزن وحسرات. فدمعت عيناها، هي أيضاً، ثم قعدت على إحدى الدرجات، وجذبت كريم نحوها، والتصقت به، وقالت أنا فرحانة أيضاً. وبدأت تبكي، لأنها انبسطت كثيراً، واستطاعت أن تجعل حبيبها ينبسط. ووضعت رأسها على كتفه، وقالت له إن الحياة هنا جميلة جداً. وهي لا تريد أن تعود إلى السماقيات لتأكل الخبز الحاف والبرغل والبصل. وقالت إنها ترى البحر كل أسبوع. وسألته إن كان رآه، فقال إنه رآه، وإنه كان يلمع ويتراقص كأن فيه فضة. فقالت إن البحر ملآن بالأسماك، وهي تأكل السمك، وتتعلم السباحة. وإنها سبحت أول مرة، وهي ترتدي الكنزة والبنطلون. ولكن ثيابها امتلأت بالماء، وصارت ثقيلة، فضحكوا عليها، وأعطاها أصحاب البيت الذي تعمل فيه، مايوه للسباحة.

فقال إنه يزعل، إذا رأى أحد جسد حبيبته. قالت إن في الشاطئ ألف امرأة تلبس المايوه. ولا أحد ينتبه. ثم قالت: تقبرني! وأحبته أكثر، وتمنّت أن تبوسه، مثلما يبوس الممثلون الممثلات في السينما. ولكن الوقت كان قد انتهى. وجاء حسن ليأخذ كريم. فقالت: نلتقي غداً يا حبيبي! قال: نلتقي غداً يا حبيبتي. وذهب مع حسن، وهو يقول له: شكراً. فقال حسن: لماذا؟ قال كريم: لأني عرفت اليوم، لماذا يحب الرجل المرأة. وكان يفكر برائحة محمودة التي هي رائحة النساء.

11

أول تشرين الأول 1959

تعطلت سيارة عمار، وبدأ دخان أبيض كثيف يتدفق من محركها، بعد أن تجاوزت الجسر بقليل، فأطفأ المحرك، ونزل ورفع الغطاء الأمامي، وصاح من وراء الحديد: «انزلوا، ارجعوا عَ البيت، ما في سفرة اليوم!».

وهكذا عاد مسعود شمال إلى بيته.

حين خطا إلى الحوش أحس أن شجار الأمس ما يزال متمدداً داخل غرفتة الزوجية.

بدا وجه لوزية معبّأ بالسواد، وقالت دون أن تردّ سلامه: «شو.. رجعت؟». لقد رأت دخان السيارة المتعطلة من شرفة البيت، دون أن تكون قادرة على احتمال وجوده قربها، نائماً أو قاعداً، يشردُ في الجهات.

أكثر من ذلك، بدت رغبتها في المناكدة، تأكيداً لاستنتاج مُهلك خطر لها، وهي تراه من بعيد، راجعاً. فهذا لا يعني أنهما خسرا إيراد يوم عمل محتمل فقط، وإنما إشارة أيضاً إلى حقيقة فظّة وجارحة، تدمي حلقها الآن، وهي أن حياتها كلها سوف تمضي إلى العدم، وأنها سوف تضيع آمالاً ما تني تتكسّر، أو تتحطم أو تتلاشى، في رحى عابسة سقيمة.

وهكذا فقد فوجئت هي نفسها - قبل مسعود - بالسؤال الساخط الذي

ترجم مشاعرها الدفينة، متجاوزاً تسوياتها المقترحة، دون أي هدنة. وما يعذّبها أكثر، أنها عجزت - أو كذبت - أمام رندة هذا الصباح بالضبط، حين واجهت سؤال صديقتها الأرملة المحرج، عن أسباب اختيارها لمسعود، والزواج منه؛ إذ لم تجد جواباً مناسباً سوى أن تقول: «حبّيتو». هل أحبّته فعلاً؟ لن تتمكن أبداً من اكتشاف صحة جوابها، لا لأن السؤال نفسه غامض، بل لأنها لا تعرف ما إن كان الحب يعني مثلاً شعوراً بالرأفة أو بالشفقة أو التعاطف أو الإعجاب أحياناً. رندة قالت إن أي واحدة من هذه المشاعر، تجعل الحب سخيفاً. ولكنها لا تعرف، ليست متأكدة، لأن زواجها منه، تمّ، ونُفّذ، دون أن يسألها أحد. وكل ما في الأمر، أنها عبرت باحة الدار، حين كانت جماعة من أهالي السماقيات في ضيافة أبيها. وقد لاحظتها عينا علي شمال، والد مسعود. راقه طولها، والبياض الحليبي الساطع الذي كانت تغطس فيه، وتلك المشية العجولة والراسخة، وإشارات اليد الثقيلة (كما قال لها في ما بعد)، فتوقف عن شرب فنجان القهوة المرّة الذي كان بيده، والتفت نحو أبيها وقال: «ما بشرب القهوة حتى تلبّي طلبي!». فقال أبوها دون أن يعرف فحوى طلبه: «اشرب. وهذه الدار على حسابك!»، قال: «حيّاك الله، يخلّي الدار لأصحابها. لكن إذا كانت هالبنت إلك. وما كانت على حساب حدا، بدّي ياها كنّة إلي!».

قال أبوها: «اشرب! إجتك!».

وهكذا، مثل المساخر، يموت جميل الحلبي، لتصبح هي زوجة لمسعود! وفي المفاوضات التي تلت تلك المحاورة المخبولة، رفض والدها أن يأخذ مهراً، فأبلغه علي شمال أنه سيسجل لها قطعة أرض مساحتها عشرة دونمات، قال أبوها: «بتقدر تاخذها معك اليوم»، فردّ علي شمال: «بنت حمد عسل بتستاهل عرس الأميرات!».

فصاح والدها: «اشهدوا! بنتي بلا مؤخّر كمان».

وبعد نصف ساعة فقط، أبلغوها أنها صارت خطيبة لشاب اسمه مسعود شمال، وأنهم قرؤوا الفاتحة، وعقدوا القران المشيخي أيضاً.

تذكُر أنها تلقت النبأ ببلاهة. شعرت برعدة خفيفة، وألم في الخاصرة. وبرد لحمها وهي تستمع إلى عمّها الذي كان يحكي عن المحادثات النبيلة التي تبادلها أبوها وكبير عائلة شمال. قال إن الكلمات كانت مثل الجواهر. مناظرة في الشمائل، وروعة التقاليد. وعلى العكس من حماسته وانبهاره، كانت تحس أنها لا تساوي شيئاً. ولكنه قال: «شي بيرفع الراس»، فردّت بلا تفكير: «بعتوني بشويّة كلام». دفعتها أمّها في صدرها، ودمدمت: «اخرسي!». أما عمّها، فقد غمغم وهو يخرج: «حمارة».

في ما بعد، اكتشفت أن حميها، ما كان يملك أكثر من الكلمات، وما كان أبوها أكثر ثراء. وقد تبخّر الذهب الذي اشتروه لها، بعد شهر من الزواج. أما الأرض التي سُجِّلت باسمها، فقد أعادتها لعمّها، بعد سنة، حين اضطر لبيعها كي يشتري بطاقة طائرة لابنه الثاني سعيد، حين هاجر إلى التشيلي.

كانت في السادسة عشرة من عمرها. وكان جسدها قد تحرّر من العمر، فنما، وامتلأ بلحم فتاة في العشرين (وقد لعنته لأنه غشّ علي شمال)، غير أن همومها ظلت أسيرة العتبة الفردوسية التي تشاغل طفلة، فلم يكن جنس الذكور بالنسبة لها، سوى كائنات فظّة، تحبّ العراك. إضافة إلى أنها ظلت حائرة دائماً في شأن رؤوسهم حليقة الشعر، وسراويلهم المغلقة، وطريقتهم في التبوّل، وأصواتهم التي تخشن بعد بروز عظمة رقابهم. وقد شعرت بالذنب قبل سنة، حين عجزت عن استثناء أبيها من أعطاب جنسه. غير أنها لم تؤنب نفسها كثيراً، فمحمد عسل، ما كان يؤمن أساساً بالنساء. وكانت تراه يخرج غاضباً من الغرفة الداخلية، فيرفس أي شيء وهو يشتم: «يلعن جنسكن». وحين تدخل إلى هناك تجد أمها قانطة، معصوبة الرأس،

تغيم عيناها في الخواء الضبابي البعيد. وما حيّرها، أن الأم ظلت ترفض تقديم أي تفسير لذلك السخط المدمر الذي يلف أباها. وكانت تدافع عنه، إذا ما حاولت إحدى البنات (لأن الشباب ما كانوا يتدخلون) توجيه أي لوم، أو أي شكوى، أو إعلان النفور من أهوائه المفاجئة، أو كسر صورته (وهذا خطر). كانت صلتهن به، غامضة جداً. ولم يتبادل - كما تذكر - مع أي واحدة منهن، كلمات حب أو مجاملة، وكان يوصل طلباته إليهن، (وهي تشمل الأوامر، والنواهي الأخلاقية، وتكاليف الخدمة في البيت، والشغل في الحقل، ورعاية الحلال) عبر الوسيط المتوفر الوحيد: الأم. وحين تزوجت لوزية، ظلَّ يمتنع عن تقبيلها، حتى لو غابت سنة، ويكتفي بالتربيت على رأسها مرة واحدة، وهي تقول في نفسها: «منشان الله!». وعلى الرغم من أنها كانت تسمع أخواتها يضرعن إلى الله، كي يخلّصهن من هذا الحبس الأبوي، بِرُقْيَة الزواج، فإن النبأ صعقها تماماً، وزادت شتيمة عمِّها في يقينها بأنهم عاملوها كحمارة.

الغريب أنها حين رأت مسعود، مسحت معظم الخطوط التي علّمت بها الإجراء الفظّ الذي اتخذ بحقها، فقد جاء بصحبة أبيه لزيارتهم بعد عشرة أيام. راقبتهما من ثقوب ستارة ناعمة. ويبدو أنهما هجسا بوجودها، فتمهّلا قليلاً في باحة الدار، وتبادلا (والده هو الذي كان يتكلم) مع أبيها، عناق شوق وكلمات المسايرات، أمام الدرج الحجري. تلك الطقوس كانت كافية كي تفحصه، مع أنها كانت تعرف أن النتائج لا قيمة لها؛ فالترتيبات معدّة لإتمام عرس قريب. كما كانت موقنة بأنها لن تستطيع استثمار المشاعر التي ستخامرها لفسخ العقد أو لتأكيده، وأن فرصتها الوحيدة (وهي فرصة مقتنصة في غياب الرقابة)، هي في أن تتفرج على الشاب الذي أتى من لقاءات العزاء (ألم تخطب في عزاء؟)، ليصير زوج الحياة. تعترف أن جسده أذهلها: لحم هائل متوّج برأس ضخمة، وشعر

إبريّ أسود، وأنف برجيّ، وعينان مضيئتان (الآن صارتا مطفأتين). ثم فتنتها (وهذا ما صرّحت به لرندة) ابتسامة بيضاء طرية، كانت لاصقة بفمه. شعرت أنه ولد، وأنها تستطيع أن تلعب معه «بيت وبيت»، وأن تلفّ بصحبته عروساً بسمن وسكّر بدل طبيخ المساء، وأن ترقص معه (مع أنها لم ترَ رجلاً يراقص امرأة). وفي داخلها انبثقت دفقة من اللذة الباطنية (هلعت منها)، وسرت رعشة سراجية غامضة، دفعتها للصعود إلى المضافة، حيث كان الجميع هناك الآن، مغامرة بارتكاب جنحة نادرة، من أجل الترحيب بحميها الجديد، وعريسها المقترح، متغاضية عن نظرات أبيها الحانقة، وقد شعرت أنه صار محرجاً، ولكنه تقدّم في ملاقاة خطوتها، برأي سديد، يصلح به الرعونة: «سلّمي على عمّك وابن عمّك، يا لوزية!».

الأيام والشهور التالية تكفّلت بمحو كل شيء. فالفحل اليافع الذي أغواها، لم يقدّم لها سوى الترهات. لم يكن لديه عمل، ولم يتقن صنعة ما. لا يعرف إلا كار الفلاحة، وتربية المواشي، في أسرة ليس لديها أكثر من خمسين مدّاً من الأرض الزراعية التي تُبقِّعها الرجوم، وسلاسل الحجارة. «شو بساوي؟» كان يقول لها، وهي تفاتحه برغبتها في الانعتاق من قيود الأوامر العائلية التي كانا يرضخان لها، بسبب العادة والحاجة معاً. في المرة الأولى، أبدى غضباً مدمراً تجاه فكرة الخروج من البيت: «ولك شو أنتِ مجنونة؟»، ثم بدأ يتفهّم، بل ويقدّر مطالبها حين أوضحت، يوماً بعد يوم، أنها لا تريد المعجزات، ولا تريد الخوارق، بل بيتاً صغيراً يكون لها الحقّ أن تدقّ فيه مسماراً لتعلّق قميصاً. كانت قد فعلت ذلك، فوبّختها أمه، لأنّ المسمار تسبب في انفلات قطعة طين من الجدار. لا تنكر أنها تألمت، وحنقت على نفسها مرتين: الأولى بسبب البادرة الجاهلة، والثانية بسبب شعورها بالغبن وانعدام الحيلة.

لكن حادثة المسمار لم تكن سوى شرارة، أيقظت بداخلها روح ربّة

المنزل، صاحبة البيت التي تستطيع أن تظل فيه بالشلحة، إذا أرادت. تنام متى شاءت، وتستيقظ، وتكنس، وتغسل، وتطبخ، وفق إرادتها وحدها، دون أن تخشى مداهمة أحد من أهل الدار (ومن أقربائهم أيضاً، الذين اعتادوا أن يفتحوا الأبواب، ويدخلوا دون استئذان)، ودون أن تتلقى أوامر من أحد.

سؤاله الحائر «شو بساوي؟» الذي وشى بعجزه، ازداد قتامة، وانسداداً بعد سنة المحل الأولى. وخلال بضعة أشهر من صيف العام الماضي، التهمت العائلة، وحيواناتها، كلَّ ذخيرتها من القمح والشعير والتبن. بدا كأن القحط زحف على الكواير، وجرار المؤن، ومخازن الأعلاف، في غفلة من مراقبة القيِّمين على الإطعام. ووجدت الأسرة نفسها - مثل مئات الأسر الأخرى - تواجه خواء مبهماً داخل الدار وخارجها. «شو العمل؟» في تلك السنة سمعت ذلك السؤال ألف مرة؛ كأن السماقيات صارت وحيدة في اللجاة - هكذا قال علي شمال - وقد تخلى عنها الله وكائناته. لكن يقين لوزية هو أنها هي الوحيدة التي خذلتها الأيام، وسرق المحْلُ الطارئ مشاريعها كلها، وبدا كأن القدر وظّف علي شمال مسؤولاً عن شؤون التدمير المنظّمة ضدها. أخذوا منها الجنزير الذهبي ثم استردّوا الأساور الخمس، وسرعان ما رأت عين عمها تراقب خاتم الزواج، في إصبعها، فانتزعته وقالت: «بيعو يا عمي!». وفي اليوم نفسه، اكتشفت أن قرينه لم يكن في إصبع مسعود. فسألته: «إنت كمان عطيت الخاتم لعمي؟»، فقال: «لا، عمّك أخذو مني». فشعرت بالشفقة نحوه، ورغبت فيه، فنهضت، وأغلقت غرفتها بالمفتاح، رغم أن الوقت كان عصراً، واستلقت على الفراش وقالت: «تعال!».

كان التنفيذ رديئاً. ولم يستطع مسعود الصمود أكثر من دقائق، بدا مرتبكاً، ومستعجلاً بداخلها. وفشلت محاولاتها لاستنهاضه وكبح انهياره السريع، فأنزل بلا ألق، دون هياج، ثم نام محطّماً بجانبها.

وفي الأيام التي تلت تلك المضاجعة، فكرت أنها ربما كانت هي السبب؛ فقد نامت معه، وهي حزينة، وعاشرته بكبرياء (ناجمة عن الشفقة والعطف). ولا شك أن شيئاً من مشاعرها (المعدّة بلا حماس) تسلل إلى فحولته، فبطّن هياجه بالرخاوة. لذلك قررت أن تعيد المحاولة في الليل، أملاً في انتشاله من الكآبة والغيظ اللذين تملّكاه. لكنه لم يستجب. هرب متعللاً بالتعب، وصار يشخر بعد لحظات.

هل كانت حركته ضربة انتقامية؟

بعد يومين، استطاع أن يجد شغلاً في ورشات تعبيد الطرق. وفكرت أنه فعل ذلك استرضاء لها، فأسعدها هذا الباعث النبيل، وأعاد لها فاعلية الأحلام الزاهية. فالعمل الجديد سيضمن لهما معاشاً شهرياً (أوضح لها مسعود أنه سيعمل مياومة) ينظّم حياتهما من جديد. وبإمكانها بعد ذلك، أن تستعيد أيضاً، أحلامهما الإضافية براحة وأمان مدعمين بالأوراق الخضراء والزرقاء المزخرفة.

ماهية الشغل الجديد، ظهرت مساء اليوم الأول. فرائحته اخترقت كيانها كله. كان القار المحروق مخزّناً في نسيج ملابسه، وفي لحمه وأنفاسه. أخذته من يده إلى ضوء الفانوس. هناك رأت تلك الأصبغة الأرضية التي أذهلتها. كان أسفلتٌ لامع مخلوط بزيوت معدنية بائدة، يبقّع ثيابه. حدّقت إليه حانقة، وصرخت: «شو هذا؟»، فَرَنا إليها بحزن، وقال: «حق الفقر يا لوزية! حق الفقر!».

استمر يعمل في ورش التعبيد؛ فرفضُ العمل يعني أنه سيعود ليجلس أمامها في البيت، ويكرر سؤاله البليد: «شو بساوي؟»، ويستمر في رفع أثقال الحجارة، يقوي بها عضلات ساعديه، ودوائر صدره، واستطالات فخذيه، ورمّانتي كتفيه.

صحيح أن القروش جرت في يدها - كما كانت تردد حماتها بطبيعتها

المنفرة الحسودة - لكن رائحة الزفت المحروق نفذت إلى روحها. في الليل حين ينام معها، كانت تشم ذلك الدخان المحبوس في جوفه، فترقد بلا حراك، وهي متيبسة، قرفة، تنتظر نهاية تلك الجملة المعطوبة الخاسرة. صار مسعود يريدها كل ليلة. «ليش؟» تصرخ وحيدة، مذعورة، مشمئزة، لا تستطيع أن ترفض. في البداية ظنت أن وجود بنات في ورشات رصف الحجارة، هو الذي يثيره. لكنها أيقنت في ما بعد (وهي التي صارت تعرف أسراره) أنها كانت رغبات رجل بلا عزاء، يطفئ، في الفراش، خسارات الحياة التي لم يستطع أن ينالها. وسرعان ما صار يسلق المضاجعة، إذ لم تعد تستمر أكثر من بضع دقائق، يبدؤها بضربات عجولة مرتبكة، يردد خلالها لازمة (صارت ترعبها): «يا حبّي! يا حبّي! يا حبّي!»، لتنتهي بعد ذلك، كالعادة، بإنزال باهت، مخذول. ينهض بعده، ويرشق قليلاً من الماء على عضوه، ويرتدي سرواله وينام.

وبسبب العمل المياوم، كانوا يفصلونه من الورشات، كل بضعة أسابيع. وآخر مرة ظلَّ عشرة أيام، بلا عمل، تفرغ خلالها لألعاب الأثقال، رياضة الفحولة الفارغة. لكنها قررت ألا تسمح له بالتبطل؛ فالشهور التي عمل فيها، مكّنتها من اقتناء بعض أشيائها المشتهاة: شراشف للفراش، ستائر للنافذة، طنجرة ألمنيوم، دزينة كؤوس للشاي (فرنسية ذات خصر). وكان صعباً أن تتقهقر من جديد، إلى الزقاق الضيق الذي كانت محبوسة فيه.

بلا تخطيط، وجدت نفسها مستثارة وعصابية كل الوقت. أخذت تثور لأي سبب. وازداد هياجها حين كسرت كأساً من مجموعة الكؤوس الفرنسية، بسبب ضعف التركيز، أثناء مسحها الغبار. وكان هذا وحده كافياً كي تنفجر في وجه مسعود، صارخة: «كل الحق عليك!»، لأن بقاءه في البيت يسبب الضجر والارتباك؛ إذ تجده في طريقها، كل لحظة. «ما تركت لي مطرح أتنفس فيه»، دمدمت بغضب، وهي تقصد المعنى الحرفي

لجملتها الحاقدة. فقامته الضخمة، وسعة فمه، حين يتثاءب، وصوت الشهيق داخل فتحتي أنفه، تركت في أعماقها شعوراً بالاختناق، وهو الشعور ذاته الذي يخامرها هذه اللحظة، حين تراه مقبلاً، لتواجههُ بسؤالها الاستنكاري. فقال بجفاء: «خربت السيارة. بروح مشي يعني؟». كان يتوقع موقفها. وقد تمنى أن يطول الطريق، أو أن يكون كريم موجوداً ليذهب إليه. وقد أعجزه سخطها المتكرر. وكان مستعداً لفعل أي شيء يمكن أن يرضي قلبها ولسانها معاً. فمنذ أن رآها، وهي تقتحم مضافة أبيها، أحبها. وحين لاحظ أنها ترمقه بعينيها اللامعتين، أقسم لنفسه أن يرعاها طوال عمره. وقد كانت أول امرأة في حياته. فالنساء كنّ لا يلاحظنه تقريباً، ليس بسبب انعدام الرغبة فيه، كما قال كريم، بل بسبب الجبن؛ إذ كان منظره الغولي يرعبهن. ولهذا، فقد اختار هو أيضاً، أن يبتعد عنهن. وقد تفانى منذ مراهقته، من أجل أن يرسِّخ، في البلدة، حضوره المترفع عن المعاكسات المشبوهة التي ينخرط فيها الشبان اللاهون. فأنشأ نادياً رياضياً لتعليم المصارعة وكرة القدم. لكن النادي لم يجلب زبائن. فالمصارعة التي كان يدرّسها، لم تزد عن بضع حركات قاتلة، كادت تعطل حامد التوت. ولم يأتِ أي مدرِّب لكرة القدم، بسبب صعوبات التنقل، وضآلة الأجر المدفوع؛ فاقتصرت التدريبات على اللعب العشوائي بكرة ممزقة في البيادر الشرقية، تسبب في كسر ذراع أحمد لقمان، وليّ كاحل سعيد شمال (قبل أن يسافر)، وبضع معارك.

ومع ذلك، كان النادي تسامياً مثالياً بالنسبة له، خاصة حين قرأ له كريم في كتاب عن رياضة اليونان القدماء، أن الجنس واحد من أكثر المضارّ للرياضة. فالاتصال بالنساء يمكن أن ينهك الجسد، أو يشوّه تناسقه الأولمبي. أما الانشغال بهن، فيمكن أن يعطب المشاعر، فلا يترك إلا الألم والاضطراب. ولم تلبث هذه المفاهيم أن ملأت روحه بطهر مدرسيّ

جعله يهزأ من استخذاء أقرانه أمام فتنة البنات، وطيشهم في تفريغ طاقاتهم بالعادة السرية.

هكذا، كانت الرياضة ملاذاً آمناً للجسد الذي زوّده الله بما يحتاج إليه، من القوة القاهرة. لكن مفاجأته بالخطبة، لم تكن أقل من مفاجأة لوزية، إلى أن رآها، فأيقن أن عليه أن يشكر أباه، أولاً بسبب اختياره الملهم، وثانياً لأنه أزاح عن كاهله، المهمة الثقيلة التي كانت تعشّش داخل رأسه: كيف سيختار زوجة؟

راح يختلس النظرات من الفتاة الجسور التي ولجت المكان مثل حورة. وقال لكريم بعد ذلك، إنه شمّ رائحة ريحان (كان يحب الريحان)، فأوصى كريم الدكنجي نخلة كي يحضر له زجاجة عطر تفوح به. وأهداها إياها ليلة زواجهما (يا ولد! قال له مسعود معجباً).

غير أن كريم غضب منه حين أبلغه حكاية الخطبة. «أبوك يخطب لك؟»، صار يصرخ: «ولك الدنيا مقبلة على الحرية، وعلى الاختيار وإنّو كل إنسان يحب ويتزوج على خاطرو!». ثم قال إنه سيبقى كل عمره، مثل بالع الموس، لا يستطيع إخراجه من حلقه، ولا إدخاله إلى معدته. وقد ترك كلام صديقه في فمه، وجعَ سكّين، دون أن يرفض المعاهدة التي عُقدت بين أبيه ووالد لوزية. فيقينه الذي لم يستطع أن يزعزعه كريم، هو أن الرجال يرتبطون ببعضهم من ألسنتهم، لا من رغباتهم.

كانت تريد أن تردّ عليه، فتشتم السيارة، وصاحب السيارة، حين سمعا المنادي يصرخ: «وين رااااحووووا!». أصغى مسعود قليلاً ليعرف مصدر الصوت، ثم رجع راكضاً. رأته يركض نحو حيّ السلم. رأت عشرات الرجال والشبان يركضون أيضاً، في الاتجاه ذاته. ثمة نساء آتياتٌ أيضاً، فارتدت منديلها، ولحقت بالجميع.

كان منزل أحمد البردي الخجريّ قد انهار. وتحوّلت الحيطان السميكة

إلى ركام من الحجارة الزرقاء التي غطاها الغبار. همست لوزية: «مش ناقص البلد غير هذا!». كانت هناك امرأة تصرخ، وتستغيث، وهي تنوح: «فريد وحمد تحت. يمكن ماتوا!»، فاندفع حشد من الرجال يرفعون الحجارة، أو يقلبونها، بعيداً عن مركز زلزال الغرفة، متّجهين ناحية الكلمات التي كانت تدلّهم بها المرأة المنكوبة، على مكان ولديها. بحثت لوزية عن مسعود ووجدته في الوسط تماماً، يزحزح الحجارة، ثم يحملها بين ذراعيه، في حين يفسح له الآخرون، ويرميها إلى الفناء. ومن بين الركام، أتى فجأة أنين عميق مغموم. فهتفت جوقة من أصوات التهليل الحبيسة التي كان أصحابها يعتقدون أن ولدَي البردي ميتان. سريعاً ظهرت صورة ما حدث: فالحجارة الضخمة المتطاولة التي هوت من السقف، والقناطر التي تربطه، وضعت الولدين في خيمة حماية أنقذت روحيهما.

ما رأته لوزية بعد ذلك، لم يكن مغامرة الإنقاذ وحدها، وإنما مسعود الحقيقي، مضافاً إليه حلّ الحياة السعيد.

بدا كأنه قد نسي كل شيء حوله، وبدت الحجارة وهو يشيلها، أشياء عابرة، بلا ثقل. وما كان يحتاج إلى رجلين أو أكثر منهما، استطاع أن يرفعه وحده، ثم يمشي به بعيداً. لم يسمع؛ إذ تجاهل ألف ملاحظة ردّدها فضوليون وحشريون ومتطوّعون. صار يعمل وفق إيقاع خاص ذاهب نحو الهدف المقدس الموجود بين الأنقاض. وقال لها في ما بعد، إنه سمعها تهتف به: «مسعود... يا مسعووودي». لكن لوزية أقسمت لرندة وخيرية، إنها لم تقترب منه وإن الرعب شلَّ قوّتها، ولم تجرؤ على الوصول، حيث الناس يتجمهرون. مسعود قال إن ذلك النداء أغلق المكان من حوله. لم يعد يرى أحداً. واختفت الأصوات كلها، ليحلَّ محلّها الصدى الهاتف، وصورة الولدين المهدّدين بالموت. نزل إلى الأنقاض، ورأى كيف حاصرتهما الحجارة. كان حِنْتٌ طويل ضخم يجثم فوق كتلة أحجار أصغر

منه، ويسجن الطفلين في ظله. انسلّ مسعود ببطء، محاولاً الدخول بين الحِنْت الضخم، والأحجار المنهارة، لكنه لم يستطع، فبدأ يحفر التراب والحصى والدبش المتجمّع هناك. ثم أدخل الكتف الأيمن، وحمل الحِنتَ وصاح: «ارفعوا معي!». هرول عدّة رجال، وشدّوا رأس الحجر الكبير، فاستطاع مسعود أن ينزلق أكثر، إلى الداخل. هناك، قال للوزية، رأى وجهيهما. التقط منهما تلك النظرات المبلّلة الضارعة. «ما بعرف شو قالوا لي، فكّرت إنو قالوا يكثّر خيرك. ويمكن قالوا بخاطرك لأنهم فكروا حالهم راح يموتوا». فجأة مسّه أحدهما بكفّه، فارتعش بدنه كله، وهمس له بحب: «يا ولد!»، وأضاف بصوت مشجِّع راعش: «راح تعيش، بس خلّيك ع بتطّلّع بوجهي!».

الآن صار بوسعه أن ينزلق أكثر. صاح: «حطّوا الحجر ع ظهري!»، فتعاون الرجال ورفعوا الطرف الخارجي للحنت، منسِّقين حركاتهم مع اتجاه ظهر مسعود المنحني. وحين صار الحجر راسخاً فوق ظهره، نهض به. صرخ: «اتركوني!»، سمع بضعة إرشادات ونصائح فصرخ ثانية: «اخرسوا كلّكم!». عمّ الصمت فجأة في الحشد كله. تلك اللحظة رأته لوزية يصعد من الأنقاض. بدا مثل طائر. كان وجهه منفوخاً، وقد نفرت عروق رقبته. وانتفخت عضلات كتفيه وذراعيه وساقيه، ومشى ببطء ودراية، إلى أن صار بموازاة الأرض. وقف وتطلّع حوله، فهرع إليه الجميع، ودفعوا الحجر بعيداً عنه. تدحرج فوق الركام، ثم هدأ.

نفخ مسعود هواء غبارياً كثيفاً من بطنه. وتطلّع نحو لوزية. كان الفازعون يُخرجون الولدين. ثار لغط وزعيق، وصراخ فوز. وتحلّق الجميع حولهما، فيما راحت أمّهما تنتحب.

الحل جاء في ما بعد، حين رأت مجموعة الصور التي التقطها نازي حطاب، فمن بينها كلها، كانت ثمة صورة لمسعود منحنياً، في الأسفل

يحمل حجراً ضخماً، بينما كان نعمان البردي يحاول كسره بشاقوف، قال مسعود: «إنها مهدّة»، وأضاف: «ما كان يطلع! فقلت لهم كسروه على ظهري فكسروه». كان ذلك صحيحاً. وقد ظهر غبار أبيض وفتافيت حجارة تتطاير في الهواء، «شفتِ؟» تباهى، فقالت: «بتعرف؟» ثم سكتت. كانت الفكرة تتراقص في رأسها، مثل لهب سراج. سأل: «شو؟».

قالت: «ولا شي» لأنها لم تجد كلمات مناسبة توقد بها خطّتها البازغة. وفي صباح اليوم التالي، زارت رندة. بدا وجهها مغموماً وشاحباً. فقالت رندة: «وجهك أصفر».

هزّت لوزية رأسها موافقة وأوضحت: «ما نمت الليل».

«شو رأيك بفنجان قهوة؟».

«في عندك؟» سألت بلهفة.

«إي. حسن ترك لي نصّ كيلو». ثم نهضت، وأشعلت البابور، ووضعت ركوة قهوة نحاسية على النار، وعادت تحمل فنجانين، وقالت: «هاتي قولي لي! شو بك؟».

فأعادت لوزية بناء مشهد الأمس بالتفصيل، وعلّقت: «لما شفت كيف كسّروا الحجر على ظهر مسعود، قلت الله أكبر. تصوّري إنو حل مشكلتنا كان بجنبي من غير ما شوفو».

«إي».

«لكن الله بيحبني، منشان هيك انهدّ بيت البردي، واندفن ولادو بين الحجارة حتى يجي مسعود ويعمل هيك».

«إي».

«قلت إذا كان الله، سبحانه وتعالى، أعطاه كل هالقوة، أكيد كان راسم له حياة ثانية، يعني حرام يضيع بين الزفت، أو وراء فدان الفلاحة. صح؟ وهذا الحل قدّم لك ياه الله يا لوزية».

«أي حل؟!» سألت رندة وهي لا تفهم.

«بدل ما يتفرّج عشرين رجّال عليه، ليش ما بيتفرّج ألف واحد، عشرة آلاف واحد. وبدل ما بشوفوه بلاش، بيدفعوا مصاري، شو رأيك؟».

«ما فهمت».

«يعني المفروض إنّا نعمل حفلة كبيرة، ونخلّي الناس يشتروا بطاقات، ويشوفوا كيف يمكن يتكسّر حجر على ظهر زلمي!».

فقالت رندة ساخرة: «وشو رأيك يطعج حديد؟».

«ليش لأ، ويمكن يجرّ ثور، أو سيارة... بتعرفي؟ مرة حمل حمار وطالع ع السطح لأنو عمي ما كان يعطيه مصاري. وما كان ينزلو حتى عطاه. حمار كامل». ثم تطلعت نحو رندة بضراعة وقالت: «واليوم دورك يا رندة».

«دوري بشو؟».

«لازم تحكي مع حسن لمّا يجي وتقولي له إنو يساعدنا. يعني يدفع شوية مصاري وياخذ من المربح مثل ما بريد».

«طيّب، قلتِ لمسعود؟».

«لازم دبّر كل شي بالأول وبعدين بقول له، لأنو إذا قال لا اليوم، ما حدا بالدنيا بيقدر يجبرو يغيّر ويقول: إي».

« وليش؟ هذه كلمة، وهذه كلمة».

«ما بعرف مين علّمه إنو الرجّال إذا قال كلمة مش لازم يردّها! قال الكلمة مثل البصقة ما حدا بيلحسها».

فرشفت رندة آخر قهوتها، وقالت: «يعني المفروض تمنعيه يقول لأ».

«بالضبط».

«ولك لوزية؟» همست رندة.

«ها؟».

«نامي معو!».

فضربتها لوزية على صدرها: «ليش نحنا شو عَ منسوّي؟ بعدين أني عارفة أخلص من هالشّغلة؟!».

«لأ» قالت رندة، «نامي أنتِ معه لا تخلّيه يستنّى، امسكيه من تحت الزنار وخذيه!». ثم انتظرت قليلاً وهي تفكر: «اسمعي - أوضحت - اشلحي ونامي معو! تعرّي! ربّي كما خلقتني. لا تشلحي كلسونك بس! اشلحي كل ثيابك».

«كل ثيابي!» شهقت لوزية مذعورة.

«غطّسيه بلحمك، شمّميه كل شقفة من جلدك، خلّيه يموت، وبعدين خذيه! على مهلك خذيه، شوي شوي. ولمّا بيصير جوا. قولي له».

«كيف؟».

«كيف؟ هذه شغلتك. لا تخافي بتعرفي كيف لوحدك، لأنو الله تبعك مش راح يتخلّى عنك ما دام خلّاك تفكري هيك. بعدين رح تشوفي إنو يمكن يلحس التراب، مش الكلمة، سامعة؟!».

فاغرورقت عينا لوزية بالدموع، وقالت بطاعة: «سامعة!»، وأضافت: «شو عن حسن؟».

«حسن؟ حسن رجّال، وكريم، وبيعرف يشمّ ريحة المصاري».

كانت رندة لا تكلّ عن مديح حسن اللوف، دون أن تحفل، في أي وقت أو أي زمان، بالتعريضات المحتملة التي يمكن أن يلوك الناس بها سمعتها. فالوحيد من بين أهالي السماقيات، الذي تذكّر أن هناك أرملة وحيدة تكاد تسفّ تراب الأرض، وتأكل ديدانها، بعد موت زوجها، هو حسن. تذكُر أنه بدا خجولاً، مشوّشاً حين عرض عليها أن تعمل في داره. ففي غيابه، بين

بيروت والسماقيات، كان محتاجاً إلى من يعتني بأثاثه الثمين. وقال لها: «بتروحي ع البيت لمّا بكون غايب، وبترجعي ع بيتك لمّا برجع». كانت شروطاً مصوغة وفق المواصفات المحلية، وقواعد المجتمع. صحيح أنهما ينتميان إلى عائلة واحدة، لكن صلة القرابة بينهما تشبه متاهة؛ إذ يصلان، بعد المرور بأكثر من أربع نساء، إلى خؤولة ضعيفة، لم تستمر أكثر من جيل واحد. وكان ذلك يحتاج إلى الشجاعة لعرض الفكرة، وقبولها في الوقت نفسه. وحين سألها حموها عن الأمر، قالت دون تفكير: «بس كون حمارة برفض!». كانت تعيش في الدار العتيقة، مع ثلاثة أولاد، وحميها الأرمل، الذي كان يختم كل يوم تقريباً، بدعاء طويل إلى الله، كي ينام، ولا يستيقظ.

لم تستطع رندة أن تعرف أبداً، ما إن كان يتمنى الموت، هرباً من حياة مشوّشة مدقعة فقيرة، أم رجاءً للقاء عاجل مع ابنه محمود، زوجها. لكن في كلتا الحالتين، كان صادقاً في رجائه اليومي. وباستثناء تعلّقها بأولادها الثلاثة، الذين حاولت تغذيتهم بفكرة البقاء، فإنه لا شيء كان يمكن أن يجعلها متحمسة لتلك الحياة المعطوبة التي واجهتها منذ أكثر من أربع سنوات، بموت زوجها، وانتشار القحط المتلاحق.

لهذا قبلت عرض حسن؛ فمقابل إشرافها الكلي على الدار الزرقاء، ستتقاضى مئة ليرة شهرياً. كان الرقم أكبر من أحلامها كلها. ثروة سماوية، يمكن التفكير في أنها ستحرِّر حياتها وحياة من معها، من جميع الجداول المحتومة التي كانوا يخشونها.

بعد أسبوع، ذهبت إلى حسن. كان موجوداً هناك، مستعدّاً بطقمه الأبيض، وحقيبة السفر السوداء المكعبة، والسجائر الكثيرة التي تملأ صحناً أزرق عميقاً، ورائحة العطر المدوّخ (التي ستحبّها في ما بعد). وعلى الرغم من أن الاتفاق بينهما لم ينصّ على استثناء عمها، فقد رفضت قبوله

في منزل حسن، إذ اعتبرت أن تجاهله يعني استبعاده. لكنها، بالمقابل، قسمت وقتها بين الدار (وهي تسمية بيت أهلها القديم)، والفيلا (وهو اسم دار حسن). لم تكن عنايتها بالعجوز نابعة من التزام أخلاقي فقط، بل من مشاعر شغوفة جعلتها تنتحب، في أول ليلة نامت فيها بعيدة عنه، دون أن تتنازل، وتطلب من حسن الموافقة على مرافقته لها.

بعد عشرين يوماً، عاد حسن. وكانت الكلمة الأولى التي قالها هي: «يسلمو إيديكِ!» تعبيراً عن إعجابه بفضائل عملها في بيته. شمّ رائحة النظافة بصوت مسموع، وطاف في المكان كأنما يراه لأول مرة. لم يكن ينافق، وقد بهرته مظاهر التغيير، حين قال لها إن شغلها يشبه شغل ساحر. «الله! الله! الله!» نطق الكلمات بنبرة تمجيد جعلتها مثل فراشة. طوت الطريق كالعمياء. ولم تسمع تحية ظهيرة ألقاها محسن عجيب، لم ترَ النساء اللواتي كنّ على عتبة آل الأسود، إلى أن نادينها. فقالت: «مستعجلة»؛ إذ لم تكن مستعدة لسماع أي حديث يمكن أن يبدد جذل الكلمات المديحية الكريمة. وفي الدار، هربت من عمّها الذي لاحقها من وراء جفنيه المتهدلين، بنظرات ريبة وترقّب، مثل هرّ. لكنها لم تستطع الصمود أكثر، فحلّت شعرها، ومشطته، وهي تغنّي. ثم عقصت جديلتين طويلتين، وحمّمت أولادها. ولم تلاحظ (وهذا ما بهرها أكثر) أنها كانت قد حمّمتهم مساء أمس. كانت طرطشة الماء في الطشت الكبير، تعزّز خلاصة كلمات حسن الجسورة، التي كافأ بها عملها. ولم يأتِ المساء، حتى كانت قد عدَّت النقود خمس مرات، ونشرت القميص والتنورة اللذين أهداهما لها، أمامها في عشرين شكل. ولبستهما، وهي تستنشق رائحة النفتالين العذبة.

لكنها لم تذهب إلى الفيلا طوال ثلاثة أيام، ظلت خلالها تراقب التحركات حولها، من السطح الصغير، بحنان ربّة منزل. وفي اليوم الرابع،

جاء عبد الله الحوّاط، وقال: «المعلّم حسن يسلّم عليك، وبدّو يسافر بُكرة، بتقدري تروحي الصبح». فلم تنم ليلتها. صار المكان محسوساً ونافراً، ويمكنها أن تمسكه بيدها، وتعرف ملمسه. وقد أبهجها هذا، فتجوّلت فيه، وهي تعبّ الهواء، ثم قالت لحسن: «اشتقتلو!»، فابتسم لها وهزّ رأسه، وقال: «إذا بدّك الحقيقة، البيت اشتاق إلك».

كانت الغرف مدعوكة. وكان المطبخ طافحاً بالأواني القذرة، وكؤوس الشاي، وفناجين القهوة التي التصق التفل بكعوبها. وكانت رائحة حريفة تملأ الأرجاء. ففتحت النوافذ، وهي تقول: «ريحة عفونة». صار حسن يضحك، وخبط جبينه بكفّه، وحمل حقيبته، وقال: «بخاطرك!». «مع السلامة!» أجابت، ثم أضافت بلا تحفظ: «الله معك!».

غاب شهرين تلك المرة، ثم عاد آخر الشتاء. كانت قد صرفت نقودها تقريباً. اشترت ثياباً لأولادها، وجبّة سوداء، وسروالاً لحميها، وطعاماً، كان من ضمنه، لحمة، وبقول، وحلويات، وأشياء لزينتها. ولا شكّ أن حسن لاحظ تغيّراً ما، في سحنتها، كي يُظهر ذلك التعبير المفخّم عن دهشة المسافر، ويستخدم تلك الكلمات المثيرة تجاهها: «شو هالجمال؟» همس بصوت أليف ناعم. «عن مين عَ بتحكي؟» سألت بغباء. («والله كنت غبية - قالت للوزية في ما بعد - لأني ما فهمت»). «عنك طبعاً» قال. فاصطكّت ركبتاها، وغمرتها رعشة جعلت جلدها مليئاً ببرغل النشوة. ووجدت نفسها تردّ: «كثّر خيرك، هذا من لطفك». جملتان جاءت بهما من سوق المجاملات الباهتة التي هرّأ الاستعمال أطرافها. فقال: «ما كنت عَ بسايرك. أنت حلوة فعلاً! بتعرفي كمان؟ اسمك حلو». فداخت، وشعرت أن خدّيها احترقا. وأغمضت عينيها لتمسك باللحظة، والرنين الباذخ المصاحب لتلك الكلمات الملكية، راغبة في عناقه، وتقبيل خدّيه وشعره، وفمه الذي يعرف كيف ينطق. وفي المساء قالت للوزية، وهي شبه

مأخوذة: «مستعدّة إشتغل عندو بلاش منشان هالكلمات، لأنو من زمان ما حدا قال لي كلمة حلوة».

وبعد شهر، بدا كأن الكلمات، قد حرثت سطح حياتها كلها. ظلت تغني دائماً. وكانت مختاراتها راقصة، ومنتقاة من سجلات الحب والهوى. ازدادت شراهتها إلى الطعام، وفوجئت أن وزنها قد ازداد أيضاً، وارتفعت تلال صغيرة من الشحم على جانبي وركيها، وفوق بطنها، وكبر نهداها، وانتفخت حلمتاهما، واسودّتا. وحين جاء الحوّاط معلناً عن سفر حسن، لم تستطع الذهاب إلى بيته قبل أن تكمل زينتها، فكحلت عينيها، ودهنت خدّيها بالحمرة، حتى تضرّجا، ورشّت ماء الكولونيا على جسدها، ثم ارتدت الملابس التي أهداها لها، ومضت إلى هناك، دون أي فكرة. لكنها حين رأته (كان ساطعاً ومنيراً في ضوء شمس الصباح)، أدركت أن ما فعلته (وبضمن ذلك نسيانها لأولادها في الدار) إنما كان مشبعاً بخطط الصياد.

لكن حسن لم يرها تقريباً، وترك البيت مسرعاً. وفي الداخل، لاحظت أنه عبّأه بالمؤن وحاجات الضرورة. فانهارت وبدأت تبكي.

ما اعتبرته رفضاً من جانب حسن، لم يؤثر في أدائها العملي داخل المنزل، ولم يزعزع إيمانها العميق، بنُبْلِ الرجل. وكلُّ ما استطاعت أن تفعله هو تهديده. «بتشوف!» قالت له في نفسها، وهي تتوعّده.

وقد رأت أن توسّطها لديه بشأن مسعود ولوزية، سيكون جزءاً من المهمة ذاتها، يمكن أن يتم وفق وصفتها للوزية.

يوم رندة
قصة: فيصل الخضرا

طوال النهار كانت رندة تغنّي، لأنها حبلت، بعد أن ظلت مدة طويلة لا تحبل. كانت تغني للعصافير التي جاءت مبكرة إلى باحة الدار، وتغني للشجرة الجميلة التي ظهرت أوراقها الخضراء. وكانت الفراشات تتطاير من حولها، والدنيا كلها تضحك لها. فعندما ذهبت إلى البئر، لتملأ الماء، رحبت بها النساء، وقال لها أبو إسماعيل، حارس البئر: لا تعذّبي نفسك! أنا أملأ لك المَنشل. وكان أبو إسماعيل يحب الفقراء، ويحب مساعدة الناس، فحمل المنشل ووضعه على كتفها، وقال لها: الله معك! وعند الظهر، جاءت أم أحمد، وأحضرت لها دجاجة، وجاءت أم علي وأحضرت لها دجاجة، وجاءت أم فهد، وأحضرت لها دجاجتين. وقالت النساء لها: هذه الدجاجات لك، من أجل أن تبيض، وتأكلي البيض، لأن البيض مفيد لعظام الجنين. فقالت: من أين سأطعم الدجاجات؟ فجاء أبو فرحان عجيب، وقال: لا يهمّك. أنا سأعطيك الشعير، فأطعمي الدجاجات جيداً. فقالت: كثّر خيرك، فقال: إنه واجبي. فتأثرت كثيراً وقالت له: إن أهل السماقيات أوادم جداً، وإنهم سامحوها، وقالت إنها أخطأت، ولكنها لم تخطئ. قال أبو فرحان: إنه لا يفهم. قالت إنها تعذّبت كثيراً، وجاعت، واشتاقت إلى زوجها. فقال إن محمود مات من زمن بعيد. فقالت إنها ترى

جميع النساء يعشن مع الرجال، وإنها قالت لماذا لا أعيش أنا مع رجل، وقالت إنها عاشت مع رجل، ولم تكن تعرف أنها ستحبل. ولكنها حبلت، وهي مبسوطة. خائفة ومبسوطة. وهذا الولد ينطّ في بطنها ويلبط ويتحرك، وهو لا يعرف كيف جاء. وهو من الخطأ، ولكنه جاء من الصحيح. قال: لا أفهم. قالت إن جميع الأولاد يأتون حين ينام رجل مع امرأة. قال: صح. قالت هذا هو الصحيح! قال: إي. قالت إن كل شيء عملته صح، ما عدا أنني لم أتزوج. قال: صحيح. وعسى أن يوفقك الله يا بنتي. وجاء توفيق الخضرا وقال: لا يهمّك يا رندة، ولا تخافي، وقولي لي من هو أبو الولد، لكي أسحبه من شعره، وأقول له: تزوّجْ رندة، غصباً عنك يا نذل. قالت: أنا شفت مناماً، وفي المنام رأيت سلة تنزل من السماء. ونظرت، ورأيت طفلاً يجلس في السلة، ويضحك لي. ثم صارت تمطر، ورأيت العشب ينبت. وجاء رجل من وراء الأشجار، وعرفته، وقلت: أهذا أنت؟ فقال: هذا أنا! فقال توفيق: طيّب. وذهب إلى البيت، وأرسل لها ليرتين وكيلو بصل وثمنيّة عدس وكشكاً وبرغلاً. ففرحت كثيراً وذهبت إلى بيت صفصافة، وقالت لها: بصّري لي. وكان عندها قهوة، فأخذت معها قهوة إلى بيت صفصافة، وبصّرت لها صفصافة، وكان فنجانها جميلاً. وقالت لها صفصافة: أمامك طريق طويل يا رندة، وفي آخرها يقف شخص. وهذا الشخص سوف يأتي بعد إشارة أو إشارتين. وهناك شخص وراء الظل، ويحمل في يده شيئاً ما، ويمكن أن يكون ورقة. وهناك طائر صغير، وهو خائف من الحيّة في الكعب، ولكن لا تخافي عليه. الله معك. فذهبت إلى بيت الشيخ أنيس وقالت: اكتب لي حجاباً، فكتب لها حجاباً ببلاش، فوضعته قرب بطنها، كي يحمي الولد. وبعد أيام، جاء مكتوب من أبناء عم محمود، مكتوب سميك، بعثوا لها فيه مصاري كثيرة، وقالوا إنهم سمعوا أنها حبلت، وإنهم فرحوا كثيراً لأنها حبلت، ولأنها ستزيد عدد آل الخفيف. فقالت لها

صفصافة إن هذه هي الإشارة الأولى. أما الإشارة الثانية فجاءت بعد شهر، حين وصل حسن اللوف، وقال لأهالي السماقيات: اسمعوا يا أبناء قريتي. أنا نمت مع رندة، وأنا أبو الولد الذي في بطنها، وأنا قررت أن أتزوجها، لأن رندة جميلة جداً. وأنا أحبها كثيراً. ففرح الناس بكلامه، وعملوا عرساً وغنّوا كثيراً.

12

تشرين الأول 1959

ما رآه كريم، هذه المرة، كان حاسماً؛ فحسن اللوف كان موجوداً في الصور الجديدة التي أفرج عنها نازي حطاب، من ألبوماته، بمبادرة منه. لم يفكر كريم في أسباب ذلك؛ إذ كانت المفاجأة أكبر من التساؤلات والحسابات. ومن الصور الأولى، أخذ حسن يتجوّل بين أربع مجموعات من النساء اللواتي تجمّعن حول الحقائب الكبيرة والصغيرة، وصرر الثياب. وقد رأى أن معظمهن، وخاصة النساء المسنّات، كن يتبسمن له. ولا شك أن وجوههن تدل على بداية حديث ودود، زاخر بالوعود، أو على بقية حديث مُرضٍ، مستجيب، لأمنيات تزدحم بها رؤوسهن. وفي إحداها، كان حسن يستند بكفّيه إلى خاصرتيه، في وقفة دون جوانية، تشي بأنه يتابع حديثاً شهياً بعزيمة الجريء، مع محمودة وأمها (لم يشكّ أن المرأة كانت أمها. فقد رآها من قبل، تلتصق بها، في الصورة الأولى).

كانت المرأتان تنظران إليه وحده. وقد بدا أنهما لا تلاحظان وجود أي كائن، على الرغم من أن الصورة التالية (كان حسن يشير فيها بيده نحو الشرق) امتلأت بظلال طويلة ناحلة (هي لنساء على الأرجح، يقفن في مواجهة الشمس البازغة)، ظهرت محمودة مشغولة بالحكي الذي يرويه

حسن (لا شك أنها دسائس منمقة عن الحياة في بيوت بيروت، وقصور الجبال). ولا شك أنها أحابيل استطاع ذلك النخاس اللئيم حشدها، ولفّها حول عقول الناس، ليرغمهم على الهجرة، والرحيل، وراء أرباحه التي يجنيها من السمسرة في مجال البشر! لكن أم محمودة بدت مشوّشة قليلاً. وكانت تلاحظ حسن مرة، وتراقب الجهة الأخرى مرة ثانية. وقد استطاع نازي أن يلتقط صورة أخرى، يظهر فيها خطٌّ فضّيّ متعرّج صاعد (هو طريق المسافرين)، وقد أُغلق في نهايته، بواجهة الباص الكبير الذي كان يطلق، في تلك اللحظة، بوقه العريض (عرف ذلك من رفوف العصافير التي أجفلها الصوت. وانطلقت تدور مالئة الصورة). وراح ظهور حسن يتكرر في الصور الأخرى (وهذا ما طمأن كريم قليلاً، إلى أن انشغال حسن اللوف بالمرأتين، كان انشغال مقاول)، ولكن وجود النساء الأخريات زاد في ألمه، ودهشته. معقول! كان يردد أمام نازي الصامت الذي أخذ يفرج عن الصور، واحدة بعد أخرى. «تعرف مين هذي؟»، يقول «هذي» فيسأل كريم: «مين؟»، يجيب، وهو يراقب الحائط الأبيض المطروش بالكلس: «هذي أم غازي، وهذي حسون مرت البطران. وهذي عسلية»، وفي كل واحدة، كان حسن موجوداً، يحمل حقائب، أو يشيل صرراً ومحازيم فرش، ويناول معاون الباص الذي صعد إلى سطحه، واحداً من أشياء المسافرات.

«أخذها ابن الحرام!» قال كريم بغيظ، أمام مسعود. كان هذا ما يزال نصف نائم (بعد قيلولة الظهيرة) ونظر إليه ببلاهة، وهمس: «لا تحْكِ حزازير»، فحكى له كريم ما رآه في الصور. كان قهره من الاختطاف (وهذا هو رأيه في إجراءات حسن التهجيرية التي كان يغري بها أهالي السماقيات) أكبر من سخطه على الغياب. وسوف تكون مهمّته الآن، معرفة المكان الذي أخذها إليه. وَجَم ثم طلب منه: «بتروح معي لعند حسن؟».

«لأ» ردّت لوزية بجفاء. فالتفتا نحوها كلاهما. ويبدو أنها لاحظت ردّها الفوري، غير المناسب، فأوضحت بلهجة شارحة، ومتعاطفة: «أنت بتعرف لوين راحت. خلص، شو مفكّر يعني. أهلها احتاجوا. لازم يجوعوا يعني منشان تظل تحب؟». لم تستطع في النهاية، ضبط إيقاع الشرح، وبدت غاضبة.

خرج من منزل صديقه خائباً، وقد غمزه مسعود ملغزاً إلى أنه عاجز عن مشاركته الزيارة. ورغم حاجته إلى وجوده بجانبه، فقد قرر أن يمضي إلى بيت حسن.

كان ذلك الرجل يعمل في خط حياة اعتبره كريم من خطوط المواجهة المتقدمة في كفاحه. وإضافة إلى رغبته في التشهير به، فقد كانت معرفة مكان وجود محمودة، إذا استطاع أن يعرف ذلك، هي الهاجس المحرِّك له. فحسن هو الوحيد الذي يعرف مصائر المهاجرين. وهكذا، وجد نفسه أمام المنزل الأزرق الذي بناه حسن اللوف، على تقاطعات فروع الوادي، غرب السماقيات. كان حسن يجلس وحيداً، يشرب قهوة سوداء في فنجان قرميدي كبير. سلّم عليه، فقال: «تفضَّل!». راقبه بحذر، وقال: «أهلاً وسهلاً، تشرب قهوة؟». قال كريم: «شكراً». قال حسن مازحاً: «بتوفّر على نفسك فقط». فعرف كريم أنه يكاد يقع في شرك نصبه بنفسه. لام فكرة المجيء كلها، وأحس أنه يخور، وقد أضاع بدايات الكلام. كان حسن أثناء ذلك، يحاول اقتناص المعنى من وراء زيارة الشاب الوحيد الذي لم يزره من قبل، أبداً. لم يجد شيئاً، فقال للمرة الثانية: «أهلاً وسهلاً»، لتحريك الركود الذي خلّفه صمت مربك، ثم تجرّأ وحرّض كريم على الكلام: «ها، خير إن شاء الله؟ في شي؟».

فنظر كريم إلى عيني حسن مباشرةً، وقال: «لوين أخذت البنات يا حسن؟». أراد أن يناديه «أبو خشم»، لأن أنفه بدا طويلاً جداً.

حسن الذي كان يرشف أخر فنجانه، جمد لحظة، وضيّق عينيه، وراقب كريم من وراء حاجبيه الثخينين، ثم قال بحقد: «أي بنات يا ولد؟»، استخدم الكلمة التصغيرية، قاصداً إيصال رسالة مبكرة إلى كريم، لإلزامه بحدود يمنع عليه تجاوزها. وقد فهم كريم الكلمة التي قذف بها. وأيقن أنه أخطأ فعلاً، بالمجيء إلى مربض عدوه، في حين كان حسن يواصل هجومه: «أي بنت منهن بتقصد؟». ارتعدت ركبتاه، وشعر أن اسم محمودة، صار مخطوطاً على وجهه، فنهض، وقال: «السلام عليكم!».

لم يستطع أن ينام. وظلَّ قلقاً، مشعثاً بين خوفه من سؤال حسن، وذعره من الكلمات التي طارده بها: «رح تشوف. بدّي أعرفها وخبّر أهلها». وحنق على نفسه، لأنه انزلق إلى هذه الزيارة الركيكة التي جنحت به نحو الفضيحة. فذيوع نبأ سؤاله عن البنات (هل سيعرف حسن أنه يسأل عن محمودة؟)، سوف يجرّ وراءه مئة شبهة، لن يعرف كيف سيبرأ منها. ولكن لماذا يريدُ البراءة؟ وهو الذي ما يزال معلّقاً بين شفتي حسن، يرغب في أن يعرف مصير حبيبته؟

خرج إلى الليل. كانت الريح الشرقية تملأ العتمة. لفّ رأسه بلفحته الصوفية، وتعثّر ببارود، فلحس الكلب طرف حذائه ثم تمسّح بساقه وهو يقوِّس جسده. «بردان؟» سأله. غير أن جسد الكلب كان دافئاً، وأخذ يتطلع إلى صاحبه، وقد انتصبت أذناه. «شو رأيك؟ يمكن اليوم رحت انفضح! لا والله انفضحت فعلاً»، فزمجر بارود غاضباً. «مش راح ينفع» قال كريم، وتمنّى لو كان بوسعه تكليف الكلب بمهمة إسكاتية حاسمة، لمنع حسن من ثرثرة اللقاء بينهما. كان بارود يحدّق إليه، كأنما سمع، من الغيب، كلام الأمنيات الجوانية، فباعد أذنيه، وراح يحاول قراءة رسالة صاحبه الذي بدا شاحباً مهجوراً على أطراف شروده، وراء حجارة الحوليات العالية، حيث مكثا معاً يراقبان، كما في الأيام الخوالي، منزل الحبيبة الراحلة. «ما

ضاعت يا بارود» قال كريم: «رحلت والله، تركتني ورحلت. وقال شو.. بدّها تاخذ حصة ثانية من الدنيا. أَنِيْ قلت لها: معك حق. إي لازم ناخذ حصتنا. بس مش هيك. قلت لها تعالي معي، حتى نغيّر ونتغيّر. لكن مش نغيّر المكان وحدو. يعني يا بارود، إذا بدّلنا السماقيات، ببيروت، منكون عملنا شي؟ لأ. عَ بتفهم؟ أهمّ شي يا حبيبتي نغيِّر الزمان. يعني ما قلت هالكلمة، لأنو صعب، وما كنت بعرفها. قلت شي غريب، لكنها ما قبلت. يمكن ما فهمت عليّ. يمكن شافت إنّو بيروت أحسن. يمكن سمعت كلمات حسن، كلمات حسن فيها ثياب، ومشاوير، وأكل طيّب، وناس عَ بيرقصوا. وأني ما عندي غير عوّي مثل الواوي، وأحكي عن المساواة، وعن ناس عَ بيقروا منشان يعملوا دنيا جديدة، فشو رأيك؟ الرقص أحسن ولّا القراءة؟ والمصيبة يا بارود إنو ما حدا بيعرف إذا كانت الكلمات مثل الواقع. لا كلماتي ولا كلمات حسن، يمكن تصير ثياب حسن، وعطورو، ومشاويرو، كناسة شقق وجلي صحون، وخدمة، ونوم مع ابن السيد، ويمكن تصير أحلامي جرجرة بالشوارع، وحبس، وقطع ألسنة، وخوازيق. (أنَّ الكلب موجوعاً) كل شي ممكَن وخاصة الضدّ. بتعرف مين الضد؟ لازم تسأل حليم. صحيح حليم ما بحبّك. لكن إذا سألته رح يقول لك: الضدّ شيطان بشرّبك سمّ، وأنت مفكّر عَ بتشرب حليب. لكن أني بقول إنّو الضد إنسان بشرّبك حليب فعلاً، لكن مخلوط بالسم. فهمت؟».

رنا بارود إليه، ثم أطلق عواء، نائياً طويلاً.

ما يرعبه أكثر أيضاً، هو أن يبدِّد الخبر (إذا ما أذاعه حسن بين الناس) تفاصيلَ الصورة التي استطاع أن يرسّخها في ذاكرتهم عن نفسه. وفيها يُظهر أن الأفكار قادرة على صنع نماذج من البشر، ممتلئة بالدماء الكافية، لإثارة الروح في العالم الذي يكاد يموت. بعكس أولئك الذين يجعلون من الحياة نفقاً معتماً، يهرع الإنسان بداخله من أجل وصول وحيد آمن إلى

آخرة مجهولة. أو بعكس أولئك الذين يغشّون، فيدفعون الناس للبحث عن مكان بعيد ينقذون فيه أنفسهم وحدها.

لكن التفصيل الآخر الذي أبرزه دائماً، إنما كان موقفه من النساء. وكانت صورته كعفيف، تأخذ مساحات من الجهد السلوكي المدبّر الذي منعه دائماً من النظر إلى الفتيات، بعين المشتهي. لا ينكر أن دمه كان يمتلئ بفقاعات كاوية، إذا رأى جزءاً من لحم أنثويٍّ عارٍ، إنما كان ينجح في كبح ذكورته، وامتصاص غلمته، أو شكمها بشعور المضحّي السعيد الذي وجد فصاحته في صمته، وتعفّفه وانصرافه النبيل إلى فردوس مأمول هو الاشتراكية.

ومع هذا، فإن يقينه ما زال راسخاً بأنه يحتاج إلى من يحلّ له مشكلة مطالب الجسد. إذ بدا له أن ثمة سراً ما داخل جلده، لا يعبأ بالنظريات. وقد حاول أكثر من مرة، أن ينتزع من أحد دعاة حزبه، تسوية ما لهذه المسألة. لكن عبثاً. بدا الجميع كأنما وقّعوا ميثاق شرف، يجعل الكلام عن النساء حراماً. مرة واحدة ذكر قائد عابر (هل كان اسمه: أبو خالد؟) أن الجنس في الاشتراكية، سيصير مثل شربة الماء. جميل! ودون أن يستفسر عن الحيثيات، ترك خياله يجوب أطراف المجاز المشرق الذي أخصب أحلامه، فامتلأت بنساء مائيات يمكن ارتشافهن من حافة كأس، وفتيات ملهمات تفوح منهن رائحة بحر. لكن مشاغله بذلك كله، ظلت داخل منازل رأسه وحدها. ولم تترجم أبداً إلى لغة الحركة، باستثناء، محمودة التي عرفها منذ فتوته (وهي اللحظة التي ظلَّ ممتنّاً لها في سرّه، حين افترض أنه كان من المستحيل، أن يقدم على مغازلتها بعد انتسابه للحزب). لم يكلّم فتاة منذ ست سنوات. فماذا سيفعل الآن إذا أذاع حسن أنه يسأل عن حشد بنات؟

حسن لم يكن أقل منه ذعراً، ولم تكن لديه رغبة في نشر سؤال كريم، أو أنباء البنات. شعر بالخوف على نفسه، وعلى مشروعه الأخير، الذي بدا له نافذة النجاة، من طريق الإفلاس الذي كان يتدحرج نحوه، مكافأة

على جهود، وأتعاب ماضية كادت تضيع. فقد كان أول المهاجرين، لا من السماقيات وحدها، بل من الجنوب السوري كله. ولا شك أن شرف ريادة تلك المهاجر، يجب أن يُكتب له وحده، لماذا؟ لأن ما فعله هو فتح الطريق أمام فقراء الجنوب كلهم؛ فقد استطاع، بفضل موهبته، أنْ يكسب ثقة الناس هنا وهناك في لبنان، خلال بضعة أشهر، (العمال والفلاحون، والشبان الحالمون من أهل الجنوب، وأصحاب الحوانيت والأفران، والبنايات، وورش البناء من أهل لبنان). ومنذ أن عاد أول مرة، وفي جيبه فرص عمل لعشرة أشخاص، قال إنه عيّن نفسه قنصلاً لشؤون الفقراء. وصار يتنقل بين الجنوب ولبنان ليأخذ كل مرة دفعة جديدة ممن كانوا فلاحين، خذلتهم الأرض، ليعملوا في مدن لبنان، نواطير بنايات ومستخدمين وطباخين وعمالاً وفرّانين. وإذا كان أحد منهم اشتغل حمّالاً أو عتّالاً، فقد كان ذلك مسؤوليته وحده، لأنه وجد لكل واحد، في كل مرة، عملاً آخر، محترماً يكسب منه معاشاً طيباً. وبفضل ذلك، سمّاه الناس: «السعد». اسم جميل باهر يطابق الأشياء التي قدّمها لهم. وازداد محبّوه؛ فأولئك الذين أنهكهم القحط، كانوا ينتظرون عودته، كي يسلّموه أنفسهم، طائعين، ويوصلهم آمنين، إلى ملاذهم، ويريحهم من ذلّ الأسئلة عن عمل، ويضمن أجورهم لدى مستخدِميهم.

وهو يعرف أن توالي القحط، مسخ الكائنات في السماقيات، ومحيطها كله، وحوّلهم إلى أفواهٍ ناشفة، ومعدات خاوية، ومصارين مجعلكة بحيث بدا اسمه مرادفاً للمطر.

ولكن مقابل محبّيه، ازداد حاسدوه ومنافسوه أيضاً. وبدأت سجلات انتصاراته تضمحل، وتخبو، منذ أن ظهر عشرات السماسرة الذين ملؤوا المنطقة (عادة خبيثة). كان يعرف أن ذلك سيحدث. وقد حاول أن يمنعه أو يؤخره، باستئجار وسطاء لصالحه، والاتفاق مع مكاتب التشغيل في بيروت،

لحصر التعامل معه وحده. لكن الأخلاق الرديئة حسمت أفكاره، حين أخذ منافسوه يعرضون بضاعتهم من الرجال في أسواق لبنان، بأسعار، وطرائق، وأساليب، كادت تؤدي إلى الخراب. ثم بدا لبنان نفسه (الذي حجّ إليه الآلاف من السوريين الجائعين) متخماً. غصّت الفنادق والمرابع والبنايات والورشات، بالعمال وطالبي العمل. وصار مقاولوه يرفعون أيديهم مستسلمين: «خلص يا معلّم حسن!». لكنه لا يستسلم، فما إنْ بارت تجارة البشر حتى وجد مهنة أخرى، لتسمع السماقيات ذات يوم، صوت عبد الله الحواط، وهو يذيع في شوارعها وأزقتها، خبراً عن ثياب رخيصة من جميع القياسات، تباع في دار حسن. كان قد أحضر بالتَين من الملابس المستعملة الصالحة لستر الأجساد البردانة، من عجائز البلدة ورجالها وشبّانها ونسائها وبناتها وصبيانها ، ممّن ظلّوا هنا، ولم يهاجروا. كانت سمعة البالة عبقة؛ فالشبان الذين يأتون بالإجازات، ظلوا يتبخترون بالقمصان والبناطيل الأوروبية الملونة التي تزخر بعلامات الشركات الكبرى، هناك.

طوال ذلك النهار، لم يأتِ أحد، ظلَّ حسن وحيداً، يتأمل هرم الملابس الكاسدة. وعند العصر، أهدى رندة أرملة محمود، خراطة سوداء وقميصاً أخضر، بأكتاف مبطّنة بالإسفنج. كانت مهارة تسويقية عفوية؛ فالأرملة جذبت الزبائن مثل نار. وفي الصباح كانت أكثر من خمس عشرة امرأة، ينبشن السلالة الأجنبية. ولم تمض ساعتان حتى كانت كل واحدة منهن، تلوح أمام عينيه، بحبل من الثياب. المهزلة التي لم يحسب لها حساباً، هي أنهن كنّ مفلسات. كيف لم يفكر في ذلك؟ فبدل أن يملأ جيوبه بالمال، وجد بيته يعجّ بمقايضات تهريجية، تضع النساء فيها، قوة عمل رجالهن المسافرين، مقابل ديونه، أو يقدّمن وعوداً خلّبية لسداد مستحقاته، في البيدر (ولكنها لا تمطر). أو يعرضن عليه مثلما فعلت نوفة زوجة علي الهراس، دجاجاً. فيصرخ: «بدّك ياني صير بيّاع بيض؟».

الرجال الذين جاؤوا مساءً كانوا أكثر تردداً، فاكتفى المعلّم توفيق

بالفرجة، وقلب سلمان الجدي، وعمر الرجمة، وعلي مسعود، وعلي شمال، الكومة، وهم يثرثرون. وظلَّ ابن مالك بعيداً، ولم يشتر أحد شيئاً، باستثناء عمار التوت الذي كسا جسده لشتاءين. وأهدى قميصاً وبنطلوناً للقمان. وعند ظهر اليوم التالي، جاء ثلاثة رجال درك على خيولهم، وأخذوا ما يحتاجون.

بعد يومين ظلَّ وحيداً، يتأمل نثار الثياب التي ظنّ أنها ستنقذه. كان كئيباً أكثر من أي وقت مضى. وقد أحس بأن الوعود التي ظنّ أنه عضَّ عليها بأسنانه، لم تكن سوى جيفة، وأن المستقبل ليس مزحة فارغة (وقد استهلك مدخراته كلها في بناء بيته الأزرق)، ويتركه الآن مثل واوي وحيد فارغ البطن، بلا برامج ولا أفكار ولا أدلّة. ماذا يفعل؟ كانت السماء تلك الليلة - كما يذكر - منارة ببدر تام، يتلألأ وسط درب التبانة الحليبي. فتوسل إلى الله كي يمنحه إشارة ما إلى طريق جديدة. لكن رأسه ظلت قاحلة، تأبى أن تنضبط، صار للسجائر طعم مرٌّ معكور، وبدت القهوة بلا ألق، فأوى إلى فراشه، مبكراً، ونام شبه يائس.

وفي الصباح، استيقظ بلا أمل. بدا كأنه أضحى شخصاً آخر لا عادات لديه، فلم يحلق ذقنه (كما اعتاد منذ سنوات)، ولم يصنع قهوته، وانسدّت أمعاؤه أيضاً، ولم يستمتع بالمرحاض الصباحي الذي كانت ترافقه سيجارة، أو اثنتان. وقال لنفسه إن أفكاره، صارت مثل الحمير الشاردة في الوعر.

لكن إلهامه انبثق فجأة، حين رأى أمام بيت إسماعيل البردي، غيمة غبار شاحب، تلتف حول فتاة تكنس أرض الدار، بظهرٍ منحنٍ. «الله أكبر!» هتف بحماسةِ المؤمن الشغوف الممجّد. كان المنظر اكتشافاً عميقاً، آمن بأنه استجابة ربّانية لنواياه. إذ لم يخطر ببال أحد، منذ أن بدأت مواسم القحط والهجرة، أن يجرّب إشراك هذه المخلوقات في حملة الإنقاذ. لماذا؟ وازداد استبشاره حين فكر بأن آلاف البيوت في بيروت، ما تزال

شاغرة تنتظر نجداته، من أجل استيعاب الشغّالات (وهو التعبير الذي سيستخدمه بدل الخادمات)، اللواتي سيأخذهن إلى هناك.

كان يعرف مشاقّ الاقتراح هنا، بسبب إرباكات التقاليد، والخوف من التغيير الطارئ الذي سيجعل أول المشاركين - من آباء البنات، إذا ما وافقوا - مُعرّى أمام قوس من الاتهامات. أما هناك في بيروت، فقد تعترض العائلات على مجيء بنات غشيمات، لا يعرفن شيئاً من أصول الخدمة.

ولكن جميع هذه المصاعب، بدت له مجرّدَ كُحْلٍ، إذا ما فكر بالعمى الذي يهدده ألف مرة. وليس عليه إلا أن يختلس نجاحه من شدق الأخطار. لذلك كانت السرية هي النهج الأول الذي اختار أن يمشي فيه، كإجراء احترازي يمكن أن يقدّم الحماية المناسبة له، ولأولئك الذين من المحتمل أن يوافقوا على مشروعه الذي سيقدّمه كالتماس. المفاجأة أن التطبيق كان حاراً. فمنذ اللحظة الأولى لاحظ حسن الذي كان يرتعد، وهو يعرض الفكرة على إسماعيل البردي نفسه، أن الرجل الكهل ظلَّ جامد الملامح، ينظر إلى طاسة ماء، تطفو على وجهها غشاوة من الغبار، إلى أن تنحنح، وقال: «موافق! شرط نروح كلنا».

شرط إسماعيل بدا في ما بعد، مثل مظلة. فمن بين عشرات العائلات التي زارها (وقد رفض كثيرون عرضه)، كان وجود الآباء والأمهات في مرافقة المرشحات، يضفي على نشاطه، الغطاء الضروري للحماية. كما يمنح البنات اللواتي سيذهبن معه، دون أوليائهن، النجدة ذاتها.

وعلى الرغم من أنه لم يخرق هذا التقليد، فإن الدفعة الأخيرة شملت نساء فقط. «ماذا أفعل - فكّر - إذا كانوا هم من يرفضون. وإذا كانت السماقيات قد أصبحت عجوزاً؟»، ولهذا فقد فرض شرطه مقابل شروطهم: ليس مسؤولاً بأي حال عن مصير الآباء، أو الأمهات المرافقات لبنات مشروعه.

ومساء يوم الجمعة، زار كريم توفيق الخضرا، وباح له بسرّه. مغامراً بالانكشاف أمام المعلّم، مقابل الحصول على طمأنينة محتملة. بدا توفيق واجماً تجاه المعلومات التي قدّمها له، ولم يبدِ ارتياحاً لغضب كريم الهوائي الذي تطرف فيه، وشتم الناس - إضافة إلى حسن - الذين يجرّهم نخّاس رخيص إلى الحضيض. شهق نفساً عميقاً من الهواء، وقال: «الرحمة يا كريم! الرحمة!».

بدا الآن أن قنوط كريم، يفوق حماسته. أحزنه ذلك، لا لأنه لا يستطيع إقناعه، بل لأن كريم ظهرَ مفتّتاً من جهة، ومعلّقاً من جهة ثانية، اتجاه أفكاره عن البشر. فمرة كان يدافع عن محمودة، فيمدحها بكلمات غامضة عن الخميرة النظيفة، والروح الصلبة التي لن تؤثر فيها الإغراءات. ومرة يهجوها، قائلاً إنها تخلّت عن شعلة المستقبل، من أجل رماد مخذول مؤقت اسمه: مكاسب الحاضر.

لا ينكر أنه كان، دائماً، مفتوناً بذلك الاتقاد الثابت الذي يتحيّز للأمنيات، لدى كريم؛ لكنه متحمس أيضاً للوقت الذي يستطيع فيه أن يرى الأشياء كما هي. وما يؤلمه أن الحقيقة التي كان يرجو أن تمنح كريم حصانة الفهم، باتت الآن تَسدّ أمام عينيه وعقله، قوة التفهّم. لم يكن راغباً في الكلام. وفكّر أنه قد يتمكن من إيصال كلماته المكتوبة بطريقة أفضل، إلى تلميذه الشفوي. ولأول مرة يحس بأن ما سطّره في دفتره، وهو يحاول تفريغ قهره من العالم، صار الآن ملكاً لغيره.

نهض من مكانه، وفتح خزانته الخشبية الزرقاء، ثم تناول دفتراً أسود اللون، وقدّمه لكريم: «خذ. اقرأ!» قالها بفصحى المعلّم، ثم أضاف: «يمكنْ تلاقي هونْ أسئلة كثيرة. ويمكنْ تلاقي جوابْ مثل ما قلت لك من قبل. لكن الأهم من هذا كله، إنّا نشوف شوعَ بساوي الإنسان».

من كتاب السفر

كانون الثاني 1959

ما زالت السماء فارغةً وموحشة. ابتداءً من هذا الشهر، بدأ التبن ينفد من البلدة. هذا هو المؤشر الأول المفزع الذي ينبغي ملاحظته كعلامة، أو كإنذار، إلى أن الجفاف أخذ يزحف على المنازل. وسوف يترتب على نفاده السريع، عطبٌ حقيقيّ في نمط حياة الناس. ففضلاً عن الارتفاع المفاجئ في سعر شرائه (وعلى كل حال، فإن مجرد التفكير في شراء التبن، سيكون انكساراً حزيناً في حياتنا؛ إذ لم يكن لهذا الهشيم الأبيض اليابس الخالي من أي طعم، قيمة أو مكانة تعادلِ أي عملة)، واختفائه من سوق العرض، فإن الوجه الآخر للمعادلة، هو انهيار مكانة المواشي والدوابّ. وهكذا، لم ينتهِ هذا الشهر، حتى كان الناس قد بدؤوا يبيعونها. المتضرر الأول من هذا الإجراء، هو الأغنام. أحياناً يُخيّل لي، أن هذه الكائنات هي التي جنت على نفسها، منذ الأزل! فما إنْ تجوع ساعة، حتى يملأ ثغاؤها أرجاء الكون كله. ثغاء جارح وحزين ومشبع بالشكوى والنداءات، وطلب العلف، غير أنها تبدو لي لئيمة فوق ذلك، إذ يجفّ ضرعها، ويضمر جسدها، وتختفي كتل اللحم من أطرافها، وتتحوّل إلى عجوز من العظام المتآكلة، بإيقاع متزامن مع تناقص العلف. ولا بدّ أن الله قد رأى ذلك ذات يوم، فبادل

بإحدى شياهه، جَدِّنا النبي إسماعيل. ولكنني لا أعرف حتى اليوم، ما إذا كان الناس يضحّون بها ذبحاً أو بيعاً، حباً بها، أو عطفاً عليها، أو ضيقاً وتذمراً من ذلك اللغط الملوّع الذي يذكّرهم، كل لحظة، بجوعهم هم.

الضحية الأخرى للقحط، هي الحمير. فمنذ الشهر الماضي، دشّر الناس دوابّهم لتفلت بلا رباط. في البداية لم تبتعد كثيراً، وظلت تحوم في أطراف السمّاقيات، أو تقتحم أزقتها، في الليالي، مطلقةً نهيقاً طينياً هاتفاً بلا توقف. ثم أخذت تبتعد، شيئاً فشيئاً، نحو الوعر، تحاول أن تجد هناك، بين الصخور، أو في المساحات الترابية القليلة، بقية عشبٍ تقتات منه.

ترى ماذا سيحدث للبشر؟

آخر كانون الثاني 1959

اليوم، رحل توفيق أبو رحمة!

وقبل هذا بشهر، كان لا يزال يدور على ظهر حماره، عارضاً بضاعته على الناس، في المنارة والحفاير ووادي عارة والسماقيات وغيرها، دون أن يشتري أحدٌ منه شيئاً. ولم تلتفت نحوه أيٌّ من أولئك النسوة والبنات اللواتي كانت تسحرهن أدواته وأقمشته، ولم يتبعه أو يمشِ وراءه أي صبي ليشتري من حلوياته مثل الزهرة، أو الكوم، أو ملبس الأفندي، مقابل بيضة، أو ثمنيّة قمح. ولم يسأله أي رجل عن مفكرة، أو دفتر ورق الشام، أو دخان الحموي. وحين جاء ليخبرني، قلت له: «سينتهي هذا بزوال هذا المحْل». لكن توفيق سخر مني وقال: «لا ! العلّة وصلت إلى هنا» وأشار إلى صدره (كنت أظن أنه يشير إلى ذلك العناء الشاق الرابض كالجمل على صدور الناس. لكني علمت متأخراً، أنه كان يدقّ على جلده الذي صار عتيقاً وفارغاً كحذاء).

بعد أسبوع من زيارته لي، امتلأت السماقيات برائحة حريق. كان أبو رحمة قد أشعل النار في كل ما يملك. لقد أحرق مثل طارق، ذاكرته، ثم استقلَّ باص الشام ورحل. ولم يدرِ بالطبع، ماذا يفعل بحماره. فقد كانت بينهما عشرة عمر، كما كان أبو رحمة يقول. فدشّره، بلا رسن في حوش الدار، حين رفض جميع أهالي البلدة شراءه (من يشتري حميراً اليوم؟) مثل ما رفضوا اقتناءه مجاناً.

أعترف أن رحيل أبو رحمة صدمني، لا بسبب مكانة الرجل الروحية، أو صلابته الإنسانية، وقدرته على تحمّل المشاق فقط، بل بسبب خشيتي من أن يرتبط هذا الرحيل بسقوط فكرة. فمنذ كنا شابّين، أنا وهو، كان حبّنا لهذه الأرض، أو لهذا المحيط، يزداد، وينمو. ثمة أشياء لا يستطيع المرء أن يشرحها لأحد، ويعجز أيضاً عن توضيحها لنفسه، ولكن تعلّقنا بالسماقيات، اشتبك بألف لحظة وشيء ووعود وماء وحجارة وصخور وبقايا دخان بركاني، وآمال وذكريات. وعلى الرغم من هذا المدى الأعجف الذي تغطيه اللافات البركانية الصماء، فإنّ ألفة متأرجحة ظلت دائماً تشدّنا إليها.

لا أنكر أن توفيق بدأ يتغيّر، منذ اختار أن يصبح بائعاً جوّالاً. ولا أذكر متى قال لي إنّ برذعة حماره باتت وطناً له. في ذلك اليوم، ضحكت، قهقهت، وأنا أعتقد أن كلامه نوع من الهزل الأسود الذي فرّخته المشقة والتعب. لكنه كان جاداً، فقد باع كل ما يملك من أجل شراء الحمار القبرصي، وتدعيم تجارته، وتعويض بعض الخسارات. وصار يقول لي: «لا تزعل! المهم إني موجود داخل الهواء». أعرف. غير أن الهواء نفسه قد خسره الآن.

فهل سيكون توفيق أبو رحمة إشارة البدء بالعدّ التنازلي، لفكرتنا عن الوطن؟

رحل جهاد العليم، وزوجته وابناه إلى لبنان. فماتت أمّه، بعد سفره، بعشرة أيام. الغريب، أنها لم تكن موجودة ضمن لائحة العجائز المرشّحات لمرافقة شهر شباط. فعلى الرغم من أنها كانت في الخامسة والسبعين، فقد احتفظت، طوال الوقت، بجسدٍ نحيلٍ مشدود، ورأسٍ مرفوعة، وروح نحلة، كانت تجعلها تبتكر كل صباح، شغلاً جديداً. يوماً تكنس الغرف الداخلية، ويوماً تكنس أرض الدار بعد أن ترشّها بالماء (لكيلا تثير الغبار)، ويوماً تنتزع مفروشات المضافة، وتخرجها إلى الشمس، ثم تتبعها الغرف الأخرى، واحدة واحدة. أو تقترح غسل الجدران (لم تفعل ذلك منذ شهر، بسبب البرد وشحّ المياه) أو تبدأ طليها بالكلس. وهذا يتطلب عمل أسبوع أو عشرة أيام. كانت تقول إنّ الشغل يُجَوْهِر البدن. والحقيقة أن عبارتها هذه شغلتني كثيراً. إذ كيف يمكن لعقلٍ أميّ، أن يصوغ عبارة مشبعة بالفلسفة، تعليلاً لعملٍ جسدي؟! ما أرجّحه هو أن الفلسفة موجودة تحت طيات جلد الإنسان. الفلسفة فطرة يعمل العلم واللغة على إظهارها إلى العلن. غير أن رحيل جهاد ابنها، حطّمها. وقد أمضت أكثر من عشرة أيام، وهي تحاول أن تثنيه عن فكرته، ثم حاولت أن تضغط عليه بتهديد متعجّل، أعلنت فيه أنها لن ترافقه إذا ما ذهب. لم تدرك أنها انزلقت، إلا حين ردّ جهاد قائلاً: «مثل ما بدّك»، فحدّقت إليه ذاهلة، وهمست بيأس: «كنت عَ بتستنى إني قول هيك؟»، ودون تردد - أيضاً - بدأ يشرح لها مخاطر المجازفة بسفر امرأةٍ مسنّة مثلها، كل تلك المسافات، من السمّاقيات، إلى بيروت (كانت وجهته بيروت إذاً؟)، ومصاعب البقاء في مناخ بحري مشبع برطوبةٍ مالحة، يمكن أن تخنقها. هذا عدا أنهم سيجدون أنفسهم محاصرين في قبو، أو غرفةٍ وحيدة، مسيّجة بغرف المستأجرين الآخرين، وصراخ الأولاد (ذكّرها بضيقها من

صخبهم ولعبهم) وضجيج الحارات، والشوارع، «ماذا تريدين أن يقول الناس عني؟ جرجر أمه العجوز معه إلى ديار الغربة؟» قال رافضاً. وكان واضحاً من سمات البلاهة التي بانت في ملامحها، أنه تفوّق عليها. ولم تصدّق هندية أنها أضحت عقبة في الطريق التي سينجو ابنها منها. وكان هذا كافياً لردع أي اقتراحٍ آخر يمكن أن تتقدّم به. وسرعان ما رضخت لذرائعه، ورضيت بالبقاء. (في ما بعد، اعترفت لي أنها ما كانت تستطيع السفر، أبعد من تلال الغربان). وفي انتفاضة الرجاء الأخيرة، التفتت نحو ابنها، وقالت: «بس أني يمكن موت»، فصرخ: «رجعنا؟!»، ثم اقترب منها وقبّل جبينها، وهمس: «سلامتك، عمر طويل يا أم جهاد!»، ومسح بيده على فوطتها. فأحنت رأسها. تلك اللحظة، كانت تنتحب.

في تقديري، أن هندية نطقت تلك الكلمة كتلويحة وداع، بعكس ما قال لقمان من أنها قالتها كتوسّل. لا أظن أنها يمكن أن تتوسل. ومن الصعب علي، أن أصدّق ذلك، حتى لو رأيته بعيني، وسمعته بأذني، فهذه امرأة جبّارة، تدرك أن الموت ليس حقاً فحسب، بل واجب نافذ يمضي إليه الإنسان بقدميه، حين يغدو وجوده زائداً. فابنها دسّ في عبّها مئات الوعود. لكن شعورها بالنبذ، تسرّب إلى أعماقها كيقين. ولم تجد ملاذاً ينقذها منه، سوى الموت. لن تجد سوى الموت.

شباط 1959

مات الحمار القبرصي الأبيض الذي رفض مغادرة الحوش، بعد هجرة أصحابه، وزوال ظلالهم، واختفاء أخبارهم (المؤكد أن توفيق أبو رحمة، وعائلته، لم يسافروا إلى لبنان. ربما اختاروا الأردن، حيث أبناء عمومتهم، من آل أبو رحمة الذين استوطنوا واحة الأزرق، منذ خروجهم من الجبل، بعد هزيمة الثورة).

الغريب أن ذلك الحيوان الكبير المعتاد على طقسية خاصة (لا ينفّذها عادة، سوى التجّار الجوّالين الذين يستخدمون الحمير)، لم يُبدِ أيَّ تعبير، طوال أكثر من شهر؛ فلم نسمع نهيقه سوى مرة واحدة في إحدى ليالي شباط، ثم صمت بعد ذلك كالحجر. وقال لي نازي حطّاب الذي التقط له صورة الموت، من سطح بيت يوسف المسيحي، إن رأسه ظلت مرفوعة، وهو يسقط على الأرض. في البداية، انقصفت ركبتاه الأماميتان، فأصدر أنيناً عميقاً شبيهاً بآهة شوق. ثم برك على قوائمه الأربع، وبطنه، ورمق الكاميرا السوداء التي كانت ترصده، وأحنى رأسه ومات.

رأيتُ صورته ميتاً. بدا مثل كتلة من الرمل، مثل لطخة بيضاء، على ورق مربع أسود.

13

تشرين الأول 1959

لم تستطع ضبط صوتها، حين رأته يدلف من الممر الجانبي، صباح السبت، فهتفت (وهي على يقين من أن صوتها خرج كالصراخ): «كريم!». ثم انتبهت إلى فيصل وطلعت اللذين كانا وراءه، فلوّحت لهم جميعاً بيدها «صبّحكم بالخير»، مستخدمة النغمة الحنونة للتحية الصباحية، فردّوا تحيتها سلاماً آخر. بينما رفع فيصل طبق قشٍّ ملوناً وصاح: «هذا لك!».

كان هدية من البيت. ولم تعرف لؤلؤة كيف وصلت إلى الشارع، لتحتضن ذلك الصبي، وتأخذ الطبق منه. «تعال! ادخل!» قالت له. لكن فيصل الغارق في عرق الخجل، لم يستطع أن يردّ على دعواتها المتأججة. وسحب يده المرتعشة من يدها الدافئة الممتلئة بلحم معافى، وفرَّ (تقريباً) عائداً إلى غرفته.

كان الطبق مشغولاً بجسارة خاصة، ومن الواضح أن المرأة التي نسجته، تستطيع نقل معارفها إلى انطباعات لونية، يعمل القش المخرمش على إظهار روابطها، ليضفي عليها روح ريف. ففي الوسط، كان ثمة دائرة منجّمة تمتلئ بحطام بشر (هكذا ظهروا بسبب الرسم الفطري، وتكسّرات القش) رجّحت أنهم رسل الرب. وحولها شرائط مستطيلة، ومقطوعة

الأطراف، مصبوغة بألوان الصراخ. وعلى أطراف واحدة منها، تتراقص شخصيات حكاياتٍ، ربما كانت تمثّل حديدان وقزيزان وخشيبان. وبسبب السعادة (إذ لم يكن سبب في العالم يمكن أن يكسر تقليدها)، نسيت أن تذهب إلى النافذة. وحين سمعت ذلك الصوت المبحوح الذي كان يناديها، ظنّت أنه يأتي من الحلم. ثم انتبهت إلى أنه كان صوت فيصل، فهبّت إلى النافذة.

هناك كان ذلك الولد واقفاً يناديها. «عجبتك؟» سألها، فهزّت رأسها، وقالت: «إي»، قال: «طيّب في غيرها كمان.. المرّة الجاية، بجيبها معي». فذُعرت، وقد ظنّت أنه أحضر الطبق دون استشارة ذويه. شعرت بالخجل، وفكرت أنهم ربما جاؤوا لاستعادتها. كيف وصلت إلى عندك؟ وهو أحضرها. وكيف تقبلين هدية من طفل؟ وأنا فكرت أنها من عند أمه. وهو قال لك ذلك؟ ولا لم يقل. وها أنت ترين أن أمه جاءت لتأخذها. وأنا آسفة! وكل اللصوص يقولون هذا. ولكني لم أسرق شيئاً. ولكنك قبلت هدية مسروقة. وكيف أعرف؟

فكرت أن تعيده إلى الأولاد، أو تنادي فيصل الذي كان قد اختفى الآن، لترميه له، قائلة: «عيب يا ولد». صارت غاضبة جداً، ووقفت وسط النافذة، تتطلع إلى غرفة الأولاد. كانت ترتجف، وتريد أن تصرخ: «أنا بريئة»، وقد خامرها شعور بالوضاعة، لانكشاف أمرها من جهة، وانفضاح صداقتها مع طفل من جهة ثانية.

كان باب الغرفة مغلقاً، وكانت الساعة تشير إلى الثامنة إلا ست دقائق. لا بدّ أنهم غادروا الآن، وذهبوا إلى مدارسهم. وإلى أن تأتي الظهيرة، ستكون دماؤها نشفت وجلدها يبس. وأين كريم؟ نادت: «يا كريم! يا كريم!». رأته يفتح الباب، ويرسم بيده، إشارة استفهام، فرفعت الطبق نحوه، ورسمت بإشارة من يدها: من أين؟ فكتب لها في الفضاء: هدية.

أغمضت عينيها مطمئنّة، وجلست تتأمل شجرة الخروب الخضراء الكبيرة، وهي تحاول مقاومة الهواء الشرقي الذي كان يجتاح المدينة. فطنت إلى أنها لم تلاحظ أن كريم ما يزال واقفاً هناك، وسط الفراغ الكحلي لضلفة الباب. كان حضوره باهراً، وكانت فيروز تغني في الراديو «نحنا ودياب الغابات ربينا»، فضحكت. لكن لم تكن لديها فرصة لتفكر في مقاومة اللقاء بين كريم والأغنية. ففضلاً عن الشوق لرؤيته، كانت ترغب في الإفضاء إليه، بما في رأسها من وقائع وأحداث ومفاجآت، تكاثرت خلال الأيام الخمسة الماضية. ستقول له مَنْ هي. ولماذا أرسلت سلة الطعام، وتقول إنها تحب الأطفال كثيراً، وتحب الأولاد، الشبان، وإنّ الله لم يرزقها بولد. ولكن ولعها بالأولاد، يجعل قلبها قلب أمّ. وتقول: تعال لتعرف فؤاد. ستحكي له أنه كان مريضاً من الداخل. شيء ما دنف، رخو، ومهلهل، كان يعشّش في لحمه وعظامه. لكنه واجه ذلك كله بصمت. يا الله! لماذا كان صامتاً؟ خطر لها أنّ صمته ذاك، كان دلالة على موته. وشعرت بالغضب، لأنها لا تذكر من حياتها، سوى تلك البرامج البائسة لمضاجعات الأمل، ليحلَّ، بعدها، ذلك الفراغ الشائخ المعبأ بالهواجس والمشاغل والأفكار، حيث يستقلّ كل واحد منهما، بمترين مربعين منفصلين من التفكير المرير المعذّب، لماذا أرادا أن ينجبا؟ ما معنى أن يكون لهما ولد؟ لا جواب، لأن الرغبة فيه تأتي من مجهول قابع داخل الأحشاء. ربما من أجل أن نحبه! فنحن نرغب في أن نحب، بقدر ما نشتهي أن نُحَب. ربما من أجل حمايتنا! ربما من أجل أن نجد أنفسنا نتكرر مرة بعد مرة، في كائن يشبهنا. أو ربما من أجل أن يتصل كل منا بالآخر، عبر لحم ودم وعظام تنمو، وتكبر بيننا. لكن بمَ كان فؤاد يفكر؟ لم تستطع أن تنتزع منه إلا كلمة واحدة مجسدة في رغبة جنونية: «بدّي ولد». فهل كان طلبه رسالة من الموت.

أشارت لكريم كي يأتي إليها، ثم همست: «تعال!»، وفوجئت مرة ثانية، بأنها تكاد تصرخ. صعد الدم إلى وجنتيها، وارتعشت شفتاها، وهي تراقب المكان، مذعورة من أن يكونِ سمعها أحد.

كريم الذي رأى دعوتها، وسمع صوتها، غمغم، وهو يشير إلى نفسه ويخبئ جسده داخل عتمة الغرفة: «أنا؟!». رأى هزة رأسها الموافقة. كانت هذه مباغتة. شعر بالحزن. ما يمكن أن يحدث الآن؟ راقب امرأة العلّية، ولم يستطع رؤية ملامحها. ولكن إشارة يدها ظلت تحثّه: «تعال.. تعال!».

امتلأت أذناه بعواء ذئاب. شوّشته الأسئلة والاستفسارات. فهل كان يمكن لامرأة أن تدعو رجلاً إلى بيتها، دون أن يكون تفكيرها عالقاً في الفضائل المخبأة داخل بنطلونه؟ كان هذا أول استنتاج انبجس داخل عقله. وقد سخط على نفسه، لأن دسائس التربية، هي التي تصدّرت أول التوقعات. لم يكن سعيداً بها، على الرغم من أجواء المتعة التي تضمنتها الخيالات التجسيدية للّقاء بامرأة. وقمع هواجسه، من أجل الارتقاء بالمعنى الحقيقي، وراء الدعوة الأنثوية. إذ لا يعقل أبداً، أن يكون هو أيضاً أسير الاستنتاجات القروية التي تفترض بأن تكون استجابة الرجل لدعوة امرأة، مرهونة بالاحتمال الوحيد الذي بشّرت به معتقدات السماقيات، وشيطان الديانات. وفيما كان يستعد للذهاب إلى هناك، شعر بالخجل، ووعد نفسه أن يظهر كمثال، لا من أجل خدمة المبادئ وحدها، بل من أجل التكفير عن الظن الآثم.

بقاء الباب الخارجي مفتوحاً، أتاح له الدخول الحر، دون أن ينظر خلفه. وفرح بنفسه، لأن التحرك السري الذي كان عليه أن يطبّقه قبل اجتماع الغرفة، قد نُفّذ الآن بعفوية ومهارة، لم يكن يتخيّلهما. وهناك على رصيف الباب، في الطابق العلوي، كانت بانتظاره. فوجئ أنها طويلة (لماذا كان يظن أنها قصيرة، وسمراء؟ ربما كانت الدانتيلا هي التي جعلته يظن

ذلك؟). قالت: «تفضل». قال: «شكراً»، وولج ممراً صغيراً ظليلاً، تتوسطه طاولة ذات أرجل رفيعة، تستند إلى مرآة حائط.

لم يرَ المرأة. لكن وقع خطاها كان يشغل المكان. وقع خاص أو خفيف أو هو «حفيف» كما فكّر. قرر أن يسميها ذات الحفيف، إضافة إلى امرأة العلّية، «عَ اليمين» سمعها تأمره، لينعطف يميناً، حيث ظهرت غرفة مستطيلة مؤثثة بمقاعد فخمة، جلس على أول مقعد. قالت: «لا. تفضّل لهونْ» وضحكت، فلاحظ أن أسنانها صافية بلا أوجاع (حسدها) وأن شفتها العليا لا تكشف لثّتها (وكان يبغض هذا في ضحكات النساء). قالت: «أهلاً وسهلاً». قال: «الله يديم مهلتك». «شو بتشرب؟». «ما في ضرورة». «بتشرب قهوة؟». «مثل ما بدّك». قالت: «طيّب» ثم غادرت الغرفة، وهي تعيد سكّ الوقع الخفيف لخطواتها. وراءها هيمن الصمت.

كانت هناك على الحائط من جهة اليمين، صورة رجل يبتسم. وفكر مرة أخرى، في المرأة، واعداً نفسه بالشهوات. «حمار» قال لنفسه، وهو يعنّف تفكيره. وشعر بالخزي حين رآها تعود، وقد امتلأت عيناها بوهجٍ عميق، وارتسمت على شفتيها، ابتسامة ترحيب، صنعت، في اتحادها مع خدّيها، غمازة خفيفة، تدعم البراءة وحدها. أخذ القهوة، ويده ترتعش، وكاد أن يقلب الفنجان، لولا أنها دفعت طرابيزة صغيرة إلى أمامه. اشتهى أن يدخّن، فخجل، ثم تعلل بالضرورات الفكرية التي تتطلب من الشيوعي، أن يلتزم بالحضور النموذجي المهيأ لاكتساب الناس، إلى أرتال الثورة. لم يكن ينوي إشغال الوقت بعمل دعائي مباشر (كان على يقين أن الكلمات ستخونه)؛ ولكن على الصورة التي يجب أن يقدّمها عن نفسه، أن تكون تكتيكية تماماً، من أجل خدمة الهدف الاستراتيجي. أعجبه التحليل العقلاني الذي قدّمه. لكنه لم يستطع منع نفسه من تأمل فخذي المرأة الممتلئين اللذين برزا واضحين، حين جلست، وشدّت أطراف

الروب الذي كانت ترتديه. وأغمض عينيه ثم فتحهما، حين سمعها تسأله عن صحته. قال: «بخير». قالت إنها كانت مشغولة عليه في الأيام الماضية. «خير؟» سألته. قال: «خير». هل يقول لها إن والده لم يكن يملك أكثر من خمس ليرات، وإنهم اضطروا لاستدانة خمسين ليرة، من أجل أجرة الغرفة، ومصروف الشهر؟ هل يحكي لها عن غياب محمودة؟ لكن المرأة سألته ما إن كان يسمع صوت الطائر الذي يردد اسمه، كل صباح. قال: «كيف؟»، قالت: «تعال» ثم قادته من يده، إلى شرفة نصف مغلقة، تطل على الحديقة الجانبية. كان هناك قفص كبير يرقد فيه طائران بحجم حمامتين. قالت: «هذا طائر الكريم، وكل صباح بيقولوا: يا كريم! يا كريم!». قالت، إنهما يقصدان الله، ولكنها تفكر فيه هو كلما سمعت هذا النداء. لم يقل شيئاً. وانقاد مرة أخرى، ليدها الحانية البيضاء الرطبة، تعود به إلى مقعده. قالت إنها تحب أن تطبخ لهم دائماً، وتتمنى أن يقبلوا منها الطعام، كل مرة، فقال: «شكراً»، في حين بدأت ركبتاه ترتجفان. هل يمكن أن يكون فيصل قد وشى به؟ فكر في حجج الدفاع التي سيستخدمها لإيضاح موقفه من رفض أعطياتها. سيقول: إننا فقراء فعلاً، ونأكل الخبز الحاف، ولا نقبل إحساناً من أحد (عبارات غليظة). أو سيقول: شكراً لك لا تكلفي نفسك! (عبارة تشبه القبول والرضا). أو سيقول إن فيصل لم يفهم معنى الكلمات التي قالها له، وإنه كان يريد أن يعلّم ذلك الصبي الذي يأتي إلى المدينة لأول مرة، أن يظل مرتبطاً بأخلاق القرية (ماذا يعني ذلك؟ «تظن أننا بلا أخلاق؟» ستردّ عليه). الحقيقة أننا فوجئنا، ولم نعرف (لم أعرف) ماذا نفعل! المهم أنه لن يستطيع أن يوضح لها أن السبب هو انتماؤه الذي يرفض أن يُحسِن إلى أحد، أو أن يُحسن أحد إليه.

قالت المرأة: «لكن شو رأيك؟ طبخي طيب؟»، قال: «إي» كاذباً، وآملاً أن تتوقف عند هذا الحد، فلا تستجوبه عن تفاصيل المذاق. «شو بتحب؟

قول لي!» سألته بخليط من الفضول والأمر، لكن صوته لم يسعفه، فخرج هالكاً محشرجاً كمخنوق، إذ بدت جرعة الكذب أكبر من قوة الحنجرة. لاحظ ظل ابتسامة تعبر شفتيها، فأدرك أنها تملك أجمل شفتين في عالم النساء. شفتان ممتلئتان بلحم شفاف محزز بخطوط عريضة، تزحف من زاوية الفم، نحو المنتصف ببطء، ولكن بقوة، إلى أن تحفر عميقاً في الوسط. فكّر أنهما شفتان مخلوقتان للقبل. وشعر بحسرة شحاذ، وشهوة تيس، لأنه لم يذق طعم قبلة الشفتين. لكنه خجل من تمادي خياله، وانقلاب أفكاره (مرة أخرى) كي تصير هواجس جنسية، أو شهوية في الحقيقة. لأنه لا يعرف الجنس.

سمعها تقول إنها ستكون سعيدة إذا طلبوا منها، في أي يوم نوعاً معيّناً من الطعام. اعتبروني أمّكم (صدمته الكلمة) أو واحدة منكم (وهذه أفضل)، فهي تعني أنها ستكون محايدة، وصالحة للتمدد في أرجاء التأويلات. لماذا؟ قالت إنها ملّت من هذه الوحدة التي تعيش فيها، وإنها تتمنى لو كان لديها مكان واسع كي تؤجره لهم. وقالت إنها لن تأخذ منهم أجرة. وسوف تطعمهم، وتغسل لهم ثيابهم، فقال: «شكراً».

عمَّ الصمت فجأة. وحين طال قليلاً، وقف وقال: «بخاطرك» فأجفلت. كانت قد مضت بعيداً في الأمنيات، وسألت لمَ لم يكن كريم ابنها مثلاً؟ أو فيصل أو طلعت. وحين غادر، شعرت أنها وحيدة جداً. وقفت وسط الغرفة، وقد فقدت صلتها بالأشياء. لم يعد للكراسي، بهجة اللون الأصفر الذي كانت تحبه. وشعرت أن الستائر بلا معنى، وألفت فكرة تبديلها التي شغلتها بالأمس.

وفي الخارج، حين نظرت من النافذة، كانت السماء مغطاة بغيوم بيضاء خاوية. فعادت إلى غرفة نومها، وقعدت على الأرض. فتحت درج خزانتها. هناك كان يقبع الماضي: صورة زوجها، حيث كان يبتسم

دائماً. غريب! لماذا كان يفعل ذلك؟ لمن يبتسم؟ لماذا يسعى أي إنسان كي يسجّل ابتسامته داخل صورة؟ فكرت الآن أن ابتسامته كانت خديعة. فقد كان حزيناً بلا توقف، غاضباً دون أمل. ومع هذا فهو يبتسم. تذكر هذه الصورة، حين طلب منه المصوّر بطرس أبو الحلو أن يبتسم. وهذه الصورة ابتسم فيها، بطلب من المصوّر. كانت الإنارة الكاشفة تظهره كشبح، وسط العتمة. ابتسم أيضاً وترك لحظته وحدها. غير أنهما تشاجرا في ذلك اليوم، حتى الموت. كانت السَّلَطة حلوة، فضرب الصحن بقفا يده، وقذفه بعيداً. وما يزال المشهد راسخاً، فقد بقّعت الغرفةَ فسيفساءُ من الخيار والبندورة والنعناع والبقدونس والزيت، والماء وشرائح الزجاج المكسور. هذا هو الرجل المبتسم في الصورة. ثمة صور أخرى تظهره في لقاءاته مع آخرين. ومن النادر، أن يكون واحد منهم غاضباً أو مقطباً أو ساخطاً تجاه أي شيء.

ولكن الغضب هو الذي موَّته في النهاية. ولم تستطع ابتسامات الصور إنقاذه. شعرت بالحزن أكثر، لأنها لا تعرف لماذا استضافت كريم في بيتها اليوم. ماذا تريد منه؟ فعلى الرغم من أن إحساساً غامضاً بالسكينة والنور، هيمن على مزاجها، فإن فراغاً غريباً ملأ رأسها، وهي تسأل نفسها: إلى أين؟ لا تنكر أنها فوجئت به؛ إذ بدا لها من بعيد أصغر سناً، وأكثر براءة. وقد أحرقتها نظراته، ولم تغب عنها التماعة الاشتهاء، طوال الوقت. وشعرت هي نفسها بقشعريرة، حين حفّ كتفه بصدرها. لكن مباغتة اللذة، لم تمنع ضميرها من أن يرغم الرغبة على النكوص والتراجع. وما يشغلها هو ذلك الصمت الطويل الذي غرقت فيه رغباتها، إلى أن أيقظها، فجأة، حفيف لحم رجل. لم تصدّق نفسها؛ فآمالها كانت منذورة لمشاعر أخرى غير تلك التي خامرتها.

وفي النهاية لم تجد سوى النافذة، تجلس قربها.

14

تشرين الأول 1959

باكراً، ملأ صوت عبد الله الحوّاط، فضاء السماقيات، بنداءاته: «يا أهل البلد. اليوم تُوزَّع الإعاشة. خذوا دفاتر العائلة، وروحوا عَ المنارة».

كانت السماقيات موعودة بهذا النداء، منذ نهاية الصيف. «هذا يَلِّي كانْ ناقصْ» دمدم توفيق، وهو يرى زوجته، لا تخفي بهجتها، بوصول الدفعة الأولى من المؤن المشتهاة التي وعدهم بها أهل الأرض، بعد أن خذلهم أهل السماء. كان الحواط ما يزال ينادي. وقالت غازية: «تعال معي يا بو فيصل، منشان الله!»، فقال: «جايْ، من غيرْ ما تِترجّي».

في الساحة، كانت مجموعات من النساء يتجمّعن في حلقات: أرامل (كنَّ قاعدات على الطرف الجنوبي، لجسر القناطر) يحملن دفاتر ضاعت منها أسماء الرجال. متزوجات لم يبقَ لديهن من المسافرين، سوى رائحة أسمائهم. جاء رجال من آل الحطاب (بينهم نازي وأمه صفصافة، وهي تعصب رأسها بمنديل أسود). وجاء ثلاثة كهول يتوكّؤون على عُصيٍّ غليظة مليئة بالعقد، ولحقت بالمكان فتيات وشبّان ورجال آخرون، وبنات وأولاد (عطّلوا نهار المدرسة). وسرعان ما امتلأت الساحة بهرج الفقراء

ولغط كلمات شكوى، وأسئلة واستفسارات وعبارات مستنفرة، سببها مباغتة المناسبة.

كانت الشمس مشوّشة، وراء غلالة غيوم خلبية. وبدأت ريح شمالية باردة تهب فجأة، من وراء تلال الغربان. فقالت نرجس، أمّ سلمان الجدي: «دخلك يا الله!». كانت ترتدي أسمالاً من أردية ابنها، فوق تنّورة طويلة، تشدّها إلى خصرها الضامر، بحزام غامض من الأقمشة. أراد سلمان أن يرغمها على العودة إلى البيت، فقالت: «معي دفتر». ورفعت بقية أوراق مستطيلة، فقال: «عطيني ياه، وأني بجبلك حصّتك»، قالت: «لأ. منشان تسرق مَرتكْ نصّها؟!». وعلّق عبد الله الحواط، قائلاً لسلمان: «ما بيعطوك. كل دفتر مع صاحبو»، فشزره الجدي بنظرة حاقدة. قال الحواط: «مش أنا اخترعت القوانين. اسأل الشرطة!». وقال علي شمال: «ادعوا لربّكم ما يكونوا نسيانين واحد منكم». أما ابن مالك، فأنهى سيجارته، ورماها، وقال: «وإن شاء الله ما يسرق أهل المنارة نص الإعاشة!».

كانت الطريق متعبة، وقد أعطبها الذعر من خبر النسيان ومن تكهّنات ابن مالك، فاستطالت أكثر، وامتلأ الحشد بدغل من النّقمةِ، والقهر. عمّ صمت شحيم، وكأن الكلام يمكن أن يؤخر وصولهم، أو يشتّت قوّتهم. لكن ابن مالك لعن الرتل الفقير الماشي على الدرب المحاذية للتلال. حين ظهرت عين الزبدة، كان الماء قد نضب منها، ولم يبقَ سوى بئر سوداء، ملأتها طحالب سميكة رمّدها العطش، وعروق نبات يابسة، وأحاطت بها شجيرات بائسة صفراء، وسط رقعة جرداء متشقّقة من أرض دائرية نصل لونها. فتنهد توفيق الخضرا، وأنَّ أنيناً طويلاً، وقال: «أووف! أووف!». لم يجبه أحد، فقد أطلّوا على سهل الزرازير الذي أصابهم بالغمّ، كأنهم يرونه لأول مرة، بتربته الصفراء المحتضرة، وحجارته الناشفة، وقصره البائد الذي يتمجّد باسم المطر. وهنا وهناك، ثمة قطعان حمير داشرة،

تبحث عن فيء، وكلاب ميتة، وماعز منفوخ، وجيف كرش مبقورة. وعلى السفح الشمالي لوعر السالمين، انتشرت خشاخيش المنارة التي كانت تفوح منها روائح العالم الآخر. لم يروا طائراً في أي مكان، ولا شافوا ظِلّ بشرٍ غيرهم، فأشاحت النساء بأبصارهن عن كل شيء، وبكت صفصافة، وندبت فجأة: «غربي بلدكن يا بنات صياحي!»، ثم وقفت، وخرجت من الرتل راكضة، وتقيأت وراء صخرة. حين عادت تلتحق بهم، كان وجهها شاحباً كالقنّب، تجرّ قدميها بمشقّة. لوّحت لهم بيدها، فانتظرت دلال ورتيبة. كانت أنفاسهما مقطوعة مثلها. وقالت دلال إنه كان عليها أن تبقى في السماقيات، بدل أن تمشي كل هذه المسافة، من أجل حفنة طحين. والتفتت نحو صفصافة: «تعالي، نرجع!»، فهزّت رأسها، رافضة: «هاي مضى أربعة شهور وصدقي ما بعث ليرة، ما عندي شي بالبيت!». وغمغمت رتيبة بأنها لن ترجع، ثم قالت إنها لم تذق طعم خبز القمح، منذ شهرين، وإن رائحة خبز الشعير تخرج من جلدها، ولم تذق الرز ولا السكّر، منذ سنة. ثم هتفت فجأة: «اسمعوا!» لأنها (من الغيب تقريباً) سمعت صوت المحرّك الغليظ. قالت: «أوتومبيل عمار». لم تكن السيارة ظهرت بعد، ثم رأينها قادمة، تحيط بها زوبعة غبار أصفر، سميك، يتطاير بخفّة، ويصعد إلى سمائهم الزرقاء الباردة. لوّحن بأيديهن، فأجابهن الزمور بضربات راقصة متتالية، وسمعن أصواتاً بشرية مبهمة متداخلة، ثم لاحظنَ أن عمار حمل أشخاصاً على سطح سيارته. وقفت صفصافة وسط الطريق، فبدأ عمار يصرخ من وراء زجاج السيارة: «يا مجنونة!». كانت تلوّح بيديها، وهي تصرخ. ولم يتمكن من السيطرة على ثِقل السيارة.

كان قد ألغى رحلة المدينة راضياً، حين سمع سيرة الإعاشة. وكان لقمان ما يزال في البلدة، وأبلغه بأن الدفعة الأولى ستكون قد قطعت نصف المسافة، إلى المنارة، ويمكن أن تهدّد بقية العائلات التي تأخرت في إعداد

نفسها، بالحرمان من مساعدات النّقطة الرابعة التي أرسلت إعاشتها إلى الجائعين.عاوده فجأةً حسُّ الجندي القديم المشبع بروح النجدة، فأدار مِقْودَ سيارته، ووجّهها نحو طريق المنارة، وراح يطلق بوقها، على دفعات متساوية، مبدعاً تشكيلة جديدة، متوهجة، نابعة من تعاطفه، مع عائلات أقربائه الذين تأخروا، وإكراماً للقمان من جهة ثانية، واندفاعاً طيباً لتحية المساعدات القادمة. كانت لديه، فكرة جيدة عن المشروع الأمريكي، لنجدة فقراء العالم. وإذا كان الأمريكان قد أطلقوا عليه اسماً غامضاً، هو النقطة الرابعة، فإن هذا يعود إلى ما يسميه «المزاج الأمريكي». «أنا أعرفهم» قال للقمان، ثم أوضح له أنهم قادرون على ابتكار المواقف العملية الحصيفة، والعبارات والمسميات المستعصية المناسبة لها.

العطف الإنساني هو الذي جعله يحمل أهالي السماقيات إلى المنارة مجاناً. وقد ازدحمت سيارته حتى التخمة. ولهذا كان عاجزاً تقريباً عن ضبط فراملها. وقد ظنَّ لوهلة، أنه سيدوس صفصافة. بدأت امرأتان تولولان، وراح الرجال على السطح، يصرخون، ويضجّون، بينما كانت السيارة تنحدر مندفعة نحوها. لم تتزحزح. جمدت في مكانها مثل خشبة، تحدّق إلى المجهول، بلا حول.

لم تكن جرأة، أو تهوراً، كما شرحت في ما بعد. كل ما في الأمر، أن جسدها رفض أوامر غرائزها. انغرزت ساقاها في التراب، وتيبّست قدماها، وتصلّب بطنها، وظلت ذراعاها معلّقتين في الهواء البرتقالي، مثل أمّ الغيث. فسلّمت نفسها للسكون العميق الذي باغتها، ثم أغمضت عينيها برضا وطاعة، مستسلمة للّحظة التي رأت فيها أنها تطفو منتشية، على حافة التلال.

كانت إشارة اللاندروفر أمام عينيها، حين أفاقت. شمت رائحة حديد ساخن، وسمعت خرير محرك ثمل، وسباباً، وشتائم، ودعوات. وجفلت

حين مسّها حليم الزهر، فشهقت الهواء، كأنها عادت من الموت، وقالت بضراعة: «خذوني معكم!».

وحين صعدت إلى السيارة، اكتشفت أن نازي كان هناك، فابتسمت له، وقالت: «صبّحكم بالخير»، فابتسمت لها النساء، ولامها لقمان، دون غضب: «رحت تموتي يا بنت الحلال»، فقالت دون فجيعة: «عمر الشقي بقي يا بو علي!».

سبقوا الماشين بعد ربع ساعة. رشّوهم بالغبار والصرخات الشامتة، فدمدم توفيق الخضرا الذي كان يقود جحفل المقدمة: «إلى جهنم!». ثم واصلوا سيرهم، بعد أن أخذوا الطريق الشمالية المحاذية للوعر.

وراء قلعة كنج، وصلت إليهم ضوضاء ناس، وصخب، وجوقات من المطالبين، وشتائم صريحة. ورأوا وسط الساحة، حين ولجوا البلدة، رجالاً، ونساء وفتياناً، وبنات، يلوّحون بأذرعهم، ويصرخون. رأوا كوفيات حمراء وسوداء وحطّات بيضاء، وفوطاً، ومناديل وشعوراً طويلة وقصيرة. شمّوا رائحة جائعين.

توفيق الخضرا، خامره شعور بأنه قد خُدع، وفكّر بالعودة. ثم لعن الغيوم الفارغة التي كانت تحدّق إليهم، ببياض فاتر. فجأة، تعثرت غازية، ووقعت على ركبتيها، فأنّت «آه» وقالت: «يا رب!». أنهضها، وهو يسبّ الأكياس البيضاء المكوّمة قرب حائط حجري، تحمل على بطونها كتابة عربية زرقاء عريضة: «طحين الحرية». وتحتها جمل طويلة مكتوبة بخط أصغر، وباللون ذاته: «هدية من الشعب الأمريكي». بدت العبارة الأولى التي قرأها عمار بصوت عالٍ، لغزاً للنساء، لكنّ اللون السماوي المسجّل على المساحات البيضاء، طرّى نفوسهن.

فجأة، رأوا الحلبة الحاشدة تتحطم. ثم تفرّق الناس فيها، راكضين فارّين. طارت حطّات، وصرخت نساء، وظهر فراغ دهليزي يركض

بداخله شاب قصير القامة، أمام دركي ضخم، نزع حزامه، وراح يسوطه بعنف: «كلب! حيوان!». كان الشاب يتأوه وراء كل ضربة: «آخ»، ويستنجد بالمحيطين الذين شلّتهم المفاجأة، واحتجزهم خوف، فصمتوا. وسمع من بين الحشد، صوت امرأة تقول: «خلصوه!». لكن الذعر من الحزام كان أقوى من روح المنقذين. ولم يتوقف الشرطي إلا حين سمع تكّة الآلة السوداء التي كان يحملها نازي حطاب. فتطلع إليه بغضب، وزعق: «ولك شو هذا؟»، ثم اندفع نحوه، اختطف توفيق الكاميرا من يد نازي، وانتظر الدركي المهاجم الذي أمره: «هات الكاميرا»، قال توفيق: «لأ». قامته، ووجهه، وغضب عينيه، كَبَحت سخط الدركي، فقال: «لكن صورتي فيها». قال توفيق: «خايف من صورة؟». قال الدركي: «التصوير ممنوع». فضحك توفيق وقال: «وشو بتقول عن كل هالعيون، صار لك ألف صورة فيها». فلانَ الدركي قليلاً وقال: «طيب هات الفيلم ولا تتفلسف». كان الوقت قد برد. وجاء دركي آخر، ودمدم: «هات الكاميرا». وخطا الاثنان باتجاهه معاً، وكادا يمسكان به، حين وجدا نفسيهما فجأة، أمام مسعود شمال. بدا هذا معكوراً وراعشاً مثل ذئب (قال الدركي في ما بعد، إنه لم يكن يعرف معنى قوة الجسد، إلى أن أحسّ بكف مسعود، وهي تمسك ذراعه). «خلص يا دركي» قال مسعود، وهو يمسك بواحد ثم يدير قامته إلى الاتجاه الذي جاء منه، ويدفعه إلى الداخل، ثم يقبض على الآخر، ويدفع به وراءه. عاد الدركيّان مرغمين، فيما عمّ صمت قطعه موظف مدني كان يجلس وراء طاولة، وينظر في دفتر سجلات ضخم: «بالدور يا إخوان بالدور».

ما أسفوا له جميعاً، هو أن الكاميرا لم تخلّد سوى اللحظة الدركية، حيث ظهر الحزام معلّقاً في الهواء، بين ذراع الدركي المرفوع، وجسد الشاب المتأوه الصارخ الذي كان يخبّئ رأسه بين ذراعيه.

اصطفوا مثنى وثلاث ورباع، وراحوا يحدّقون إلى الدرك مرة، وإلى

الموظف الأربعيني مرة، ويتسلّمون الإعاشة بترتيب عشوائي نجم عن الفوضى. أعطيت الإعاشات لمن سلّم دفتره أولاً. ولكن السبق لم ينفع أحداً. فركبوا السيارة واضطروا لانتظار آخر من استلم منهم. وفعل المشاة مثلهم، فلم يغادر أحدٌ المنارة حتى العصر. بعد أن كان الموزعون قد انتهوا من آخر مواطنة: عجوز محنيّة الظهر، مُنحت حصّة بلا دفتر.

كان خط العودة أكثر هلاكاً. فعلى الرغم من ضآلة حصص الطحين والرز والسكر، التي قُدِّمت لهم، فإن حملها مسافة خمسة عشر كيلو متراً، أثقل كواهلهم جميعاً. كان عددهم قد ازداد؛ إذ طُرد أكثر من خمسة أشخاص من جنة السيارة، بسبب ضيق المكان. بدأت ريح شرقية باردة تهبّ من الفتحات الكونية والأرضية، بين مسلّات الصخور، دفعتهم في صدورهم ووجوههم بقوة، ففرّقتهم، وشتّتت قافلتهم. الآن، صاروا في سهل الزرازير. بدَوا مثل غربان، ينوءون تحت وطأة أحمالهم وهمومهم وطريقهم الطويل.

وعند عين الزبدة، انتظروا المتأخرين. جاء ابن مالك، وقعد قرب توفيق، وصار يقهقه. فنظر إليه باحتقار، وقال: «خير إن شاء الله». حبس ابن مالك ضحكته، وقال: «أخذت حصة زيادة من غير ما حدا يعرف». وروى له أنه خدع ذلك الموظف، وأنساه أن يسجل الدفعة الأولى من الإعاشة.

«مبروك» غمغم توفيق.

«حاسدني يعني يا أبو فيصل؟».

فحدجه بعينين غاضبتين مليئتين بالشر. أحس فجأة أن شيئاً ما تحرك في لحمه. ولم يمهل نفسه، ولا ابن مالك، لحظة واحدة. وغمس يده في كيس الطحين، وعرض حفنة منه أمام عينيه، «شوف!». كانت بيده كمشة سمراء خشنة، مخلوطة بقشر قمح. «على شو بدي أحسدك؟». ثم غرف

من كيس الرز، وأخرج كمشة أخرى من الحبيبات المكسورة الصغيرة «شوف! طلّع!». انتبه إلى ما بيده، كأنه هو أيضاً يراه لأول مرة. فحص الرز جيداً، فوخزه فخذه. لكنه لم يبال، ونظر في الكيس مدهوشاً. «يا حيف!» قال بأسى، مفكراً أنه بعد هذه السنين، يُرى زاحفاً وراء هذه الأسراب الغشيمة المنخورة الميتة، أو خلف ذلك الدقيق المقشور. ونظر إلى ابن مالك، فوجده ما يزال يحتفظ بظلال من ابتسامة نصر خفيّة، ويتطلع إليه، أو يتطلع إلى الجموع المتعبة التي يمسك كل فرْدٍ منها، بأعناق أكياسه بحرص نمل. فصكّ أضراسه، وهزّ رأسه مشمئزاً: «ولكْ عطونا شوية وسخ، وحضرتك سمّيتها مكسبْ، وحضرتهم سمّوها حرية. ولك هي زبالة! عرفت؟ وخرى! تفضّل! شوف!». أحاط به الآخرون ينظرون في يده، كأنّ ما لديه يخصّه وحده. ازدادت آلام فخذه، ثم اخترقته تلك النار التي مزقت مكان الشظية بالعرض، فكتم أنفاسه وصوته، وأغمض عينيه. وغمره عرق غزير نضح من مسامه كلها. عضّ على شفتيه، لكنه بعد ذلك لم يستطع أن يصبر، فصرخ: «آه». يبست فخذه كلها، ومنع المحيطين به من الاقتراب منه. كانت هذه هي المرة الأولى التي تعلن فيها شظية الحرب، عن نفسها، منذ أكثر من سنة. لقد ظنّ أنها آخت اللحم. وما كانت تفعله، لم يكن أكثر من إثارات إعلانية، وتحركات غريبة بلا شبهات. أما الآن، فهي تنفجر وسط هذا الخلاء الوعري الفاسد.

حين استيقظ، فوجئ أن وجهه أطلّ على إعاشة الرز التي لا تملأ أكثر من ربع كيس، بدت له مثل حشرات ميتة، حصى أسود، نفاية بلا روح. فنهض، وذرا الكيس في الريح الباردة. «خذوا!» صاح، موجّهاً صوته إلى مجهول في التلال. «حرام يا أبو فيصل!» هتفت غازية: «حرام!»، أجاب: «وِلِكْ هذا علف حمير! سامعة؟ هذا علف حمير!».

ابتعد الآخرون عنه. مشوا مسرعين، يحملون أكياسهم على أكتافهم

ورقابهم، غير آبهين بصراخه، واعتراضاته، فذرا الطحين وراءهم كمشة، كمشة، تزوّبعت الذرات البيضاء في الفضاء المزرقّ مثل غيوم، وتناثرت كالغبار. ولم تلحق زوجته إنقاذ أكثر من بضعة كيلوات، احتضنتها على صدرها بقوة، وقعدت على إعاشة السكر، تحدجه بكراهية: «دوس عليّ بالأول!».

فجأة، خرج عبود الزهر من بين الجموع، وأفرغ طحينه على الأرض، ثم أغرق الهرم الناعم بكيس السكر. ولم يستطع الوصول إلى الرز، لأن حليم كان هناك، يردّه حانقاً: «لا يابا لا!».

ووقع توفيق على الأرض، وراح يعوي مثل كلب جريح، مستوحد.

15

تشرين الأول 1959

ثأرت الذئاب من إعاشة الطحين؛ فبعد يومين فقط، خرجت من الوعر، أولى المجموعات منها، تعدو في أنساق ثلاثية أو ثنائية، صامتة، متجهّمة، يستحثّها جوعٌ كاسر عنيف، ورائحة فرائس.

تبعتها حالاً، جماعات فالتة صاخبة من أخواتها التي جاءت ترعد، وتثب، دون أن تضيع إيقاع الطريق المعلّمة، التي داستها براثن الطلائع المندفعة قبلها، إلى مشارف السماقيات.

كانت البيوت تحتفي بالطحين. وقد أوقدت جميع النساء نيرانهن، ليخبزن عجينهن. وبدت البلدة، في ذلك المساء الخريفي المتجمد، مغطاة بغمام أبيض لولبي يمضي إلى الأفق، مربكاً، ناشراً رائحة حريق أغصان يابسة، وجزل ميت، وجلّة قديمة، وعبق خبز ساخن. هل جذبت رائحته إليها، تلك الأوباش الحاشدة من الفلا؟ ذُهل توفيق، وهو يراقب من شرفة بيته، قدوم الشراذم الملتهبة: «هل أيقظت روح الحياة أجسادها الجائعة، وجعلتها تأتي إلى هنا، خارقة قواعد الحصافة، واتفاقات التجاوز؟». وشعر بالرعب من أن يكون ولد ما، أو بنت أو امرأة يبحثون عن أحطاب في أحد حروف البلدة، أو شعابها. خرج

راكضاً، ووجد نفسه يمضي باتجاه الساحة، وهو يصرخ: «يا لقمان! يا سعيد! يا حليم! يا سلمان! يا علي! يا إبراهيم! يا! يا! يا!!»، لكن البلدة ماتت. ورأى كيف وقف رجال ونساء وأولاد وعجائز يرقبون السهل من سطوح المنازل. وسمع سلمان الجدي يناديه: «تعال يا أستاذ! تعال!». فحدّق إليه، ولم يردّ عليه، ووجد نازي قربه فجأة، وكان يحمل كاميرته، فغمغم: «الله أكبر»، وقال: «روح يا ولد!»، فقال نازي: «منشان الله يا معلّم، لا تخلّيها تضيع عليّ»، فهزّ رأسه بأسى. تذكّر أجود الحسن، حين تمكّن من صدّ هجومٍ يهوديّ وحده، وراح يطلب النجدات باللاسلكي: «لا تضيّعوا الفرصة». ولكنه لم يلقَ أيّ مساعدة. واضطروا أخيراً للانسحاب بعربته، ورآهم، وهم ينجحون في احتلال القرية (ما اسمها؟). رمق نازي بحب، وقال: «تعال! والله غير خلّيك تصوّر أمّة الذئاب كلها»، فتعلّق نازي بكتفه، وقال: «يا ريت يا معلّم بقدر صوّر صوتك»، فقهقه توفيق وشدّ ذراعه إليه. أشار لصفصافة التي كانت تلحق بهما: «لا تخافي عليه، هذا جنّ». بدا له الأمر أشبه بلعبة. وسوف يذكر هذه اللحظة مراراً في زنزانته، حين مشيا باتجاه الشمال، وعبرا الوادي، ثم صعدا إلى الرجوم العالية. فوضع نازي الكاميرا أمام عينيه، ثم سدّدها إلى السهل، وأدارها ببطء، مغطياً ساحة الأرض الحمراء التي نفذت إليها أسراب الذئاب. في ما بعد، سوف تظهر سبعة منها مخلّدة، فاحشة، تتقدم، وهي تنظر بأعين كاشفة مرتعشة، نحو مجهول مشتهى كامن وراء الصورة. ثم صورة ذئب وحيد حانق كان يفحص المدى. ثم اثنان يتجهان غرباً.

غيّرت أعداد من الذئاب، وجهتَها. وبدل أن تواصل ركضها نحو السماقيات، صعدت نحو الروابي الوعرية، إلى شعاب الصوف، في قوس كبيرة أخذت تتسع، لتنغلق بعد ذلك، عند الصخور الجنوبية الرمادية،

واضعةً (وهذا ما أدهش توفيق) أكثر من خمسين حماراً كانت داشرة في السهول، داخل الدائرة المضفورة، وفاصلةً بينها وبين طريق العودة.

الحمير لم تدرك مغزى الحركة الطويلة، فظلّت آمنة ترعى آخر ما تبقى لدى الأرض من عشب. تقضم الطحالب، وتقشر الصخور، أو تقف باهتة ذابلة الأجفان. لكنها ما إنْ رأت تلك الطلائع النمشاء، وهي تعدو نحوها، حتى أجفلت. وسجّلت الكاميرا رأس جحش صغير غرّ ينهق محذِّراً، أو مذعوراً، وركضَ جماعة عمياء أثارت الغبار، وتَزَحلُقَ حمار متعب حاول الصعود إلى القمة، عبر السفح الصخري، وحشرجات آخر ناحل استسلم لأنياب المهاجمين الجائعين، وهو يرنو إلى أخواته البعيدات الممعنات في الفرار.

بعض الفحول حاولوا اختراق الحصار الذي بدا لهم ضعيفاً ومهلهلاً، جهة الشرق. لكن الأمر لم يكن سوى خدعة؛ فما إنْ مرق أول حيوان سمين ممتلئ، من الشق المفتوح، موقناً أنه نجا، حتى أغلقت الدائرة مرة ثانية، وردّت الذئاب الحميرَ الأخرى نحو الوراء، فيما انفلت ذئب واحد يطارد الفحل الفارّ الذي كان قد رفع رأسه، وهو يعدو عدوَ فرس، متباهياً بنفسه، ولم ينتبه إلى أنه كان ضحية كمين، إلا في اللحظة التي مرق فيها مجبراً، بين صخرتين. هناك وثب نحوه ذئب ضخم اقتلع فخذه من جذورها. ارتطم الحمار بالأرض، وفي اللحظة التالية، رأى، كما صوّرته عدسة نازي، وهو بين الحياة والموت، أنياب الذئب الذي كان يطارده، وهي تُطبِق على عنقه.

أطلقت ثلاثة ذئاب متجاورة، دفقة عواءٍ طويل باتجاه البلدة. ولم يعرف توفيق ما إن كان ذلك تهديداً أو إنذاراً. كادت الكاميرا تسقط من يد نازي، فشدّ المعلّم ذراعه الضعيف، وقال: «لا تخاف! مش رَح يقرّبوا. يا الله صوِّر!». قال نازي: «إي»، ووجّه آلته نحو الذئاب الثلاثة، وسجّل

اللحظة: الغريب أنها جميعاً كانت نظيفة لم تتذوق شيئاً من لحم الضحايا بعد. وكانت تنظر إليها، نظرات استفسار، ولوم.

استمرّت المعركة في الشعاب الغربية. ولم يستطع أيُّ حمار النجاة من الطوق الكبير. وراحت بضعة حيوانات تنظر بترقّب وضراعة، إلى الناس الذين قادهم الفضول والحدث الغريب، إلى صخرة عليا، حيث كان يقف توفيق ونازي.

عبثاً... فقد أُحكم الحصار حولها، على الرغم من أن ما تبقى منها لم يكن يستسلم أو يرضخ بسهولة. فكانت تظهر لأعين الناس، وفي صور نازي، في ما بعد، سحابات الغبار الشاحبة، ومساحات السواد التي يزدحم فيها عشرون أو ثلاثون حماراً، يندفعون نحو الوعر، أو إلى الطريق الجانبية التي تفضي بطريقة ما إلى السماقيات.

غير أن الذئاب كانت تعود بها إلى الداخل، كل مرة، ثم تنفصل مجموعة منها وتقترب من البلدة، وتعوي ذلك العواء الجماعي الفاجع، ثم تصمت. وتظل واقفة هناك، ترقب الأشباح البشرية بعيونها الملتهبة، وأبوازها المصبوغة بالدم.

وبسبب الإغلاق، بدأت الحمير تفقد آمالها بالفرار. وبدل ذلك الدوران البهيمي الأعمى الذي اتّبعته حتى تلك اللحظة، أخذت تميل إلى اختيار الأمكنة المحصنة القريبة من جدران الصخور. كان واضحاً، أن أنفاسها تقطعت، وانهارت في قلب ذلك الصفاء الصباحي، وسط حملة الذئاب. وقال ابن مالك إنه يرجّح أن أرجلها تقرّحت، وأن حوافرها تكسّرت، ولم تعد صالحة لشيء.

ظنّوا أنها ستعود إلى البلدة. لكنهم أدركوا - بعد أيام - أنهم (رغم السنوات الطويلة من العِشرة) لا يعرفون طباع الحمير؛ إذ بدا أنّ كل شيء كان قد سوِّي: كانت الذئاب تتمطّى، ويلحسُ بعضها وجوه بعض.

وقد تفرّقت في حلقات متناثرة على طول خط الدائرة المقفلة، تجاه السماقيات، فيما كانت الحمير تتسرب إلى أعماق الوعر، وقد تيقّنتْ من عقم محاولاتها، ونسيت أمر قتلاها، وأخذ أحدها يتجوّل بأمان بين الوحوش النائمة، محاولاً التقاط ما تيسّر له من العشب. وبدا كأن الطبيعة، دمجت كل الكائنات معاً، في شعابها، فقال توفيق: «خلص!»، دون أن تكون لديه فكرة محددة عما انتهى بالفعل. لم يعد بوسعه، أن يفهم شيئاً من ذلك الميثاق الغريب الذي بدأ يراه أمام عينيه، فمقابل الذئاب الحذرة المترصدة المشحونة بخشية ما سرية غاضبة، بدت الحمير مطمئنة، ترعى، أو تنبش الوعر باحثة عن طعامها، ولا تفعل شيئاً أكثر من الركض الملول الفاتر، حين تهاجم الذئاب حماراً لتلتهمه. ينهق أحدها بكسل، ويرفس بلا أمل، ثم يتوقف، ويرخي رقبته، ويعود إلى سيرة الأكل.

من كتاب السفر

شباط 1959

لم يكن شباط شهراً للموت فقط، بل للحياة أيضاً!

إشارتي هنا إلى القطط؛ ففي العادة، كنا نسمع مواء واحدة، أو اثنتين، في الليالي المظلمة، وهي تطلب السفاد. لكن السماقيات انصعقت بظهور أكثر من مئة قطة اعتلت أطراف الجدران، أو أسطح المنازل، وأعالي الأشجار.

لم تكن تموء كما نعرف المواء، بل كانت تصرخ تقريباً، صراخاً ثملاً طافحاً بالرغبة والهلع، في آن واحد. معظم الناس هنا، تشاءموا من هذا المهرجان المزدحم برائحة الفحش. لماذا؟ لا أعرف. إنني أرى فيه نوعاً من النشاط الحيوي الرفضي الذي يحتجّ على قحط قاتل، بهذه الدعوة الجماعية إلى فعل الخصوبة. اندفاعة غريزية تقوم بها هذه الكائنات، وقد حرّضها إحساس أرضيٌّ محض، بالخطر المحدق، والموت المتقدم. فإذا كان الموت يذعر البشر، فلِمَ يخيفهم نداء الحياة الذي تطلقه الغريزة وحدها، في هذه اللحظة؟ الغريب أكثر من ذلك، أنني صرت أرى الرجال مستثارين، إزاء تلك الجوقة الظامئة التي تعلن عن نيّتها اقترافَ مضاجعات مجنونة (هذا ما توحي به تصرفاتها)، وسفاداً مشرقاً مرشّحاً للتعشير.

ومقابل ذلك فإن الفكرة الوحيدة التي تمركزت عليها أحاديثهم هي أن هذه الحيوانات تنذر بالخطر، وتهدِّد الوجود، وتدعو لترك هذا المكان. لا أعرف كيف توصلوا إلى هذا الربط. ولكن الجميع قرروا الفرار. ربما كانت هذه الكلمة مشبعة بالأحكام من قِبلي، ولكن ظهور مشاريع السفر، وانطلاق الحلم الجماعي بالهجرة، لا ينمّ إلا عن انضواء رذيل في خطط الهزيمة والانسحاب.

شباط 1959

قال نجيب الخميري إن القطط لا تتركه! جاء لزيارتي في المساء، وبدا أنه مرتبك، ثم اطمأن قليلاً، حين علم أنني وحيد في المنزل. وذكر لي ذلك. قال إنه يريد أن يكون ذلك سراً، فقلت له: سرّك في بئر. عندئذ روى لي أنه أراد أن يضاجع زوجته، قبل خمسة عشر يوماً، وفي اللحظة التي أراد أن يباشر إيلاج شيئه، باغته ذلك المواء الملتهب الحاقد الذي أطلقه ذكر ضخم قرب نافذة غرفته من الجدار المقابل، أجابه مواء آخر فاسد ومرتجل، ثم أعقب ذلك، هجوم صاعق نفّذه أحدهما. لم يعرف اتجاه المعركة، أو باحتها، ولكن العراك بدأ في الأسفل، ثم أخذ يصعد نحو غرفة نومه. كان عليه أن ينهض، ليطرد هذين المحاربين الساقطين عديمَي الحياء. لكنه حين عاد، وجد أن ذكره قد صار قطعة لحم صغيرة مذعورة مدلّاة بلا رغبة. أين ذهبت؟ كيف تلاشت؟ في ما بعد، صار هذا يتكرر كل يوم. ثم بدأ يترافق مع إيقاعات داعمة أخرى: انقلاب تنكة، تحطّم جرة، سقوط أصيص ورد، أو انقلاب برميل، انقطاع حبل، تكسّر أعواد يابسة. وكان فشل نجيب يتكرر، ويتفاقم. ما السبب؟ كيف لي أن أعرف؟ ولكن نجيب يريد أن أصدّق أن مواء قطّتين فاحشتين، يمكن أن يدمر ذكورة بشرية!

في العيد الأول للوحدة، بين مصر وسورية، أمر المعلّم الأولاد أن يلبسوا ثياباً جديدة، ودعا الأولياء لحضور الاحتفال الذي سيقيمه بهذه المناسبة. ولك أن تتخيّل الاضطراب الذي عمّ البيوت، بسبب خلوّها من الملابس الجديدة. لكن المشروع الجديد لحسن اللوف، حلَّ المشكلة (وقد أثبت هذا الرجل مرة أخرى، أنه نبيّ الفرص)؛ إذ قدّم قمصاناً وبنطلونات وأحذية (كلها من طراز غربي) مستعملة، هدية للأولاد، فالمناسبة غالية والطلب رخيص. قال ذلك، في تحوير طفيف لعبارة المجاملات، أضاف نكهة سياسية ذات منافع أكيدة، إحداها، حين سيذكر الأستاذ كميل، في خطابه، سخاء السيد حسن. والثانية هي استحواذ حسن على انتباه كتّاب التقارير الذين لن يستطيعوا إغفال مساهمته الكسائية، تاركين لأسيادهم في المباحث والشرطة، مهمة تقدير مبادرته.

كانت المدرسة مزدانة بالأعلام. وقد غطّى المشرفان على الاحتفال (وهما المعلّم كميل، والآذن عبود)، جدار الغرفة الشمالية، بعلَمٍ جمهوريّ يكفي (كما علّقت ست الشام، وهي الجارة القريبة من بناء المدرسة المستأجرة) لعمل ملحفتَين. وبالمقابل، ارتدى الحاضرون أفضل ما لديهم من ثياب، مما أضفى لحظة من الحبور الناعم، على مناخ المكان. هل كان المشاركون جميعاً، يريدون أن يواجهوا بهذه الرموز المهرجانية، هذا القحطَ الشامل الذي يضرب في منطقتنا؟ مدهش ورائع! قلت لنفسي، إلى أن بدأ الأستاذ كميل كلمته. نقر بيده على الطاولة، بضع نقرات تنبيهية. استكانت الثرثرات، والأحاديث الجانبية. ثم افتتح الاحتفال بالنشيد. الحقيقة أننا أنشدناه بحماسة، ولا لوم على أولئك الفلاحين الذين لا يحفظونه، لأنهم كانوا يتمتمون، محاولين اللحاق باللحن والإيقاع. لكن هذا لم يعجب الأستاذ؛ فبدأ خطابه (من الواضح أنها كلمات لم تكن

مكتوبة) بانتقاد هذه الحمية الوطنية (هكذا سمّاها) التي تشير إلى وهن الانتماء، لدى الذين لا يعرفون ماذا تقول كلمات النشيد (تخيّلوا!). كانت الصورة التي التقطها لنا نازي، تظهرنا، وقد انكمشنا في مقاعد التلاميذ التي أجلسونا عليها ورحنا نتطلع بأعين مكسورة ناعسة، إلى راعي حفلنا، وخطبته. ثم توقف، وملأ صدره بالهواء، وأخرج بضع ورقات كانت في جيبه، وفتحها وراح يقرأ...

مضمون خطابه انصبّ على تمجيد الرئيس جمال عبد الناصر. وبدت الوحدة التي نحتفل بعيدها الأول، مجرد زركشة، أو بساط.

تأملت الأطفال، وهم ينصتون إليه، وهو يعدّد صفات الرئيس مستعيناً بقاموس بهيج من المفردات والجمل. بدت عيونهم مشرقة، لامعة، تنتقل بين صور الرئيس، وكلمة الأستاذ. غير أن سحناتهم انقلبت حين ذهب نحو أعداء عبد الناصر: الاستعمار، أيزنهاور وخروشوف، ولينين والشيوعية. يُخيّل إلي، أن تلك الكلمات بدت لهم مثل تعاويذ أو غرامات أو لغة مستعارة من شعب آخر. لكن الأستاذ لم يبالِ بأيٍّ مستمع، كأنما يخاطب جهة أخرى (أعرفها) مشرفة تتطلع إليه بعينين فضائيتين. ولم يكتفِ، بعد ذلك، بحشد هذه الأسماء الأجنبية، والمصطلحات المغلقة، بل أضاف إليها لائحة أخرى، من أسماء عربية وضعها على درجة أخرى، من درجات عداوات عبد الناصر: خالد بكداش، والملك سعود، والملك حسين... إلخ (تظهر الصورة التي التقطها نازي، الأستاذ كميل فاغر الفم، رافع اليد، غاضباً، شاحباً يرعد). الفاتن بالنسبة لي، هو التفكير في عمل الزمن. فهذه القطعة من الكرتون أسرت الأستاذ كميل، وسوف يبقى هذا الرجل سنوات، وعقوداً وقروناً (ربما)، أسير لحظة مكتومة، لا يعرف أحد ماذا كان يقول فيها. كأن الصورة تقول: «الموت للكلمات!»، وبالمقارنة غير العادلة بالطبع، فإنّ التاريخ القديم أبّدَ الكلمات ودمّر الصورة. فمن

يستطيع أن يتخيّل ملامح طارق بن زياد، وهو يأمر بحرق سفنه، أو وجه عبد الرحمن الكواكبي، وهو يتألم من وجع السم الذي دسّوه له؟ ولكن مقابل كلماتهم التي لن تنسى، لن تعرف الأجيال المقبلة، ما الذي كان يقوله الأستاذ كميل أبو حجر. ربما ظنّوا أنه يمثّل، أو يتحدث في جنازة! فما جدوى كلماته إذاً، إذا كان التلامذة لا يفهمون شيئاً منها، وإذا كان الفلاحون لا يحسّون بها، وإذا كان البشر الآتون لن يعرفوها، وإذا كانت السلطة نفسها لا تسمعها (إلا إذا نقلها إليهم أحد مخبريهم).

وعلى كل حال، فإن كلمة الأستاذ لم تنْتهِ إلا باستعارة المجاز الشعائري الذي اخترعته مخيّلة أحد سياسيّينا التعساء المضطربين، الذي تصوّر أن نضاله، وكفاحه، يشبهان المسامير، وأنه يدقّ ذلك في نعش الاستعمار. لكن ما يزيدني حيرة، هو رغبة أستاذنا اليوم، بدسّ قطع جديدة من اللحم، تحت غطاء ذلك النعش، حين أضاف الشيوعيين والرجعيين وأعداء المرأة إلى من سيسمّرهم بداخله.

16

آخر تشرين الأول 1959

من النافذة، راقب حليم زوجته خيرية، وهي تعين أباه وتحمل تنكة الماء عنه، من أول الزقاق، وتأتي بها إلى الخابية الكبيرة، وتفرغها هناك، فدمدم: «يا كافرة!» وانتظرها إلى أن عادت. كانت حصّة الماء هذا النهار لحارتهم، وقد قسم حليم منذ البداية، المناوبة بين زوجته وأخته. وانضمّ والدهم إلى زينب، معظم الأيام التي كان فيها بلا عمل، في البيت. «عَ العافية!» قالت خيرية، وهي تلاحظ أنه كان مستيقظاً، وملتفاً بعباءته، على حافة العتبة. فقبض على معصمها، وجرّها نحوه. ثم لكمها بقبضته اليمنى على كتفها، وقال بحقد: «ليش حملتِ التنكة عنّو؟». فحدّقت إليه غير مصدّقة وذاهلة، وقالت: «عيد سؤالك!»، فقال بصوت مرتفع وحانق: «ليش ساعدتيه؟».

«العمى!» قالت: «هذا عمّي عبود!».

«العمى يعميك أنت وهو!».

فغطّت وجهها بكفيها، وشهقت: «يا رب!».

لم يستطع حليم نسيان ما حدث؛ فانحياز والده إلى صف كريم، منذ قسمة الأرض، وتفضيله عليه، في استلام حجّة البيع من لقمان، سحقه.

أما حين رآه يرمي طحين الإعاشة وراء توفيق الخضرا، فقد اعتبر أنه في حلٍّ من أيّ التزام، تجاه أب لا يخاف الله، ويدوس نعمته. وطوال الوقت، كان يبوح بأجزاء من شكواه لخيرية. لكن زوجته اعتادت أن تقدم مبررات وأعذاراً تحاول أن تدافع بها عن أبيه. لماذا؟ هل تظن أنه مجرد حقود ممتلئ بالكراهية؟ «ليش يستلم حجّة البيع من لقمان وأني موجود؟»، يقول لها حائراً، «ليش يعطيه كرم السماق؟» يصرخ. سؤال حائر ظلّ يقرص حنجرته، فتنشف، وتيبس، ويخامره شعور بالوحدة والنبذ والهزيمة.

فإذا أضاف إلى كل تلك التحيّزات، زهوَّ أبيه بكريم، وافتخاره بعلمه (وقد حققه من تعبه هو بالذات) وحنانه الخاص له (بالأمس فقط اكتشف أنه استدان مالاً كي يعطيه). «ليش؟».

كان دخان كثيف يتمدد في لحمه، مفتّتاً روحه المرهفة التي ظلّ يحصّنها - كما قال لخيرية - منذ شبابه، ضد دسائس البشر.

غير أنه لم يعد يستطيع احتمال كل ذلك الثقل التمييزي ضدّه. ولهذا فقد قال لخيرية أن تسكت، وامتنع عن الشكوى أمامها، وقال لها: «إذا كان الآباء ما بيعرفوا العدل، ليش مطلوب من الأبناء يعرفوا الطاعة؟»، فحاولت أن تلجأ إلى الآيات، ولكنه صرخ: «اخرسي لا تقربي!».

وخيرية امتنعت طوال السنوات التي مضت على زواجهما (وهي إحدى عشرة سنة)، عن المشي وراءه في أي طريق. وبدا له أنها لم تسِر معه فقط، وإنما هي تقدّم العون لأعدائه. «ليش عمّي عدوّك؟» سألت، فلكمها في صدرها، وقال: «إي». وقعت على الأرض، وهي تتأوه: «آه». ثم شهقت الهواء الذي فرغته اللكمة، وغمغمت: «يكسر إيدك!».

«شو؟» قال، وحملها من بطنها، ودفعها نحو الحائط، ثم صلبها عليه، ودمدم: «إذا قلتِ هالكلمة مرة ثانية بِقْطع لسانك!». كان غاضباً حتى الموت، من عبارة التطاول الوحشية التي وجّهتها إليه. ثم فكر أن تصريحها

الحاقد يعبّر عن أمنياتها الحقيقية، وكان هذا كافياً ليتخذ إجراءً عقابياً شديداً يعلّمها فيه ألا تقترف أبداً (حتى في نزوات فكرها المريض) أي خطأ من هذا الطراز البشع.

حاصرته الخيارات. وحين استقصاها كلها، وجد أنه سيكون الخاسر الأكبر، في أيٍّ منها، إذ كيف يمكن فرض عقوبة رادعة، دون التضحية بسمعة المتسامح الغفور التي عمل منذ سنوات، على دعمها في ضمائر الناس؟! وعلى الرغم من أن «تربية المرأة»، لا يعارضها أي شخص هنا، فإنه لم يستطع السيطرة على ارتباكه من الافتراض أنه يمكن أن يصير أيضاً، كلاماً، في قلاقل السماقيات، يصغّر قامته، ويخذل دأبه من أجل نشر الخير. وفي محاولة إقناع أخيرة، قال لها: «ما شفت كيف رمى الطحين؟ هذا عمل كفّار».

كان دائماً يرفض الجدال، لأنها تفوز عليه فيه. ولم يعرف كيف رفع يده، هذه المرة، ولطمها على وجهها، وقال: «يلعن والديك، يا كافرة!»، ثم استدار، وخرج من البيت.

بعد ساعة، كانت خيرية تدفع بوابة منزل حامد النخيل، أبيها، وتنهار في حضن أمها، وهي تنتحب.

كانت تعرف هذا المشهد عن ظهر قلب، لكثرة ما رأت وسمعت عن نساء السماقيات، وهنّ يعُدن إلى منازل الآباء مهانات أو مضروبات أو مضرجات بالدماء، على يد أزواج غاضبين. ولكن آخر ما فكّرت فيه، طوال السنوات الماضية، هو أن تكون هي نفسها، صاحبة هذا المشهد.

وما يغضبها هو أنها، رغم كل ما فعلته، لم تستطع تفادي المآل النسائي الذي كانت تظن أنها نجت منه.

غير أن نحيبها لم يكن بسبب هذا وحده، وإنما من ذلك الهاتف الغريب الذي ظلَّ يناديها مثل العيوطة: «أنتِ مش هيك».

لم تتمكن من ترجمة العبارة إلى موقف، طوال أكثر من ساعة، وهي تحاول أن تشرح لأبيها وأمها تفاصيل ما جرى. وحين صعدت إلى غرفتها القديمة، وقفت وراء النافذة، تراقب الحي الغربي، حيث بيتها وابنتاها، سمعت فجأة، ذلك الصوت يأتيها حاسماً ونهائياً: «لا ترجعي!».

راقبت المكان، ورأت أمها في الفناء، تضع قدر الطبيخ على نار حطب. شعرت بالبرد، فهمست: بسم الله الرحمن الرحيم. ثم انكمشت وتضاءلت، وتدثرت ببطانية خضراء كانت مطويّة قربها. هل كان الأمر رسالة؟ ربما. وفكرت أنه الحصيلة الأخيرة لما وصلا إليه. تذكرت كلماتها لحليم، حين كانا ما يزالان إلفين: «أول مرة بزعل لعند أهلي مش راح إرجع». كانت تظن أنها تداعبه بتهديدات مستبعدة، بلا حسابات الخسارة والربح، لكنها أيقنت الآن (وقد سمعت ذلك الهاتف) أن ما قالته كمداعبة، إنما كان إنذاراً نبوياً، ورّطها هي، قبل أي شخص آخر. وقد أقسم حليم، بعد يومين، لوسيطٍ حاول أن يحل المشكلة، قبل تفاقمها (وهو عمار النخيل، عمّ خيرية البعيد)، إنه لم يسمع كلماتها. وقال إنه ربما نسيها (حين حلفت أنها ذكرت ذلك أمامه).

لم تكن تعلم ما هو السبب الذي سيجعلها تهجر بيتها. وقد استبعدت التوبيخ الذي نالته من حليم، بعد البطن الثاني الذي أنجبت فيه البنت الثانية؛ إذْ كانت تعشق الذكور مثله. وتغاضت عن الكلمات المهينة التي كان يوجهها إليها، في مناسبات الغضب أو التعصيب أو حين تنفّذ عملاً لا يعجبه (كانت قد اعتادت أن تسمع مثلها، من فم أبيها، في كل مرة ترتكب أمها غلطة)، وما كانت ترى أنها مخطئة (وقد اقتنعت، في ما بعد، أنها مجرد غبار يمسحه الرجال بعد ساعات، بجنس سريع أو بدفعة من الكلمات البديلة الملمّعة). وبمرور الأيام، بدت تلك الكلمات المهينة جوفاء، ومجردة من معانيها. لم تعد تملك سوى قوة التعبير عن حالات

حليم، وتشي بطبيعة التذمر التي تصاحب الرجال. ثم تلاشى ذلك كله إلى طريقة وحسب، يحاول حليم، في النهار، أن ينتقم بها من خذلان الليل (حين كانت ترفض النوم في فراشه)، أو يرد على إجراءات قاهرة تنفّذها، دون مشورته (كأن تشطف البيت كل يوم، أو تشمِّس الأثاث، كلما أشرقت الشمس في الشتاء والربيع، أو ترغمه على خلع حذائه عند العتبة، وغسل رجليه، أو تجبره على طيّ ملابسه). وفي كل الأحوال، فإنّ كل تلك الأشياء، لم تزد عن أن تكون حدبة، أو وطأة ظل عابر. ولكنها لم تتعرف في أي يوم، على فكرة الخروج من المنزل، في أي بادرة من تلك الحوادث. وحين تستعيد قراءتها، لا تجد أي إشارة إلى مشهد الأمس. فقد كان آخر ما يمكن أن تفكر في تنفيذه، أمام الناس، كاعتراف بهزيمتها. وهي تذكر أنها شعرت دائماً، بالاشمئزاز من تكرار الزعل والذهاب إلى بيت الأهل، من قبل النساء في السماقيات. ومنذ شبابها، كانت تشفق - أو تحتقر - أولئك النسوة اللواتي يتداعين في منازل الآباء، ليعرّين أجسادهن كي يعرضن آثار الكدمات أو السّحجات أو الجراح التي خلّفتها لكمات الرجال، أو خيزراناتهم، على لحمهن.

ماذا تفعل؟ هل تصير رقماً جديداً يضاف إلى الرتل؟

في المساء، دون أي تردد، وجدت نفسها تعلن عن سقف قراراتها، أمام أبيها وأشقائها وأمها. رفضت أن تذيع التفاصيل، وامتنعت عن شلح ثيابها، لترى أمّها وعمّتها آثار الضرب. راقبت المرأتين بعيني نمرة، وقالت: «مش راح تشوفوا شي، لأن الضرب والدم هون» مشيرة إلى قلبها، فشعورها بالإهانة، كان أكبر من مكاسب الفوز بالحق. ورأت أن الكلمات عليلة وعاجزة عن ملء الفراغ الماحق الذي هوت إليه. «والبنات؟» سألت أمها، فطفرت دموعها، وقالت وهي تنشج: «إلْهُنْ الله!».

17

تشرين الأول 1959

مشى كمال النعماني وراء فتاته، عند الظهيرة. كانت تذهب نحو الحارات الحجرية القديمة. فسرّع خطاه كي يلحق بها، قبل أن تختفي في المنعطف الذي يذهب غرباً، ويتفرّع إلى أزقة ضيقة وملتوية. بدا احتمال إضاعتها اليوم، أكبر من طاقة قلبه. شعر بالخذلان، حين رأى أنها اختفت، فركض بلا وعي، ورآها تصعد الدرجات. ظهر رأسها في أعلى الهضبة، وراء البيوت، فلعن نفسه، لأنه لم يجرؤ على اللحاق بها.

فكّر بالذّهاب لزيارة كريم، مغامراً باختراق ممنوعات التنظيم، ومضى إلى حي الشيخ علي. كانت الدار الكبيرة هاجعة في البرد الناشف، فألغى فكرته متشائماً من كل شيء، وعاد إلى غرفته خائباً. ألقى جسده على الفراش، ودفن وجهه في الوسادة، راغباً في البكاء. لكنه سخر من نفسه، حين رأى بدل المحبوبة، وجه أبي سهيل، وهو يقرِّع البروليتاريّ الصلب على ضعفه. فآثر أن يرسم، لكنه وجد اللوحة التي يشتغل عليها، عاتمة، غائمة، تغرق في ضباب كحليّ، وقد اختفت ملامح الأشياء والبشر (لماذا؟ ماذا يحدث؟). شعر أنه يفشل، وأن أيامه تنجرف كالتراب، وتتسرب إلى قاع معتم. ألغى اللوحة، أجّلها، وخجل من نفسه، حين أدرك أنه خاسر

وضعيف، ورنا إلى الله في الأعالي، وغمغم: «ليش يا الله؟ ليش؟». ثم فكر أنه لم يفعل شيئاً. وها هو ذا يلجأ إلى ربٍّ لا يساعده. وأحس بالذنب، لأنه لا يلجأ إليه إلا حين يفشل أو يخسر. فتح صفحة جديدة من دفتر الرسم، وراح يخطط نماذج لأشياء غرفته، ورسم اللحاف، ووجد أنه يوسّع الرقعة الزرقاء المضافة إلى وجهه بخيوط بيضاء غير متقنة.

تذكّر أن جدّته هي التي خاطتها بإبرة غليظة. اشتاق لها، وقرر أن يذهب لزيارتها في أول عطلة. «أخ» همس وهو يذكر أنه نكّدها بنكاته قبل شهر، وأنها ضحكت قليلاً، من أجل المسايرة، ونظرت إليه بطرف عينها، نظرة مشوبة باللوم. وسوف يقول لها إنه كان يمزح، وهو يحب المزاح معها، وسيعتذر عن مزاحه الفاسق: «تأكلين حلاوة أم تتزوجين يا ستّي؟». وسوف تقول الجدة، في النكتة السائرة التي لا يملّ الرجال من تكرارها، إنها لا تملك أسناناً لأكل الحلاوة. ويتبع ذلك، قهقهة من يظنون أنهم كشفوا رغبة النساء بهم. عليه أن يقول: سامحيني يا ستّي! لأن النساء يسِلْن في تفكيري، مثل الكلمات، مثل الألوان المائية، وأنا لم ألمس في حياتي لحم امرأة. والله! صدقيني. ونكاتي سببها الخذلان. أما أنت، فعرفت أربعة رجال. نيّالك. نيّال النساء لأنهن يستطعن جذب أي رجل بإشارة من سبابتهن، بينما يعجز حفيدك عن لفت انتباه امرأة، حتى لو استخدم أصابعه العشرة، وعينيه، وشفتيه. «تفكير أصيل» قال لنفسه، ولكنه ما لبث أن فكر فيما لو استطاع أن يسأل عجوزه عن ليلة الرجل والمرأة. كيف يبدأان ومتى ينتهيان؟ ولماذا كانت أخته تبكي ليلة الدخلة؟ ثم شعر بالملل من ذلك كله. أيقن أنه قد يجنّ إذا ظلَّ وحيداً. وكان موعد الاجتماع ما يزال بعيداً، ففضّل أن يعود إلى الشوارع، مرة أخرى، وهناك وجد نفسه وحيداً من جديد. رأى بضعة كلاب شاردة تلغ في قمامة، وشحاذاً يحاول إبعادها بعصاه. شعر بالكراهية، تجاه أولئك الذين يقطنون البيوت العالية،

في آخر حي القمر، حين رأى تلك النوافذ الضخمة المضاءة بأنوار بيضاء. سيحقد عليهم حقداً طبقياً. الحقد الطبقي، كما يقول القميص المخطط، يفسح الطريق نحو الأمل، لكنه لا يعرف كيف يمسك، فعلاً، بذلك الأمل الذي يوجد في مكان ما. هل يمكن الاستيلاء عليه، كما سنستولي على السلطة؟ أم يجب أن نستولي عليه أولاً، كي نستولي على السلطة. وعندئذ نأخذ أموال الأغنياء، ونوزعها بالعدل، بالعدل يا شباب! بالدور! واحد، اثنان... هكذا، سوف يضبط ذلك الصف الطويل من مقتسمي ثروات الفقراء وحاضِرهم.

وفي المساء، لم يطرأ على الاجتماع أي جديد. واقتصر على الجدول المعتاد، فأشار القميص المخطط، في التقرير السياسي، إلى القرار الجمهوري الجديد الذي عيّن المشير عبد الحكيم عامر، مشرفاً على الإقليم الشمالي، نائباً للرئيس جمال عبد الناصر، في جميع الصلاحيات التي تخصّه. وأوضح القميص أن الرئيس أراد، بهذا القرار، عزل جميع رجال حزب البعث، وإبعادهم عن الحكم، على أمل أن يستطيع المشير عامر، تبديد سلطة عبد الحميد السراج، وأجهزته، وقال إن القيادة ترى أن عبد الناصر سيكون بهذه الخطوة، قد صفّى جميع أولئك السياسيين الذين دعموه، مخيّباً آمالهم من الوحدة. وحكى القميص أن محمد حسنين هيكل، كتب ذات يوم يقول: إن سياسيّي سورية، أتمّوا الوحدة مع عبد الناصر، في الدقيقة الستين، من الساعة الرابعة والعشرين، قبل أن يخسروا مكانتهم ومكاسبهم.

طوال الوقت، بدا كريم خاملاً، ولم يبدِ أي ملاحظة، وتَبالَه أمام القميص، واختلج خدّه، حين ناقشوا فقرة النشاطات، من جدول الأعمال. لم يقل شيئاً، وتلقّى توبيخ السكرتير بلا مبالاة، حين أدانه لأنه لم يفعل شيئاً لمنع الناس وإقناعهم بأن مساعدة النقطة الرابعة ليست سوى خطة أمريكية

لمحاربة نفوذ الشيوعية، وضرب سمعة الاتحاد السوفييتي العظيم. أراد كريم أن يقول إن الناس جائعون، وليس لديهم خبز أو أرز. ولكنه ابتلع الكلمات، مع كأس ماء، وسيجارة «طاتلي سيرت» أشعلها. وراح يسبّ الحياة، ويلعن الأحوال، أمام كمال، حين التقيا - حسب خطّتهما الخاصة - بعد الاجتماع. جرّه كمال من يده، وقال: «تعال! عندي شاي»، فانقاد له دون مقاومة. وفي الغرفة، اكتشف أن ملامح كريم كانت قد تصلّبت، واحتشدت فيها أسارير غامضة، فقال: «تقبل أرسمك»، مطّ كريم شفتيه، يفكر، ثم قال: «لأ». قال كمال: «أنت حرّ»، وشعر بالندم لأنه لم يطلب منه ذلك، قبل هذه المرة.

كريم همس: «أني بردان»، فنهض كمال، وحاول إشعال البابور ليتدفأا عليه. لكنه كان فارغاً، فدمدم بغيظ: «حتى البريموس!». بدت الغرفة تافهة الآن، وقد عشّشتْ فيها رطوبة الليل. كان موعد الذهاب إلى الفرن يقترب. وبدا كريم يرتجف فجأة، وغمغم: «غطّيني!»، فدثّره باللحاف، ثم لفّه بالبطانية، ثم أزاح اللحاف ووضع البطانية أولاً، واللحاف بعد ذلك. كان جبين كريم بارداً كالحجر، عرقان، وتفوح منه رائحة حموضة، فقال: «نام شويّ، رح غيب نصّ ساعة. استنّاني»، ثم حمل زجاجة، وخرج. عبَر المدينة راكضاً. كانت الشوارع نائمة. ولم يلتفت نحو حارس ليلي راح يصفّر له، ويصرخ: «وقف!»، لوّحَ له بالزجاجة الفارغة ونادى: «كريم مرضان. وبدّي جيب كاز»، فقال الحارس: «سلامة كريم». لكن محطة الوقود كانت مغلقة. ورفض الناطور أن يفتح الباب، فظلَّ يدقّ عليه بلا توقف، إلى أن أطلّ رجل مشعث الشعر، خشن الصوت، من مصراع نصفي، وقال: «ولك والله ما في كاز». فتركه، وعاد راكضاً. لم يجد كريم في الغرفة، فلحق به إلى مسكنه، ووجده مقرفصاً قرب البوابة الكبيرة، يرتعد من الحمّى. فأخذ يدقّ الحديد بمفتاحه. ملأ الصدى الشارع كله، وخرج الجزيري غاضباً، فصاح كمال: «طَبْ شو قصر يلدز يعني؟»، وحمل كريم

من إبطه: «الزلمي مريض! افتح!». مشى به نحو غرفته، متفادياً أبا محمود، الذي ظلَّ جامداً، مباغتاً.

وضع مناشف ماء على جبين كريم الذي كان غارقاً في الحمّى الآن، ثم قال: «لازم نروح عَ المشفى». فأخذ فيصل، وطلعت، يبكيان، وقال طلعت: «يعني بدّو يموت؟». ففتح كريم جفنيه بوهن، ولمس شعره، وهمس: «لا يا ولد! بكّير بعد!»، ونظر إلى كمال، وقال: «لا تاخذني عَ المشفى».

فجأة، وجدوا لؤلؤة بينهم. بدت مذعورة، وقد اقتحمت الدار مستفيدة من هدنة البوابة التي تركها أبو محمود مفتوحة، بعد أن ناداها فيصل الذي تسلّل إلى الحاكورة، طالباً النجدة منها.

بدت امرأة من إرادة، وهي تأمر كمال: «روح جيب الدكتور!». فمضى راكضاً. وإلى أن عاد، صنعت إبريق زهورات، وعادت لتسقي كريم.

قال الطبيب - بعد أن فحصه - إنه «كْريب» مفاجئ، وأوصى بغذائه، فأحضرت لؤلؤة لهم طبخة يَبرق (الرز الملفوف بورق العنب)، ولبناً، وموزاً، فتعشَّوا معاً، وهدأت حمّى كريم، بعد الدواء، فنام، وقد غمره عرق راحة.

تركهم كمال، وذهب إلى عمله. كان ذاهلاً، وقد خُيّل إليه أن أحداث الساعتين اللتين مضتا، كانت حلماً. اشتهى أن يجد مرة واحدة، من يمسّ قروح جسده، مثلما فعلت هذه المرأة التي لم يعرف لمَ جاءت، وكيف أبدت لهفة نساء الأرض جميعهنّ خلال ذلك الزمن القصير. شعر بالقهر لأنه لن يجد أبداً امرأة تربّت على فحولته، أو تنتظر عودته، كي تقدّم له غذاء ساخناً، أو تقول: الله يعطيك العافية، أو تكتفي بإشارة بيضاء خفيّة، دون أن يخالط مشاعره حسد؛ فصداقته مع كريم، توطدت بسبب الانتماء الحزبي، حين وُجدا معاً داخل مجموعة سرية احتفظ الشيوعيون بها بعيداً، عن الجسم الرئيسي للحزب، آملين أن تكونَ (هي

وغيرها من الخلايا المهمشة) خميرة النضال القادم، حين تزول غمّة القمع، وتخفّ قبضة الملاحقة المباحثية لهم. وبسبب آخر (هي أسباب) هو أنهما ارتكبا، منذ الاجتماع الأول، مخالفة حزبية جعلتهما يشعران بالذنب دائماً تجاه مسؤولهم، وبالخوف من اكتشافهما. صحيح أنهما لم يكونا متشابهين. فكمال يرى نفسه غضوباً وعصبياً ومستعداً للعراك. أما كريم، فهو خامل، ووجل، يسطو عليه خوف غامض كالمرض. غير أن كل الأشياء كانت توحّدهما: يقينهما بأنهما مختاران للمستقبل، فقرهما، أسرارهما الصغيرة والكبيرة التي بدأت تتجمع كالمطر. يذكر أنه استمال كريم أولاً، بطعم الخبز الساخن، وتمكّن من إدهاشه بعد ذلك بالطبخ. لم تكن المواد (الوطنية كما سماها) المستخدمة في الطعام هي السبب، إنما تلك التوابل السرية المضافة من كل نوع، بحيث تضفي عليه، طعماً جديداً، وطارئاً لا يُنسى.

كان يعرف أن التوابل وسيلة للغشّ؛ فطعامه لم يتغيّر منذ سنة. وقد ظلَّ البرغل والعدس سيّدَي المائدة. ثم أضاف البيض وملحقاته إليهما، لكنه (من أجل توطيد الصداقة) كسر القاعدة قبل شهر، واشترى لحماً (أوقية كاملة) وأضافه إلى طبخة العازبين الشهيرة: البندورة والبيض.

في ما بعد، كرّرا الوجبة أكثر من مرة، متعاونين، ومحافظين على سرية مطلقة تضاهي سرية التنظيم، لا يخبران بذلك أحداً، خوفاً من أن يعتبر اتجاههما هذا، دلالة على تكريس تقاليد لا تنتمي إلى عالم الكادحين، موقنين من أنهما سيتعرضان للتوبيخ من قبل القميص المخطط بسبب مظاهر التباهي البورجوازية الصغيرة، وسيضطران إلى الاعتذار، والنقد الذاتي. وبمقدار زيادة الأخطار، كان كلٌّ منها يولع بالآخر، وقد ازدادت رغبتهما في اجتراح مغامرات أخرى، إذ فكرا أنها يمكن أن تمنحهما لذة مماثلة، يضيفانها إلى دفتر لذائذهما الخبيئة.

غير أن مدينة نائية، كمدينتهما، لم تكن قادرة على منح شابّين متحمسين، الكثير من الآمال. ولم يستطيعا فعل شيء ذي معنى، ما عدا تكبير الأحلام، أو تضخيمها.

أعظمها كان الحب. وقد ظلّت له صفة القداسة في لائحة أسرارهما، في وقت لم يتجرأا فيه، على مناقشة الموضوع، في أي لقاء مع القميص. وقد أيقنا، بمرور الزمن، أن الحديث عن الحب محرّم، أو ممنوع، في المراكز التي ندب الناس فيها أنفسهم لتغيير العالم. وزاد في حرقة أحلامهما، أن الشوق إلى الحب لديهما، اختلط بذلك الخزي الذي كان القادة، والكتب، يلعنانه كل مرة: الجنس.

لكنهما لم يستطيعا كبح الرغبة، فقد كانت تأتي من الجسد، متمردة، على حسابات العقل والأفكار. وكان كمال يقول لكريم، إن رأسه يقول شيئاً، ولكن عضوه يريد أشياء أخرى. وفي إحدى لحظات البوح، قال إنّه يكاد يؤمن بأن عقله، وروحه، موجودان هناك.

الداهية أنهما لم يجدا مرجعاً واحداً، من الكتب التي كانت تتسرب إليهما، يدعم فكرتهما عن أن هذه الرغبة ستتحقق بالتأكيد، بيسرٍ، في مناخ الثورة الموعودة، إذ كانت كلها مشغولة بتوزيع الأموال والثروات والحاجات، وتبادل البضائع، وقوى الإنتاج، وطهارة البروليتاريا، ومصادرة الأرض، وعشق الكادحين، دون أن يُعنى أحد بكيفية إطفاء هذه النار المتقدة، داخل جوفيهما، أو طمر تلك الهوة الفاغرة المرعبة التي تهدد، كل لحظة، بأن يجنّ أحدهما، ويهاجم أي فتاة يراها في الشارع، ليقبّلها في جسدها كله، ويعضّها، ويضاجعها خمس ساعات بلا توقف.

وكتعويض معقول عن الحرمان، اكتفيا بمراقبة النساء في المنازل المجاورة، مستفيدين من ارتفاع النافذة الغربية، في غرفة كمال، وإطلالتها على ثلاثة تجمّعات سكنية قديمة، تضم أكثر من عشرين غرفة. اكتشفا

أن بوسعهما، إذا ما أشعرا النساء بالأمان (أي الإيحاء لهن بأنهما غير موجودين) أن يريا أجزاء من سيقان بعضهن، أو أجزاء من أفخاذهن، حين كانت إحداهن تجلس إلى طشت الغسيل، فاتحة فخذيها، لينحسر ثوبها من هنا، أو هناك، ويظهر لحمها أمام عيني كمال أو كريم، لامعاً شهياً يزلزل كيانهما.

وغدا بإمكانهما، عبر الثقوب التي أحدثاها في الستارة، أن يشاهدا إحداهن (وهي الجارة السمينة، زوجة موظف الأحوال الشخصية) وهي تخلع ثيابها، في القبو المقابل، لاهية، آمنة، من أنها خارج مدى رؤية أي رجل. وفي كل مرة، كانت تفتنهما ببطئها، حين تبقى بالشلحة، أو باللباس الداخلي، ريثما تنتقي ملابس الخروج، أو تنتقل إلى ملابس النوم.

كانت مشاهدة عابرة، طوت رغبات الروح الهامشية وحدها، لكنها ضخّت إلى الجسد الفتي، غلمة حارقة بدأت تلتهم أطرافه كجرذ، لتشغلهما، في ما بعد، عن هذا العالم، وتحشرهما معاً، في مدى أزرق غريب، من أمنيات لاهبة، يتخيّلان فيها امرأة شهوات تأتي إلى فراش كلٍّ منهما، لتملأه.

ولم يجرؤا على الذهاب إلى المبغى؛ فإذا كان شراء اللحم مشبوهاً ومصحوباً بمشاعر ذنب بائسة، فكيف يمكن أن يملكا شجاعة زيارة تلك المباءة التي يعتبرها رفاقهما الخلاصة القذرة لنواتج القهر والاستعمار؟!

راودتهما الفكرة كثيراً. وظهرت نساء الماخور في أحلام كمال، أكثر من مرة، وبعد أن حكى له، كيف رأى إحداهن، في كرخانة دمشق، وهي تنتظر، جالسة على مقعد خشبي، تاركة قطعاً من لحمها مكشوفة، تعلك، وتنظر، بلا مبالاة، إلى الزوّار.

كانت لها رائحة صمغ، ولون عجين، وتوجُّس طائر. وهي كلها صفات غريبة - نثرها كريم - ملأت خياله بالصبوات والتوق.

وبفضل الإيمان وحده (بالثورة)، تعلّما إخماد المشاعر (لكيلا تعيق في أي يوم، المسيرة المظفرة القادمة)، وتقليم الحنين، وصرف انتباه العقل عن الشهوات، وتقطير تلك الأحاسيس، في صورة حقد أبيض، على البرجوازيين، ذئاب الاستغلال.

لكنه لا ينكر أن مصاعبه ازدادت، حين روى له كريم، أجزاء من سيرته في حب محمودة. ثم لعن الأعراف التي تضطر شاباً عاشقاً، للوقوف على حافة جدار حجري، يوعوع كالثعلب، منادياً حبيبته. ومع هذا فإنه الآن، وهو وحيد، لا بدّ أن يعترف لنفسه، بأن لا شيء في الدنيا يمكن أن يضاهي لقاء سرياً وراء صخرة، أو غزلاً شحيحاً رقيقاً مدبّراً في أدغال الخفاء، أو حماقات عاشقين صغيرين، يتخاطبان بلغة الشعر. لا شيء أكثر قدسية من حضور أنثى إليك، كي تعلن لك عن حبها، في رسالة (تضعها قرب العتبة) أو إشارة (من نافذة أو سطح) فتتسلّل إليها متدثراً بمعطف (لم يكن لديه معطف) وتلتقي بها، قرب شجرة، أو على رصيف، أو على شاطئ بحر.

أحلامه كانت تتبدد سريعاً، لأنه الوحيد المخوّل بالأحلام. أما ليله فقد كان وحشاً يمتصّ عافيته، وهو واقف يحرق جلده وعروقه وذاكرته، داخل حقيقة ساطعة، هي بيت النار في فرن.

فكّر الآن بفتاته الطويلة التي يبدو الحزن على ملامحها. هل حاولت أن تتباطأ؟ أن تنفض الغبار عن ثوبها، ولم يكن ثمة غبار؟ ربما أرادت أن يتقدم، ويكلّمها، ولكنه لم يفهم المبادرة. ومرّ قربها مثل حمار، (لا أعرف كيف أبدأ حديثاً مع امرأة أو بنت! فماذا أفعل؟). فكّر أن يلجأ إلى الدونجوانات من زملائه، الذين يحكون عن مغامرات الحب. أنور مثلاً، سيطلب منه أن يلقّنه ألف باء الكلام مع النساء، دون أن يكشف له سرَّ فتاته (ماذا سيسميها؟ بنت التلال مثلاً، أو عروسة الصنوبر، لأن بيتها محاط بتلك الأشجار). وقد يغضب القميص بعد ذلك. ليغضب، فهو لا يعرف

إلا إلقاء الأوامر. سيقول له إن لحم امرأة لا يؤذي أي فكرة. وإن سيجارة أو أكثر لا تخمد الروح. وسوف يصير هذا اللحاف الممزق أفضل، إذا ما تغطّت به امرأة مشبعة بتنهدات الحب. ستكون الخروق فيه ملاجئ للزفرات والآهات. وسوف تلتصق الكلمات بحواف الطنجرة المطعوجة، وتستدير القبل حول إبريق الشاي المسودّ، وتنسكب وتسيل كالماء، على الأرضية الأسمنتية الخضراء، متحررة من صمتها أو سجنها الطويل، وراء الحروف المكتوبة. وبهذا، يمكن قبول أي شيء. تصير السحارة خزانة، والشرشف القديم ستارة، والكأس المكسورة تحفة. أما سحنته المحروقة فتشبه الكستناء. تُمسي الأشياء قادرة على امتصاص المعنى الخفيّ العميق الراسخ في قعر الحياة. وعندئذٍ سيكون جريئاً فيسأل القميص المخطط، بمَ يشعر حين ينام مع امرأة. فينهره: استحِ يا رفيق! سيقول: أنا لم أرَ كيف يكون جسد امرأة عارية، عنقها؟ صدرها؟ ذراعاها؟ بطنها؟ فخذاها؟ حوضها؟ وسطها؟ المطاف الأخير؟ قل لي يا قميص كيف هو؟ مثل أي شيء! هناك احتمال أن توبّخني. موافق. لكن صفه لي مرة واحدة، قل لي أرجوك. لأن، لكل ما تقوله، بعدئذ، اتساع غرفة مرتبة... تسمع؟!

من كتاب السفر

آذار 1959

أضحى نجيب الخميري يؤمن أن زوجته دسّت له (في شرابه، أو في طعامه) «خطّاً» تسبّب في تداعي ذكورته. إلى أن بات عنيناً عاجزاً. وقد حاول أن يرد على «الخط» المخرّب، بتعويذة إنقاذ، فاستعان بحامد الهراس من أجل ذلك، إذْ وصف له ذلك المشعوذ بضع خلطات من النباتات المقوية (اكتشفتُ أن إحداها مستعارة من كتاب رجوع الشيخ إلى صباه) وكتب رقية مثلثة شحنها بالعبارات الملغزة، والأدعية المنقذة. غير أن سعيهما ضاع سدى.

عبثاً كان نجيب يجري محاولاته؛ ففي كل ليلة، يطلب من فؤادة زوجته أن تأتي إلى فراشه، فتندسّ المسكينة حيثُ يشاء، وتحاول أن تستثيره، وتداعبه، دون جدوى.

ولكن لمن تقول؟

فنجيب لم يستطع أن يسوّي الأمر مع ذاته. ولم يقبل أبداً، فكرة أن ما يواجهه ليس أكثر من خمول عابر، لا يحتاج إلا للصبر والتأني، من أجل تجاوزه. ومع أن لديّ فكرة ما (لا أعرف أين قرأتها) عن أن أزمنة القحط تثير الغرائز والرغبات الجنسية (ربما كان هذا وراء سعار القطط في الشّهر

الماضي) فإن الانهيار الزراعي المتواصل منذ سنتين، والشحّ الفاجع في مصادر الدخل، والهلع من الأيام القادمة، يمكن أن يمتصّ غلمة الرجال، ويصيب شهواتهم بالملل، ويحوّلهم إلى خرق بالية متعبة مخذولة.

ولكن أسباب هذا العناء الذي يقضي على قوة نجيب، ما زالت مجهولة لديّ. ولا أحب أن أجتهد في موضوع خاسر، أمام رجل ساخط، حانق يكاد يقتله الغمّ، وهو يجد نفسه مهزوماً في الأرض نفسها، التي كانت منذ أشهر فقط، ملعب خيلائه.

سريعاً بدأت علاقته بزوجته تتدهور؛ ففي كل مرة يرتخي فيها ذكره (وقد توقف في الأسبوع الأخير، من شباط، عن الانتصاب) كان يزداد اقتناعاً بأنها هي السبب. يتأمل ذلك الجسد البارد المسجى قربه، على فراش الزوجية، يتلمسه، ويزداد يقينه رسوخاً (حين يمرِّر راحته على جزئها المشتهى، فيجده جافاً، صامتاً، محتجباً وراء شعيرات مجعدة بائسة) بأنها هي السبب. فيغريه الشك أن يجرّبها من جديد. يتحرش بها. يحاول إيلاج قطعته الناعسة بشدة، في فرجها، دون فائدة. لكن فؤادة لم تعد قادرة على احتمال أي تماس. كان جسدها يرتجف مذعوراً، قرفاً من تلك المجامعات الخاسرة، ومن ذلك التطرف في سلوك نجيب الذي يريد أن يخترقها بأي طريقة، إلى أن صرخت ذات يوم، دون وعي: «حلّ عني! الله ياخذك وياخذه!». كانت صرخةً مهانةً معسورة، جعلها القهر على حافة اليأس. لكن نجيب الخميري، المصاب في رجولته، اعتبر نداءها اعتراضاً، فساداً في أخلاق امرأة متمردة، لا يمكن أن ينجم إلا عن الشبع. وهكذا بدأ يعتقد أنها تخونه مع آخرين (أين؟ وكيف؟ ومع من يمكن لفؤادة، أن تنام في هذه البلدة الخاوية؟). ولم يكن بوسع شخص مثله، أن يفعل شيئاً (وقد بدأت تتسرب إلى السماقيات، جذاذات مما يحدث له) إلا أن يتصرف كرجل، أي كسيِّد، أو صاحب سلطة، وجد أن خادمه، أو مواطنه يخونه، وليس بيده

إلا العقاب! في البداية، بدأ يضربها، ينام في فراشها، ويجري تحرياته، ثم يضربها صارخاً: «قولي مين! قولي مين!»، فتظل صامتة، تغمغم بالأنين، أو تطلق آهة ألم، أو توجّع، إلى أن ينتهي هالكاً على فراشه. ليشتمها، بين دقيقة وأخرى، وقد هجره النوم، وملأت رأسه العفاريت.

والعفاريت نفسها بدأت تؤكد له سلامة رؤيته. وقد اصطفى لنفسه، أكثر تلك الكائنات البهيمية نميمة، كي تحشد له جميع الوقائع المؤشرة، والتفاصيل البرهانية الصغيرة، والتصرفات المريبة، والقرائن الدالة، والآثار المؤكدة على أن شريكته خائنة. فالبرود المخذول، والاستعجال، والخجل، والتأفف المكدر، والهرب الفاجر من الجماع، كانت تشير، دون شك، إلى أنها قد اختارت - كما يفكر - نوماً آخر، مختلفاً عن كل ما يفعله. لكنه في اليوم التالي، يكون قد نسي قليلاً من ترّهاته (ترهات قطعاً) فيستجمع قواه من جديد، طوال النهار، ثم ينقضّ عليها ليلاً، مدمدماً مثل جمل ثائر دون جديد: «آه يا نجيب! العمى يا نجيب! له يا نجيب!». كان يغمغم متأسفاً داخل روحه، قبل أن يستعيد برنامج الضرب من جديد. غير أنها لم تتغيّر. ورفضت كل مرة، أن تدافع عن نفسها، وظلت تكتفي بالتحديق إليه، بصمت كصمت جدار. «ولك أنتِ شو؟ حمارة؟ بقرة؟ أنت شو؟»، إلى أن تمكّنت أخيراً (لا أعرف لمَ تأخرت كل ذلك الوقت) أن تقول له: «مش راح تعرف شي أبداً! سامع؟ مش راح تعرف».

هل يمكن اعتبار إجابتها المتحدية، اعترافاً مواربا بزلّة ما؟ محتمل. لكن فؤادة لا تفعل ذلك. وحين تريدُ أن تختار، سوف تقول لنجيب الخميري: «طلِّقني»، أو تترك البيت، وتمضي إلى حيث إرادتها. أذكر أنها ارتدت ثياب صبي، حين جاءت إلى المدرسة أول مرة لتتعلّم، قالت: «إذا كنتو بتعلّموا الناس لأنهم لابسين بنطلونات.. هذا بنطلون!»، فأدخلتها إلى الصف، وأنا مستعد لخوض معركة من أجل بقائها. لكن المعركة لم

تنشب؛ فقد انضمّت إلى المدرسة، بنتان أخريان، بعد مجيئها بثلاثة أيام. وفي ما بعد، لم يجرؤ ولد واحد على التحرش بها أبداً، لأنها بدت دائماً مثل عاصفة.

نجيب الخميري جنّ، لكنه لم يضربها. ربما لأنه لم يعد، في جسمها، مكان صالح لتجربة مرة جديدة. لكنه اختار «علاجاً» آخر، فحبسها. ولا أحد يعرف، في السماقيات، أنه فعل ذلك. فقد كان يسجنها ليلاً ويفرج عنها نهاراً. ولكنه أفرج عنها منذ ثلاثة أيام. فتح لها الباب العتيق في غرفة الكواير، فرأته مستعداً. اكتفت بهزّ رأسها؛ فاختياره كان الحل الأخير المناسب لإنهاء كل شيء. كان نجيب مسافراً.

«لوين يا نجيب؟» سألت.

فهزّ رأسه بهدوء، رافضاً أن يجيب.

18

تشرين الثاني 1959

التقيا أمام باب الغرفة. ولم تعرف لؤلؤة ما إن كانت أخطأت الحسابات، أم لا. لكنها وجدت نفسها تتسلل إلى هناك، وهي تحمل ذريعتها الخيزرانية الملأى. ها هي ذي ترى وجهه الشاحب المضاء بنور قمر بارد، وضوء مصباح. «مساء الخير» همست، فردَّ بصوت مريض راعش: «مساء النور»، أضاف: «تفضلي!». مدّت رأسها، وراقبت الحجرة. كان الداخل فارغاً، يضيئه نور كهربائي أصفر، متعب. كأنها تراها لأول مرة. وليس فيها سوى حصير قديم، وثلاث فرش وكومة أغطية، وبضع أدوات مبعثرة، وطبق قش، وبابور كاز متّسخ. فجمعت قوتها، وقالت: «جبتلكم عشا!»، ثم دفعت السلة إلى الغرفة، فانبعثت من الجدائل، رائحة بيض وجبن وخبز.

كلاهما تجمّدا على حافة العتبة. وهي لا تجسر على الذهاب (لأنها ستبكي في البيت وتقول: ملعون أبوك يا لولا)، ولا على الدخول. فظلت خرساء صماء، ترتجف وراء سحابة من الابتسامات المصطنعة التي لم تستطع تفاديها. وهو كان يريد أن يقول «شكراً»، ولكن الكلمة اختنقت في حلقه، حين أحس (لا يعرف كيف) أنها ستحمل من المذلة، أكثر مما تحوي من العرفان. قالت: «يمكن الوقت مش مناسب» (في البيت

ستسخر من نفسها أيضاً، لأنها حين جاءت لم تفكر بالساعة، ولا بالوقت المناسب)، وقد سببت لها عبارتها حرجاً أنقص مخزون كلماتها، فلم تجد مفردات تضيفها.

صارا تمثالين. أخذ فيصل يشدّه من كمّ جاكيته، وطلعت ينظر إليه بضراعة، فاستطاع أخيراً أن يعيد الدعوة: «تفضلي»، دون أن يجرؤ على مسّها، فدخلت. جلست على كرسي القش، وقعد كريم على طرف الفراش، طأطأ رأسه، محاولاً إخفاء الضجيج داخل شرايينه. ولاحظ أن نبض وجودها غريب وثقيل، وأن حضوره سقيم وعاجز، إذْ لم يجد كلمة واحدة يدعم بها حضوره. تمنى أن تغادر المكان حالاً. وحين تجرأ، وحدّق إليها، بدت جميلة، سمراء بلون اللوز، زاخرة بجذل عميق لا يعرف كنهه. فجأة فكّت منديلها، وهزّت رأسها هزتين، فانسدل شعرها كثيفاً أسود. كانت حركة صبا خفيفة، لم تدرِ كيف قامت بها. ظهرت صغيرة مثل بنت، فالتصق كريم بالجدار، وقد نخر البرد عظامه، وغمغم بحزن: «اشربي الشاي!». كان صوته ساخطاً مرتعشاً.

كانت أم كلثوم تغني في مكان ما. وكانوا يصفقون لها. أخذ قلب لؤلؤة يدق، وبدت راغبة في ضمّهم جميعاً إلى صدرها. تمنت أن تحتضن فيصل وتقول: «يا سندي». لكنها لم تجرؤ. صارت جبانة وخائبة. فنهضت، وقالت: «تصبحوا على خير»، ثم خرجت راكضة، فاصطدمت بشبح ضخم، أبيض، كبير، خرج من المنعطف. جحظت عيناها وقالت: «بو محمود!».

كان المصباح المنار الذي تجاوز التاسعة مساء، هو الذي جذب صاحب البيت، وقد أحنقه خرق اللوائح. لكن وجود المرأة هنا، خربط الأشياء في عقله، فزمجر: «أنتِ؟!».

ظهوره المفاجئ هزمها، فاختفى صوتها، لم يتعدَّ حدود شفتيها. شلّتها المفاجأة. والسؤال الذي تلا ذلك، كان أكثر هلاكاً، حين نهرها

بقسوة: «شوعَ بتساوي هون؟». الآن بدت الأشياء متساوية. شعرت أن لا أحد في العالم، يملك الحق في معرفة السبب الذي قادها إلى هنا. فأزاحته من طريقها بغضب. «بعِّد!» قالت، ثم انزلقت من ورائه، وقفزت الدرجتين العريضتين، صاعدة نحو الشارع، حيث عبّت الهواء بقوة، ومضت نحو بيتها.

لم يصدّق أبو محمود أنها أحضرت عشاء مريض. وحين رأى فيصل وطلعت خائفين، أكَّد الشبهات، دون أن يكوِّن أي فكرة عن تهمة ما. فدخل إلى الغرفة، وانتزع فيصل من مكانه، ثم شدّ طلعت من أذنه، فانسلَّ الصغيران كشعرة.

كريم ظلَّ صامتاً، ينظر إلى العملاق الذي فسّر صمته بأنه تمثيل صبياني مزوّر، لا يستطيع أن يخدع مؤجراً قديماً خبيراً يعرف الأسرار في سلوك مستأجريه. «شو كنتوعَ بتساوو؟». كان فيصل يريد أن يقول له إنهم كانوا يشربون الشاي، وسوف يتناولون العشاء بعد قليل. لكن لا فائدة من الكلام؛ فقد بدا أن الجزيري لا يبحث عن أجوبة. وقد أذهله أن يكون أحد مستأجريه، ارتكب رذيلة في داره. «العمى!» هدر مغلولاً. صارت أفكاره بلا أفق، قاتمة، تهيمن عليها صورة فاحشة يشغلها بغيٌّ وفاسق فلتان. وضاع بسبب ذلك، قسم كريم المسبوق بكلمة: «صدِّقني!».

«اِخرس ولك!» زعق الجزيري فجأة، وقد مرقت في رأسه ثانية، الصورة الفاسدة للقاء الفتى بالمرأة، فصرخ: «في داري يا كلب؟!»، ثم صفعه بكلّ قوته. لم يستطع كريم أن يتفادى الضربة، فأصابته الكف الغليظة على خدّه. اختلّ وكاد يقع، وظلَّ ذاهلاً، مباغتاً، يتفرج على ما حدث، كأن الصفعة أصابت غيره، فيما حلَّ أبو محمود السلة، ثم أفرغها على الأرض، وعجن محتوياتها بحذائه.

لم يرمِ شيئاً من أغراضهم، إلى الشارع، رغم أن الأولاد ظلوا ساهرين،

قلقين طوال الليل، ينتظرون قرار ترحيلهم المتوقّع. اختفى الجزيري من الممر، كما ظهر. ولولا الآثار المدمرة التي تركها فوق مزق الطعام، والخدر المميت، فوق خدّ كريم، لبدا مجيئه وذهابه، مشهداً تراءى لهم في حلم.

كريم، بدا نصف ميت، ينتقل داخل الغرفة مثل ذئب، وهو يضع كفه على خده، مردداً: «أخ! أخ! أخ!». وما ظنّه فيصل وطلعت استجابات ألم، كان تعبيراً عن إحساس بالخزي. وقد لعن نفسه ألف مرة، وهو يستعيد اللحظة الفالتة، والاستجابة الخائبة. لماذا لم يردّ الصفعة، ولم يقاتل حتى الموت؟

أغمض عينيه في محاولة للهرب، لكن المساحة البرتقالية التي تشغلها في العادة، هوام وأضواء راقصة، امتلأت بجثمان الجزيري المزمجر. لماذا لم يدافع عن كرامته، وعدالة موقفه؟ وكيف يمكنه أن يستعيد المبادرة من نفسه على الأقل؟ فات الأوان، قال، مثلما يحدث كل مرة. كأنما بينه وبين «الأوان» بحر من الغيب، واللحظات الضائعة، وفقدان الاتجاه (ربما سيقول القميص المخطط إن لدى الشيوعيين، أفضليات تجعلهم يتغاضون عن الطارئ لمصلحة الأبدي، وعن الثانوي في سبيل الرئيسي. لكن المعلّم توفيق سيقول إنّ تردّد العدالة، في ردٍّ صفعة، يجعلها عاجزة، في ما بعد، عن ردٍّ الركلات).

الشعور بالعار، منعه من النظر في اتجاه الأعلى. لم يرَ امرأة العلّية وهي تراقبه، ولم يلاحظ الولدين اللذين ظلا مستيقظين، يتابعان جولاته المعذبة.

بعدئذٍ، فكر كثيراً في خطط ردوده، فابتكر عشرات الشراك، ورسم مئة فكرة لمواجهة خصمه، والتغلب عليه، والثأر منه. وحين أوى إلى فراشه، كانت رأسه محشوة بدفتر من الاستعدادات.

وكاد يطرد فيصل، حين رآه يدب نحوه كحرذون، على يديه ورجليه، لولا أنه رأى (في شعاع القمر النازل من زجاج النافذة) ذلك الانكسار

المترع بالمرارة، يرتسم على وجنتي الصبي المذعور الذي يغامر - رغم ذلك - من أجل تقديم لحظة عزاء. فربت على كتفه، وقال: «ولا يهمّك». ارتمى فيصل نحوه، وعانقه، وبكى. «أني آسف». قال: «أني آسف». ضمّه إلى صدره، وقبّل جبينه وشعره. «قلت لا يهمك.. بعدين شو دخلك؟!» قال. لكن العبارة بدت ناقصة، تحتاج إلى رقعة يسدُّ بها الخرق الذي يهلهلها. ومن أجل ذلك، جمع كريم كل ما يستطيع من وعود، ومسح دموع فيصل، وقال: «طيّب يا جزيري... لك يوم!».

لم يكن فيصل يفكر بهذا، وقد بكى في فراشه، عاجزاً عن استيعاب ما حدث. لقد ظنّ أن الصفعة حطمت فكَّ كريم، واقتلعت أسنانه. وحين رآه يحوم أمام الغرفة، ظنّ أنه ينزف، ويعلك لسانه المدمى. لهذا فاجأه التهديد الانتقامي، فاستعاد روحه، ونهض، وقال وهو يرفع قبضته: «إي.. إي!».

لؤلؤة ظلت وراء النافذة، في غرفتها، تراقب كريم، من العتمة. كان قلبها يرتجف، وأطرافها مخدّرة، وقد هدّها الحنق بسبب كل ما حدث. وراحت تدعو على الجزيري، ساخطة مقهورة: «إن شاء الله تموت!» قالت له، ثم أغمضت عينيها وقالت: «سامحني يا رب»، وقعدت كاللبوة، تحرس الممر الذي كان يجول فيه كريم، مقدّرة أن ارتباكه، وخراقة حركاته، وضياع بوصلته (لأنه لم ينظر نحو علّيتها مرة واحدة)، نجم عن المجيء غير المحسوب لأبي محمود، في وقت كان عليهم فيه، أن يكونوا قد أطفؤوا مصباح غرفتهم. «نذل.. بخيل.. بلا قلب.. عظمك أزرق»، صارت تردد الكلمات الموجهة نحو الجزيري، مثل تعويذات، تحاول أن تمنع بها الشر المحتمل الذي يمكن أن يلحق بالأولاد.

الجزيري جلس منكوباً عاجزاً عن تصديق ما رأته عيناه. كيف بدأت هذه العلاقة (الآثمة بالتأكيد) بين مستأجره (بدا له دائماً، مثل خيال، بحضوره العابر، وذهابه الشبحي) وجارته التي وقف إلى جانبها، في

سنوات المحنة، وساندها ضد أنسبائها الجشعين. ولا بدّ أن خطأ ما، في منظومة معارفه، واستقصاءاته، ورقابته، قد وقع. والأمر مرهون بطبيعته، وثقته الزائدة بالبشر، ويقينه من صفاء نواياهم، ومجد مشاعره التي تجعله لا يرى إلا السلوك الظاهري الذي يبديه الناس من جهة، كما أنه متعلّق بالفساد الشامل الذي يطبع الناس من حوله.

وعلى الرغم من أنه استحسن حضوره، وشكر لوائحه التي لم يتنازل عنها أبداً، فإن خاطراً صغيراً، ظلَّ يؤرق تفكيره، ويحملق في وجهه، كل الوقت. وقد نجم عن ظنّه (ظنٌّ فقط) من أن يكون الفاس قد وقع في الرأس. «ولا يمكن! مستحيل!» قال يقنع نفسه. لكنه ظلَّ يحمد الأقدار واللوائح التي شاءت وأد الخطيئة، قبل أن تحدث. وقد آمن بأن سلة الطعام التي دمّرها (ويا رب سامحني) ما كانت سوى رشوة أرملة باحثة عن الإثم والشهوات. لعن النساء في ضميره، وحقد على لؤلؤة، لأنها استطاعت، طوال السنوات الماضية، خداعه، بحيث جعلته يمدح سيرتها، ويبيّض سمعتها. ففي كل مكان حضر فيه، كان يسميها المستورة، كشهادة على حسن سلوك، يمنحها إياه، لقاء حفاظها على فرجها من العيب، في مواجهة رأي عام، يجعل من الأرامل، مسابح يطقطق بها. شعر أنه خِيْنَ، ومُرِّغ في التراب، إذ لن يتمكن بعد اليوم من رفع غطاء الستر الذي حبكه بنفسه، ودثّرها به.

كان ما يزال متكئاً على حافة الحائط المطلّ على علّيتها. من سطح بيته. ولأنه لم يكن موهوباً في المراقبة، وبسبب نقص الخبرة، فقد انكشف بسرعة، حين اضطر لتغيير موقعه، بسبب البرد الليلي الذي اخترق ثيابه. نهض ظاناً أنه غير مرئي. لكنها رأته حتماً؛ فقد أسدلت ستارة الدانتيلا حالاً، واضعة بينه وبين غرفتها، حاجزاً يمنع عنه تفاصيل الرؤية.

ثم فُتن من الحركة ذاتها. صحيح أنها تشير إلى الاعتراض والرفض،

لكن المرأى الظاهري وحده، لم يعد يكفي. وقد خُيِّل إليه أنها ما تزال وراء العتمة، ترصد وجوده، قبالتها. شوّشه هذا الظن في البداية، ثم أرضاه. وقدّر أن امرأة مجرّبة وناضجة وممتلئة، لا يمكن إلا أن تتخفى وراء دانتيلا مخرمة، لتراقب فحلاً تشتهيه. فكر أنها تخلع ثيابها الآن. ربما قد أضحت عارية، ترمقه بعينين مولعتين، يشعلهما الجوع والحرمان. لا شك أنها جائعة وجاهزة. وشعر بالغضب لأنها أخطأت في الاختيار. ولم تأتِ إليه، بدلاً من اللجوء إلى ولد جاهل غشيم. وخامره الأسف لأنه نفّرها من نفسه، بسؤاله الشكّاك الغليظ. «ولكن ماذا أفعل؟» همس يخاطب طيفها: «هكذا خلقني الله، أبغض العكر والفساد، ولا أستطيع أن أتسامح مع انحرافات الناس، وسقطاتهم وخروجهم عن الدين والحق، والأخلاق». ومع ذلك، فإن على الإنسان (خاصة إذا كان صافي النية) أن يحكِّم ضميره في الشؤون التي لا يرى منها سوى قشورها. فالضمير ميزان العدالة، والزعل غول العقل. وغداً يمكنه أن يعتذر إليها حين تأتي للشراء من دكانه. سيعتذر، ويرى.

في الهزيع الأخير من الليل، هزّه عواء طويل متداعٍ غريب، فخرج راكضاً يحمل عصاه. ودار حول البيت، أكثر من مرة، ومضى إلى الحارس الليلي يسأله، فقال إنه لم يرَ شيئاً.

في الصباح، لم تأتِ لؤلؤة. اشترت أغراضها من دكان أبي منصور، في الجانب الآخر من الشارع. ولم تلتفت نحو محلّه، ولو مرة واحدة. لم يستطع الصبر، وخرج من وراء البسطة، ونظر إليها، وهي تنحني، فيلمع ساقاها تحت الخراطة الطويلة. أغمض عينيه، كأنما غشاهما ضوء. ثم غمغم باللعنات، واقتحم دكانه دون صبر، فكاد يوقع الميزان والأثقال. ثم تهالك على كرسيه مقهوراً، خائباً، مردداً في أعماق قلبه (دون أن يتذكر أن أعباءه من التهديدات المبطنة ازدادت كثيراً): «طيّب!... بيفرجها الله يا مَرَة». ثم تبيّن له أنه لم يفِ سخطه حقّه، فأضاف بلا أي ظل من الرأفة: «يا داشرة!».

19

تشرين الثاني 1959

بشفتين راعشتين، ولسان ناشف، قالت خيرية: «لا». غير أنها، تمنّت لو ماتت، قبل أن تواجه عبود الزهر، بهذا الحرف الزهيد الرافض الذي أعلنت فيه أنها لن تعود إلى بيت زوجها، أبداً.

جحظت عينا عبود الصغيرتان الغارقتان تحت مشط من شعر حاجبيه المتهدلين. وقال، وهو يأمل أن تكون لاؤها زفرة قهر مؤقتة، أرادت أن تضعها في مواجهة ابنه حليم. «بترجعي عَ بيتك، ولعند بناتك». كان صادقاً - مع نفسه على الأقل - في نسبة البيت لها، ولابنتيها. وكان مستعداً إذا وضع في اختيار الميراث، أن يكتب تلك الغرفة لهن. وقد فهمت خيرية إشارته، فقالت: «لا ياعمي! أني مالي بيت بها الدنيا كلها». اختنقت بقية الجملة، داخل حلقها، كأنها اكتشفت الآن فقط، أنها لا تملك مكاناً تقيم فيه، سوى المساحة الأخيرة التي سيمنحونها لها، من خشخاشة العائلة. قال عبود، بلا مجاملة: «إذاً ما حدا إلو شي». قالت: «لأ. كل شي بالدنيا ملك إلكُن. والقبر إلنا وإلكُن سوا». فاهتزّ خدّه الأيمن، ونفخ الهواء الذي كاد يخنقه ولفَّ كف يده علامة الحيرة. فالتقرير الذي تعلنه، كان حقيقة بديهيّةً يعرفها الجميع. أما ما يقوله لها - حتى لو كان مدعّماً بجاهزيته لتحدّي

قواعد الإرث، ومخالفة الالتزامات العائلية - فهو ليس أكثر من لفتة تعاطف لا تغيّر شيئاً. وهو يعلم أنّ اعتراض حليم على إجراء متطرف مثل هذا الإجراء الذي يفكر فيه، سيتجاوز اللغة، إلى أفعال مجنونة، لا تردعه عن القيام بها أي قوة، ومع ذلك، فإن حيرته ظلت تأكل عقله؛ إذ لم يستطع أن يتفهم حجم الضغينة التي حملتها خيرية ضد حليم. لماذا؟! بسبب صفعة! وأقصى ما استطاعت أي امرأة أن تواجه به رجلاً، يمدُّ يده إليها، هو الدعاء بكسرها. وغالباً ما كنّ يأخذن مقابل الكلمات، مزيداً من الركلات أو الصفعات، إلا خيرية. «دايماً في شخص بيكون الأول» قالت له.

لم يصدّق أيضاً، أن امرأة طردت نفسها من بيتها الزوجي، تنتج حكمة تبرير حاسمة، مثل هذه، خلال أسبوع. الغريب أن العبارة لم تكن خارقة. لكن صمتها واستخدامها في الوقت المناسب، جعلاها تصل إلى يقينه، سهلة كالماء. لكنه، بدل أن يعلن عن تأييده لزوجة ابنه (وكان في أعماقه يشعر بتعاطف عميق معجب)، قال: «طيّب سامحيه هذه المرة.. المسامح كريم!». وأطرق يفكر، ثم رفع رأسه ونظر إلى عينيها وقال: «الأيام يا بنتي هيي يللي بتحمي»، قالت بنبرة اعتذار: «طيّب، تواسط لي معها، يمكن تقدر تساعدني».

لم يكن لديه جواب على طلبها، ولم يكن مستعداً لتقديم هذه المساعدة، حتى لو استطاع. فَهمُّه أن ينجح في استعادة خيرية. وكان يريدُ أن يقول لها إن عودتها إلى البيت، انتصار لها؛ فحليم أضحى، خلال عشرة أيام، على حافة قرار حاسم، لم يعرف كيف توصل إليه، مع أن شكوكه تذهب باتجاه زرعة الذي ما كان ليسمح لواحد من أتباعه أن يرضخ لأوامر امرأة. عدا أنه ما كان ليقبل لامرأة - أي امرأة - أن تضارع الرجل، أو تكسر كلامه. لهذا، وجد ابنه يرفض التقريع الذي وجّهه إليه، ويعلن عن مهلة لا تزيد عن ثلاثة أيام، يطلّق في نهايتها، المرأة، إذا لم تعد إلى البيت.

كاد يبصق في وجهه، غير أنه سمع نحيباً دفيناً يتسلل إليهما من الداخل، ففطن للبنتين، ولزينب، فقال: «عطيني المهلة لي». قال حليم: «خذها!»، ثم اتكأ على الوسادة بكوعه، وسرح بنظره، إلى المدى الوعري البعيد.

حينئذ، عرف أن ابنه كان قد أعدّ كلَّ شيء؛ فبسبب معرفته الأكيدة بطباع زوجته، قصر مهلة الاسترضاء، بحيث يعجز أبوه، ومن أراد أن يكون وسيطاً من بعده، في إنجاز أي تقدّم، فأقسم أن ينتصر عليه. وكان يأمل أن تسعفه خيرية، بإعلان تحدٍّ معكوس تعود فيه بحمايته وحده، خلافاً لقرار حليم الذي بدا مستعجلاً لتنفيذه. لكن إشاراته، ودعامات موقفه، تخلخلت، واحدة بعد أخرى.

ظلت لديه، وسيلة أخيرة، استخدمها لتلْيين القلب الساخط الذي حجّرته الإهانة في صدرها، فقال: «والبنات يا خيرية، ما لهن غيرك!». فرمقته بعينين تحتشد فيهما الدموع وقالت: «لهن الله يا عمي، ما بيتخلى عنهن». زفر نفاية صدره، وشعر أن فمه امتلأ برائحة عطن، ونهض، وقال: «بخاطرك!». فهمست، وهي تكاد تختنق: «الله معك!».

كانت مؤمنة به أكثر من إيمانها بأبيها نفسه، فحامد النخيل بدا دائماً مغلّفاً بجدار من العزلة، والصمت، منع عنها وعن أخواتها، أي ضوء أبويّ. كان سخياً في كل شيء، يستميت من أجل أن يوفّر حاجات البيت، وقد منع أولاده من السفر إلى لبنان، من أجل العمل، ليكدح هو هنا، بدأب يومي، لكن دون أن يتنازل مرة واحدة، لتقديم قبلة لولد، أو عناقٍ لشاب، أو كلمة ناعمة لفتاة من بين بناته. بعكس عبود الزهر الذي كان سياج مشاعر، ينضح عواطفه بكرم بئر. وكان لديه معجم من الكلمات المصطفاة التي يردّ بها على ابنيه أو كنّته أو ابنته أو حفيديه.

أول مرة – كما تذكر – نادته: «يا عمّي!»، أجاب: «نعم، يا روح عمِّك!». كانت ما تزال عروساً، لا يزيدُ عمرها عن سبعة عشر عاماً. ولم تكن سمعت

هذه الكلمة من أب؛ فبدأت تنتحب، وعبود الزهر يقول: «خير عمّي؟! خير؟!»، دون أن يدرك أنّ حواف كلمته جرحت روح خيرية الغضة، الطرية، القادمة من جفاف العواطف. ولم تكن هي أكثر قرباً من المعنى؛ فما دام نحيبها أكثر من دقيقة. ومسحت دموعها، وهي تطفح بالبشرِ، وقالت: «تعال! كول!». فلملم آخر أدوات الحلاقة في الحقيبة الجلدية المستطيلة، واقترب منها وقال، وهو يمسح بيده، على شعرها: «قد هيك أثّرت فيك كلمتي؟». فوضعت كفّها فوق كفّه، وثبتتها إلى شعرها، وقالت بصوت رفيق: «ولمسة إيدك كمان يا عمّي».

كانت صادقة. فقد سرى شعور غريب لم تجرِّبه من قبل أيضاً، في روحها. وعمّت جسدها رعشةُ بنوّة عميقة، بهرتها وغمرتها بلفاع من الإشراق الخارق الذي أضاء ما حولها، وخامرتها السعادة من جديد، حين فكرت أن الحياة بدأت تنصفها.

كان حليم حينئذ، في الثانية والعشرين من عمره. ولم تعرف أي شيء عنه. وقد خطبا، وتزوجا، دون أن يلتقيا أكثر من مرتين. مالت إليه في الثانية منهما. لم تعد تذكر السبب. ولكن إحساساً بالظمأ أو بالتوتر العذب، انبعث في جسدها، وهي تشم رائحة الرجل الغريبة التي بخّرها داخل المكان. الأمر الجديد الذي لم تفهمه هو ذلك الدخول السريع بها ليلة العرس. وقد أذهلتها الطقوس التمثيلية التي أصرّ أن ينفذها: فقد وضع المصباح على طاولة تجاور فراشها، ثم دسّ وسادة صوفية قاسية تحت ظهرها، فارتفع حوضها كله، ووسع فخذيها، وركع بينهما، وهمس مرتجفاً: «لا تخافي!».

كانت ذاهلة، تتفرج على العرض المضطرب الذي ينفّذه حليم، بحذر تلميذ. لكنها لم تستطع كتم الصرخة العليلة التي ندّت عن جسدها المتألم، الذي فاجأه الإيلاج السريع الضارب في وسطها. غمغم بقسوة:

«اخرسي!»، فجحظت عيناها هلعاً من تغيُّره المباغت، وشعرت بخجل فظيع من ذلك الابتهاج الفضائحي الذي أعقب خروجه من الغرفة، حاملاً الشرشف الذي تلقى قطرات دمها. سمعت زغاريد، تصفيقاً، لغط تحيات، «براڤو! يا سبع! حيّاك!»، وفي ما بعد، أخبرها أن ذلك التشجيع، لم يكن للشرشف، بل لأنه أنجز مهمة الدخول، في زمن ضئيل، لم يسبقه إليه، أيُّ شاب.

لم تكن تعلم أن الواجب يقتضي تمجيد فحولته، فقالت: «بس وجعتني» فقطب، وقال: «شو كنت مفكّرة بدنا نروح عَ نزهة؟!». «لأ» ردّت بأسى، ثم أضافت: «إذا بتريد الصراحة، كنت مفكرة إني بدي انبسط!»، فردّ بحنق: «سكّري بوزك!» ثم خرج، وخبط الباب وراءه، بعنف.

وفي الليل، أمرها ألا تتحرك أثناء الجماع، وأنهى عمله مسرعاً حانقاً، ثم ضاجعها في الليلة التالية. كانت مستثارة، وقد زاد التصاقه بها وولوجه فيها، من رغبتها، فجازفت بالإفصاح عن لذّتها. لم تعرف أن ذلك، كان ممنوعاً إلا حين نهرها. «بس! هس!» قال وهو يغلق فمها بكفّه: «بدّك تشرشحينا؟». «ليش؟» قالت ببراءة الجاهل. فأوقف عمله، وأعاد تقليد لهجتها: «ليش؟»، ثم: «شو ما بتفهمي؟ مبارح بدّك تنبسطي، واليوم بدك تصيحي، مش ناقص غير تزغردي»، فقالت: «إي! شو فيها؟»، عندئذٍ صرخ: «كيف يعني؟ كيف يعني؟». لكنها كانت تناكده، ولم يكن ممكناً قط، كما دلّتها فطرتها، أن يسمع أحد في الخارج، لهاث المضاجعة وحده، فضلاً عن سماع آهاتها.

وقد كادت تندم (على الرغم من أن أحداً لم يستشرها في الزواج) لولا تلك اللفتة الرحيمة التي أبداها عبود الزهر. فظنّت أن الحنان يورّث كالشجر، والتراب (وهذا ما سمعته ذات يوم، من أمها، وهي تضع معايير الطباع في البلد، وفقاً للنسب العائلي للناس)، فانتظرت أن ترى حليم

يبدي لطفاً موروثاً شبيهاً بأبيه، لكنه بدا معطوباً بلا عاطفة. وسرعان ما صار الجسد الذي جهر بالبراعة، ليلة العرس، فاتراً محنطاً، يفرّ من الفراش، بذرائع ركيكة، من طراز آلام الظهر أو وعكات البطن، أو صداع الرأس.

وقد أمضت أياماً كثيرة وشهوراً، وهي تفكر في ردم الهوة التي كانت تنفغر بينهما. ماذا حدث؟ كانت تسأل نفسها، وقد قضت أكثر من شهرين، دون أن ينام في فراشها. كان عبود الزهر يسأل خلالهما، كلما رآها: «ها؟ شو؟ وصّيتولنا عَ ولد؟»، فتجيب: «الله كريم». كانت مقهورة، وكظمت غيظها داخل لحمها، وشتمت حليم في سرها: «ليش يا نذل! أني شو؟». ثم انزلقت إلى فراشه عارية ذات ليلة. كان ساهراً عند فواز الخضرا، ولم ينتبه لما فعلته، إلا حين صار تحت اللحاف، فلم تمهله. أمسكت ذكره بقبضة يدها، فانتصب، باندفاعة نزقة عجلى، همست له بحب: «مش حرام عليك؟». ورأت ظل ابتسامة، داخل العتمة البيضاء. غمغمت بفرح: «الحمد لله!».

لكنه سبّها في الصباح: «يا نجسة! يا وسخة! ليش عملت هيك؟». حدجته بنظرات حائرة، معذبة. ثم رأته يغتسل ثلاث مرات. فكّرت: هل كانت تلك هي تعليمات الشيخ زرعة؟ أم هي مجرد غواية استحوذت عليه، بسبب صلته بتعاليمه؟

حليم أخذ يغرق في القراءات. وكان في كل مرة يغيب فيها (وصارت غياباته تطول لأكثر من ثلاثة أيام أو أربعة) يحضر كتاباً مجلداً منقوشاً بماء الذهب. يقبّله كلما أراد أن يقرأ، ثم يقبّله ثانية حين ينهي القراءة، ويدسّه في جراب قماشي أحمر اللون، ويرقد ساكناً محدّقاً في السقف، يتمتم بالأدعية.

الغريب أن جماعهما المسروق أنتج بطناً صغيرة. والغريب أكثر، أن حليم تبدّل منذ أن رأى ذلك الانتفاخ المكوّر الذي ملأ فستانها. وبِدون أن يضاجعها خلال خمسة أشهر، ثابر على اجتهاده الأُخروي، ووجومه

العاطفي. ومرة واحدة سأل عن موعد الولادة. كانت في شهرها، فقالت: «عن قريب». قال: «خير إن شاء الله» بلهجة محايدة، مَشُوبةٍ برائحة قعوده الطويل. وانخرط في صمته المدبّر بالانتظار.

المفاجأة كانت حين عرف جنس وليدها الأول؛ فقد رفض أن يقبّل البنت، ونظر إلى خيرية باشمئزاز، وقال: «حبلتِ تسع شهور منشان تجيبي بنت؟».

كان لديها عقد من الإجابات، لكن سؤاله المفاجئ الذي انتزعها من بريق الولادة الأولى، صعقها. فكّرت أن تحتجّ أو تلوم أو تعاتب (وكانت راغبة في صبي أيضاً)، لكنها وجدت نفسها، بدل ذلك، تردّ إليه، تأنيبه المخجل. فقالت: «هذا زرعك!» مستعيدة مثل أمها الذي كانت تستخدمه للرد على تخرصات الرجال الذين يسخطون، بسبب إنجاب البنات. فشزرها ببغضاء، وقال: «والله لو ما كنتِ نَفَسَة لكسرت أسنانك!». كانت قشرة وجهه لحاء قاتماً بلون الجوز، فارتعدت أطرافها دون إرادة، وخفضت عينيها، هاربة من رماد عينيه.

أنقذها عبود الزهر (بعد ذلك بساعة). كانت مباغتة بكل شيء. وبدا لها كأنها تطفو على سطح عكر عاتم يغلق كل المنافذ، وبدأت تشعر بالحمّى، ونزَّ عرق حار مشبع برائحة الثوم (وهو طعام النفساء الذي كانت زينب تطبخه لها) من مسامّ جسدها كله، ثم سمعت قرعاً خفيفاً على الباب. «مين؟» هتفت بصوت مرتجف، فسمعت صوته يستأذن بالدخول. ظنّت أن الله هو الذي أرسله. ولم تستطع أن تضبط انفعالها بقدومه النبوي، فبكت بكاء عليلاً مشبعاً بالشكوى والكرب.

لم يقل شيئاً. ظلَّ راكعاً قرب فراش حفيدته، ينظر إليها، أو يربّت على رأس خيرية مرّة، أو كتفها أو يدها، إلى أن رفعت وجهها نحوه، وقالت: «إذا كنت بتعرف ابنك هيك. ليش خطبتني إلو؟ ليش؟»، فرأت (لن تنسى ذلك

المشهد أبداً) كيف أغمض عينيه، وضغط على أسنانه، وارتعشت يداه، ثم قال بصوت واهن مختلط بنبرات الأسف: «ما كان هيك يا بنتي. اصبري! اصبري يمكن الله يهديه»، فراحت تبكي، وتضحك هازئة: «المصيبة يا عمّي إنو عَ بيقول هذا كله من عند الله». «كذّاب» قال عبود: «الله خلق الناس منشان يعيشوا، ويتركوا غيرهم يعيشوا».

إيمانها به، ووجوده المتعاطف إلى جانبها، بدّدا الكثير من ضغوط حليم عليها، ومنحاها القوة في ما بعد، لتتمنع ضد محاولات زوجها للنوم معها، متى أراد. لكنها الآن، خسرت عبود أيضاً. والمعذّب أنها لم تجد في السماقيات من يساندها. بدا كأنما الجميع انحازوا ضدها؛ إذ كان موقفها - كما قالت لها لوزية - مخالفة مكلفة جداً لكل التقاليد. وقد رأوا جميعاً أنه لا يمكن تهديم بيت، وتشريد بنتين صغيرتين، بسبب صفعة صغيرة، أو صفعتين، تتلقاهما امرأة من زوجها. وما فجعها أكثر من ذلك، أن أشدّ التحيّزات عنفاً أتت من النساء اللواتي جئن من أجل إقناعها بالعودة إلى بيتها.

جميعهن - باستثناء لوزية - أضفين على حليم صفات الورع والكمال والانضباط النموذجي لرجل عائلة. «أحسن بنت بتتمنّاه» قالت صفصافة وغازية وخولة زوجة لقمان. بدت العبارة المكررة، مثقلة بعجرفة فارغة، في نظرها. فكانت ترد كل مرة، متحدية منطق النساء المخدوعات، كما فكرت: «يجوز»، ثم تضيف: «لكن شو النفع؟ إذا كان ما بيحبني». كانت تظن أن ذكر الحب، كافٍ لزعزعة الأقوال والمواقف التي تنجرّ إليها هؤلاء النسوة. إضافة إلى ما يشبه اليقين، بأن حليم قد نجح، وهي غافلة، في جعل الناس يقولون ما يريد أن يقال عنه، فطعّم نفسه بجميع المواصفات اللازمة لحضور إيماني غاوٍ، ليس سوى كلمات الله.

أرادت أن تقول لهن: «حليم عَ بيغشّكم. أني غشّني من قبل. فكرت

إنو مليان، لكنو طلع فاضي... ويا ريتكم تشوفوه من جوّا.. لا الأفضل ما تشوفوه، لأنو مافي غير الهمّ والغمّ والخوف والعيب واللعنات على كل البشر». غير أنها فضّلت أن تصمت. «شو النفع؟» قالت هذه المرة للوزية: «إذا كانوا جايين ليقولوا لي إني مجرمة. خلص، حاكموني وحكموا علي، وبدهم يرجعوني، بس منشان حليم، ومنشان البنات، أمّا أني ولا شي».

لوزية وحدها، وقفت إلى جانبها. كان رأيها أن استخذاء النساء وحده، هو الذي جعل حبال الرجال تطول، فسطوا دائماً على حرماتهنّ أيضاً، وأملاكهنّ، وحقوقهنّ، وتفكيرهنّ، وأمنياتهن أيضاً. شتمت صفصافة، وخولة زوجة لقمان، التي ظلت تدافع عن زلّات زوجها، قائلة إن عيبه رأس حذائه. «كيف يعني؟» هتفت لوزية بحنق. فقالت خيرية إن حليم لا يمكن مقارنته بلقمان أبداً. وفهمت لوزية أنها تشير إلى عفافه، فقالت: «صحيح! وأني ما قلت هيك أبداً. لكن تصوّري كل شيء بالمقلوب، وشوفي شو عَ بيصير. تصوّري إنك ضربت حليم على وجهه كفّ أو كفّين، يعني مَرَةَ عَ بتضرب زلمي». فضحكت خيرية، وابتسمت لوزية. «شايفة؟ شي بيضحّك» ثم تنهدت، وقالت: «بتعرفي يا بنت؟ إذا ظليتِ هيك بتكوني ضربت كل زلمة بالسماقيات كفّ على وجهه. ولك صاروا مثل المجانين، ما حدا فيهم مصدّق. وهذا عمار الشوفير الكلب عَ بيقول: «عشنا وشفنا!» شو شاف؟ مَرَة رافعة رأسها؟ خليكِ هيك! دخلك!». فبدأت خيرية تنتحب، وعانقتها. قالت لوزية: «شو؟ رجعت تبكي!»، فمسحت خيرية دموعها، وقالت: «فرحانة فيك».

راقبت عبود الزهر الآن، من النافذة. كان يرحل، متعباً ومنحنياً على ما تبقى من سنيه. تمنت أن يلتفت نحوها مرة واحدة. كانت تريد أن تحيّيه، لكنه لم يفعل. مضى باتجاه تلال الغربان، وحيداً، نافراً، يضع يديه خلف ظهره.

الفتاة والزورق

قصة: فيصل الخضرا

طلبت الغيمة أن نغني لها لكي تمطر، فصنعنا أم الغيث من الخشب، ووضعنا عليها ثياباً جميلة جئنا بها من بيوتنا، فأحضر سامي عجيب قميصاً، وأحضر طارق الزهر طاقية، وأحضر حسين أبو بطن بنطلوناً، وأحضرت أنا جاكيتاً، وأحضر أبو قرعة خرقاً ملونة من عند أمه، وأحضرت وجهاً جميلاً لأم الغيث ويدين رقيقتين، ورجلين طويلتين، ثم حملناها وصرنا ندور بها في السماقيات، ونحن نغني: يا أم الغيث غيثينا، بحياة شبك تعطينا! ومررنا على البيوت واحداً واحداً، فصارت النساء تعطينا الملبّس، والبنات ترش علينا حفنات قمح، فنضحك كلنا، ونأكل الحلويات، وندق على التنك الفارغ، ونواصل الغناء، وكان اليوم هو الجمعة، وكان الوقت بعد الظهر، ونسينا حالنا، لأننا كنا مبسوطين جداً، حتى غابت الشمس ولم نشعر بذلك. وكان الأولاد الكبار سريعين، وكانوا يسبقوننا دائماً، ونقول لهم: انتظرونا، فلا ينتظرون، وعندما غابت الشمس جاءت نجوى الزهر وأمسكت قميصي، فقلت لها: لماذا تمسكين قميصي؟ فقالت إنها خائفة. وكانت تخاف من الليل وتخاف من أبيها، فقلت لها: لا تخافي. أنا لا أخاف. فأمسكت بيدي، وقالت: أنا خائفة. وصار قلبي يدق كثيراً، لأن يدها ناعمة جداً، وعرقانة، وساخنة، فقلت لها: تعالي نلحق الأولاد،

ونغني معهم، فلا نخاف. فقالت: تعال أنت معي إلى البيت، فرجعت معها، ثم جلسنا عند زاوية بيت رباح الأكتع، فقرّبت نجوى جسمها من جسمي، ثم قرصت خدي وباستني على فمي، وكان لأسنانها طعم الصابون، ثم أدخلت لسانها في حلقي، وصرت ألوّح في يدي، فتركتني وقالت: ما بك؟ فقلت لها إنني سأختنق، فضحكت وقالت لي: يا غشيم! يا حمار! وبدأت تمسد شعري بيدها، فشعرت بالفرح، وقلت لنفسي: إنني أحب نجوى، ثم قلت لها: أحبك يا نجوى! فبدأت تبكي، وقالت لي: تحبك العافية! وقالت إنها لم تسمع هذه الكلمة طوال حياتها، وباستني على خدي، وقالت: تقبرني. وكانت نجوى تعيش وحيدة مع أبيها، كانت أمها مسافرة، وكان أبوها قد تزوج امرأة قاسية وظالمة، وكانت تجبر نجوى على الاستيقاظ عند الفجر، وتقول لها: هيا اذهبي لإحضار الماء من البئر، فتقول لها نجوى: إنني أخاف يا خالتي. فتضربها زوجة أبيها وتشدها من شعرها، وتقول لها: انقبري! وذات يوم لاقاها أسعد الحربي، وهو شاب شرير، فجرّها من يدها، وأخذها إلى الوادي، ووضع يده على فمها، وتزوجها، ولكنه لم يتزوجها، فجاءت هي وقالت له: لماذا تزوجتني عند الفجر، ولا تريد أن تتزوجني في النهار، ونعمل عرساً ويغني لنا الناس؟ فضربها على وجهها وقال: أنت كاذبة، وقال إنه سيفضحها إذا كررت هذا الكلام، وجاءت زوجة أبيها وضربتها، وقصت شعرها، وصارت نجوى تبكي كثيراً، وبكت على حضني. فقلت لها: قولي لي ماذا أفعل كي أساعدك؟ فقالت إنها تشتاق لأمها، وتتمنى أن تذهب إليها، ولكن لا أحد يأخذها إلى أمها، فقلت لها: ماذا نفعل؟ قالت إنها تتمنى أن يأتي النهر، ونصنع زورقاً ونذهب به إلى البحر، لأن أمها بجانب البحر، ولأن الأنهار تذهب إلى البحر. فقلت لها: انتظريني. وذهبنا إلى الغيمة وقلت لها: لقد غنينا لك فلماذا لا تمطرين؟ ألا تحبين نجوى؟ فقالت إنها تحب الأطفال كلهم،

ولكن ليس لديها ماء، ولم يعطها البحر أي ماء، فذهبت إلى البحر، وقلت له: لماذا لم تعطِ الغيمة ماء؟ فقال إن الحق على الشمس. لأنها بخلت عليه هذه السنة بالحرارة، فذهبت إلى الشمس، وقلت لها: لماذا لم ترسلي أشعتك الحارة إلى البحر، ليتبخر ماءه، ويذهب إلى الغيمة، كي تحمله وتمطر فوق السماقيات؟ فقالت الشمس: اسأل البرد، فهو الذي يظل يحوم حولي طوال الوقت، ويضيع حرارتي، ويجعل أشعتي باهتة. فذهبت إلى البرد وقلت له: ما بك؟ ماذا تفعل؟ وكان يبني رماحاً صاعدة ونازلة، وثلجاً. فقال: أحاول أن أحمي نفسي من النار التي شبّت في العام الماضي في الغابة وجعلتني أرتجف وأفر بعيداً عن موطني هنا، وأذهب إلى أعالي الجبال. فذهبت إلى النار وقلت لها: لماذا تفعلين ذلك مع البرد؟ وقد انتقم منا نحن البشر. فقالت: أنا أحبكم أيها البشر، ولكنكم تطفئون شعلتي بالماء، وأنا أكره الماء كثيراً، وقلبي يرتجف ويمتلئ بالقشعريرة إذا جاءت. فقلت لها: لماذا لا تختبئين؟ فقالت: كيف أختبئ؟ فقلت لها: أنا لا أستطيع أن أخبئك. فقالت: أين يمكن أن أختبئ من الماء؟ فقلت لها إني سأخبئها في حجر صغير، وأضعها وراء دولاب مسنن، وأحفظ ذلك في آلة صغيرة اسمها القداحة، ففرحت كثيراً. فقلت لها إنني سأسمح لها بالخروج عندما يأتي البرد. سوف تكون سعيدة داخل بيت من حديد. فقالت: أنا أحب الحديد، فقلت لها إنني سأغلق باب الحديد عليها كي لا يأتي الماء، فقالت: ولكني سأصبح سجينة، وأنا أكره السجون، وأنتم البشر تحبون أن تضعوا بعضكم فيها، فقلت لها إننا نسكن البيوت، وهي ضرورية لنا، فقالت إن البيوت مثل السجون، ولكن المفتاح يكون معكم. قلت لها: لا، إنهم يضعون النار في السجون، وإنهم يضعون البرد هناك، ففرحت النار وقالت: أنا أحب البيوت وأكره البرد والسجون. وقبلت كلامي وقالت: خذني إلى القداحة، وخذني إلى البيوت، فأحضرتها معي، وأعطيتها لأمي،

وقلت لها: تستطيعين أن تشعلي القصل والجلة متى تشائين. ثم وضعناها داخل المدفأة، وتدفأنا عليها. فذهبت إلى الغيمة وقلت لها: أمطري الآن فقد غنينا لك كثيراً، وأبعدت النار عنك. فنادت رفيقاتها الغيمات، وقالت: خذنا إلى السماقيات. فأخذت الغيمات إلى هناك، ونزل المطر، نزل مطر كثير وغزير، وسالت السواقي والجداول أولاً، وفرحت الشمس، فوسّعت لها الغيمات فتحة صغيرة لترسل للأولاد قوس قزح، ففرحنا كلنا بذلك، وغنينا، وجاء النهر مسرعاً. وملأ الماء كل شيء، فذهبنا أنا ونجوى إلى النجار أبي حسن، وقلنا له: اصنع لنا زورقاً! فقال: على راسي. لأنكم تستاهلون. وكان يعلم أنني تكلمت مع الغيوم، وأنني صديق المطر، فصنع لنا زورقاً طويلاً وجميلاً، ثم جاء الدهان حسين، ودهن الزورق بألوان قوس قزح، وأعطانا الدكنجي نخلة طحيناً وحلاوة. وخبزت لنا أمي خبزاً رائعاً، وأعطتنا ثياباً. وجاءت صفصافة ودعت لنا بالتوفيق، وقالت إنها رأت في المنام أم نجوى وكانت تفتح ذراعيها، وجاء الأولاد وشجعونا، فركبنا الزورق بسرعة قبل أن تأتي زوجة أبي نجوى الظالمة. وغنى لنا الأولاد، فانطلق الزورق مسرعاً في النهر، وكان الماء سعيداً جداً، يرقص حولنا من كل الجهات، ويأخذنا إلى البحر الواسع.

من كتاب السفر

آذار 1959

رحل أولاد الطاهي أيضاً. فبعد موت أمّهم، لم يبقَ لهم ما يتمسّكون به في السماقيات. وقد خسروا كل شيء؛ فالأرض التي كانوا يملكونها في الجورة، جهة الشمال، قد اضطروا لبيعها كلّها، على الرغم من أنها لم تمنحهم أكثر من بضع مئات من الليرات، تبدّدت وضاعت، في ركضهم المحموم من أجل تأمين الطبابة والدواء لوالدتهم. باعوا أشياء البيت أيضاً: سجّادة عجميّة إيرانية جلبها أبوهم معه، من تل كوجك، في أقصى الشمال السوري. مرآة شامية بطول قامة رجل، مؤطّرةً بخشب جوز مصدّف. صندوق عرس أسود اللون، ملمّعاً بدهان الزيت. راديو «سيرا» خشبياً بشاشة قماشية، ومسطرة محطّات صفراء، ومؤشّر أحمر. عدّة الحراثة. بساطَين مزركشين تتوسّط كلاً منهما بحيرة زرقاء. ولكن المرض كان يقضم جسد المرأة، ويلتهم في طريقه رزقهم، قطعةً بعد قطعة.

المدهش أنني لم أرَ واحداً منهم يشكو أو يئنّ. كان شيء ما من إيمان الأنبياء وصبرهم، يتغلغل في كيانهم ووجدانهم، ناجم عن تعلّقهم بهذه المخلوقة الضعيفة العاجزة التي تتفرّس في وجوههم، طوال النهار، بعينين لا يعرف المرء ما إذا كانتا تضرعان، أم تشكران.

أكبرهم هو أحمد. وقد كان دائماً يظهر أعْجرَ، قابلاً للكسر، ليّناً ورقيقاً لا يقوى على اتخاذ موقف. وإذ به يتبدل فجأة بعد مرض أمه. صار رجلاً، وأقدم على اتخاذ خطوة غريبة لم أفهمها. فتخلّى عن خطيبته. ربما كان يعتقد أن إشرافه على أمّه - في ظل غياب الإناث من البيت - يتطلّب منه أن يرهن حياته لها. لا أعرف كيف تسرّبت، إلى رأسه، الفكرة بأن وجود امرأة أخرى يتسبب في اضطراب عاطفته.

خسارة. لكن أحمد الطاهي فرض على شقيقيه الصغيرين، منطق عواطفه، فانصرفا هما أيضاً عن النساء، منذ الشباب. كان شاغلهما الوحيد هو تلك المرأة القابعة في الغرفة القبلية، من دارهم العالية. كيف يمكن التفتيش في أزقّة النفس؟ أحسب أن في تلك المرأة شيئاً من السحر، أو من قوة الجذب والأنثوية، التي تجعل أبناءها يرون فيها أكثر من أمّ. صارت في نظرهم رمزاً، امرأة خالصة مدبّرة من فكرة. فـ«وَزْنة» (وهذا هو اسم أم أحمد)، التي ترمّلت من بداية شبابها، رفضت جميع عروض الزواج التي تقدّم بها شبان السماقيات، ومن المنارة، ومن وادي الحفاير. كان جمالها الباهر يشدّ كل من يراها. كانت تجعل أي رجل يرتعد، ويصاب بالخبل، حين تتحدث أو تضحك. وحين تضحك، تظهر أسنانها البيضاء، المصفوفة بعناية ربّانيّة. وتشوب صوتها رنّة شهويّة. وكل من تقدّم لطلب يدها، كانت تشغله فكرة عجيبة جداً، هي أنه من الصعب (وبعضهم كان يقول إن من المستحيل)، تركِ امرأة مثلها في الفراغ. كانت العبارة غامضة، ولكنها تعني، في عرف الرجال، أن كل واحد منهم يفكر بأنه عاجز عن تقبُّل فكرة ذهابها إلى غيره. وقد فشلت جميع الوساطات التي أُرسلت إلى أهلها الذين ضغطوا عليها، بجميع الوسائل، لقبول أحد عروض الزواج. وبضمن ذلك، تهديدها بإعادة أولادها إلى رعاية أهل زوجها. ولا شك أن ذعرهم من جمالها المنذر، ولهفة طالبي يدها، إضافة إلى عدم رغبتهم في تربية أبناء عائلة أخرى،

كانت وراء ذلك الموقف. ولكي تصمد أكثر، في متراسها، راحت تخفي جمالها بأي وسيلة. توقفت عن العناية ببشرتها، ولفّت وجهها - دائماً - بمنديل أسود، وأهملت ملابسها، وامتنعت عن حضور الأعراس، وراحت تزرع قطع الأرض الثلاث التي كان يملكها زوجها، منكبّة على سنابلها، يحيط بها أبناؤها.

ومنذ ذلك الوقت، قلت في نفسي، إن في هذه المرأة، قوة روحية راسخة، بقدر ما فيها من إغراء أنثويّ جاذب. وقد انتصرت الروح فيها. وبهذه الطريقة اختفت وزنة من سِيَر الرجال، كامرأة فراش، واحتفظت بوجودها، كأمّ. ويوماً بعد يوم، بدأت السماقيات تحوّلها إلى ذكرى. ثم أخذت تزهد بها. وسرعان (وهذه السرعة استغرقت عامين) ما بدأت تنساها، مع أننا بقينا نسمع، بين فينة وأخرى، رجلاً يتحسّر أو يتنهّد، متأسّفاً على خسارة ذلك الجسد المخلوق وفق أفضل الهبات الإلهيّة. لكن تلك الحسرات كانت تختلط بقدر من الحقد، سببه - كما أقدّر - عجز أولئك الرجال عن تصوّر وجود امرأة قادرة على الاستغناء عن مضاجعتهم.

النساء كرهنها أيضاً. في البداية، أخافهنّ جمالها الاستثنائي الذائع الذي شغل عقول الرجال، في وقت كان فيه معظمهنّ لا يخفينَ إعجابهنّ بها. وقد باتت سيرتها، في إحدى المراحل، جزءاً من التكتيكات الذكورية التي يتّبعها كثير من الرجال، من أجل إثارة غيرة نسائهم، أو من أجل التباهي بقدرتهم على استمالة الأرملة الفتية المحتاجة. غير أن انكفاءها، لم ينقذها من ألسنتهن. وقد افترضت الغيورات أن رفض وَزْنة المتكرر للخطّاب، لم يكن سوى تأمّل وحساب، بانتظار مجيء الفرصة. ولا أحد في العادة، يرفض الفرص. الفرص نوافذ الصبر. الفرص هي البراعم الخضراء التي تعقب صيف العمر أو خريفه. ولم يرتخْن أبداً عقب ذلك، إلى حين عرفت السماقيات أن وزنة مريضة.

المدهش أيضاً، أنها تمكنت، في البداية، من إخفاء مرضها؛ فكانت تردُّ نحولها المتراكم إلى الشغل والهمّ، وتعب الحياة. وقد ساعد حملها الثقيل في ضمان الأسباب لاقتناع الآخرين. ولكن المرض - الذي كان يتفاقم يوماً بعد يوم - لم يعد يخفي نفسه؛ فظهرت أول أعراضه في رجلها اليسرى. حين بدأت تعرج عرجاً مربكاً، حاولت أن تضيّعه. لكنه ما لبث أن ازداد أكثر، مع زيادة الألم في ركبتها. ثم انتقل الألم إلى ركبتها اليمنى. واضطرت هي، أن تقول إنه «العصبي» وهي أعراض الروماتيزم الذي انتقل، بعد ذلك، إلى جميع مفاصلها: المعصم، الكوع، الكتف الخلفي، والكاحل، وعقد الأصابع.

صرعها المرض أخيراً، فرقدت في الفراش بلا حول. ومنذ ذلك الوقت، أمسك أحمد بالدفّة (كان في السابعة عشرة من عمره) ثم بدأ شقيقاه يساعدانه. ظهروا مثل بحّارة بالفعل، وخاضوا بحر الحياة بجدارة فتيان. لقد عرفت تلك المرأة كيف تنشئهم وتوجّه خرائطهم، سواء حين كانت صحيحة، أو حين هوت.

عقلها ظلَّ سليماً، ولسانها بقي قوياً، فكانت تدلّهم على مواعيد الحراثة، وأوقات البذار، والتعشيب والحصاد وأماكن زراعة أنواع الحبوب، وكيف يدرسونها، ويذرونها، ويبيعون المحصول.

لكنّ كل ما كانوا ينتجونه، لم يعد يكفي طبابات العلاج. وفي كل شهر، كنا نرى أحدهم يحمل الوالدة على ظهره، برفقة أخويه، إلى المنارة، أو إلى سيارة عمار التوت (بعد أن صارت ملكاً له) متجهين إلى السويداء. وإذا اضطروا أن يدخلوها المشفى، فإنهم يظلّون هناك. يبقى أحدهم قربها، ويلجأ الآخرون إلى ظلال الأشجار في الصيف، أو إلى الأركان الدافئة، بعيداً عن البرد، في الشتاء، حين تزداد أزماتهم.

لكن وزنة ماتت الآن. ووجد أولاد الطاهي أنفسهم وحيدين، مكشوفين، تحت قبّة قرية، لم تُكنّ لهم أيّ ودّ، فرحلوا.

عجيب!!

آذار 1959

أخيراً رحل نواف بن سلمان شمس أيضاً، تاركاً أمّه وشقيقتيه. أكتب «أخيراً» لأن سلمان الأب عاش طوال أكثر من خمسة عشر عاماً، أيْ منذ سنة 1942، مسمّماً بالخوف من أن يُقتل. ففي تلك السنة، قتل هو نفسه، شريكه تركي أبو هبوب، بسبب نزاع صغير حول ملكية جمل. كانا يصفّيان الشراكة، وقد أنجزا كل شيء بمودّة، إلى أن قال تركي: «الجمل الرمادي لي!». قال سلمان: «لا والله». «كيف يعني؟ هذا اتفاقنا»، ردَّ تركي بحماس. «لا والله! ما اتفقنا» أجاب سلمان، دون أن يرمش، فغضب تركي، وقال: «بتكذّبني؟». كان سلمان ما يزال بارداً، فقال: «إي».

«والله ما حدا كذّاب غيرك».

«أنت كذّاب وجشع».

فوقف تركي قبالته وقال: «يا واوي، تاكل خرا، وتتفاصح!».

كان أهل السماقيات يطلقون على حمد شمس، والد سلمان لقب: أبو الواوية. والشائع أنه اصطاد إحداها ذات يوم وشواها، والتهمها مدّعياً أنها أرنب بري. وظنّ سلمان أن تركي (الذي لم يكن قد سمع بتلك الحكاية أبداً، في بلدته، من قبل) يعرِّض بلقب أبيه فقال: «تسبّ أهلي يا تركي!»، ولم يمهله لحظة واحدة، ليقول إنه يسبّه هو شخصياً، فلكمه على وجهه. وبالمقابل، فإن تركي المهان الذي قهره شعور بالخسارة أيضاً، ردّ اللكمة. بعد ثوان كانا يتباطحان، يضرب أحدهما الآخر، يرفسه. كان تركي ينجح أكثر من سلمان في الإصابة، ربما بسبب طول ذراعه أو مهارته، وأدرك

ابن شمس أنه لن ينجو؛ إذ لم يكن أحد موجوداً في الجوار. وليس من المحتمل، أن يمرّ أيّ شخص في تلك الظهيرة الساخنة، من حزيران. بدأت قواه تتراخى، وجسده يكلّ، وأطرافه تعجز عن الرد. وحين نظر إلى وجه تركي رآه، كما لم يَرَهُ، أبداً، من قبل، خائباً، ومعطوباً، وهالكاً، ومصمّماً حتى حدود الموت، حين قال فجأة، وهو يضغط على صدره: «قول ولا! قول! شو في بينك وبين فوزية؟».

عندئذ، أدرك أن الأمر بينهما، لم ينتهِ، وحسب، بل صار متعلّقاً بالوجود ذاته. لماذا؟ في تلك اللحظات النادرة، استطاع سلمان أن يدرك أنهما لم يكونا صديقَين في أي يوم. وأن شراكتهما لم تكن سوى لعبة موت. هذه هي! قال لنفسه، موقناً أن تركي ظلَّ طوال الوقت، يقبل وجوده إلى جانبه، ليتأكد من أمر واحد فقط، هو صحّة شكوكه في أن ثمة علاقة بينه وبين فوزية زوجته. كان سلمان يرى ذلك في عينيه، وفي لهوجته وارتباكه، أثناء وجوده في بيته. وفي نظراته المتسرّعة الراصدة التي تحصي كلماتها وتطلعاتها وذهابها وإيابها وطريقة مخاطبتها له. وما دام سلمان موجوداً، فإن تركي، لم يكن يغادر الغرفة إلى أي مكان. وقد رآه أكثر من مرة، محصوراً، يشدّ على فخذَيه، ويكبت حاجته، كي لا يضطر للغياب. وإذا ما ألزمه أيُّ طارئ، فإن ذهابه، يعني حضوراً أشدّ مراراً؛ إذ يظل ينظر، ويراقب، من أي خرم، أو شقّ، أو ظل، حركة الملامسات المشبوهة التي يمكن لسلمان، وفوزية، أن يقوما بها. ثم يأتي كالصاعقة مرة، أو كالنمل مرة أخرى، متوقعاً أن يفاجئهما.

لم يحدث شيء. لكن شكَّ سلمان لم يذهب قطّ، في ذلك الاتجاه. صحيح أنه ظلَّ حائراً ينظر إلى تركي، وهو يعمل بهدوء ويقين ودراية أثناء شرائهما للحبوب، أو تحميلهما لها على جمالهما، أو بيعهما لها في أي مكان، ويقارن ذلك باضطرابه وقلقه في منزله. لكنه الآن، فقط، عرف كل شيء. لم يعد أمامه أبداً، أيُّ منفذ، ولم تكن كلمات النفي نافعة. ولن

يصدِّق ذلك الرجل أن شريكه لم يمسّ زوجته؛ فقد كانت تفوح من سؤاله، رائحة الموت وحده (موته أو موتي. قال لي سلمان). كان مسدّسه ما يزال في جرابه، ولكن يده اليمنى الحرة، تحت فخذ تركي، استطاعت التسلل إلى المكان الصحيح، فأخرجته وأدارته ببطء، نحو الخاصرة السمينة، حيث تظهر شامة بنيّة، ممتلئة، ثم ضغطت على الزناد.

في ما بعد، أقسم سلمان أمامي، أن راية فوزية زوجة تركي بيضاء. ورضي - طوال سنوات - أن يوسم بخيانة الشريك أو الطمع أو الدناءة، من أولئك الذين اعتقدوا أنه قتل تركي من أجل بضع ليرات، كي ينجي فوزية من أي تلوّث. وقال لي: «ذات يوم، ستكتب براءتي». فقد كان يهمّه ألّا يظل متهماً بدم إنسان من أجل التماعة قطعة نقد. «لكن حياتي كانت تستاهل يللي صار» أضاف بفتنة.

ومع ذلك، فقد ظلَّ سلمان بقية عمره، خائفاً من الموت. والمشكلة أن الرسل أوصلوا إليه قسمَ فوزية ذاتها التي قالت إنها ستطعم أولادها الأربعة - إلى أن يكبروا - دم الثأر ولحمه. كان يهزّ رأسه، آسفاً جريحاً، وهو يسمع في كل سنة، من عابر، أو نمّام مغرض، أو صديق محذِّر، عن تصميم المرأة الحاقد، ونذرها الجارف، لقتله.

وقد توقف عن إنجاب الأولاد، واكتفى بالولد الوحيد. لا أعرف كيف فعل ذلك؟ وامتنع عن التجوّل في المنطقة، خارج حدود الحماية التي تضمنها له السماقيات. وكلما كبر أولاد تركي، كان حذره يزداد. وصار يخاف على ابنه. وقال لي إنه يتمنّى لو لم ينجبه؛ فليس لهذا الولد من ذنب، في أي شيء مما فعله أبوه. وعرفت في ما بعد، أن فوزية سرّبت إليه نيّتها تصفية نسله، أيضاً. وعلى الرغم من انتمائه إلى آل شمس الأقوياء، فقد قال إن القرابة تقوّي الحياة، لكنها لا تحمي من الموت. وقال مثل ذلك، لمن أراد أن يطمئنه إلى أن النظام العسكري الأول الذي استولى على السلطة،

من حكومة الاستقلال المدنية، لن يسمح، كما يكرّر قائده الزعيم حسني الزعيم، لأيّ مواطن بأن يخرق أو يتمرد أو يزعزع قوانين الدولة. ولكن سلمان أصيب بالهلع، عندما سمع أنهم أعدموا أبو علي شاهين. وقال لي: «نفس الشي يا بو فيصل، حسني الزعيم مثل فوزية». ولم تزده الأنظمه العسكرية التي تلت الزعيم، إلا إيماناً بأن البشر جميعاً، يعملون وفق نذر فوزية؛ فالحنّاوي اغتال الزعيم، وابنُ أخ الزعيم اغتال الحناوي، وأديب الشيشكلي شرّد مئات المعارضين، واغتال في عام 54 مئات الأبرياء في المنطقة كلها هنا. «بتعرف؟» - قال سلمان - «أني كنت مفكّر إنو الناس عايشين ليحبّوا بعضهم، لكن اليوم صرت مؤمن إنهم موجودين بس منشان يقتلوا بعضهم. الكون كلّو بدأ بأمرين: الخلق والقتل!».

لم يكن لديّ طمأنينة، لأقولها له. وحين بدأ يرى انحياز السلطة الحالية، إلى صفّ مؤيّديها وأنصارها، قال: «شايف؟ يمكن لعبد الحميد السراج إنو يدوس على كل قوانين الدنيا، منشان يرضى واحد مثل لقمان أو علي شمس أو ابن مالك أو سالم الهراس».

كانت عيناه مفتوحتين على ما يحدث؛ فالمباحث والأجهزة السرية الأخرى، تدوس على القوانين والتشريعات التي يضعها النظام نفسه.

كان الرجل يتكلم في السياسة، دون أن تكون له، في أي يوم، علاقة بأي حزب أو اتجاه. فالأحاسيس تعمل وتشتغل أحياناً، ببوصلة الحقيقة. ومشاعره كانت تدلّه إلى أن جميع الأنظمة العسكرية التي تعاقبت على البلد، لم تستطع أن تزحزح تقاليد الناس، وعاداتهم، أكثر من شبر. وأولئك الضباط المتفسخون المنفوشون، ما كان يهمّهم شيء سوى البقاء في السلطة. والغاية تبرر الوسيلة بالطبع. صحيح أن العسكر أعلنوا، منذ البداية، تمسّكهم بالقوانين، وضربوا بيدٍ من حديد، كما يقولون - هم أنفسهم - كلَّ من تسوّل له نفسه بمخالفتها، لكن القوانين كانت تعني

مصالح السلطة فقط. وقد تركوا المجتمع فالتاً، وشبه حرّ من الداخل. وكان كل مسؤول يتصل بأي درجة من درجات القاع الاجتماعي، لا يفعل شيئاً سوى الإشادة بالعادات والتقاليد، وتمجيدها. وبالطبع، فإن المجتمع يردّ الجميل في العادة. وستشهد كواليس القاع تصفيقاً حماسياً لأدوارهم.

حسُّ سلمان قاده إذاً، فعاش خمسة عشر عاماً، بعد مقتل تركي، سجين الانتظار والترقب. صار الزمن الذي كان يتكفّل، في العادة، بمحو العواطف، أو حتِّها، عدوّاً، حين وجد أنه لا يفعل شيئاً سوى إيقاد ذاكرة فوزية.

عاش أيضاً، أسير المكان، وامتنع، في السنوات الأخيرة، عن المشاركة في الأعراس والتعزية والسفر إلى أي قرية أو مدينة. أي إلى الأمكنة التي تشهد اجتماع الناس، واحتمال وجود القاتل.

لكن الموت يقود خطانا أحياناً، كي نلاقيه؛ فالمرة الوحيدة التي اضطر فيها للذهاب إلى السويداء، كانت منذ أسبوع، حين أُرغم، بتهديدات من الدرك، على الذهاب إلى المحكمة، للشهادة في قضية إرث لأولاد حمود شمس، فذهب. هذه المرة كان يعتقد أنه محميٌّ. وأظن أنه نسي كل شيء؛ فقد تجوّل في المدينة، مثل حرّ، واشترى قماشاً أبيض للملاحف (صار كفناً له بعد ساعات)، ومؤونة للبيت، ودخاناً. ركب في المقعد الأمامي لسيارة عمار. كان شبه غافٍ عند الظهيرة، ينتظر اكتمال ركابها، حين أحس بفوهة المسدس، تحت إبطه الأيمن، وسمع مثل جميع من كانوا في الداخل، رجلاً يقول بتصميم الموت: «إجا الوقت، يا نذل!». فاستيقظ، ليرى شاباً طويلاً شبيهاً بشريكه وصديقه القديم تركي أبو هبوب. أراد أن يقول شيئاً ما، لكنه لم يلحق. وخزته الرصاصة في الخاصرة، واخترقت رئته وقلبه، ونفذت من ظهره، إلى إسفنج المقعد.

فوزية أرسلت مخبراً ليهمس في أذن نواف بن سلمان: «راس براس، والبادي أظلم!».

20

تشرين الثاني 1959

مرة واحدة، حاول لقمان أن يتدخل، لإصلاح الموقف بين حليم وخيرية. لكنه فشل، والصحيح كما فكّر، أنه خُذل. وقد رفضت ابنة حامد النخيل، أن تأتي إلى المضافة، لتسمع الكلمات الطيّبة التي كان قد حشدها في رأسه، من أجل إنجاح مهمته. وسمعها بأذنيه، وهي تقول لأبيها: «يللي فيه علّة ما يجرّب يداوي الناس». وحين رجع حامد إلى المضافة، كذب، وادّعى أن ابنته مريضة، وهي تشكر مسعاه. فحدجه بعينين ناريتين، وقال: «كلمة السوّ مسموعة يا بو نجيب». فقال حامد مستسلماً: «لا حول ولا قوة إلا بالله!». لكن لقمان قدّر أن سكوت حامد عن كلام ابنته المهين موافقة، وقال في نفسه: «الحقّ عليّ»، وقال لحامد وهو يخرج من منزله: «الأيام جاية على كل حال».

فقال حامد دون إبطاء: «لأ يا بو علي! الأيام راحت».

كان هذا صحيحاً؛ فمنذ أن انتهى أسبوع لطف الله لقمان، أبيه، عرف أن مصيراً أحمق كالغبار، بانتظاره. ففي اليوم الثامن، وصل رضا اللبدي، قادماً من الشام، يحمل كمبيالات بقيمة ستة آلاف ليرة، مسجلة في الدوائر المالية والعدلية، حسب الأصول، تؤكد أن الوالد الميت، استدان ذلك

المبلغ، ورهن أرضه مقابل سداد الدين. كان اللبدي هادئاً ورصيناً وقد عزّاه كما يليق بصديق قديم. ولكنه بدا حاسماً بشأن المبلغ، وقبِل - باسم الصداقة - مهلة الشهر التي طلبها لقمان.

وهكذا اضطر أن يبيع أرض الجمل، وقطعة من الشرقية، وثلاث قطع من تلال الغربان، لأبناء الخضرا، وأحمد شمال، وعلي شمس. غير أن الكمبيالات بدت كاللعنة، إذ انقضّ عليه المدينون كالقدر، بحيث لم تمض سنة واحدة، حتى كانت معظم أرضه مباعة.

لكنه باعها، دون تذمّر؛ فلم يسمح لأحد (سواء لزوجته أو شقيقه أو أبناء عمومته) بأن ينطق كلمة مشينة واحدة ضد لطف الله. كانت ذكرى الوالد، في رأيه، أكبر من أن تُمسّ بأيّ شبهة. وقد شرح للكبار من آله، الظروف التي أرغمت الوالد الكبير على استدانة كل تلك المبالغ وأَطاعتْهُ الكلمات، وهو يقول إن لطف الله لقمان بدّد أمواله، من أجل بقاء آل لقمان: «كلكم بدّكم تظل المضافة مفتوحة. طيّب! شو بتسوّي المضافة بلا قهوة، وبلا مناسف وكرم، وبلا سجاجيد؟!». كان يحدّثهم بقلب مفجوع، فقد عرف من رضا اللبدي، أن أباه أضاع ماله على الدعارة، وكباريهات الرقص، وموائد القمار. وكانت إحدى معاهداته معه، هي أن يسدّد المال كله، مقابل احتفاظ اللبدي بالأسرار.

وإمعاناً في الكبرياء، كبَّر صورة لأبيه، عند الرسّام ساري في السويداء، الذي أضاف - بالقلم الرصاص - جنادين جلديَّين متصالبين، وبارودة إنكليزية لامعة، تبرز من وراء كتفه، موازية لرأسه، في الصورة. وعلى الرغم من معرفة الجميع بأن لطف الله، لم يشارك في أي عمل كفاحي ضد فرنسا، فإن السلطة الممنوحة للعائلة، رشّحت صاحب الصورة لدور المجاهد، وثبتوا في بياضها السفلي عبارة: «المرحوم المجاهد لطف الله لقمان».

في ما بعد، لم يأسف كثيراً، لضياع الأرض. وسرعان ما وجد نفسه، بعد الزيارة الأولى إلى دمشق، يتبلل إلى كرخاناتها. وهناك عرف أن لطف الله لم يكن فحلاً، وحسب، بل مكتشف أسرار. ورغم أن أمه قالت إن دمه فاسد كدم أبيه، فإنّ المعنى الأعمق الذي استنتجه، هو أن الوالد عرف كيف يعيش. «هذه هي الحياة» قال لنفسه. ولم يمنعه العمل السياسي بعد ذلك من اجتراح لحظات متعة، كلما زار العاصمة، فيما امتنع دائماً، عن زيارة لأي محل في مدينته، خوفاً من الانكشاف.

غير أن الفقر، لم يُنهِ سلطة آله، في تلك الأيام؛ فقد ظلَّ الفلاحون، هنا، على وفاق مع فكرة أن وجود آل لقمان في الأعالي، سيبقى، حتى لو صار عمرون (وهو الولد الأبله الذي أنجبه جدعان لقمان) شيخاً.

ولم يخف كثيراً من وثوب العسكر إلى السلطة، إذ قال: «نترك لهم الشام، فيتركون لنا السماقيات». قاعدة بسيطة ومتوازنة، كما رأى، يمكنها ضمان سلطة آله دون مساس. وحين اختار الانتماء إلى الحزب، كان يأمل أن يستطيع اكتساب مكانة عصرية، تستطيع أن تدعم الحيطان القديمة لمكانته من جهة، وتواجه الأفكار الجديدة التي بدأ ينشرها البعثيون والشيوعيون، من جهة ثانية، عن الأمة الواحدة، والمساواة وقيمة العمال والفلاحين الذين اكتسبوا فجأة، فضائل طريفة، أضحكته كثيراً، حين سمع كريم بن عبود يرددها. فتطلع إليه هازئاً، وقال: «عن مين عَ بتحكي؟»، فقال كريم: «عن الفلاحين، وعن العمال، خميرة المستقبل».

«آه؟ يعني عن سلمان الجدي، وعلي التوت، وبو ساري، ويحيى العَلم؟!». قال: «نعم!».

«يعني بو ساري يللي مش ملاقي خبز ياكل، وثياب يلبسها، ويمكن يبوس الأيادي منشان يشتغل نهار، بدّو يعمل ثورة؟»

قال كريم: «إي!».

فقهقه بقوة، وقال، وهو يرفع حاجبيه، ويرقّصهما: «إي! إي!».

غير أن العمل في السياسة الذي قاده إلى السجن، بدل أن يضمّخ وجوده بالعزّة، علّمه أن ما فعله، كان كبوة خرقاء، وسوَس له بها حساب ناقص، وأن أفضل الطرق للبقاء، وارتقاء السلالم، هي مهادنة صاحب البيت. «العمى!» قال لنفسه، وهو يفكر في سلوك فلاحي السماقيات، أنفسهم تجاهه. وهكذا، فقد أيّد هجوم حكومة الوحدة، على الشيوعيين. «طبيعي!» راح يقول، ويضحك بصخب: «ولك كيف يمكن لواحد ريحته مازوت أو شحم، أو مليان وجهه غبرة، وطول يومه عَ بيزحف ورا الحمير، إنو يعمل ثورة؟». وأشار بيده علامة الاستغراب، وهو يتطلع إلى زائريه المترقبين. «ولك شو الثورة لعب أولاد؟». أما حين رأى الصور التي يوزعها أنصار روسيا، حيث تظهر فيها الجموع الحاشدة، وهي تقتحم قصور القياصرة، فقد علّق قائلاً: «سينما! هذه سينما!». وباشتداد الحملة المباحثية ضد الشيوعيين من جهة، واستقالة البعثيين من حزبهم، من جهة ثانية، أحس أن الأمر كله يعني أن المنافسين المحتملين له شخصياً، قد أُزيلوا. ومع ذلك، فإن عبد الناصر لم يُرضِه تماماً. فما إن سمع أنهم سيطبّقون الإصلاح الزراعي، حتى شعر بالأسى، وترحّم على أبيه الذي لم يترك له أرضاً، كان يمكن أن تصبح ملكاً لحثالات مثل يحيى العلم أو علي الهراس. وهمس لحسن اللوف، بأنه كان يفضّل الموت، على رؤية أرضه بأيدي الكسحاء من أهل السماقيات. فأوضح له حسن أن إصلاح الرئيس سيطول الملكيات الكبيرة فقط. وأضاف: «وسلامة عمرك يا بيك!».

لكن ما لم يره حسن، إنما هو ذلك الخراء الذي ملأ عقول الشبان كلهم، بسبب الحماسة لناصر، إذ فجأة، صار كل واحد منهم ثائراً. اختفى لطفهم القديم، ونبتت قرون الحقد في قلوبهم. ولا بدّ أن الشيطان نفسه ركب ابن محمد الخضرا، كي يتجرأ، ويقول، أمام عشرين رجلاً من

السماقيات إن «ديار الظالمين خراب» معلّقاً على انهيار الحائط القبلي لداره، يوم الثلج الكبير. وأراد أن يذهب إليه، حين سمع ذلك، ليقول له: «هذا ماء الرب يا ابن الحرام!». لكنه لم يجرؤ؛ فمحمد الخضرا كان عضواً في الاتحاد القومي. ولهذا صرعته الكلمات التي ابتلعها، فنام ثلاثة أيام، محموماً هائجاً، يعلّل قهره، ويحدّق إلى سقف حياته المنخورة، حائراً من التبدلات. وقال لزوجته، حين تعافى: «كانت الكلمات، من قبل، شيوخ، وصارت اليوم، فلّاحين».

لكنه لم يستسلم أبداً. وظلَّ يرى في السواد غيوماً بيضاء. «وإذا كان الولد عاقّ فالأب حنون ومريض» قال لنفسه، لكن رد ابنة حامد النخيل زعزعه، ولم يستطع أن يتقبّل فكرة العنجهية التي تظهرها. فمتى كانت صفعة رجل تخرب بيتاً؟ أما حامد فسوف يرى!

وفي البيت، وجد عمار في مضافته، فرحب به، ثم بدأ يبدّل رباط الكيّ في ساقه، وقال وهو ينتزع قطعة التنك الدائرية البيضاء، وحبّة الحمّص المنتفخة: «قولك يا عمار الكيّ بينفع؟».

«ها؟» سأل عمار بجذل، ثم نظر في عيني لقمان وأجاب: «إي بينفع! طبعاً بينفع».

21

تشرين الثاني 1959

«بدِّك ياه يصير مصارع؟!».

هتف حسن اللوف، مخاطباً لوزية التي جاءت إلى بيته، بصحبة رندة مساءً، وقد شابَ صوتَه اضطرابٌ نجم عن الفكرة الجديدة التي قدّمتها له المرأة. لكن أحلامه اكتست بضياء سرّيّ، وأشرق وجهه كلّه، وامتلأت عيناه بالتماعات نجمية، وتأجّج دمه كله، وهو يفكر في أن هذه المرأة الصغيرة اللاطية وراء السفح الثاني من تلة السماقيات، تملك رأساً يمكن أن يوزن بالذهب. فقد فشل مشروعه الأول، بسبب الرفض الأمني الذي قدّمه فرع المباحث في السويداء، استناداً إلى بلاغ وزير الداخلية الذي يمنع الاجتماعات العامة. وصار العمل في تجارة البالة كاسداً، بعد أن كثر المنافسون الذين ملؤوا القرى المجاورة بأكداسٍ من الثياب المستعملة، وازدادت قائمة الديون المستحقة له عند الناس الذين سحبوا بضاعته طوال الشتاء، آملين أن يستطيعوا سداد ثمنها، إذا ما أمطرت. فكلمة «عَ البيدر» كانت مفتاح الأمل الذي يقدّمونه له مقابل الشراء. ولم يكن بوسعه أن يرفض، فالبديل هو بقاء بالاته في أطراف بيته. وقد أحس بالخطر، قبل أسبوع، حين راجع حساباته، فوجد أنهم مدينون له بأكثر من ألفي ليرة

سورية. «العمى!» همس لنفسه، مكتشفاً أنه يكاد يفلس. والأدهى من ذلك، أن نصف مدينيه لم يظهروا لا مبالاتهم فقط تجاه مطالبته، بل عاملوه بجفاء. وضحك لقمان حين روى له أنّ النخيل أراد أن يعيد إليه الجاكيت التي اشترها في الشتاء. وقال: «خذ، ما عادت تلزمني»، مشيراً إلى السماء الناشفة، من جهة، وإلى أن بإمكانه أن يبيعها مرة ثانية، دون أن يلاحظ ذلك أحد من جهة ثانية. وقد علّق لقمان قائلاً: «دَيّنو بينبسط، طالبو بيزعل». كان يعرف تلك العبارة المبتذلة التي صكّها الناس من واقع الحال. ولم يكن يهمّه أن يزعل أحد، ولا أن ينبسط. فما فكر فيه هو أن ماله يضيع. والراجح أنه ضاع بالفعل؛ فالقحط الذي يخيّم على السماقيات، طوى آخر ما لدى الناس من مال. والمبالغ القليلة التي يستطيع تحصيلها، لا يمكن أن يخصصها لسداد أيّ دين. لكن هذه الحقيقة الإنسانية البسيطة التي يعرفها حسن، تخفي وراءها الآن، دماره. لا بسبب ضياع التجارة نفسها؛ فالمجريات ما عادت تسمح له بأن يكون أسوأ من حمار، لأن الحمار نفسه لا يمرّ على حفرة، وقع فيها من قبل، أكثر من مرة. أما تعهدات البنات، فقد انتهت أيضاً، بعد أن عجزت السماقيات عن تزويده بأكثر من خمس عشرة فتاة. فأين الطريق؟ وبدأ يخاف من أن تكون رأسه التي مدحها كثيراً، من قبل، قد أجدبت ونشفت. ولكن عمار حاول أن يطمئنه، أو يجد له الأعذار حين اشتكى إليه، وهما يشربان العرق، منذ خمسة أيام، وقال: «إذا كان الله والسما ورا خراب الزراعة، فالناس ورا الكساد والموت»، وشرح له، كمنظّر، طبيعة الحرب الحالية بين أمريكا والاتحاد السوفييتي، والمشكلة أنها حرب باردة، لا تترك وراءها غير الجليد. «بتعرف شو يعني جليد؟ اسألني أنا، الجليد بيوقّف الحياة، بيخليها مثل ما هي، لا بتمشي لقدام، ولا بترجع لورا. بس الحياة ما بتعرف توقف، ربنا خلقها هيك، شو بيصير؟ بيصير موت». لكن مناقشة عمار بدت له ركيكة، وفاشلة؛ إذ لم يكن يريدُ

من أحد، أن يفسر له ما يحدث. فالناس كانوا دائماً يفعلون أموراً قبيحة. فماذا يعني ذلك كله؟ لا شيء. المهم هو كيف يجد، وسط هذا الضجيج الفاسد، نافذة نجاة! وهو مستعد أن يوقع صكّ تنازل قطعيّ لجميع البشر، عن كل مكاسبهم، مقابل أن يمتنعوا عن مشاركته الأفكار التي يبتكرها. ولكن الحقيقة هي أنه من المستحيل، مصادرة أي فكرة، أو امتلاكها إلى الأبد. ولهذا، فقد خسر تعهدات الرجال، وتجارة البالة، وتشغيل البنات، ووقف ينتظر.

«إي!».

قالت لوزية بتصميم، مُزيلةً أيَّ لبس أو شكّ، لدى مضيفها. بدت مستعجلة جداً، ومرتبكة أيضاً. كانت تعرف عواقب مجيئها إلى بيت حسن اللوف. فانقطاع العلاقات، بين العائلات في السماقيات (وهي علاقات غائبة وجافة بين آل شمال، وآل اللوف) يظهر قبل أي شيء، في إقصاء النساء وإبعادهن عن الزيارات المتبادلة. فكيف إذا كانت امرأة من آل شمال، ستزور حسن، العازب، في بيته؟ لكن الطموح جدير بالتضحيات. وليس لديها وسيلة أخرى توصل فيها فكرتها. ولذلك، فقد وسّطت رندة، وأعدّت تفاصيل الزيارة، بمعونتها، واختارت أن تذهب مساء، متذرعة لمسعود بأن رندة تحتاجها. ومن هناك تسلّلتا متخفيّتين، يسترهما المساء الشتوي البارد، والغياب المناسب للقمر. ولم يصادفهما أيّ عابر في الطريق. فقدّرت أن الله راضٍ عنها، وأن عينه تحرسها. ولم تصدّق أنها وصلت إلى هناك، إلا حين رأت حسن يستقبلهما بنفسه: «أهلاً!»، فولجتا المنزل، مسرعتين.

كانت الغرفة مضاءة بنور لوكس أبيض. وظهر المكان غريباً بأشيائه الكثيرة المستوردة: الأرائك الإسفنجية السميكة المغلّفة بقماشٍ ناعم (عرفت في ما بعد، أنها من الساتان) ملوّن بأزهار، والطاولات الخشبية

الصغيرة المتناثرة هنا وهناك، وقد وضعت عليها صحون السجائر، واللوحتان الكبيرتان المعلّقتان على الحائط، حيث تظهر في اليمنى، غجرية تعض على زهرة، وقد امتلأت عيناها بالشهوة. وفي الثانية، طفلة تبكي. أنعشتها رائحة عطر، وقالت لرندة في ما بعد: «شي بيجنّن!». وشربت من كأس مضلّعة، شراباً ليمونياً منعشاً، قبل أن تسمع حسن، يسألها بلكنة هجينة، رجّحت أنها لهجة بيروت: «أُؤمري يا ستّ!».

أسعدها الخطاب، فحكت له كل شيء. رأت كيف ارتاع في البداية، فظنّت أنه سيرفض. وتضرعت إلى الله، في نفسها، كي يهديه من أجل أن يوافق، أو يتريث قبل الحكم على فكرتها. غير أنها، حين رأت تبدّله السريع، من ملامح المضيف إلى أسارير المكتشف الحصيف، أيقنت أن صبر السنين العجفاء، وجنح الأيام الكئيبة التي آذت روحها طويلاً، قد انتهت الآن. ولهذا أجابت عن سؤاله بالتأكيد الذي يشبه حياة أفكارها: «إي!» قالت مرة ثانية. فهزّ حسن رأسه عدة هزات، دون أن تفارقه إشراقته. «مصارع!»، ثم نظر إليها وابتسم، وقال: «سؤال!... منين جبتِ هالفكرة؟»، فردّت فوراً: «أنت بدّك عنب، ولّا بدّك تقتل الناطور؟».

فقهقه بصوت راعد، وراح يردد: «عنب! عنب! والله بدّي عنب!».

«إذاً، ما قلت رأيك بعد؟».

«موافق يا ست لوزية (هذه المرة أمال اللفظ أيضاً)، موافق!».

في البيت، وجدت كريم ومسعود يجلسان بجانب المدفأة، كانت الغرفة دافئة، وكانت نار الحطب في المدفأة تظهر من شقوق الحديد العتيق. هتف مسعود: «أهلاً بالقمر!».

كان يمكن أن تشعر بالذنب، لو أنها سمعت ذلك الترحيب في وقت آخر. لكنها الآن، باتت مستعدة لاعتبار أنّ ما قالته له، وما سوف تقوله،

ليس كذباً، بل مجرد غطاء من الكلمات، لا يضرّ بأحد. وسوف تحصي المنافع التي ستنهال عليهما. وعندئذٍ سيوقن بأن طريقتها كانت بيضاء، وخالية من الغشّ.

صافحت كريم، ثم خلعت معطفها، وعلّقته على الحائط. أخذت نفساً دافئاً عميقاً، وقالت: «احزر شو بدّها رندة مني؟». فرمقها بطرف عينه، كأنه حدس أنها تخبئ شيئاً آخر غير ما ستقوله. فهرَّبت عينيها بعيداً عنه، ووجّهت كلامها إلى فضاء الغرفة، وحكت ما حدث، محوّرة الاقتراحات نحو حسن اللوف، شرحت الموضوع بكامله، وهي تردد التفاصيل، والإجراءات التي ستُتَّبع، كأنما كانت تراها على صفحة الدخان المتصاعد من أطراف المدفأة. وصفت الطريق التي سيسلكانها، والبيت الذي سيقطنان فيه، والنادي الرياضي الذي سيتدرب فيه. تحدثت عن إيراد المباريات الضخم. وقالت إن حسن وصف المصارعة بأنها لعبة، اتفاق سري يتم بموجبه، معرفة الفائز والخاسر، من وراء الحلبة، وأن الضرب هناك ليس ضرباً، ولهذا سمّوها لعبة. والرياضة كلها لعب. والناس يحبون اللعب، ويأتون ليتفرجوا على اللاعبين، لأنهم لا يقدرون أن يلعبوا مثلهم. يدفعون المال ليتفرجوا.

شعرت بأنها لا تخاطب مسعود في الحقيقة (فقد صرفت أياماً، وهي تُعدّه وتطبخه، داخل الكلمات)، بل كريم نفسه. كأنها تريد أن تقنعه أو ترضيه أو تطلب إليه أن يغفر لها. لماذا؟ كان إحساسها وحده هو الذي يحرك سلوكها. ولم يستطع عقلها أن يجمع خيوط الخوف أو الخشية من أي مكان. ولكنها كانت تعرف أن كريم لن يوافق. وسوف يكون بوسعه، أن يقدّم لمسعود، ذرائع كثيرة، وفصولاً قاهرة، عما يحدث هناك، في لبنان، لأبناء السماقيات، من إذلال، واضطهاد واستغلال. وهي تحفظ، عن ظهر قلب، ما كان يقوله لها دائماً: «لقمة العيش غالية، بس الكرامة غالية كمان».

طيّب! أرادت أن تقول له، الآن سنمسك بلقمة عيش طيبة، وسمعة عالية، وبطولة عظيمة. ما رأيك؟

الحقيقة أنها لم تكن مستعدة لسماع رأيه. وتمنّت ألا يقول شيئاً، أن يسمع أحلامها، ويراها، ويؤيدها فقط. أن يسكت، كي لا يقدّم لمسعود ما يحتاج إليه من الحجج الكلامية التي يعجز عن تدبيرها بنفسه. فقد دفعت ثمن حلمها الجديد الذي صار على مشارف التحقّق، ثمناً باهظاً من أيامها، وساعات صبرها.

كريم أذهله ما سمع. فكر - في اللحظة الأولى - أنه يقف أمام الخديعة؛ إذ لم يصدّق أن لوزية تستطيع أن تؤمن بمشاريع حسن اللوف، إلى حدود هذا اليقين الملهوف الذي يحاول طيّ الآخرين، تحت إبط أمنياته. وراح يحاول أن يجمع في رأسه (أمام قوة الحلم الذي اقتحمت به بيتها)، كل ما يملك من أفكار وبيانات، من أجل أن يقدّم العون لصديقه الذي شعر الآن، أنه مغلوب، ينظر ببلاهة إلى المرأة التي غرّر بها تاجر نخاسة، اسمه حسن اللوف.

شعر بالغضب وبالخذلان، لكنه تراجع فجأة، حين رأى كيف وقفت لوزية، وتوجهت نحو السماء، وصاحت: «دخلك يا ربي كيف حققت حلمي!». فأغمض عينيه كالقتيل.

22

تشرين الثاني 1959

وحين عاد كريم إلى البيت، كان قلبه عائماً. لم يدرِ ماذا يفعل، وقد خسر محمودة من قبل، ويخسر مسعود الآن، في معركة اسمها الحياة، ينازله فيها القحط والمغريات. كان صوت القراءة يشغل فضاء المنزل كله. وبدا حليم، من مصراع الباب المفتوح، وهو جالس أمام الضوء البرتقالي لمصباح الكاز، غارقاً في لجّة كتابه بلا حراك. وكانت زينب أخته، تقعد في غرفة المؤونة، بجانب نجوى ونجاة ابنتي حليم. دخل إلى الغرفة، وألقى تحية المساء، وسأل عن أبيه، فقالت زينب: «راح يسهر»، ثم سألت: «بتتعشى؟». قال: «مالي نفس». كان متعباً، خاوي الصدر، فانهار، على الفراش قرب زينب، ثم استلقى بكامل جثمانه، ممدداً يديه كالمصلوب، فزحفت زينب إلى جانب رأسه، وأدخلت أصابع يدها في شعره، وراحت تداعب خصلاته. سرت رعشة ناعمة داخل جسده. امتلأت عروقه بدم حارّ بثّت فيه القوة، فعبّ ملءَ رئتيه من الهواء، وهمس لزينب: «تسلم إيدك». كانت زينب - كما فكر - تعرف ماذا تفعل دائماً، في الوقت والمكان المناسبين. وقد حوّلتها العنوسة الطويلة إلى أمّ، في وقت كانت فيه أمهم ماتت. فالأم الكبيرة التي أنجبت ستة بطون، لم ينجُ

منها سوى صبيَّين وبنت، أصيبت بعجز في أوراكها، جعلها شبه مقعدة، طوال سنوات حتى الموت. لكن الدار ظلت كما هي، حين تسلّمتها زينب. والحقيقة، هي أنها استولت عليها تقريباً. وخلال سنة واحدة، لم تتمكن من معرفة جميع التفاصيل وحسب، بل أخذت على عاتقها كل المشاغل: مصاريف البيت، وأمور الزراعة الصغيرة، وشؤون الوالد أيضاً. وأرغمته على شراء حقيبة جلدية جديدة بدل القديمة الممزقة، ورتّبت المقصّات، وماكينات الحلاقة، والأمشاط والبودرة الصينية، والكولونيا، وقطع الشبّة والمرايا الثلاث ذات الأحجام المختلفة، في علب من الكرتون، وأصرّت أن تراقبها، لأكثر من ثلاثة أشهر، كل يوم، إلى أن تأكدت من أن الترتيبات صارت جزءاً من تقاليد أبيها. كان عبود الزهر سعيداً بها، وصار يهدد زبائنه الصغار باسمها، لكي يهدؤوا تحت يده الضاغطة، ووابل مقصه القاطع. فكانوا يسكتون، مذعورين، دون أن يعرفوا شيئاً عن اللغز الذي يوجزه بعبارة: «إجت زينب». وبدا أن ذلك أفرحها. وقالت لأبيها إنها مستعدة لإعارته صوتها، من أجل تثبيت أولئك المشاغبين الجبناء، من الأولاد الذين ترعبهم كرسي الحلاقة. فقهقه، وصار يصفق ويقول: «والله خلّفت يا عبود!». فالبنت الكبيرة التي يبست في العنوسة، تخضر، وتثمر في ثوب الأمومة الجديد الذي تقمصته. وبسبب اقتراحها الساخر، سلّم مفاتيح الدار كلها لها، دون أن يتردد، وانضوى تحت رايتها، وصار يقول لأهل السماقيات: «جرّبوا خلّوا زينب تحل مشاكلكم». وفي ما بعد، أخذ يردد قوله إن أفضل رجل من يسلّم قيادته لامرأة مثل زينب. وبينما كان الجميع يضحكون مما اعتبروه كياسات الحلاق، كانت زينب تشدّ سكان الدار بأمراس من الحب، والرعاية الأمومية والحرص الأخوي والتشدد الأبوي.

وحين سمعت جملة كريم الأخيرة، قالت له، دون مجاز: «تقبرني!». ففي بداية إشرافها على الدار، كانت مولعة بحليم. وقد تابعت شؤون

أسرته، خلال السنة والنصف التي أمضاها في الجندية، كأب. لكن كريم هو الذي أربكها؛ فقد شغلتها عنه أعباء المنزل الجديدة، ومسؤوليات الإدارة، وخطط العمل التي أرادت أن تمسك بها أبواب الدار ونوافذها. وكلّفها هذا نسيان ألف أمر. فإذا أضافت إلى ذلك، انصراف مشاعرها نحو بنتي حليم الصغيرتين، فإن وقتها كان مكتظاً إلى حد أنه لم يعد يتسع لشيء، وطوال الوقت، لم تكن ترى كريم. وحين تستعيد ذكرياتها عنه، تذكر أنه كان متلاشياً بالفعل؛ إذ كان يمضي أكثر من تسعة أشهر (وهي فصول الدراسة) في السويداء، بعيداً عن عينيها، وإدارتها، وحين يأتي في العطلة الأسبوعية، ينزوي صامتاً، تحت جناح أمه، أو ينسلّ هارباً إلى كتبه ووظائفه، ثم يختفي من الدار تقريباً، إذا ما رأى أي فتاة من بنات الجيران، تأتي للزيارة.

بدا لها كالمنكوب دائماً، ولم تستطع أن تتفهم ضعفه وزهده، في وقت كانت ترى فيه أولاد السماقيات، يصخبون ويضجون في شوارعها وساحاتها، دون أن تنشغل بالأسئلة. واكتشفت، في ما بعد، أنه اختفى من مدى جاذبيتها، ونما بعيداً عن مدارها الذي ظنت أنه التقط جميع مخلوقات آل عبود الزهر. اكتشفت أيضاً، أن وجود بارود إلى جانبه، أبعده عنها. ولم يكن لديها وقت للبحث في مسألة احتواء أيٍّ منهما تحت رايتها، إذ لم يشكّلا في أي وقت، عائقاً في مجال سلطتها. فأهملتهما أكثر من ثلاث سنوات، إلى أن سمعت، ذات يوم، صوتَ رجلٍ عميقاً وغريباً في باحة الدار، ولم تستطع معرفة صاحبه، فأطلّت من الباب: هناك كان كريم واقفاً قرب عبود الزهر، طويلاً، وناحلاً، وخشن الصوت. كانت تفاحته نافرة. وحين اقتربت منه، رأت الشعرات السوداء النابتة في أطراف شفته العليا، فقالت دون تفكير: «تقبرني! طلعوا شواربك؟!». حدّق إليها خائفاً، ولكنها لم تنتظر، وواصلت تقدمها الأمومي، وقاست

قامتها بقامته، وضحكت بجذل، وقالت موجهة الكلام لأبيها: «شفت؟ يا الله! صار طول الحورة!». فابتسم عبود، ولكن زينب ما كانت تمزح، بل كانت مرتبكة ومحرجة، كأنها ترى شقيقها لأول مرة، في حياتها. وأمسكت يده، وقادته: «تعال!». وأجلسته إلى جوارها، على المسطبة، ورنت إليه بعينين مليئتين بالدموع، وهمست بصوت مخنوق: «احكِ! احكِ أيّ شي!».

لكن الكلمات غابت وراء ملامح وجهه الذي عراه خشب الحيرة، والذهول، اتجاه التغيير الطارئ على الأخت الكبيرة. والحقيقة التي اعترف بها لنفسه، هي أنه كان يخشاها طوال الوقت. وكان هذا سبباً في ابتعاده عنها، يساعده الغياب الشتوي في فصول الدراسة، والأعمال الصيفية في الحقول والبيادر. فحضورها الثقيل الذي اتسم بالقسوة واللامبالاة، تجاه المشاعر (كان يرغب في قول أي شيء عن محمودة التي استهوتْهُ منذ أن كان في الابتدائية)، والإفراط في ارتداء ثوب المشرف كانا يهلكانه. بدت كالمراقب تماماً، حاضرة، حتى لو كانت غائبة، في الباحة والممرات ووراء الأبواب. والفارق الوحيد أن مراقب المدرسة كان يحمل العصا ويضرب بها. أما زينب فتضرب بها دون أن تحملها.

وبسبب تلك القطيعة الطويلة التي حكمت حياتيهما، فإن إصرارها، بدا له أمراً، أو حكماً نهائياً. لكنه لم يقل شيئاً. وبدل أن يظهر لهفة مماثلة، سحب يده من قبضتها، وقال: «خير؟ خوّفتيني!»، ودُهش لأنها ضحكت، ثم قهقهت، ثم عانقته، ضمته إلى صدرها، وشدت ذراعيها حول ظهره، وراحت تردد: «كبرت يا حبيبي. صرت زلمي. وأني مش عارفة». ثم بدأت تنتحب وتضحك.

غير أن كريم أفلت من يدها. وفوجئت عصراً، أنّ صوته كان يملأ المضافة أيضاً، وأنّ هناك من يقول شيئاً، ومن يرد عليه. كانت الكلمات

واضحة ومؤلّفة من حروف تشبه حروف الكلام الذي يتحدث به الجميع هنا. وعلى الرغم من أنها لم تفهم ما يقال، فإن ذلك لم يغْنِ لها شيئاً. فنبرات الصوت الجديد، وانتشاره الرجولي، واستحواذه على المكان، وحشود الجمل التي تتلاحق على لسانه، كانت تكفي كلها كي يزداد تعلّقها به من جهة، وشعورها بضياع السنوات الماضية من جهة ثانية.

آلت على نفسها، أن تعوّض كل شيء. وهكذا راحت تلاحقه مثل ظل. وما دام موجوداً في المنزل (إذ أرغمته، بعد ذلك، على المجيء، كل خميس، إلى السماقيات) فإنها كانت تحوم حوله كفراشة، تطلب أن يحدّثها عن أيامه في السويداء. متى يستيقظ؟ ماذا يأكل؟ كيف يذهب على الثانوية، ما أسماء أصدقائه، مدرّسيه، شكل غرفته، الشوارع، مساؤه وليله، متى ينام؟ ولم تبخل عليه بالنقود الإضافية. ثم بدأت ترعى بارود في غيابه، وتمنع الظلم عنه قائلة: «اتركوه! هذا من ريحة كريم».

أحبّت الشيوعيين أيضاً. وكان يؤلمها أن يشتمهم حليم، فكانت تقول له: «ليش؟ كلّهم ضد الظلم»، ثم تبدّل لهجتها، وترفع صوتها: «يعني أنت مع الظلم؟». فيقول: «لأ! طبعاً».

«وطيّب! ليش زعلان؟».

وغضبت أكثر، منه، حين اتهمهم بأنهم يشرّعون زواج الأخ من أخته، وقالت: «لكن أنت بتخاف الله»، وأضافت، وهي تحاول أن تكون ودودة، وحازمة: «ويللي بيخاف الله ما بيحطّ على ذمّته كلام مش صحيح». وحين شعرت أنها اخترقت ضعفه، أضافت: «وعن مين عَ بتحكي؟ عن كريم؟ ما أنت شايفه، بيستحي مثل بنت البيت».

لكنها أدركت في ما بعد، حين ثار حليم بسبب كرم السماق، أن حربه ضد أخيه، لم تكن بسبب مواثيق الآخرة، بل طمعاً بحطام الدنيا. وكان هذا كافياً لانحيازها النهائي، إلى جانب كريم.

كريم لم يستطع، في هذه اللحظة، إخفاء اضطرابه. كانت مشاغله تعصف بجسده كله. وقد اشتد عطبه حين عجز عن أن يزفر أمام زينب، بما حدث معه، في دار الجزيري. والمشكلة أن شعوره بالمهانة، كان يخرّب قواه. وقد أضيف إليه تأنيب مبهظ، عجز عن التخلص منه، رغم العدّة النظرية التي استعان بها، من أجل تسويغ امتناعه عن الرد على الجزيري. وبعد مرور كل تلك الأيام، لم يبقَ لديه سوى أثر الصفعة، وصوتها الصفيق، وبَردٍ قاتم يخدّر قلبه. وكان غياب محمودة الذي طال، وانقطاع أخبارها، يزيدان في شوقه. هاجه الحنين، أحزنه أن تكون قد فَضّلت الرحيل إلى بيروت، على حبه. وكان يفكر أنها باعته من أجل خمس ليرات في اليوم. ولم يفهم كيف يمكن لأي إنسان أن يضع العواطف والمشاعر في كفة ميزان، تثقل كفّته الأخرى الملابسُ والأحذيةُ، وثمارُ البحر، والفرجةُ على المدن. وفيما كانت زينب تمسّدُ جبينه، امتلأ بالنقمة على محمودة. وكاد في اللحظة التالية أن يفشي كل ما في قلبه لها، أو يخرج إلى باحة الدار ليعوي: «ليش تركتيني يـ يـ يا محموووودددااااه!». وشعر أنه سيختنق، حين بدأت تلك المشاعر الغامضة، تنهش لحمه أسفل الصدر. ونهض، وقال: «أني رايح عَ غرفتي!». ولمح البنتين الصغيرتين النائمتين، فانحنى وقبّل الصغيرة نجوى، ثم مسح بكفّه على شعر نجاة، ونهض، ليجد حليم واقفاً في مواجهته. كان خدّه يرتعش، وجفن عينه اليسرى يرفّ. وقال بصوت مبحوح ساخر: «شرّفت أستاذ؟»، ولم ينتظر الجواب، فأضاف: «يعني صار بيت شمال أهلك، وبيت الزهر يلعن أبوهم؟». فظلَّ صامتاً، ينظر إليه بعينين فارغتين. «ها! جاوب! خرست يعني؟» صرخ حليم.

فقال كريم: «مسعود صاحبي وأنت بتعرف».

«صاحبك، على عيني، ولكن بتظل عندو من الظهر لمغيب الشمس؟ ما عندك بيت؟! ما عندك أهل؟!».

«عندي أهل، ومسعود مثل أهلي».

«لكن الرجال متجوّز... خلّيه حُرّ ببيتو!».

«لوزية مثل أختي».

«أختك!» زعق حليم بصوت راعد مليء بالازدراء: «ليش إنتو بتعرفو شو يعني الأخت؟». ثم تقدّم نحوه، وشدّه إليه، بعيداً عن زينب وعن ابنتيه، كأنما فطن لما يردده فأضاف: «ولك إنتو بلا أمانة بلا شرف».

صيغة الجمع التي خاطبه بها حليم، بدت غير مفهومة. ورمق زينب بعينين ضارعتين، يطلب عونها. لكن حليم لم يمهله، ودفعه نحو الباب صارخاً: «لا تمسّ بناتي، ولا تقرّب صوب أختي! سامع! أنت ملحد وكافر وما بتعرف الله». كانت البنتان قد استيقظتا مذعورتين، وبدأتا تعولان. وأخذت زينب تزحف نحو أخويها اللذين كانا يتدافعان أمام فتحة الباب، وهي تولول، وتتوسل إليهما: «من شان الله». إلى أن ضاعت بين أرجلهما. صارت نجاة مثل خشبة، متيّبسة وزرقاء، تحدّق إلى أبيها، وعمها، دون أن ترمش. بينما هلعت نجوى، وبدأت تعدو من جانب إلى آخر، وهي تشدّ شعرها، وتصرخ وتبكي. ثم خارت قواها، فشهقت شهقة قصيرة كالأنين، وفقدت وعيها. وبدا حليم وكريم أعميين، وأصمّين، ولم يبقَ منهما غير كتلتي اللحم والعظم اللتين تتصادمان، بقوة الغريزة وحدها.

حليم الذي أراد طرد أخيه من الغرفة، ازداد هياجه حين وجد أنه عاجز عن زحزحته. فوجئ بالقوة الجسدية التي تواجهه. ولم يصدّق أن أخاه الذي يصغره بأكثر من ثماني سنوات، لا يرفض أوامره وحسب، بل يستطيع أن يصمد، وأن يرغمه، بعد ذلك، على التراجع. وشعر بالخزي، حين أحس أن قدمه صارت تزلّ، وتنسحب نحو الداخل، حيث يتشبّث كريم بالبقاء، فبدأ يصرخ، محاولاً أن يغذي جسده المضعضع برنين الخوف: «عااااا. عاااااا».

كريم أراد، في البداية، أن يمتصّ غضب أخيه بالصمت، أو بالردود المعزية. وكان مستعداً للخروج من الغرفة، إذا ما طلب منه ذلك، بروح الأخوّة، أو بسطوة الفارق العمري. غير أنه لا يدري ماذا حدث هناك، داخل قلبه. شيء ما يشبه حَرَنَ حمار (هكذا وصف نفسه، وهو يعتذر من زينب، في ما بعد) جعله يرفض الأمر. ثم بدا ذلك المكان غالياً وغزيزاً على قلبه. وأكثر من ذلك؛ خُيّل إليه أنه إذا رضخ لأوامر حليم، فكأنما يحكم على نفسه بهزيمة نهائية ماحقة. ولذلك، فقد تمسّك بأخيه، وراح يشده شداً خفيفاً وثابتاً في الوقت نفسه. وشعر بالشفقة تجاهه، حين وجد أنه رخو ومبدد. وتمنى لو استطاعت الكلمات أن تسعفه، كي يوقف عناده. ثم لام زينب التي بدت له محايدة أو لا مبالية. وقدّر أنها الوحيدة القادرة على فكّ اشتباك حربهما.

غير أن زينب كانت شبه ميتة لا ترى. وبدت كأنها تنتظر أن يصرخ حليم تلك الصرخات الوحشية كي تفيق. هزّت رأسها مثل من يخرج من كابوس، وأدركت فجأة، أنها تخسر كل شيء: البيت، والإخوة، والبنات، والأب. كأن ما بنَته، وما عملت من أجله، وما راهنت عليه، يتبدّد، ويضيع بين أربعة أحذية مغبرّة، تتزاحم على عتبة غرفة. وزاد هلعها حين فكرت أن صراخ أخيها الكبير، سيجذب إليه كل من في السماقيات. قالت إنها رأت لوناً بنياً، وهمست: يمكن أن يكون لون فضيحة. وتذكرت أنها كانت عند العصر، تشتكي إلى الله، مآل عائلتها. وطلبت معونته كي تستطيع مجابهة تلك المشاكل التي بدا لها أنها تنبع من بئر شيطانية معادية، تربض في خفاء الدار، في الحجارة والأشجار وأفراد العائلة. غير أنها بدل أن تتلقى المعونة والمساعدة، وجدت أنها ترتطم بالمصائب. رغبت في سؤال الله: «ليش يا ربّي؟ ليش؟». لكن الوقت كان يمضي، وهو يحشد العداوات واحتمالات الخراب. وبدت اقتراحات عقلها ميتة بلا نفع.

ولأول مرة، منذ خمس سنوات، وجدت نفسها لا تعرف ماذا تفعل، وقد زلزلها العراك الأخوي المنذر. أيقنت أن تدخّلها لن يفيد. فالرجلان لم يعبأا بها، ولم ينتبه أي منهما لهلع البنتين. واستمر كل منهما يدفش الآخر نحو عتبة الغرفة.

كانت الآن قد أعادت نجاة إلى فراشها، ورطّبت وجهها بالماء، وهي تتمتم وتهذي. ثم ضمّت نجوى إلى حضنها. هناك رأت فجأة صدرها في المرآة المقشرة الموكوءة إلى الحائط. تذكّرت دعاء أمها القديم المتضرع، فنهضت وتقدّمت نحوهما، وشقت ثوبها، فبان ثدياها. ورفعت ذراعيها نحو السماء، وصرخت: «دخلك يا رب! كشفتلك حلّابات، ما ترجعهم خايبات!».

جمد الشقيقان كحجرين. وحدّق حليم برعب، إلى الحركة الخرقاء، والصدر الفتي الذي يندفع منه ثديان قدسيان. ركع كريم على ركبتيه، وأحنى رأسه، كأنه في حضرة ضريح، وغمغم حليم كالمصاب: «غطّيهم منشان الله!»، ثم استدار وخرج، بينما زحف كريم نحوهن كلهن، وقال وهو يعانق رأس أخته: «سامحيني يا زينب!»، فشهقت هواء المكان كله، ورنت إلى الله، مرة ثانية بحب، وقالت: «اغفر لي أنت! دخلك! هذا دم إخوتي وتراب بيتنا!».

في الصباح، اكتشفت أن صدرها كان مملوءاً بالحليب.

23

تشرين الثاني 1959

حين حكى لها فيصل ما جرى، شهقت مجفلة، ثم هتفت: «يكسر إيدو!»، وبدأت تبكي بعد الظهر. وقد ظنّت أن السبب هو الأطعمة التي التهمتها، وأثقلت بها معدتها. ولكنها لم تستطع كبح دموعها، عند العصر أيضاً، فذهبت إلى المطبخ، لتشغل نفسها بأي شيء. أعدّت الشاي، فأحرقت قبضة الإبريق أطراف أصابع كفّها الأيمن، حين نسيتها مائلة وقريبة من شعلة النار، فرمته فوراً، واندلق على طبق القش الجديد الذي أهداها إياه فيصل، فبكت، وقررت أن تعيد ترتيب نملية الطعام. وهناك سكبت الزيت على الرف الخشبي بداخلها، فبكت أيضاً. ثم نحبت بصوت عال، حين انزلقت كأسان من يدها، وتكسّرتا معاً على الأرض الأسمنتية، متحوّلتين إلى نثار من الألماسات الهالكة. وأخذت شفتها السفلى تختلج، ولم تستطع أن تقدِّر ما إن كان ذلك من الغضب أم من الخذلان. وجرحت سبابتها، وهي تلمّ الهشيم الزجاجي دون انتباه، وبكت من الخوف، حين لاحظت أنّ الدم يتسلل من أطراف إبهامها الأيسر الذي تضغط به على رأس السبابة. وتابعت البكاء، وهي تصرخ تقريباً، من حريق لحمها، حين سكبت عليه الاسبرتو البيضاء المطهّرة. ثم شعرت أنها تلمس دقات

قلبها، من طرف إصبعها. وظنّت أنّ الرباط المحكم هو السبب، فلم تستطع انتزاع اللاصق بسهولة. وانبجس الدم من جديد، فأخذت تبكي، وتتأوه، وتشتكي لنفسها، وهي تفكر في الإجراءات العلاجية المؤلمة من جديد. وخُيّل إليها، أنها تسمع دقاً خفيفاً على باب شقتها، لكنها لم تجد أحداً في الممر، فرجعت، وهي تبكي. ثم كادت تنهار، حين سمعت الدقات مرة ثانية، ولم تجد أحداً في الخارج. واعتقدت أنها تهلوس، أو أن أحداً ما يناكدها، فأقفلت الباب. غير أن قدمها اصطدمت بإحدى أرجل الكراسي، فبكت من الألم والخيبة، والتهمت البيضة المسلوقة المتبقية من الغداء، ثم أكلت حبة بندورة، وقطعة جبن. وزاد بكاؤها حين اكتشفت أن علبة الكراميلا فارغة. ولم تجرؤ على الذهاب إلى الدكان لشراء كيس جديد. ولكن دمها انشحن فجأة، بالرغبة في امتصاص تلك الحبات الحلوة، فقررت أن تشغل نفسها بكيّ الملابس، ولكن الفحم كان رطباً، ولم تعرف كيف تسرّب الماء إليه. وبدل الجمر، راح ينفث دخاناً أبيض حاراً من خزّان المكوى الحديدي الضخم، فامتلأت عيناها بالدموع، وسال مخاطها، فبكت من جديد. وحين خرجت من المطبخ، كانت الشمس قد غابت، فبكت أيضاً لأن الملابسات غيّرت مساراً طويلاً من حياتها، وجعلتها تسهو عن الجزء الحميم الذي كانت تلتمس لديه (حين تتأمل الغروب) الأمل بما سيأتي. ثم لاحظت فجأة، ظل الجزيري واقفاً على سطح الغرف المستأجرة، كتمثال. فأطفأت النور في الغرفة، وفي الممر، وأسدلت ستائر الدانتيلا، وجلست، وهي موقنة أنها صارت لا مرئية. وكانت غرفة كريم مضاءة، وهو يقرأ، فبدأت تبكي، وقد عرفت أنها لم تكن تبكي من الخسارة، بل من الوجد.

اكتشافها بدأ مثل انفجار؛ فطوال الشهرين الماضيين، لم تقترب أبداً من تلك المنطقة التي تحيط بالقلب. لم يكن السبب هو الحظر أو

التحريم. لأن وجود الأولاد، ظلَّ حتى اليوم، يؤجج شهوة الأمومة لديها، دون أن يشفّ عن أي هوى. ولا بدّ أن كريم قد تسلل من تحت سياج عواطفها، ليصل إلى المكان الذي اعتقدت أنه قد أُغلق إلى الأبد، وراء الشريك الراحل.

كان الاستنتاج مباغتاً، وبدا وجدها طاغياً وثقيلاً إلى درجة أنها صنفته كجنون، أو كتكهّنٍ طارئ اختلس إحدى لحظات الضعف التي اعتادت أن تجتاحها، وجلس كمستوطن.

سهرت حتى الثامنة والنصف، متجاهلة وجود الجزيري على الضفة الأخرى للسطح المقابل. وظلت تراقب كريم الذي نفّذ بضعة أعمال: تعشّى برفقة فيصل وطلعت، غسل الصحون، وعاد للقراءة مرة ثانية. ثم كتب، وطوى ركبته ووضعها قرب الحائط حيث ينام، وجلس، وأسند ظهره إلى فراشه، ولحافه، وشرد. بماذا يفكر؟ تمنّت لو كانت مشاعرها قادرة على عبور الأمتار التي تفصلها عنه، لتدخل فضاء رأسه. لأن هذا سيكون نعمة ربانية تختصر مئات الخطط التي ستضطر لتنفيذها من أجل إيصال عواطفها. صارت سعيدة، لأن الفكرة بدت سهلة، دون أن تنسى أن الحياة أصعب من الأفكار.

خشيت بعد ذلك (حين رأته يتجوّل في الممر الأسمنتي) أن يكون ما بها، شفقة مختبئة، أحالها الكرب إلى الوجد. وأيقنت أنها تحتاج إلى الصبر والانتظار، لتعرف أين تضع هذا البريق الغامض الذي يختلج داخل صدرها. ثم اتهمت ظنونها بالبلاهة؛ فالقلب لا يخطئ. وما تحس به لم يكن ناجماً عن القنوط (حتى لو كان دمها يغلي من القهر، بسبب ألمها من نبأ الصباح)، بل عن الهوى. تضرعت إلى الله، كي يمنح كريم بصيرة العاشقين، ليعلم أنها موجودة هنا، وراء عتمة الدانتيلا، تراقبه مثل فتاة صغيرة مولعة. شعرت بالجوع الآن، لكنها لم تشتهِ الطعام. ومنعها ظل

الجزيري من إمداد الأولاد بوجبة العشاء، لكنها نسيت أن تبكي. وحاولت ضبط إيقاع الوقت الذي يمضي سريعاً، وأخذت الدقائق الأخيرة تتلاشى بسرعة كارثة، ثم بدأت تنطفئ، واحدة بعد أخرى. تبعها صمت عريض موشّح بحفيف أغصان الأشجار التي تئنّ تحت وطأة برد كانون، فهمست لصغارها وحبيبها: «تصبحوا على خير!».

24

تشرين الثاني 1959

في المساء التالي، خرج الجزيري، وراء كريم. كان موقناً أنه يدبّ نحو موعد. فمنزل الأرملة (وهذا هو الاسم الوحيد الجدير به) ظلَّ معتماً، خلافاً لعادات الماضي، بينما سار كريم في شوارع متعرجة مشبوهة، عبَر بضعة أزقة، وقد تلفّع بلفحة صوفية سميكة، ولطا بظلال البيوت، ثم انعطف فجأة، منحدراً باتجاه الحي الغربي. كانت رائحة الرذيلة تفوح من ذلك التخفي الدؤوب الذي يحافظ عليه ذلك الشاب. فراح الجزيري يهزّ رأسه، معجباً بهواجسه وتكهناته. لكن كريم باغته، ووقف والتفت مرة واحدة، إلى الوراء، كأنه شعر بخطوات الملاحقة. اهتزّ قلب الجزيري، ارتعدت ساقاه، غير أنه واصل المشي، كأنه لم يرَ شيئاً، بينما دخل كريم إلى دار شبه مهجورة (عرف ذلك من اختفاء الأضواء والأصوات من داخلها). «بيت مناسب للقاءات العهر!» فكّر، ثم عبَر المكان، إلى آخر الشارع، وعاد متمهلاً. وقف داخل عتمة صغيرة محشورة بين حائط عال، وعمود دعم حجري عريض، وراح ينتظر.

في الداخل، دخنوا نصف علبة من «الطاتلي سرت» الغليظة، منذ أن بدأ الاجتماع. كان على رأس جدول أعمال القميص المخطط، خبر

اعتقال أبي النور، الذي قدّمه بأكثر من مستوى. تحدّث عن عسف النظام العسكري الذي أوقف جميع معاركه، ونسي أعداءه، وآثر أن يحطم الشيوعيين وحدهم. «وليش الشيوعيين؟ لأن رأس النظام بدو يسترضي أميركا. ويظهر إنو الأميركان فهموا اللعبة، فزادوا تبرعات الطحين. صارت النقطة الرابعة تلعب على كيفها». بدا القميص غاضباً. سكت فجأة، مبتلعاً آخر الكلمات التي قالها. ظهر وجهه شاحباً، تملؤه التجاعيد، ثم شهق نفساً طويلاً من هواء الغرفة، وسعل، ثم أشعل سيجارة جديدة، وحبس حريق اللفافة داخل رئتيه، كأن جسده امتص الدخان كله، فلم يبق سوى بضعة خيوط مبددة تلاشت أمام وجهه. كان ينتظر نهاية نفسه كي يشير بإصبعه: «اسمعوا يا رفاق!».

غير أن شاكر وضع يده في الفضاء، معلناً تدخله: «عندي كلمتين، رفيق!». فردعه القميص دون تحفظ: «لمّا بيخلص جدول الأعمال، رفيق!».

«لأ» ردّ شاكر بازدراء: «لمّا بيخلص جدول الأعمال بتكون كلماتي بردت وتجمّدت!».

«هذي مخالفة مثل ما بتعرف، انتهاك لقدسية الاجتماع!».

«قدسية؟!» دمدم شاكر غاضباً: «ليش نحنا عَ بنصلّي؟ آسف أبو سهيل» (خاطبه بلقبه دون إضافة بروتوكول الرفيق)، ثم بدأ يتحدث موجهاً كلامه لكمال، وكريم: «يللي صاير يا رفاق إنو الرفاق السوفييت مقصّرين، لأنهم ما بقولوا لعبد الناصر خلص! زوّدتها. وبدل هذا عَ بغازلوه، ويمشطوا شعره، ويحطوا غصن زيتون فوق راسو! مش هيك رفيق أبو سهيل؟ والنتيجة مات فرج الله الحلو، وما بعرف مين. ونحنا متخبّيين متل الفيران! وقال نضال! نضال مع مين؟ مع حالنا؟ صرنا عاجزين نحكي كلمة عن أي شي. ويمكن بكرة يموت أبو النور، ونحنا مطلوب نهتف عاش الإصلاح الزراعي! عاش التأميم! وعاشت موسكو!».

«خلص رفيق!» صرخ القميص، وقد أذهله الكلام الغريب لشاكر، ثم أدرك أن صوته الرافض يمكن أن يجلب خطراً آخر، فطأطأ رأسه، وقال بصوت مبحوح التهمه قهرٌ عميق: «هذا عوج! تحريف رفيق». فردّ شاكر، سافراً دون استئذان: «جلّسني أبو سهيل! حطّني بالقالب، ودقّني بالمطرقة حتى صير ساوي مثل الألف». وأشعل سيجارة، ورشف نصف كأس الشاي.

صار القميص يرتجف. أحس أنه على حافة الانفجار، وشعر بالخذلان لأنه لم يجد حجة مناسبة ليواجه شاكر الذي بدا سعيداً بتخريجاته. وفي أعماقه، كان موقناً أن الكلمات التي سمعها فاسدة وملوّثة، تضع قدم هذا الرفيق على حافة الانزلاق. حاول أن يضبط شعوره، ويستعيد روح الاجتماع، فقال: «التاريخ يا رفيق هو يللي بيصنع الإنسان، مش العكس».

فتطلع إليه شاكر بعينين ماكرتين، ثم وضع رجلاً فوق الثانية، وأسند ظهره إلى الوراء، وسأله: «وأي تاريخ صنعك أنت رفيق أبو سهيل؟».

فقال القميص فوراً: «تاريخ الثورات طبعاً».

«وليش يا رفيق هذا التاريخ نفسه صنع الشيشكلي، والسراج وعبد الناصر وراح يصنع غيرهم، وصنع محمود أبو عين مديرنا يللي بحب أميركا، وسالم الدين يللي بحب ابن سعود».

أحس أنه سجّل أول انتصار إيديولوجي ضد القميص الذاهل، حين ساد الصمت، فقال: «بدّك رأيي؟!»، ثم أضاف دون أن ينتظر الموافقة: «أنا متأكد إنو في حدا، بدو يانا نتعلّم إنو الفرج بدو يجي من التاريخ. يعني من غامض علم الله، يعني منصير أصفار، أصفارعَ الشمال. يعني ولا شي».

«لكن أنت عَ بتخالف ماركس وإنجلز ولينين و...

«لا ماركس ولا بطّيخ!» قاطعه شاكر: «أنا...

«تأدّب يا رفيق» زعق القميص: «ولا تهين ماركس!».

«وأنت احترم نفسك ولا تهينّي. ولك أنا كلام الله ما قبلتو بدّك ياني إقبل كلام ماركس؟!».

ذهول القميص المخطط صار هلعاً، وقد أحرقت الكلمات الأخيرة صبره، فدقّ وسط الغرفة الناحلة المدخنة بالطاتلي، وصرخ: «عاش ماركس؛ عاش لينين!» (وقال كمال في ما بعد، إن القميص تخيّل نفسه في قصر الشتاء!)، والتفت نحو شاكر، وهتف بزهو: «يسقط التروتسكيون»، ثم خطف نظرة سريعة إلى المكان، واتجه نحو كمال ودمدم: «ردد رفيق». فكرر كمال وراءه بحياء: «يسقط! يسقط!». «وأنت رفيق كريم». فقال كريم: «لأ!». «يعني أنت مع هذا التحريفي؟!».

«كمان لأ».

شاكر كان يبتسم، ولكنه رمق القميص بحزن، وقال: «اقعد أبو سهيل!».

فقال القميص: «مش قبل ما تنتقد نفسك نقد ذاتي».

قال شاكر: «أني ما غلطت. وأنت ما سمعتني! واحدة بواحدة!».

فخربط القميص أوراق العمل، وشطب جدول الأعمال بعنف، وشقّ قطعة صغيرة مربعة، كانت بجانبه، وقال: «انتهى الاجتماع معك إذاً!».

*

لولا تديّنه وحرجه من نطق الكلمات البذيئة، وخوفه من إفساد طهارة لسانه، ومزاجه، فإن أول ما خطر ببال الجزيري، حين سمع ذلك الهرج العجيب الذي اختلطت فيه صرخات رجال، بزعيق نساء (هكذا خُيّل إليه)، هو أن يطلق على المكان الذي يراقبه، اسماً يكرهه. غير أنه ابتلع الكلمة، وامتص الرغبة المريرة المتسلطة، في اقتحام البناء الأسود البائس الذي يغيب في جوفه، كل أولئك العتاة الذين يفسقون في خفاء المدينة البريئة النائمة، التي لا تعرف شيئاً عنهم، ولا تظن أي ظن بما يحدث

داخل شرايينهم. وهذه المرة، تجرأ ودعم حضوره بالوقوف على حافة الزقاق. يغويه الفضول في التقاط إشارة أو صوت آخر أو حركة ما، تدلّه على المكان الذي اختفى فيه كريم ولؤلؤة. لكن الزقاق عاد كتوماً وفارغاً. تلاشت الأصوات الصناجة، وتبدّدت. كأن ما سمعه كان وهماً، أو زعيقاً. «معلش! معلش!» قال، مضمناً الكلمة روح الصبر، وأوزار التهديد. وهذا يعني أمرين: أحدهما أنه لن يكون بوسع هذين الفاجرين، الفرار. والثاني أن مصاعب الكهولة لم تستطع الإضرار ببصره بعد. لكن ساقيه لم تسعفاه كثيراً (لم يغضب منهما، ووعد نفسه أن يكوي اليمنى، في اليوم التالي)، فتمشى ببطء، إلى الأمام قليلاً، ثم عاد مرة أخرى متصنعاً المرور العابر. وراح يكرر تحركه الراصد، شاكراً الله لأنّ الشارع ظلَّ خالياً من المارة والمتسللين الآخرين.

ران صمت ثقيل على الغرفة، قبل أن ينهض شاكر قائلاً: «دوري بالأول اليوم. أنا رايح! تصبحون على خير». لكن القميص وقف فجأة في طريقه، وقال: «لأ، مش راح تمشي»، فراقبه شاكر مستفسراً، وقال: «شو قصدك؟».

«قصدي إنو الاجتماع انتهى بالنسبة إلك. وتفضّل فوت عَ الغرفة الثانية، حتى يخلص شغلنا».

«فصلتني من الحزب يعني، وصرت تشك فيّ يا بو سهيل» قال شاكر مهتاجاً، «هذا مش من حقك».

فقال القميص، بلا مبالاة: «من حقي، أو مش من حقي غير مهم» لفظ الكلمة مفخمة، ومشبعة بروح المنتصر. «أمن الفرقة أهم مني ومنك».

فارتدى شاكر معطفه، وتلفّع بوشاحه، وقال: «طزّ فيك وفيها! أنا رايح». لكنه لم يستطع أن يخطو إلى الأمام، فقد وثب القميص باتجاه الباب، وأغلق الطريق أمامه، ثم أمر كريم وكمال: «كتفوه يا رفاق!».

كانت العبارة قاصمة ونهائية. فانقضّ الاثنان معاً، دون أن يبديا أي

اعتراض. وقبض كل واحد منهما على إحدى ذراعي شاكر، وقاداه إلى المطبخ الصغير الملحق بالغرفة، حيث كان القميص قد سبقهما.

في اللحظة الأولى، نفر شاكر، وحدج رفيقيه بنظرات المفجوع، ثم أغمض عينيه، وتراخى جسده الناحل، واستسلم كعصفور، ولم ينطق بكلمة.

أغلق القميص باب المطبخ، ثم أقفله، وعاد إلى كرسيه وقال: «إي رفاق!»، ثم أعاد ترتيب الأوراق المبعثرة، بهدوء، وبطء. فيما تبادل كريم وكمال نظرات حائرة؛ فالقميص، كما فكر كريم، لم يرتكب أي مخالفة تنظيمية، طوال الشهرين الماضيين، لأن النظام بالنسبة إليه، كان أمراً مقدساً، يساوي البقاء ذاته. وفي كل مرة يسري نبأ عن اعتقال أحد الشيوعيين، يرفع القميص إصبعه في وجه الخبر قائلاً: «مخالفة الديسبلين» ثم يلقي موعظة عن أهمية النظام، وضرورة مراعاته والتقيّد به.

في البداية، قرصت الكلمة الأجنبية كريم، فلم يفهم معناها، ولم يسأل، بسبب الارتباك، عن ذلك، خوفاً من أن يظهر كجاهل، إلى أن قال القميص: «الديسبلين يعني النظام... النظام يا رفاق». وقد آمن بأن إجراءات الوقاية الحاذقة التي يتّبعها القميص، في كل اجتماع، لم تكن تلبية لحاجات الديسبلين وحده، وإنما شكّلت درع حماية لمسالك النشاط النضالي الذي يمارسونه. فالمباحث موجودة في كل مكان. وكان هذا ما يراه بعينيه: منذ الصباح، حين يصعد إلى الثانوية، حتى ساعة الانصراف، في مداخل الشوارع، على حافة الأرصفة، ووراء حيطان البنايات، إذ كانت أعين الموظفين الملبّسة بالنظارات السوداء، والمحاطة بالشوارب السوداء الكثة، تجفِّل مشاعره.

لكن الرعب أتى من ذلك اليقين الذي كان يؤكده، كل رجل وامرأة، من أن الجهاز السّرّاجي، قد تمكن من إلصاق أُذن خلد وراء كل باب ونافذة وحائط، ووسط كل ساحة وشارع وزقاق. لذلك بدا ديسبلين القميص

المخطط، مثل تميمة، وخطاب طمأنينة، ودرع سلحفاة زاوٍ، يقيهم جميعاً داخل الخلية، من المصير الذي مضى إليه القائد فرج الله الحلو، الذي أودت به مخالفة ديسبلينية سخيفة، كما شرح القميص المخطط. لهذا، بدا كسر الترتيبات المعتادة، خرقاً بثّ الهلع في نفس كريم وكمال معاً. لكنهما لم يجرؤا على الاعتراض، خوفاً من أن يظهرا كآثمين. وآثرا الرضا، معتقدين أن لدى القميص المخطط، من الحكمة والانضباط، ما يضمن سلامة إجرائه.

القميص قرأ التقرير السياسي القصير، ثم شطب الفقرة من جدول الأعمال الذي «كتبه» على شريط ورقي صغير، وأضاف فقرة مستعجلة تتناول أسباب حجز الرفيق شاكر. تنحنح، وهو يضع قبضة يده اليسرى أمام فمه، وقال: «الرفيق شاكر، على العين والراس. وإذا كان ما استوعب الماركسية بعد، مش مهم. وإذا كان عَ بفكر مثل الأطفال اليساريين، مش مهم. كل هذا بيتصلّح. لكن ما في ضمانة الليلة إنو ما يحكي شي، أو إنو ما يلتزم بشروط الحرص والوقاية. ويمكن يكشفنا. منشان هيك حجزتو. أرجو إنّو تفهموني، سلامة المجموع أهم من كرامة الفرد!». ثم صمت قليلاً، وتشاغل بأوراقه، ورفع رأسه، ينظر إليهما معاً. «نحنا رح نكمل عملنا كأنو ما صار شي. انسوا شاكر، لأنو المهمات المطروحة علينا اليوم كثيرة». ورفع حاجبيه، وفتح عينيه، ووسّع ما بين كفيه، وكأنه يحملها بين يديه، وأضاف: «وخطيرة أكثر». ثم سكت قليلاً، وسأل، وقد تغيّرت لهجته: «واضح رفاق؟». ولم ينتظر جوابهما، فرسم إشارة ضرب على الفقرة الجديدة في الجدول، وعبّ الهواء، حتى ملأ رئتيه، ثم زفر، وقال: «الآن شو هي أشكال العمل المطلوبة منا؟ أو بكلام لينيني صرف: ما العمل؟!».

شاكر، ظلَّ وسط المترين المربعين، في مطبخ القميص، مذهولاً من أن يكون قد صار فجأة، حبيس ذلك المكان الضيق الذي اصطفت

على رفوفه الخشبية الخضراء القاتمة، أواني مطبخ نظيفة، تفوح منها رائحة صودا حريفة. دهمه شعور بالخبل. وفكّر في تحطيم تلك الأشياء المرتبة المتسلسلة، مثل جدول أعمال أبي سهيل. ثم خطط لخلع النافذة الخشبية. لكنه اكتشف أنها محصنة من الخارج بشبك حديدي ملفوف بمنخل حماية. وقال لنفسه إنه مجرد غشيم؛ فالمشهد مأخوذ، بكامله، من السينما. فقعد، بسبب شعوره بالوهن، على الكرسي الخشبي الوحيد المجاور للمجلى الأسمنتي، وخُيّل إليه أن السكرتير كان يحدس بما سيصير، فاحتاط للمواجهة، وسرّب الكرسي إلى المكان من أجله. «مستحيل!» حدّث نفسه. سيكون هذا عبقرية تنبئيّة لا تليق بأبي سهيل أبداً. ولذلك، فإنّ وجود ذلك الكرسي مصادفة محضة. ولكنها تحمل بذرة العبقرية؛ فكل ما قام به منذ بداية الاجتماع، كان مسخّراً لخدمة تحقيق هذا الإجراء العرضي الذي أعدّه السكرتير دون وعي. ضحك، وهو يضبط نفسه مشغولاً بالمقولات، في مكان يليق بالصراصير والفئران. ثم فكر أن يصرخ، مستغيثاً بأي شخص. ولكنه عندئذ، سيكون ضحية مرتين: واحدة بيد السلطة التي ستفرم لحمه مع الثلاثة الآخرين. والثانية، بيد الحزب الذي سيُلحق العار باسمه، طوال عمره.

غير أن الاستسلام لما جرى، يعني أيضاً، أن السكرتير المتصلب قد استطاع طيّه والتهامه، مثل حبة تمر. شعر بالبرد، فلفّ ذراعيه فوق صدره، وقال: «أح». ولام نفسه، لأنه امتثل لأوامر سكرتير الفرقة. لكنه عاد، ورأى أن مبادئه أكبر وأغلى من دسائس قائد غرّ، دجّال صغير، مثل أبي سهيل، وشعر بالفخر، بسبب قدرته عل ضبط المشاعر البلهاء التي فاخر الآخرون عادة، بأنها تقودهم للردّ على ما يسمّونه: إهانة. «ربما! جائز!» قال لنفسه. ولكن الأمور نسبية دائماً (هكذا تجلّت له الآن، نظرية النسبية، كمثال ناصع مستمد من خضرة الحياة). فثورة المشاعر العشائرية، في لحظة

صراع حزبي، ستخلّف نتائج مدمرة. بينما كانت تستطيع حماية قبيلة، في أيام عنترة. شعر بالراحة، وأيقن أنه كسب جولة أخرى ضد أبي سهيل. وغداً حين تصل شكواه إلى القيادة، مشفوعة بتأملاته، وأفكاره، حول الجمود والهيمنة والإيمان التسليمي، وردّ الفعل العقلاني من قبله، تجاه العمل القاحل الذي ينفّذ من قبل السكرتير والصغيرين، سوف يكتشفون أن موقفه قد أثمر تغيّراً عميقاً في نمط التفكير. وربما ستكون هذه الحادثة الاستثنائية، مصدراً لقاعدة تنظيمية، درساً في العقائد، طريقة في كيفيات المواجهة. وسوف يدخل اسمه سجلات النضال، مضمّخاً بسمعة المتعقّل والمضحِّي معاً.

طال الوقت، ولم يستطع سماع أي كلمة من الغرفة المجاورة. فالباب كان موصداً ومضبوطاً، لا يسرّب إلّا دمدمات موحشة وغريبة. وقد صار ضميره طرياً ومتوهجاً، يمنعه من القيام بعمل لا أخلاقي، كالتنصّت. لكن أعصابه بدأت تشتبك، بعضها ببعض. وبدا له كأن جسده صار ينسل، فتفْلت منه خيطان خفية مشرشرة. ولم يستطع أن يهرب من شعوره بالمهانة، وصار يردد، دون وعي: «صرت سجين الصحون؟! صرت سجين الصحون؟!». وضرب رأسه بقبضة يده، وقد شعر بالاحتقار، تجاه كل شيء. وكيف يمكن لشخص يصبو إلى قضية خالدة كالعدل، أن يذعن أمام سلوك وحشي واستبدادي كسلوك السكرتير؟ وقال إن أعظم قضية في الدنيا، لا تساوي شيئاً، إذا لم يكن لدى صاحبها، كرامة. ولم يعد يستطيع القعود! قام يضرب الخشب بقبضته: «افتح ولا.. افتح يا عرص! افتح يا ابن الحرام!».

*

حين صار شاكر في الخارج، ملأ رئتيه بالهواء، وصاح بصوت شبه مخنوق: «ياهوو!» في إعلانٍ تقديسيّ للأشياء. بدا الزقاق الضيق الملتوي

مفازة. وأدرك الآن فقط، ثمن البقاء خارج جدران أي حبس. صار البرد نعمة، والليل صديقاً. وبدت البيوت النائمة غالية، ومليئة بالمسرات. وزاد بهجته أن الشارع كان خالياً من البشر. وقدّر أن الساعة زادت عن التاسعة مساءً، وربما كانت العاشرة. فأخذ يدندن أغنية، ثم بدأ يصفّر. صفّر لحن الخلود لفريد، وصافيني مرة لعبد الحليم، دون أن يرى شبح الجزيري المسترق الذي ألصق جسده بالجدار، وراح يراقب الخروج السعيد، للرجل الغريب الذي لم يعرفه.

وفي مواجهة بهجة شاكر، واحتفاله بالحرية، راح أبو محمود يهزّ رأسه آسفاً وحزيناً، بسبب تحوّل بعض بيوت المدينة إلى أوكار. ثم امتلأ قلبه بالحقد، وقرر أن يذهب في الصباح، إلى الشيخ أبي محمود، ليشتكي إليه تدهور الأخلاق، وانحطاط القيم، وغياب الخشية.

اختفى شاكر من مدى رؤيته، وظلَّ صفيره الليلي المنتشي يتردد في الفضاء، إلى أن تلاشى وراءه. ثم ظهر من أعماق الزقاق، رجل آخر. كان يمشي بطيئاً، وكئيباً، متلّفعاً بالصوف، وملفوفاً بمعطف طويل أسود. لم يكن يشبه قامة كريم، فازداد غضب الجزيري، ولم يعرف الآن، إن كان يغضب بسبب تأخر كريم، أم بسبب طول المدة التي يقضيها مع الجارة الداعرة، أم بسبب البرد الذي اشتد، أم بسبب الخطة الحاذقة التي يتّبعها هؤلاء الخطاة. شعر أن رأسه بدأت تتصدّع، وأن عظامه بردت، وصار جلده ينكمش ويضيق. فتمشى مغامراً بالظهور. غير أن المغادر الذي لم يلاحظه، توقف، قرب المنعطف الذي ينتهي إليه الشارع، من جهة اليمين، وبال، ثم مشى بضع خطوات، وتوقف، مسنداً ظهره إلى الحائط. وانتظر. بدأ قلب الجزيري يدق بعنف. وخاف أن يكون المشرفون على الدار، انتبهوا إلى وجوده. وربما كانوا قد أرسلوا أحد عمالهم إلى مكان ما، قريب من حيث كان يقف. وسوف يكونون الآن، قد سجّلوا طريقة وقوفه،

وتحركاته، وعدد أنفاسه، وكيفية اتقائه للبرد. وهلع حين فكر أن واحداً منهم قد يكون عرفه، وربما أشاع عنه، في الغد، أنه كان ينتظر دوراً للدخول إلى البيت. وعندئذ، لن يكون بوسعه، شرح معنى مهمته. وبدا له المشروع كله تافهاً، وبلا غايات. فما الذي يريده من كريم أو من لؤلؤة؟ لعنهما في سره، وصار يتوسل إلى الله، كي يستره. وسار بخطا سريعة، نحو المنفذ الآخر للشارع. وسّع خطواته، مغالباً ضعف الكهولة، وإرباكات الظنون، إلى أن صار في ساحة التحرير. وهناك عبّ الهواء، فسعل، من شدة البرد، وعطس، فقال: «يا الله فرجك»، ثم انصرف إلى داره.

في تلك اللحظة، كان كمال يشعل آخر سيجارة لديه، وهو ينتظر كريم. ملَّ، فمشى باتجاه الزقاق، ووقف هناك. ثم مشى على مهل حين رأى كريم قادماً. «تأخرت!» قال لائماً. فأمال كريم رأسه إلى جانب كتفه، وقال: «محاضرة توضيحية مثل العادة». وردد، بطريقة تشبه أسلوب القميص: «طفولة يسارية رفيق. تطرف رفيق. مخالفة الديسبلين!». ثم وضع ذراعه على كتف كمال، وأضاف: «تصوّر إنو كان متمني لو كان في عند الحزب سجن، منشان يحبس شاكر!»، فضحك كمال: «تهانينا». قال كريم: «انبسطت يعني؟»، فقال كمال: «لا والله! بس الفكرة مجنونة». فحدّق إليه كريم، وقال: «كيف إذا عرفت إني رح نام عندك اليوم.. هاي شو؟! فكرة مجنونة كمان؟». «يا حبيبي!» هتف كمال: «والله إذا عرف القميص، غير يقترح إعدامنا»، فهمس كريم: «وإذا رجعت عَ البيت متأخر رح يشنقني أبو محمود». نظر إليه كمال، بطرف عينه وقال: «ليش رفضت إنّك تردد الشعار؟». فتبدّلت ملامح كريم، وطأطأ رأسه، وسحب نفساً طويلاً من الهواء، ثم نفخه من فمه، مصدراً صوت فحيح، وقال: «يمكن حتى أنتقم من الجزيري مثلاً!».

«تنتقم؟ ليش شو في؟».

«تصوّر إنو ضربني كفّ على وجهي، وسكتت. وكل يوم عَ بتذكّر هالشي. مرة بقول إني كلب وجبان، ومرة بقول مليح إني ما رديت، هذا ما بليق بالفكر والمبادئ».

«ضربك؟» صرخ كمال بغضب.

«لا تصرخ!».

«طيّب.. احكِ لي شو صار!».

فروى له قصة نزاعه مع أبي محمود. وتلاشى صوته تقريباً، وبدا محشرجاً ومبحوحاً، بينما راح كمال يراقبه بعينين ضيّقهما الإنصات. وهتف أخيراً: «ليش ما قلت لي من قبل؟».

قال كريم بيأس: «شو كنت بدّك تعمل يعني؟».

كان سؤاله هذا يتعفّن داخل رأسه، بعد أن صار للوقت الذي يتراكم فوق الحادثة، رائحة مزبلة. وظلَّ رنين الصفعة يخذل تفكيره، وهو يبحث عن حل من جهة، ويهرب من عيني فيصل اللتين كانتا تسألانه كل مرة: «أين وعيدك؟». فما الذي سيفعله كمال الآن؟ يثأر له؟ ولكن انتماءهما يمنع الثأر. والرد الوحيد الممكن هو الذهاب إلى دكان أبي محمود، وردّ الصفعة إليه، أمام الناس جميعاً. وهذه تسوية حسابات شخصية، ستثير ضدّه سخط الناس، وتشوّه سمعته بينهم، ولن يكون بوسعه، بعد ذلك، أن يتحدث عن مبادئه، وعن أهدافه، وعن حلمه بالمجتمع النبيل.

لكن كمال قال إنه لن يسمح لأي إنسان، أن يهدر كرامته، حتى لو كان سيضحّي بالاشتراكية كلها.

قال كريم: «وهيك عَ بتقول عيون فيصل».

قال كمال: «ودورك أنت تصدّق: عيون فيصل، أو نظريات القميص!».

وفي الطريق إلى الفرن، شعر كمال بالسخط، بسبب الحادثة. وبدأ

يخطط، ويرسم طريقة للانتقام من الجزيري. شتمه أكثر من مرة، وشعر بالحقد على المؤجرين، من أصحاب البيوت الذين لا يكتفون بنهب الطلاب والقادمين من الريف، بل يضطهدونهم أيضاً، ويحرمونهم من السهر، ومن استقبال الزائرين، ومن الحرية نفسها. فكر أن يتسلل إلى دار أبي محمود، فيناديه، ويقذفه بحجر ليشجّ رأسه، أو يرمي شعلة نار نحو مسكنه، ليحرق ملكيته التافهة التي حوّلها إلى شراك وساحات ترويض. نعم. هذا هو الرد الصحيح المبكر، الذي يجب أن يقوم به المقهورون ضد الظلم. ومثل ذلك ينبغي القيام به ضد الاستبداد أيضاً؛ فانتظار الظروف التاريخية الملائمة، والقوى الاجتماعية الملتزمة بالضرورات، كما يهتف القميص، كل مرة، ليس أكثر من إقصاء وحجب لما يجب عمله الآن.

حرف طريقه فجأة، ومرَّ بجانب دار الجزيري، محاولاً أن يستطلع أرض المعركة القادمة. لاحظ أن السور الخارجي لم يكن مرتفعاً من جهة الطريق. ولكن أبا محمود ملأ حافته بقطع زجاج مكسورة مدبّبة تبرز حاشدة لامعة ورهيبة، في مواجهة المتسللين. بينما كانت البوابة مصفّحة بالحديد إلى حافتها العليا. وبدت الجوانب الأخرى أكثر مناعة. فمن الصعب، مثلاً، اقتحام المكان من جهة الشمال، حيث ترتفع دار ذات طابقين. ومن المستحيل، الهجوم من جهة منزل لؤلؤة، إذ لا يجوز أن نورّط الحلفاء في حرب بعيدة عن مذاهبهم. وسوف يبقى لديه الجانب الغربي. وحين لفّ حول الحارة، فوجئ أنّ الشارع الموازي من الخلف، محصّن بحارس ليلي طويل القامة، كان يشرب الشاي، داخل محرس من الخشب. لعن الحراس الليليّين، وفكّر أن وجودهم عائق في طريق الثورة التي تنفجر عادة، في الليل، ثم تنجز مهماتها في النهار.

لكن الوقت كاد ينفد. وأمل أن يتمكّن في الغد، من وضع الخطة المناسبة، لمهاجمة الجزيري. ثم شعر بالخيبة، حين لم يجد في جيبه سوى

علبة ثقاب. اشتاق لسيجارة، وقال إن السجائر ضرورية للثورة. وقد يكون فقدانها سبباً في ضعف الثوار. ووعد نفسه بأن يكون أحد مطالبه، في الزمن السعيد القادم، ضمان وصول الدخان، كالخبز، إلى شفاه الكادحين.

تمنى لو استطاع تأجيل وقت العمل. وقال إنه يكره الفرن، لكنه رفض أن يتعرّض للخبز بأي سوء. وفي كل الأحوال كان عليه، أن يمضي إلى هناك. فمضى... والثورة ستأتي، كما فكر.

25

تشرين الثاني 1959

أمهل قاضي المذهب حليم وخيرية شهراً كاملاً، ابتداء من منتصف الشهر، لإتمام التفريق بينهما، إذا ما بقيا مصرّين على ذلك.

غير أنهما كانا قد صارا مطلّقين قبل ذلك. امتنع حليم عن مخاطبتها (حتى لو كان من وراء ستار، كما اقترحت أمها) أو رؤيتها (وهو موضوع تحريم لا يقبل أن ينتهكه أبداً). وقد أيقن، بفضل هاتف جوّاني، أن حياتهما الزوجية انتهت بالفعل، منذ أن عاد والده من دار حامد النخيل، دون رفقة خيرية. صحيح أنه شعر بالخيبة، غير أنه لم يبدِ أيَّ أسف. واستبدل بذلك لائحةً من الشتائم المستمدّة من التسميات الحيوانية (بسبب تحريم البذاءات أيضاً) التي طالت أجدادها، ووالديها. فيما حظيت هي منه بوصف «كلبة!». لكنه ما لبث أن اعتذر. حين شزره والده لائماً، وقال: «لا حول ولا قوة إلا بالله. خلّتنا بنت النخيل نغلط».

غير أنه لم يستطع إطفاء حقد قلبه. وعجز طوال الوقت عن ضبط انفعالاته الساخطة. فرفْضُ خيرية المتكرر للوساطات، بدا له عملاً شائناً ومخزياً. يجب أن تخجل منه، أو أن تعرف أنها، بإصرارها على عدم

العودة، إنما ترتكب إثماً يمكن أن يعدّ كفراً في عين الله. لكنها لا تعرف. وسوف يكون حسابها في الآخرة عسيراً بكل يقين.

لكنها هزمته. كلمة ناجزة، ونهائية، وقاتلة، ما زالت تحضر (وقد تظل موجودة هنا، بين أضلاع الصدر إلى آخر العمر) إلى ساحة تفكيره، دون توقف، طوال ما يزيد على شهر. «أنا؟!» كان يردد أمام نفسه. وقد كاد يحطّم المرآة الكبيرة، حين رأى قامته بداخلها، فلطمها بكفه (كانت قبضة قبل لحظة)، وغمغم بكراهية: «جبان!». ثم فكر أنه لم يكن جباناً بالفعل. وأن الكلمات أفلتت منه، في موقف تهلهلت فيه مشاعره. والأرجح أنه تعرّض لمكيدة، وأن خيرية لم تفهمه أبداً، أو أنها ورّطته، واستفزته كي يمد يده إليها. وإذا كان الأمر يحتاج إلى مراجعات، فإنه لن يعلن ندمه أبداً. فالله نفسه خوّل الرجل أن يؤدِّب المرأة (إذا ما تجاوزت السياج، خاصة أن خيرية، لم تقفز فوق السياج وحده، بل دمرت جدران البيت، دون أن يتمكن هو من الدفاع عنه، أو منعه من التداعي). لقد حاول بالتأكيد، وهذا ما يحزنه، ويترك في روحه، ذلك الإحساس المرّ الذي سماه: هزيمة. وسبب المرارة كان عميقاً، فخيرية هي التي حسمت كل شيء: قرار الطلاق، ونقض المصالحات. وبهذا، حرمته من أن يقول في أي يوم: «طلّقتها!». كما يمكن لأي رجل في هذه الديار، أن يقرر، أو يعلن أو يتباهى أيضاً. وما يهزّه أكثر، هو أنه ما فكر بهذا الأمر من قبل، وأن طلب خيرية، جاء صاعقاً وحاسماً، بحيث جعله يرضخ ويوافق بسبب كبرياء حمقاء (هذا ما يفكر فيه الآن) جعلته يعتقد أن الاستجابة لطلب الطلاق مهين، ومذلّ للمرأة، أكثر من رفضه، ومن محاولة إرغامها على العودة إلى بيت الزوجية، بقرارات المحاكم أو أوامر رجال الدين. لكن الحصيلة كانت هباء. وها هو شبه مشلول، ومقعد، يتلقى قرارات الآخرين، في شأنٍ يخصّه وحده. وزاده حنقاً أنه أهان حامد النخيل علناً، في اللقاء السنوي

لشيوخ المنطقة (إذ دخل، إلى مضافة إسماعيل الشنب، قبلَه). والغريب أن ذلك الرجل، (أو أي شخص من عائلته)، لم يُبدِ سخطاً ضد ذلك. لماذا؟ ماذا يحدث؟ وما دور كريم في هذا كله؟ صحيح أنه لم يعثر على واقعة واحدة يمكن أن يلمسها، غير أنه اعتاد منذ سنوات على الاستماع إلى رؤيا قلبه. وحين يعيد ترتيب الأشياء (والأقوال أيضاً) فإنّ جميع الشعاب تبدو مشغولة بظل أخيه: تمرّد خيرية، تطاولها، أطماعها الصغيرة (لم يكن متأكداً من أنها كانت وراء مطلب حامد لاعتبار الخزانة الخشبية خاصة بها)، اعتراضات زينب، جفاء البنات! من يمكن أن يكون قد شجّع خيرية أو النساء سوى هذا العاقّ الملحد؟!

يقينه كان أنّ أخاه أكل عقل زوجته، وسمّم أفكارها، وحوّلها من أم إلى مجرمة. ومن زوجة إلى ناكرة. وحين يستعيد السؤال عن الزمن، لا يجد بين يديه سوى ضباب من الوقائع، مسالك موغلة في الخفاء، لا يظهر فيها، أو منها، أيُّ تفصيل يمكن أن يكشف المستور الضائع الذي أعطب حياته.

وبين إغواء الظنون، واحتجاب الحقائق، وجد نفسه واقفاً قبالة دار خيرية. من هنا - تذكّر - رآها أول مرة، وهي تنشر الغسيل على الحبل، (ما يزال مشدوداً كما كان من قبل) هناك بين الزاوية الحجرية لآل يوسف، حيث تظهر القاعدة الحديدية المربوط بها رأس الحبل، وشجرة الكينا الكبيرة التي يحيط رأسه الآخر بجذعها.

وقد تأكدت، لديه الآن، الفكرة القديمة عن الزمن. إذ بدا كأنه فقاعة. فراغ. أو خواء في الحقيقة. يغيّب الأشياء، والبشر، والأصوات بداخله، فتبدو أحياناً جديدة، متسلطة وحاضرة. ثم تظهر أحياناً أخرى، بعيدة أو مغيّبة أو مشوّشة، لا يمكن القبض عليها.

وفي لحظاته هذه، تنبجس خيرية، بكل بهائها وجمالها، متخطّية تلك الحدود المتاهية، لتظهر هناك مرة ثانية، واقفة، ترمقه وتدعوه. أجفل،

وتمتم: «أستغفر اللّه!»، واستدار هارباً، ليجد أمامه نازي حطاب، واقفاً، يعلّق آلة التصوير في رقبته. فغمغم وهو يرتعد: «صار لك زمان هون؟»، ثم أضاف بهلع: «صوّرتني؟!». وأمسك به من ذراعه، وهزّه، وأعاد السؤال: «صوّرتني؟!».

ترنّح نازي، وغشته رعدة ذعر، وصرخ: «لا عمي حليم! لا». فدفعه بعيداً عنه، ولم يلاحظ أن خيرية كانت هناك فعلاً، تراقبه من وراء نافذتها. ولم يسمع شهقتها (وقد رأت كيف وقع نازي على قفاه)، ولم يرَ أنها غامرت باحتمالات الفضيحة، وخرجت راكضة، لتساعد الشاب النحيل العليل. «إن شاء الله ما وجعك شي؟» قالت برقّة، وهي تنفض القش، والتراب عن ثيابه. فابتسم لها، وهمس: «متعوِّد يا خالتي». ثم برقت عيناه، وقال برضا: «أهم شيء إنو حليم صار محبوس جوّا، بالكاميرا!».

في ما بعد، حين رأت الصورة، بدا حليم فيها باهتاً، يختلس النظر، مثل لصّ، إلى نافذتها. وقال نازي إنه مستعد للتنازل عن ملكيتها، إذا كانت تستطيع مساعدتها في حقوق الطلاق. فهزّت رأسها، وهي تحدّق في فراغ المساء، وقالت: «حقي يا ابن صفصافة صار هون - وأشارت إلى موضع القلب - وأني أخذتو بنفسي، أما القاضي والمحكمة والصور ما لهن شغله غير يختموا على إيدي!». وضمّت قبضة يدها اليمنى، وختمت كف اليسرى المفتوح، وهتفت: «هيك!».

كان بوسعها، استخدام الصورة لغاية أخرى؛ فحليم رفض أن يسمح لابنتيها بزيارتها. وقد ظنّت في البداية، أنه يحاول ابتزازها، لإرغامها على العودة إليه. ثم أدركت بعد ذلك، أنه ينتقم من صلابتها، ويريد زعزعة موقفها، بكسر الدعامات، موجّهاً اتهامات جارحة، مستمدة من قاموس التقاليد، وحدود الدين. وعلى الرغم من أن وجوده الثابت داخل الصورة، واقفاً قبالة منزلها، سوف يشكم ذرائعه، ويحتجز شائعاته التي بذرها في

السماقيات، ويُظهر لكل واحد من أهالي البلدة، أن روابطه الأخلاقية، لم تكن متينة أبداً، لتمنعه من القيام بفعل بات محرّماً عليه، بعد طلاقهما. فإنّ خيرية رفضت استخدام الوسائل الملوّثة، لأن كرامتها، كانت دائماً، أوسع من مكاسبها. وهكذا، فإن وجود تلك الصورة، لم يكن يعني لها شيئاً سوى استعادة الماضي. لكنه بدا شبيهاً بعلك اللجام، لا طعم، ولا معنى، ولا رائحة. وقد ظهر حليم هنا، بعكس تلك الأيام، كئيباً، مشوّشاً، يكاد يتداعى (قال نازي إنه اضطر لالتقاط الصورة، رغم أن زوبعة غبار كانت تهب على المكان، وتربك وقفة حليم)، وبعيداً عن الذكريات. فطلبت من نازي أن يحتفظ بها. قالت: «ما بتلزمني بأي شيء»، ثم أضافت بروح معلّم: «لازم تعرف يا ولد، إنو الراس المرفوع وحدو هو يللي بيقدر ياخذ حق». وقد تأكد الآن، أنّ مجيء حليم إلى الموقع القديم الذي شهد أول النظرات بينهما، لم يكن تعبيراً عن الحنين، أو الشوق (أضحت الآن تحتقرهما)، بقدر ما كان دليلاً على صواب خيارها.

قال نازي: «خلّيني صوّرك!». فرمقته بعينين مضيئتين، ثم حلّت منديلها من الخلف، وانتزعته، فانسدل شعر أسود كثيف ضفر بياض وجهها، وقالت: «يا الله!».

في الصورة، ارتسمت ابتسامة ظفر على شفتيها. تفرّجت عليها ذاهلة، وقالت لنازي: «منين جبتها؟». فقال ضاحكاً: «يمكن كانت متخبّية وراك». وجحظت عيناه، حين سمعها تقسم: «إي والله! هذا هو الصحيح!».

لكن حليم ظلَّ يرفض إرسال نجوى ونجاة لتراهما. ولم تجد من يرغمه على الاستجابة. وقد اكتشفت أن معظم الرجال الذين طلبت من أبيها، أن يكلِّفهم بالوساطة، رفضوا ذلك. وعاد المعلّم توفيق خائباً. ويوماً بعد يوم، بدأت تشعر أن عدالة الأختام التي آمنت أنها تخصّها، لم تنتج، أخيراً، سوى الخسارة. صار شوقها لابنتيها يحكّ أحشاءها

كلها. وبدأت دمامل صغيرة تظهر في فخذيها، وتحت إبطها. ثم امتلأت شفتاها بقروح قاتلة، قالت أمها إنها قبلة حمّى، فهزت رأسها كالعليلة. ثم بدأت تعصب رأسها بمنديل أسود، لتمسك ذلك الصداع المحطّم الذي يلتهم أطرافها، محاولة أن تحيل المظاهر إلى المرض وحده. إلى أن جاءت رندة برفقة ابنها الصغير، لزيارتها. فتحت الباب لها، وقالت: «لا تبوسيني، وجهي صار مثل الغربال». لم تكن قد رأت الولد بعد، غير أنها تداعت، وانهارت، حين أمسكت يده بكفّها، وتهدج صوتها وهي تسأله: «كيفك ولا؟»، ثم انخرطت في بكاء منكوب طافح بالحسرة. وراحت تهمس لرندة، وهي تنشج: «اشتقتلن! ولك اشتقتلن! صرت بدّي جنّ. أو بدّي موت، من شان الله!».

كانت تحتضن الصبي، أو تقبّله، أو تدسّ أنفها في ثيابه، آملة أن تشم وراء المسامات القطنية، رائحة الضنى التي حُرمت منها. ثم تطلّعت نحو رندة وسألت: «شو بعمل؟ دخلك!». قالت رندة: «بتعرفي؟ ما حدا بيساعدك غير زينب».

كانت تعرف ذلك. وقد اجترحت زينب، أكثر مرة، مأثرة زيارتها، متحدّية حرب العائلات التي نشبت بين آل الزهر (عدا عبود وكريم) وآل النخيل. غير أنّ تحديات زينب لم تستطع اختراق الموانع التي بناها حليم حول البنتين. «سامحيني!» كانت تقول.

لكن وجود زينب في الدار، كان يمنحها نعمة الطمأنينة إلى أن نجوى ونجاة ستظلان محميّتين تحت سقف العمّة. وبهذا فقد غابت تلك الهموم التي تشغل الأمهات المبعدات اللواتي يقلقن من أن تكون بناتهن قد جعن، أو حُرمن من الثياب، أو نمْن بلا غطاء أو قهرتهن زوجة أب.

وما عجزت عنه هو علاج الشوق لرؤيتهما، واحتضناهما. لذلك، فكرت أن تطلب من رندة، استخدام نفوذها لدى حسن اللوف، كي يتوسط

مع لقمان لقمان. ثم عدلت عن ذلك، حين تذكرت أنها هي نفسها كانت قد ردت لقمان خائباً، من قبل.

رندة كانت تحمل اقتراحاً آخر. وقالت لخيرية إنها تستطيع أن تدبّر لها عملاً في بيروت، يكفي أن توافق، ليكون حسن مستعداً خلال أسبوع. فسألتها: «هذا من عندك ولا من عند حسن؟». قالت رندة: «من عند حسن». ثم شرحت لها إنه صار يهتف: «الله أكبر» حين سمع أنها طلبت الطلاق بسبب صفعة. فكشّرت خيرية، وهي تشعر بالغلّ، وقالت: «فرح يعني؟ شاف خراب وصار ينعق؟». قالت رندة: «لأ؛ ما فرح بالطلاق. بس قال إنك مفخرة». نظرت خيرية إليها من الجانب، نظرة حزينة، وهمست: «رندة! أنتِ كذّابة!».

فعبّت رندة الهواء، وسعلت، وقالت: «إي والله!» ثم دمعت عيناها، وبكت، وتابعت: «لا تزعلي مني. بس هالكلب مفكّر إنك صرت سهلة». وبدا عليها الجزع، فأضافت: «بس من شان الله لا تقولي شي! بيخرب بيتي». لكن خيرية كانت ساهمة، يذهب بصرها بعيداً، وبدت كأنها لم تسمع ما قالت رندة، واستدارت نحوها، ووضعت يدها فوق ركبتها، وسألت: «يعني حسن يمكن يدبّر لي شغل؟».

ذُعرت رندة من برود الكلمات، وغمغمت: «نعم؟».

«وهذا معناه» تابعت خيرية: «إني رح سافر، وإني رح أجمع مصاري، يعني ممكن بعد سنة يصير معي ألف ليرة، ألفين. ساعتها باخذ البنات. وما حدا بيقدر يمنعني. صحيح يا رندة؟».

قالت رندة: «لكن أني قلت غير هيك. لا تنسي. حسن شايف إنو هوّ رح يطالع مصاري، مش أنت».

فردّت خيرية بحسم: «حسن حر، كل إنسان حر يفكر مثل ما بدو. حقّو. لكن مش كل ما فكر واحد بشي بيلاقيه ثاني يوم».

«وهذا ينطبق على حضرتك» قالت رندة بحنق.

«الفرق بيني وبين حسن، إني بعرف شو عَ بفكر. وهو ما بيعرف شي عن تفكيري!»، ضاء وجهها كله، وهتفت كأنها اكتشفت كنزاً: «صح؟!».

ضيّقت رندة عينيها، وهي تتابع خط الكلمات، وقالت مستسلمة: «هذي صح!».

«عظيم» أضافت خيرية: «مش ناقص إذاً غير تقولي إني موافقة روح عَ بيروت»، ثم قالت معجبة: «آآآآه. بيروت! العمى! والله بحياتي ما فكرت فيها. بيروت!!». وراحت تردد الكلمات بطراوة ولطف، كأنها تحبك أطرافها. ثم أمسكت يد رندة، وضغطت عليها بحنان، وقالت: «ولك الله يخليك!».

بدت رندة قانطة، وراقبت خيرية من وراء رموشها. فالمهمة التي جاءت من أجلها، نجحت بيسر مرعب، مما أشعرها بأنها حاملة شؤم. وقد عرفت أن خيرية ستذهب إلى متاهة، لا إلى كنز. ولكنها حين تأملت وجه صديقتها، عرفت أن لا شيء في الدنيا قادر، بعد هذه اللحظة، على إخافتها. فاستسلمت لما سيصير، وهي تقسم أن تقدّم لها كل ما تستطيع، من أجل أن يكون مصيرها الآتي بقدر حلمها الوليد.

من كتاب السفر

أيار 1959

الآن فقط، بدأت البيوت ترحل وراء أصحابها؛ ففي الشتاء، والربيع الماضيين، استطاعت رطوبة المنازل، وماء الأرض العميقة، التي تظللها كرمات عنب، أو متسلقات لبلاب، أو رقاعات تنك، أن تبقي اللون الأخضر صامداً. صحيح أنه كان باهتاً، يميل إلى الذبول، غير أنه يزهو بلون الحياة، مضيفاً على تلك المنازل التي تركها أصحابها، لون بقاءٍ ممكن.

قبل أسبوع، زرت بيت توفيق أبو رحمة، فهتفت دون أن أملك القوة على منع نفسي: «يا الله!». وأظن أن بنات علي التوت سمعنني، وسمعتهن يضحكن: عجوز متهالك يكلّم نفسه!

لم يكن السبب، في الحقيقة، أنّ المنزل كان قد تحوّل، خلال بضعة أشهر، بعد سفر توفيق، إلى مكان غريب موحش فقط. فهذا الأمر طبيعي، أو منطقي، يعود إلى ما أسميه ضرب الاعتياد. ومنذ رحيل توفيق، لم أحضر مرة واحدة، إلى هنا، بعكس ما كنت أفعله، أثناء وجوده.

السبب هو أن تأثير الهجر، على المنزل، كان مذهلاً بالنسبة لي. فخلال مدة قصيرة من الزمن، بدا البيت، كأنما مضى عليه دهر. فالحشائش لم تصبح صفراء شاحبة وحسب، بل تكسّرت وتناثرت في باحته. وشجرتا

الرمان يبستا، وتحوّلتا إلى شبكة من الأغصان المتفحمة القاتلة. وهو ما حدث للتينة الكبيرة التي فاجأها خريف كارثي مبكر، أصابها برضوض كثيرة، فظهرت بقع سوداء ممتدة على جذعها وأغصانها، وحباتُ جدري محاطة برذاذ أبيض، ناعم، لزج، جعل منظرها منفراً. والغريب أن غرف المنزل تهالكت بسرعة! كيف يمكن أن يهترئ باب خشبي، مثل باب الغرفة الشمالية، بهذا اليسر؟ كيف يمكن أن يتخلخل، وتنتزع مساميره؟ والأدهى من ذلك، أن الطين الذي كان يثبّت الإطار، إلى الأطراف الحجرية (هو طين إسمنتي جدّده توفيق قبل سنتين فقط) تكسَّر وتساقطت قطع كبيرة، أو صغيرة منه، على الأرض، بحيث بدأ يظهر من الشقوق، أثاث البيت، الذي كان مكوّماً في الوسط، وقد علاه الغبار، وخيوط العناكب التي حطّت عليه من أطراف الغرفة الأربعة.

وفي الغرفة الثانية، انخلعت إحدى ضلفتي الباب (أظن أنها الضلفة اليمنى) من الأعلى، فمالت نحو الخارج، وصار، بسبب ذلك، بوسع الجرذان أو أي حيوانات قارضة أخرى، أن تدخل وتخرج، دون مصاعب. وكان أثر ذلك جلياً؛ إذ حطّمت تلك الحيوانات الرهيبة الأشياء المتروكة هناك، دون رحمة. فامتلأت الأرض الأسمنتية بخليط كثيف من الفتات المقروض، المأكول، المؤلّف من بقايا ثياب وخشب وأوراق. فيما كانت أسرة من الفئران تذرع المكان، بلا توقف. ولم يكن منزل نجيب الخميري أفضل من ذلك، لكن القطط كانت تملأ المكان. وقد أثار حيرتي ذلك التضاد الحزين، بين صاحب البيت المهزوم المسافر (وقد عادت زوجته إلى منزل أهلها)، وقاطنيه الجدد الممتلئين الزاهين بولادات لا عدَّ لها، بعد ذلك الجماع الشتوي المجنون. لماذا؟! سؤال غامض، صدم رأسي حين رأيت قطيع القطط الذي يتمرغ في باحة الخميري، دون أن أعثر على جواب. وقد تمكنت تلك الكائنات البهيمية (التي لم أشعر بالحب تجاهها

أبداً، لإحساسي بأن في وجهها، عبوساً ضغينياً يحتمل أن يكون مدمراً) من احتلال المنزل كله، بعد رحيل نجيب. لم يكن بوسعي، وليس بوسع أي واحد من سكان السماقيات، أن يدفعها، بعيداً عنه؛ فقد أضحى المكان ضرورياً لوجودها. وأخشى أن يصبح وجودها ضرورياً للمكان. وعندئذ، تكون قوة الحياة قد انتصرت. وسوف يكون انتصارها ساخراً من كل شيء. خاصة منا، نحن البشر، الذين ما نزال ندّعي أن القيم تخصنا وحدنا. ومنها بالطبع، تلك القيمة الغائرة في الزمن، عن التمسّك بالأرض، والمكان. فالظاهر أننا لا نتمسّك إلا بأنفسنا! وهكذا، فإن توفيق أبو رحمة، ونجيب الخميري، تركا منزليهما، دون أيِّ تردّد، ورحلا، كلٌّ في اتجاه، بحثاً عن نفسيهما.

أيار 1959

وصل محمد الورق، قبل أسبوع، إلى السماقيات. والمذهل أنه كان اختفى قبل أربعة أشهر، دون أن يعلم أحد من سكان السماقيات أيَّ شيء عنه، واكتشفنا، في ما بعد، أنه كان سجين المباحث، فقد أخذوه، ليحقّقوا معه، حول حديث «مختلق كاذب» (أقسم الورق لي أكثر من مرة، أنه لم يشتم الرئيس جمال عبد الناصر، ولم يعلن عن تأييده للشيوعيين (كيف؟)، ولم يقل إنّ عبد الحميد السراج ليس سوى قاتل، ارتدى البدلة العسكرية خطأً، بدلاً من أن يرتدي ملاءة الجزار. وهذه هي لائحة الاتهامات التي وجهت إليه، فعُذِّب، وضُرب، وزُجّ به في الانفرادية، مدة شهر كامل، وانتُهك، وحُلق شارباه من أجلها)، لم يستطيعوا إثبات صحته قط، لأن محمد ظلَّ طوال الوقت، يرفض الاعتراف بما نُسب إليه. كما أن الدليل الوحيد لدى المباحث، ليس سوى تقرير وحيد كتبه أحد عملائهم في السماقيات. صار الورقُ عدو محمد الورق، فقال لنفسه إنّ ابن الورق لا يمكن أن تُسقطه

أو تحطّمه أو ترغم لسانه على الزلل، قطعة ورق رديئة مسطّرة بكلمات لئيمة. قال ذلك لحظة اعتقاله. ولم تكن لديه فكرة عن وسائل التعذيب التي يتّبعها رجال المباحث. فقد كانت مشاغله، منذ صغره، تنحصر في الحلم بالمال. ولذلك فقد تمكّن من تجسيد حلمه، بصورة آلة اشتراها من الشام، لطحن الأقمشة من ثياب رثة، أو عتيقة ممزقة، وتحويلها إلى نثار قطني، أو صوفي يستعيد شكل وجوده السابق.

كان هذا عملاً عبقرياً، أهداه لفلاحي المنطقة الفقراء الذين لم يكن بوسعهم، شراء الصوف أو القطن لحشو فرشهم أو لحفهم أو وسائدهم. وخلال بضع سنوات، كانت مطحنته تتوسع بإضافة آلات أكبر، أو بتشغيل عمال جدد. حتى بات محمد الورق صاحب ورشة صغيرة، تدر عليه مالاً يعادل حصاد نصف أراضي السماقيات، من الحبوب. وقال ابن مالك مرة، إن محمد صار برجوازياً. ومنذ ذلك الوقت، لقبوه بهذا الاسم، مع تغيير في اللفظ يُميله، ويخففه. وأظن أن بعض الناس كانوا يشتمونه به، كما يعتقدون. وربما كان السبب أنه اغتنى من جسد مهنة لها سيقان الفقر. ولا أدري ما إن كان هذا هو السبب الذي دفع أحد عملاء المباحث، لتقديم تقرير ضده!

خربت المطحنة في غيابه. ورأيت، حين مررت بها، كيف يملأ الصدأ والغبار، أطراف الآلة المسكينة، وتسللت إليها الجرذان أيضاً (كأن الخراب لا يكتمل إلا بها)، كما ظهرت في الجوانب، آثار محاولات اللصوص لاقتحام بيت البرجوازي. وهي مفارقة لئيمة. فابن الورق لم يفكر إلا بسرقات الناس، بينما كان الزمن يثبت له أنه (أي الزمن) أكبر لصّ في التاريخ.

لم يجد محمد أحداً في استقباله بالطبع. واتضح له، حين التقى بسليمان حديد (وكان قادماً للسهر عند لقمان) أن أبناء بلدته ظنوا أنه سافر

إلى الخارج. فصاح: «ولك لأ. كنت بالحبس عند المباحث! ما بتعرفوا؟»، ثم أضاف، بلهجة ازدرائية: «مين ابن الحرام يللي فسد عليّ؟ ولك ما حدا بخاف الله!».

لم يكن يصدّق سليمان حديد، وظنّ أنه يحاول تعليل الصمت الذي أحاط باختفائه، وتبرير الغياب المطلق لأي زائر، توقع أن يسأل عنه هناك، طوال المدة.

غير أن سليمان ما كان يكذب، فالمباحث اعتقلت محمد في السويداء. والصحيح أنه اختُطف، كما عرفت منه، ثم اختفى. وحين أعلم المختار مخفر الشرطة بذلك، لم يبدِ مدير الناحية أيَّ انشغال، بل قهقه، وهو يحاول معادلة اسم المختفي باسم آلته قائلاً: «إذا رحل ابن الورق، فمن سيطحن الخرق؟»، ثم أُحيط اسمه بالنسيان، يوماً بعد يوم، إلى مساء عودته.

نبأ ظهوره، وسر اختفائه، عمّا البلدة، خلال الليل. ولكن محمد ظلَّ وحيداً في اليوم التالي، جالساً في مضافته، مشرعاً أبوابها ونوافذها، ينظر نحو السماقيات، وينتظر من يأتي للسلام. لم يأتِ أحد. وحين وصلتُ مساء، كان قد شرب نصف دلّة القهوة المرّة التي أعدّها ليلاً، وبطحة عرق، وعلبة دخان. وهمس، وهو يحدجني بعينين محمرتين: «ليش هيك يا بو فيصل؟ أني شو ساويت؟».

لم يكن بوسعي، إلا أن أدافع عن الناس، محاولاً تبرير إحجامهم المشين عن المجيء لزيارته. ولكن مسوغاتي كانت واهنة وضعيفة، إذ لم تقدّم له سوى الذرائع التي تتعلّق بمشاغلهم، وهمومهم، والضغط الذي يجثم على صدورهم بسبب القحط والجوع والحاجة والعطش المرعب الذي يقبلون عليه، مع اقتراب الصيف، دون أن أذكر السبب الحقيقي، وهو خوفهم من أن تصبح أسماء من يأتون جزءاً من سطور تقرير جديد يرفعه أحدهم (من هو عميل المباحث؟ من هو؟) إلى الجهات الأمنية. ظلَّ

محمد صامتاً، ينظر إلي بلا اهتمام. كانت عيناه مليئتين بلون دموي أسيان. واكتفى بهزّ رأسه. وصبّ لي ستة فناجين قهوة، ثم بصق في الهواء، نحو مجهول، غائب، غامض، بعيد. لم أسأله ماذا يعني بذلك، أو من يقصد. ولن أستطيع، لأن محمد رحل بعد ثلاثة أيام من خروجه. أحرق منزله ورحل. كأنما أراد أن يقول للجميع إنه قادر على القيام بشيء لم يقم به حقد البشر، أو سرقات الزمن. وقد تجمهر أهل السماقيات جميعاً، هناك، حول البيت والمطحنة الملتهبتين معاً، دون أن يفعلوا شيئاً (إذ لم يكن لديهم ماء يكفي لإطفاء موقد!). راقبوا النار، وهي تلتهم دار محمد الورق، جداراً بعد آخر، كأنما كانت تبتلعُ اسمه، وكنيته أيضاً.

26

أول كانون الأول 1959

كان نبأً طائشاً في البداية، ثرثر به دركيان زارا لقمان لقمان، في إحدى الدوريات، عن الزيارة المرتقبة للرئيس عبد الناصر، إلى المحافظة. لكنه تحوّل في المساء، بعد البلاغ المباشر، إلى حقيقة. فأرسل لقمان محمد الحواط، يدعو جميع رجال القرية إلى اجتماع أهلي، يعقد في مضافته. هناك أبلغهم النبأ السعيد، ثم أوضح لهم، بلهجة القائد القديم الذي استعاد نشاطه بعد تقاعد ممل، أنّ الأوامر من فوق (هذا ما افترض أنه سيكون عليه خطاب السلطة المستقبلي) تقضي بأن تستعد السماقيات لاستقبال الرئيس، بما يليق به، ملحقاً خبره ودعوته، بمديح التقاليد والتاريخ والحاضر الخاص بهم. فوجئ، هو نفسه، بالطلاقة الخطابية التي كانت تعمّ المكان المشبع بدخان السجائر والصمت. وما أغراه بالمتابعة، أنه لم يكن يكذب. هكذا أحسّ. فبهجته بزيارة الرئيس كانت عميقة وصافية وصادقة. واستطاع أن ينقل عدوى الفرح إلى الحاضرين جميعاً. ساد الهرج، وتعالت الأصوات، وتداخلت، وصفق أكثر من واحد: عمار التوت وعلي شمال وسعد الخضرا، وعلي الورق. وكان هذا مرضياً له. شعر بالفخر لأنه تمكّن من تسوية وضع قديم، كادت تشوّشه، أو تضعفه تبدّلات الأيام.

فاجتماع السماقيات في بيته، لم يكن إشارات احتفاء بالضيف القادم فقط، بل وصلة جديدة، تدل على أن قطب آل لقمان، ما يزال يجذب إليه أنظار الناس هنا. يكفي هذا كي يسعده، ويكفي أن يكون قد استعاد شيئاً من هيبة البيك القديمة، كي يشعر بالامتنان تجاه جمال (لاحظَ أنه يفكر فيه كاسم، كمقرّب، لا كقائد) وفكّر أن في شخصية هذا الرجل، سحراً جاذباً، يحتجز العِواطف، ويشدّها إليه، ويشدّ، كذلك، أعداءه ومعارضيه. سطوة. حضور عميق. صوت رنان تضفي عليه تعديلات البث الهوائي نكهة الراديو المميزة. تذكر أنه رأى اهتزازات مخمل «السيرا» حين كان عبد الناصر يهتف ضد من أرادوا اغتياله، يوم تأميم القناة. لم يُخفِ، آنئذ، إعجابه به، مغامراً بارتكاب مخالفة حزبية (هل كان مديحه لعبد الناصر، سبباً في امتناع قيادة الحزب، عن ترشيحه لمقعد النيابة؟ ظنٌّ مرعب!).

رضاه من كل ما يحدث أمامه، دفعه ليسأل: «هاتوا لنشوف! شو رأيكم. كيف يمكن نستقبله؟». منذ هذه اللحظة انتبه توفيق الخضرا إلى أن هاء الغائب صارت بديلاً حرفياً للرئيس، فامتلأت المضافة بصخب الاقتراحات. كان يعرف ماذا يريد. وقد بتّ في الخطة، منذ الصباح، وأصبحت الآن - فيما يتجادل الموجودون في الممكن والمستحيل - جاهزة. تنتظر أن تتجسد. أشعل سيجارة، وتعمّد أن يرمي العلبة الأجنبية الحمراء، على طرف الفراش. نفث الدخان الناعم الطري وسط معمعة دخان البافرا والطاتلي. وكما قدّر تماماً، فإن الحركة الخاصة به (حين تململ قليلاً، ووضع ساق رجله اليسرى مطوية، تحت فخذ رجله اليمنى، وتنحنح) أطفأت الثرثرات. فقال عمار التوت: «رأيي يا بو علي، إنّا ندعي الرئيس حتى يزور البلد»، فراقبه لقمان بطرف عينه، وقال: «يعني بدك جمال عبد الناصر يجي لعندك؟». ارتجفت شفة عمار، واختنق صوته، وقال: «لأ! لأ!».

سعل لقمان، طارداً ركام دخان من حلقه، وقال: «ولك يا عمار، هذا جمال! الناس بتروح لعندو وبس». فأطرق عمار، وراح يلف سيجارة من علبة الفضة المليئة بالتبغ الحموي. لقد أدرك أنه أخطأ. وفكر أنه لم يكن معنياً، في الحقيقة، بما إذا كان عبد الناصر سيأتي إلى السماقيات، أو إن كانت السماقيات سترحل إليه. وما شغله هو الخطر المترتب على خطأ من هذا النوع من جهة، وغضب لقمان البرقي الذي أحرق وجوده من جهة ثانية. أراد أن ينهض ويغادر، لكن قدميه لم تسعفاه. أعطبهما الخذلان. شعر بالدوار، وطلب ماء. كان لقمان يراقبه. سرَّه عجزه، والتفت، حين أيقن أنه صار قمامة، نحو الحاضرين. كان ذيب عجيب يريدُ أن يتكلم، فأخرسه بإشارة من كفِّه المفتوحة. وشعر بالرضا، لأن كفه استعادت، تحت جناح الزيارة المرتقبة، قوة ردعها القديمة. غشى الحضور صمتٌ مكروب. وقال لقمان: «أني بشوف إنا نستعد من بكرة، كأنو السيد الرئيس رح يوصل يوم الجمعة! يعني نتحضّر من اليوم!».

كان اقتراحه أن تقيم السماقيات سرادق احتفال ضخماً للاستقبال. لم يعرف الحاضرون معنى الكلمة الجديدة، فاضطر للوقوف من أجل أن يبيّن المكان المقترح في الفضاء الداخلي لمحيط الرجال، مثلما اضطر لذكر مكوناته من الأخشاب (وهي جذوع حور)، والأقمشة (وهي بسط عربية)، والفرش.

على الرغم من أن مشروعه بدا تافهاً في نظر توفيق الخضرا، فإنّ مستوى الإرهاب بداخله، كان كافياً لإسكات إمكانيات المناهضة. ولم يكن في الخطة، أي ثغرة أو التواء يُمكِّن أحداً من اقتحام أسوارها. أما التفاصيل، فقد كانت كافية لإرغام الجميع على الانضواء والمشاركة، في أعمال بناء سرادق الاستقبال. قال توفيق في نفسه: «يا خبيث!». فالرجل الذي لم يعد يملك أرضاً، ما يزال قادراً على قيادة جيش من الفلاحين.

شُكّلت لجنة لجمع التبرعات. أعضاؤها هم: لقمان، وعمار التوت (من أجل سيارته أيضاً)، وسلمان عجيب، وحمود شمال، وابن مالك، وتوفيق الخضرا (الذي لم يستطع رفض التزكية التي منحه إياها لقمان، كهدية)، وذيب شمس، وعبود الزهر.

وفي أول اجتماع لها، منحت نفسها صلاحية التهديد بالنبذ والتشهير واتخاذ إجراءات عقابية صارمة، ضد كل من يمتنع عن المشاركة في الضريبة على دفاتر العائلة، من أجل جمع المال. القرار الثاني هو إسناد مهمة رئاسة فرع لبنان، لحسن اللوف. وكتبوا رسالة بهذا الشأن، سيحملها مسعود شمال، حين سيسافر. قرروا أيضاً، شراء أعمدة حور من آل الجمّال، وتكليف عمار التوت شراء الأقمشة وأوراق الزينة والأعلام واللافتات الخاصة بشعارات السماقيات.

نهض لقمان، وفتح إحدى النوافذ، وقال مخاطباً المعلّم: «ما حدا غيرك يا بو فيصل رح يكتب الكلمة، منشان إلقيها قدام الرئيس»، فقال توفيق باحتقار: «أني مش كاتب عندك يا لقمان». فارتعش جسده، ولكنه ضبط انفعاله، وقال: «طيّب، أنت ألقِ الكلمة».

فقال توفيق: «كمان مش أنت بتقرر هذا الشي».

«إي» قال لقمان: «طيّب! منشوف».

المشكلة الطارئة الثانية، هي أنهم لم يجدوا حيوانات لحمل مستلزمات بناء السرادق والملحقات الأخرى. فقرروا استعارة عدد من الحمير الفالتة في سهل الزرازير، وتلال الغربان.

سيتحدّث الجميع، في ما بعد، أن ابن مالك، كبّلهم، وشلَّ تفكيرهم، بانزلاقه كالسمكة، من مكانه، إلى الفراغ المثلثي بين فخذي لقمان، حيث ركع، وقال: «شبّيك لبّيك يا بيك!»، عارضاً نفسه، ووقته لأداء المهمة النبيلة المقترحة.

ودون أن يفكر لقمان لحظة واحدة، أعطى موافقته، وهو لا يعرف (كيف يعرف؟) أن تلك الثواني الحماسية المتأججة المفعمة بالعتبات السعيدة، ستكون ندماً، وخيبات، لن يكفيه، في ما بعد، كتاب من التأنيب، وقرض الأصابع، والرغبة المستحيلة في عضّ الكوعين، كي يستعيد كلمة «بارك الله فيك» التي منحه إياها، أو الليرات الألف التي قدّمت له، بعد أسبوع، لشراء الخشب.

ابن مالك، قاد ثلاثة رجال، من خارج اللجنة، بعد يومين إلى السهل القريب. كانت ستة أو سبعة حمير تجرأت واقتربت من البلدة، حتى صارت وراء حيطان البيادر الشرقية، تتشمم عبق ما تبقى من ذكريات سنوات الغلال. فقسم ابن مالك فريقه إلى قسمين: اثنان اتجها ناحية الشمال، وآخران ذهبا مباشرة إلى الموقع، عبر طريق الوادي. لكن الحمير التي اعتادت حياة البراري، أضحت شموساً لبّاطة. فأجفلت، حين لمحت أول قامة بشرية تدرج نحوها. سارت الهوينى أولاً، متراجعة نحو الوعر، ثم أسرعت أكثر.

شرح ابن مالك لفريقه، بعد اللقاء الفاشل الأول، أن جغرافية المكان، وعظمة المهمة، لا تسمحان بالتهادن تجاه هذا الرفض الصريح المتذمر الذي أعلنته حمير، كانت منذ بضعة أشهر، تتوسل طالبة حفنة شعير. الحقيقة أنه حقد عليها، فأصدر أمر القبض عليها، بأي شكل، وركض أمام الجميع، طاوياً المطبات، قافزاً فوق الصخور، بخفة نمر، محاولاً أن يسبق الحيوانات، ليقطع عليها طريق الهرب.

وبفضل المهارة من جهة، وقامات الصخور من جهة ثانية، تمكّن هو ورفيقه، من الوصول إلى الجرف، والانحدار منه نحو الطريق الإجبارية الضيقة. كانت الحمير، قد ذُعرت، وتشرذمت، بسبب الهجوم الشمالي الذي نفّذه الفريق الآخر. ولاحظ ابن مالك (وهو يضحك) أن ثلاثة منها

على الأقل، اتجهت نحوه. بدا حمار المقدمة ضخماً وكبيراً، يرفع رأسه، وأذنيه، وينهق، وهو يرنو إلى المهاجمين، غافلاً عن فخ الصخور. أمسك ابن مالك بحبله، ووسّع فتحة الأنشوطة، وشدّ عقدتها، حتى إذا صار صيده بجواره، وثب نحوه، فيما رأى، في اللحظة الحاسمة ذاتها، شهاب الهراس، رفيقه، يتعلّق بعنق الحمار الآخر.

في جميع المرات، كانت مثل هذه الخطة المراوغة، تنجح وتعيد الحمير المشاكسة إلى بيادر الطاعة. وقد استطاع ابن مالك بالفعل، أن يقبض على الحمار الرمادي الأشعث من رقبته. غير أنه فوجئ (خلافاً للأعراف الراسخة) بأنه لم يستسلم له. فقفز ونطّ كالحصان، ناهقاً ذلك النهيق الغريب الذي لم يسمعه بشر من قبل. نهيقٌ احتجاجي رافض مشبع بعنف نادب، ناقم، ودغلي. جرى بابن مالك، ليتسلق الرابية الوعرة، ويفلت من هناك، إلى عمق الوعر. ورغم أن ابن مالك أعطاه مَدّاً كافياً من الحبل، لكن الحمار ظلَّ مندفعاً إلى الأمام.

ما كان يعلم أن ذلك النهيق كان نداء استغاثة، إلا في اللحظة التي رأى فيها، ثلاثة ذئاب متأججة، ساخطة، تعدو قادمة من شعاب الصوف. انتابه هلع أحمق جعله يتمسّك بالحمار المندفع، بيديه الاثنتين، وهو يصرخ.

وصراخه زاد في هيجان الدابة، والذئاب معاً. فالحمار انتفض ومال نحو المنحدر، وهو ما يزال يعدو، في خط منكسر متعرج، ثم وقف فجأة، أملاً أن يقذف البشري المشدود إليه، والذئاب أحاطت بهما كليهما، وبدأت تحاول نهش أحدهما، فيما ظلَّ ابن مالك، بقوة الروح وحدها، ملتصقاً بالجسد الحيواني الراكض.

الحظ أو الضلال، ساق الحمار إلى متاهة الطرق التي تفصل حواكير السماقيات، بعضها عن بعض. دروب ضيقة صخرية، أخفت المنازل عنهما، وقرّبتها في آن واحد. اصطدمت قدماه بالحجارة، بجذوع الشجر

الميت، أو بشبكة أشجار الرمان التائهة، قرب ضفاف الوادي. وحين اندفع الحمار نحو أجمات الريحان التي وخزت لحمه، كاد أحد الذئاب يقضم ساقه، في اللحظة التي سمع فيها ضجيج رجال، برزوا، راكضين من وراء الحيطان، يصرخون، ويلوّحون بعصيّ وحبال.

انسحبت الذئاب، وهي تحمل بذور شهوتها، وعواءها الخافت المرتجف، على مهل نحو الشعاب، وتصاعدت من شراذم الحمير المحاصرة، همهمات غامضة، وأصوات بحّاء، وحركات غريبة ملغزة.

غير أنهم اكتشفوا، في اليوم التالي، أنها باتت بعيدة عن القرية، في السهول الجوفاء، تسرحُ براحة، باحثة عن غذائها، فيما ظلت الذئاب تحوم حول تجمعاتها، وتنتقي كلما جاعت، أحدها، لتلتهمه. يثور غبارٌ فاترٌ، ويُسمع نهيق تافه، وتتصاعد رعشات القتيل لحظة، ثم ينتهي كل شيء.

*

إضافة إلى حطامه، اكتشف ابن مالك أنه صار عاجزاً عن الكلام. فحين أراد أن يرد على سؤال أبي علي لقمان وسلمان اللذين جاءا لزيارته، لاحظ أنه لاك الكلمات، وداس على بضعة حروف. مرَّغ الرد، ومطَّ حرف الحاء في حمده، وشعر أن لسانه صار كاللجام. برقت عينا الرجلين، وتبسّم سلمان الجدي، ورنا إلى لقمان، ثم أطرقا، ولم ينطقا. فابن مالك أصابته لقوة سرية غامضة، رجحا أنها كانت رابضة في جسد الحيوان الذي قبض عليه، أو على بوز أحد الذئاب التي طاردته، أو في هواء المكان.

وابن مالك لم يصدّق ما حدث، وتناسى فشله في النطق، معتقداً أن الأمر ناجم عن زلة لسان طارئة. كان متحمساً لرواية حكاية الأمس، قبل أن تشيع قصةٌ مزوّرةٌ، يمكن أن تلصق به سبّة صراع مع حمار؛ فتضيعُ الحقيقة (التي سيظل يفخر بها طول عمره) من أن معركته، إنما كانت مع الذئاب. غير أنه عجز عن نطق كلمة «ذيب» فارتعش جسده، عرته هزة

رعب. وجازف مرة ثانية، بلفظ كلمة ثانية، هي «الصخرات»، فخرجت ناقصة، محورة، شبيهة بـ«سهرات». ضحك لقمان وسلمان بصوت مرتفع لم يستطيعا كبته، وربّت لقمان على كتف ابن مالك، وقال: «ما عليك! ما عليك! يمكنك لاقيت شي رصد بطريقك! الظاهر يا ولد إنهم صاروا حلف مع الحمير!».

جحظت عينا ابن مالك، وأطلق صوتاً وحشياً فاجعاً، حين اعتقد أن معنى تلك الكلمات، يعني أنه سيصير مشلولاً أبكم، إلى الأبد.

*

بعد يومين، جاء سلمان الجدي مرة ثانية، وأبلغ ابن مالك، أن عليه أن يعيد المال إلى اللجنة، لأنّ شخصاً آخر سيتولى المهمة. كان الجدي يتحدّث بحيادية وقسوة وشماتة حقودة. فقال ابن مالك بإصرار: «لا... و... الله!». ثم صمت، وحدّق إلى عيني سلمان. توقف رمشاه عن الحركة، وجمدت نظراته، وصار مثل شبح، فاضطرب الجدي قليلاً، وغمغم من وراء دخان السيجارة: «أنا رسول، وما عليّ غير البلاغ». فرأى من جديد، وجهاً شاحباً يابساً، يقول: «لا!».

رفضه كان نابعاً من ردٍّ فعل مباشر، شحذه شعور بالخذلان من بلدة تتخلى عنه، بلا رحمة، بعد ساعات من إصاباته. إضافة إلى إحساسه العميق بأن رجلاً عرَّض نفسه لكل تلك الأخطار، ورقد في الفراش مثخناً بالجراح، وكاد يتحطّم في صراع مع الذئاب (ستخرج الحمير الأسيرة في باكته من تفكيره دائماً)، جديرٌ بأن ترتفع مكانته، وتسمو، لا أن تنخفض، وتتلاشى. «بلد خوّانين!» فكر، وهو مصمم على تحدي أوامر لقمان، ورفض اقتراحاته.

وموقفه، قسم السماقيات إلى حزبين: لقمان قال إنّ وجود المال بحوزة ابن مالك العاجز، قد يغريه بإنفاقه. ويُحتمل أن تستولي عليه زوجته (وهي

امرأة متلافة ومغرمة بالشراء)، وتوفيق الخضرا قال إنه لا يوجد سبب مقنع لانتزاع الصلاحيات من الرجل. قال إنه لا يدافع عن ابن مالك، وإنما عما يسميه المنطق؛ فالشفاء من اللقوة، يتم عادة في زمن قصير، وابن مالك أثبت أنه جديرٌ بالمهمّة، ويمكن، إضافة إلى ذلك، تتبّع مجالات إنفاق الأموال دون صعوبات.

غير أن لقمان، والذين انضووا تحت ظل رأيه، ما كان يهمهم المنطق، إذ سرعان ما ساد إحساس بأن الأمر يشير إلى رغبة خفية لدى الحلف العائلي القديم - يعبّر عنه توفيق - في قيادة المشروع. وسرعان ما بدأت اجتماعات سرية، ولقاءات ثنائية وأفكار، ينفّذها الفريقان، كلٌّ، بعيداً عن الآخر: آل لقمان والتوت والجدي وشمال وعجيب، يضاف إليهم حليم الزهر، وآل الخضرا والزهر والهراس وشمس والهندي وابن مالك.

تسرّب الانقسام إلى النساء، فنشبت معركة على حافة البئر، بفضل توفر الذرائع المتعلّقة بأدوار الماء، بين سلمى التوت، ونزهة شمس، انضمت إليها نساء أخريات، تمرغن فيها، بوحل المكان، وروائحه الآسنة. وتشاجر الأولاد في المدرسة أيضاً، وتدافعوا، وحطّموا مقعداً، وتمزقت ثيابهم، فيما عجز المعلّم، رغم سطوته، عن السيطرة، وصرف التلاميذ إلى بيوتهم.

بدا لتوفيق، أن البلدة تحترق. ولم يتمكّن، رغم جميع الزيارات التي قام بها، إلى منازل حلف آل لقمان، من إصلاح أي عطب، أو ترميم أي اتجاه. وبالمقابل، كاد أبناء عمومته يطردونه من مضافة كبير آل الهراس، حين التقى بهم هناك. ونكاية به، أو بالعائلات الأخرى، جمعوا تبرعات عينية لابن مالك، منها ستة أمداد من الشعير، وخيشة تبن، لإطعام الحمير الثلاثة المحبوسة في داره، ومُدَّان من القمح لطعامه، مع عائلته.

*

ابن مالك كان مستلقياً قبالة النافذة، يراقب السهل البعيد، بعد أيام. كانت زوجته ترفو طرف لحافه. وقالت فجأة: «بتعرف؟».

«شو؟!» ردَّ بحنكٍ معوّج متعب.

قالت: «حلمت أمس إنك قاعد قدام رجال طويل كثير، وكان عَ بيضحك. كنت أنت حامل ورقة بيضا كبيرة».

فأغمض عينيه، وعند ذاك، اكتشف أن الورقة البيضاء، والرجل الطويل، كانا موجودين أيضاً وراء شبكة الخطوط المتداخلة في عماء الإغماضة. ففتحها ببطء، وهتف: «هذا الرئيس يا نوفة!».

اكتشافه هذا، جعله يؤمن بأن الأقدار اتفقت جميعها، من أجل أن يصل إلى مكان ما، مشتهى. وقد استجابت لدعاء دفين عتيق كان يلهج به، كي يستطيع رؤية رئيس الروح. ولكن الله سيحقق له ما هو أعظم؛ إذ سيكون هو من سيقرأ خطاب السماقيات، أمام ضيف التاريخ.

يقينه هذا، وحماسته، شحنا جسده بطاقة الحياة. فبدأ يشفى بسرعة. ولم يعد يظهر على فكّه، بعد خمسة أيام، غير أثر طفيف، كغمازة ناعمة. التأمت جراحه، وسحجاته أيضاً، ونشف القيح الذي نزَّ من ركبته. وحين خرج أول مرة، من بيته، بعد عشرين يوماً، بهيئته النحيلة التي تزيّنها آثار الإصابات، شبيهاً بمحارب قديم، وبالضمير الحي لرجل المهمات الكبيرة (كما فكر بنفسه) أرّقته حرب السماقيات التي انفجرت في غيابه. وطوال ذلك الوقت، شغلته الاحتمالات؛ فاشتعال البلدة بين اثنين من رجالها، قد يحرقها (ويحرق مشروعه أيضاً)، لأن الكيان المسمى سماقيات، ما كان أكثر من هشيم محشو بالمراءاة والكراهية. تكفيه شرارة واحدة، كي يلتهب، ويترمد في ساعات. ليس الآن يا بلد - فكر - وسوف يثبت لهم أنه ليس أحمق، أو ساذجاً، كي ينزلق، أو يسمح لأحد بالانزلاق إلى رذيلة الاقتتال القديم.

فكرته، كانت مبنية على استنتاج إشراقي، لخّصه أمام زوجته (وقد صار يعاملها كملهمة) بالقول: «إن أعقد الخلافات يمكن حلّها بأبسط الطرق!». حكمة موجزة توصّل إليها أثناء الليل، وأغناها في النهار، بالتفكير في التطبيق العملي لمضمونها على أرض السماقيات. لم يقل لزوجته شيئاً عن مشروع التنفيذ. ولكنه صار يضحك. ضحك بحبور ورضا، ورقص على إيقاع طقطقة لسانه وسقف حلقه، ثم ارتدى ثيابه، ومضى إلى بيت سلمان.

فوجئ الجدي به، وتأتأ، وهو يعتذر عن الغياب الطويل، وردَّ تقصيره إلى الانشغال بأمور البيت. ولكن ابن مالك قال: «ما عليك... مثلك لا يقصّر!».

غموض الزيارة زاد في ارتباك سلمان. ظلَّ مبلبلاً طوال الوقت، يفكر في دوافع شخص يكاد يشعل بلده، بسبب إصراره على القيام بدور ليس له في الحياة. هل أتى ليعتذر؟ هل جاء ليعيد المال؟ راقبه بحذر: غامض. ناحل. معبّأ بالشر. نفخ الهواء من حلقه، وراقب المدى السرابي المتراقص، وقال: «ما في شتا. ويمكن ما في أمل». قال ابن مالك بيقين: «خيره قريب». فكر أن هذا الكلب اللجوج المجوّف الذي جرّته الحمير، وعضّه الرّصد، صار اليوم يقرر رسالة السماء!

ابن مالك تنحنح، وسعل سعالاً جافاً، وأشعل سيجارة، وابتلع دخانها كله، ثم أخرجه مخلخلاً من أنفه وحده، وقال: «بعد تفكير طويل، أنا وجدت إنو القضية بسيطة!».

«أي قضية؟» قال الجدي، فتأمله ابن مالك قليلاً، وقال: «قضية الاستقبال، وكلمة الترحيب بالرئيس».

«إي!».

«عندي حل سهل يمكن يرضينا كلنا».

«هات لنشوف!» قال سلمان بصوت هازل.

فتجاهل ابن مالك لهجته وقال: «قبل، أيام زمان، كان الناس يركبوا الخيل ويتسابقوا منشان أي شرط. ومين سبق شم الحبق. طيّب، اليوم ما في خيل، وما في حمير كمان»، ضحك لطرفته، وقال لسلمان: «اضحك!»، ثم أضاف: «شوف! قول للجماعة، ما رأيكم نلعب بالورق: فريق من عندنا، وفريق من عندكم.. سباق يعني، ومين غلب راح عَ حلب». قهقه وقال: «شفت! اخترعت مثل جديد!».

حدّق الجدي إليه ببغضاء، وسأل: «ما فهمت شي».

قال ابن مالك بهدوء: «الحقيقة إني قررت إلقي الكلمة بنفسي، قدّام الرئيس! أني غريب عن البلد، وما إلي عيلة. هيك بيربحوا الجميع!».

فنهره سلمان: «ولك أنت جنّيت!».

قال ابن مالك: «لا والله! أني بدي أحمي الناس من الجنون».

«لا والله. هذا جنون».

«يمكن يكون اقتراحي مجنون. لكن إنتو طريقكم مجنون!».

«مستحيل!» صرخ سلمان.

«إذاً! منشوف». ووقف، وغادر المضافة، رافعاً يده، بلا سلام.

كاد سلمان يرميه بحجر. وسبّه حين غاب. وكيف يمكن للسخافة، والخبث، أن يجتمعا في عقل واحد؟ فابن مالك الذي كان مكشوفاً كخنفساء، دائماً، يظهر الآن - أو يتخفّى - كثعلب. ومن أين جاء بهذه الفكرة؟ شعر بالذعر، لأن تفكير ابن مالك يذهب بعيداً، وصاعداً لحمل بيرق المقدمة، رغم أنف الجميع. ارتدى ثيابه مسرعاً، وخرج شبه راكض، نحو منزل لقمان. كان مشروخاً، وحانقاً إلى حدّ أنه مشى كأعمى. فلم يرَ شخص ابن مالك اللاطي وراء الدعامة الحجرية الضخمة التي تسند

حيطان بيت محمود العليل. كان يبتسم منتشياً برائحة الانتصار التي أفعمت أنفه، وراح يردد مادحاً نفسه: «يا ابن مالك! يا شاطر!».

*

ضحك الملازم عصام الديدي، بصخب، وخبط الطاولة أمامه، وهو يقرأ التقرير الذي وصله من السماقيات. هزّ رأسه بلطف، مستمراً في تدوين ابتسامته. وفكر بأنّ لدى هؤلاء الأميين، فصاحة كاسحة. فلا أحد يعرف من أين يبتكرون الدسائس، أو متى ينسفون الصداقات، أو يحشدون الأنصار، ويتشاجرون، ويقتل أحدهم الآخر. ثم يبزغ شخص مثل ابن مالك هذا، يسكنه جنّيٌّ طافح، أو شيطان فاسد - لا أدري - ليقول إن كل شيء عبث، وتفاهة. «يا رقيب بيرم!» نادى بأعلى صوته، الرقيب نصف الأصم، الذي يصارع القيادة، ويغازلها، من أجل أن يبقى في سلك الدرك. وحين دخل، وحيّاه، قال: «خذ! اقرأ!». مرَّ الرقيب مسرعاً، على الصفحة، فهدّأه الملازم بإجاصة أصابعه. قال الرقيب: «هذه عادة سيدي!». أشار الملازم نحو المقعد المقابل، وصرخ: «اقعد واقرأ على مهلك!». وحين أعاد الرقيب القراءة، بدا عليه اهتمام مسرحي، أثار سخط رئيسه. كاد ينتزع الورقة من يده، ويؤنّبه: «يا حمار تقرأ طرفة على أنها مأساة!». غير أن الرقيب تطلع إليه، وقال: «سيدي هذا واحد عبقري!».

«بعرف، لكنّي خايف يا بيرم إنها تكون لعبة مباحث. هذا الرجّال يللي اسمه ابن مالك عميل مباحث. ما رأيك؟».

«رأيي أنا؟» سأل الرقيب، ثم تطلّع نحو رئيسه، واحتمى من الشمس التي فاجأت عينيه، بظلِّ يده اليسرى، وقال: «رأيي.. إنّا نشكل دورية، ونحرس المباريات وإذا لزم الأمر عيّنا حكّام».

فهبَّ الملازم واقفاً، وصفق لرئيس مخفره: «برافو بيرم! عفارم!»، ثم ضحك وأضاف: «ولك هالبلد مليانة عباقرة، وأنا الغشيم يعني؟ برافو بيرم».

الفكرة الجديدة كانت عادلة؛ فالمؤامرة التي يدبّرها رئيس فرع المباحث؛ للإيقاع به، وتحويله إلى تابع، أمكن احتواؤها بإجراء هزلي مغلّف بالحرص على أمن البلد. صحيح أن يدكم طويلة حازم بيك، ولكنكم تنسون أن لغيركم، عقولاً قادرة على المنافسة في السوق. نقدّم بضائع وطنية مختومة بالماركة المسجلة، براءات اختراع! تستطيع يا أبو عماد، يا حازم بيك، يا رئيس فرع المباحث، أن تفخر بأنك طوّرت مهنتك، أو أضفت إليها دائماً آخر الموضات. لكن الموضة تافهة يا سيدي النقيب، المهم هو الأصالة، قوة الفكرة المناسبة للحدث الراهن.

كان الرقيب ما يزال يحدّق إليه، بانتظار أوامره، فقال: «يا بيرم، سيّر دورية عَ السماقيات. استطلع الأمر وخبِّرني!». ثم جلس على كرسيه الهزاز، وسرحت عيناه في أفق الحائط، حيث تنتشر صور وشعارات. شعر بالخيبة، حين فكر أن فلاحاً مغامراً يمكن أن يربك مجلدات الشرطة. فها هو، بعد سنة ونصف، من تخرّجه، ينسى كل تلك الكتب السميكة، والمحاضرات المتاهية عن سلوك الشرطي في مسالك العمل. لقد اعتقد دائماً، أنه سيتمكّن من أن يكون وسيطاً نزيهاً بين الشعب والقانون. غير أن الأيام أثبتت له أنّ الوساطة في عمله، ترهة نظرية، وأن النزاهة رذيلة في عمل يحتاج إلى الحزم والتشدّد. وهما الكلمتان المهذبتان اللتان يستخدمهما رؤساؤه، بدل القسوة والإهانات. ولم يكن مرؤوسوه من صف الضباط والشرطة، سوى حافة مسطرة توازي عقل الرؤساء. وسوف يضيف إلى هذا الميثاق، دسائس النقيب حازم، وموقف الناس المتخاذل من لابسي العمرات، إذ كان وجود بدلة الخاكي والعمرة المستديرة، كافياً في كل وقت، لتحويلهم إلى أرانب مذعورة، مخاتلة، باحثة عن الرضا.

وعندما نُقل إلى المنارة، لم يفهم شيئاً من التناقضات التي واجهها: مكان مرّيخي مسكون بالألغام، وناس غامضون يحفظون معظم نشرات

الأخبار عن ظهر قلب، ويدّعون أنهم صمٌّ، بكمٌ، عميٌ، لا يعرفون شيئاً عن سياسة بلدهم.

في ما بعد عرف أنها طريق ملتوية، يستطيعون بمعونتها، التظاهر بالجهل واللامبالاة، في مواجهة المراقبة الصارمة لرجل المباحث القوي في المحافظة. أو هي نوع من التماوت والإغماء الإرادي، هرباً من مصاعب واقع ضاغط غريب. إلى أن وصله نبأ مشروع إنشاء مكتبة السماقيات. صعقه الاقتراح، فأوصله إلى رؤسائه فوراً، معمّداً بعبارات التأييد والدعوة إلى تشجيعه.

كان ساذجاً أيضاً، لا لأن اللوائح تمنع الكتب، بل لأنه لم يذكر أن الكتب تلعن اللوائح. فالنقيب حازم أشار إلى أن تلك القرية مجنونة (ولا شك أنه زاد ميزانية المخبرين فيها). وهتف مدير المنطقة حسب الله سكر: «كتب! شو بدهم بالكتب؟ العمى! ولك يشتروا سردين! صرامي!». ثم فتل يده اليسرى صانعاً منها إشارة استفهام، وعلّق: «تعرف؟ هذا خراء بخراء!».

لكنه قال له: «سيدي خلّينا نشوف نصّ الكأس المليان».

«النص المليان؟» صرخ النقيب: «لا تتفلسف عصام! ولك يللي صار عمرو أربعين سنة، وبعدو أمي، بدو أربعمية سنة حتى يتعلّم. ولك ذكّروني بالآية الكريمة! خليهم يشتروا كتب! لجهنم! لكن انتبه! إيّاك يمرق شي يمكن يحرق!».

فتنهد بقوة، وقد انزاح عن صدره غمُّ يوم كامل من الجدال، وقال: «من وين سيدي؟».

«ما بعرف يا عصام، لكن الكتب والنار والكلاب ما بتعرف الحدود».

صار يضحك، ويزيد هزّ كرسيِّه، ويتخيّل معارك السماقيات الورقية القادمة.

27

كانون الأول 1959

قصّت لوزية شعرها، وقصّرت فستانها، فظهرت ساقاها، تحت الحافة الدائرية التي خيّطتها لها صفصافة بعناية. وظلَّ مسعود ينظر إليها بفم مفتوح، وعينين دامعتين، وقال: «يا الله ما أحلاكِ!». لكنه شعر بالغمّ حين عرف موعد السفر، وغمغم: «يعني خلص؟»، فقالت: «إي حبيبي!». قال: «طيِّب»، ثم رجاها ألا ترتدي الفستان القصير هنا في السماقيات. ويمكن أن تلبسه، كما تشاء، حين يصلان إلى بيروت. فابتسمت ابتسامة وانية، وهزّت رأسها خائبة، وقالت: «الفرق مش بين السماقيات وبيروت حبيبي. الفرق هو بين راس لوزية (وأشارت إلى رأسها) وراس فاطمة (وهي عجوز كانت تشتم كل امرأة تزيل الفوطة عن رأسها)». قال: «طيّب، ليش قصّيتي شعركِ؟». فارتعش جلد صدرها، وسرت قشعريرة باردة داخل ظهرها، وعرق جبينها، وحدجته وقالت بصوت مبحوح لم تستطع أن تتحكم بنبراته: «منين جبت هالسؤال؟». إذ لم تصدّق أن لديه، أيّ عدّة تكفي لاستخدام الحجج القوية، والكلمات الصائبة. وفكرت بكريم، وشتمته في نفسها، وتمنّت أن يأتي يوم السفر بسرعة، لكي تتخلص، إلى الأبد، من عيب ذلك الرجل الثقيل المشبع بالأفكار والعوائق. تذكرت أنها

هي نفسها، لجأت إلى أفكاره لمعارضة مسعود. ثم قالت لا، المشكلة هي (مرة أخرى) في الفرق بين السماقيات، وبيروت. وإن شعراً طويلاً مضفوراً بجدائل كالحبال، لن يناسب أبداً شوارع فسيحة، وسيارات ملونة. وأن فستاناً طويلاً أسود اللون، سيجعل أي امرأة تظهر مثل بومة، أو غراب تافه، في مرج ربيعي. غير أن مسعود لم يجبها. وعلى الرغم من أنه كان يلتقي كريم، كل خميس وجمعة، أو في أي يوم آخر، يمكن أن يكون صديقه جاء فيه من السويداء، معطلاً دراسته، فإنّ كريم لم يذكر كلمة واحدة بشأن السفر، بعد آخر لقاء رأى فيه لهفة لوزية.

كان سؤاله سخطاً عميقاً نجم عن شعور دفين بالهزيمة؛ فجميع الوعود التي كانت لوزية تبتكرها، لم تستطع أن تسبغ على مزاجه، أيّ تقدّم. وكانت فكرة المصارعة، تملأ قلبه بالكمد، لا بسبب خوفه على نفسه وإنما بسبب شفقته على أولئك الذين سيتلقون لكمات قبضته. وعدا ذلك، فإنّ شكل شعر لوزية المجزوز أظهرها كجندب، فأفقدها بضربات مقصٍّ أرعن، جمالها البسيط. وقال لها، في ما بعد، إنها بدت مثل شجرة في الخريف، ناشفة، ويابسة وبلا ماء. وقد ظنّت أن غضبه نجم عن ظهور ساقيها، عاريتين، لكنه لم يلاحظ ذلك تقريباً، ولم يعارضه، فهزالهما، وجذور الشعر المنتوف التي كانت تظهر على سطحهما، ووعدها بارتداء جوارب سميكة، كل ذلك أزال مخاوفه بشأن انكشاف لحم محرّم يمكن أن يثير غضب الله، وشهوات الرجال. شعرت بالخيبة، واستغربت أن يكون خراب مزاجها ناجماً عن انكسار توقعاتها. هل كانت ترغب في أن يعلن عن غيرته؟ لا تعرف. ولكن الميزان الذي حمل مشاغله، بدا طافحاً بالمشاكل والأسئلة التي لم تستطع أن تجيب عنها إلا ببضع كلمات تهيمن عليها رائحة المال وحده. هذا هو وعدها اليتيم الذي غرسته في أكمام عقله. غير أنه يبدو لها الآن، راغباً عنه،

شحيحاً، بلا آمال. حقدت عليه؛ فعلى أعتاب السفر (كان حسن اللوف موجوداً في إجازة العمل المخصصة لاصطحابهم إلى لبنان. وقد التقت به مساء أمس، وأخبرها بكل التفاصيل التي أنجزها هناك، حيث وجد لهما بيتاً (قال إنه قريب من البحر)، وعملاً مؤقتاً لها كطاهية (طمأنها إلى أنها ستتعلم طهو المدن بسرعة، حين أظهرت ذعرها)، وهيأ حلبة التدريب لمسعود في نادٍ لم تعد تذكر اسمه) تجده يحجم، ويحرن مثل ثور. لكنها غفرت له في المساء، حين داعبها برقّة، ونام معها بخفّة. وتذكّرت أنه لم يكن، في أي يوم من حياته، شغوفاً بأحلامها. لا يهم! فكرت، فالمهم أن يؤيد أحلامها، أو يناصرها، وأن يسير في الدرب التي ستصل بهما معاً (التفتت حينئذ نحوه، وأقسمت أن تظل برفقته إلى الأبد) إلى حيث تقف هي.

إضافة إلى سخطه على المصارعة، كان ذعره من خسارة البيت، يضاعف خذلانه. فمنذ أن نام مرة، على رصيف الكراج في دمشق. حين تأخر عن موعد الباص المسافر إلى السويداء، صار البيت شاغل هواجسه، مكاناً دافئاً يمكنه أن يستلقي فيه على فراش، ويطوي جسده، أو يمدّه، ويأكل، ويشرب، ويفعل ذلك الشيء مع زوجته. وفي الوقت نفسه، كان ابتعاده عن البيت، يجعله قلقاً، عجولاً، لا يعرف النوم، أو الراحة.

الآن، تذعره هذه الفكرة. ماذا سيفعل هناك؟ وإذا كانا سيرحلان بحقيبة، وبضع صرر، فأين سيناما؟ وأين سيقيمان؟ ومتى سيجدِّدان أثاث بيت؟

لكنه لم يجرؤ على إعلان بواعثه لرفض السفر. فكّر إنه لا يملك، تجاه لوزية وأسبابها، أي قوة؛ فهي تحكي مثل الكتابة، بلا ارتباك أو انقطاع، بحيث يبدو في كل مرة يجادلها، أحمق، مزاجياً، سريع الغضب، يلتهب كالقش، ثم يترمّد سريعاً كعود. وهذا كل شيء. أما شكل خلافاته معها،

فقد صار تقليدياً، تعرفه لوزية جيداً، وتعالجه بأمان، وبطء، بحيث يبدو كأنما هو مجرد عثرة صغيرة، عابرة، متفسخة، تذوب مثل ضباب.

يوم السفر، كانا مفلسَين، وقد نفد الدخان من البيت. اتقد حلقه، وشعر أنه يتآكل. ولم يستطع أن يعبّر عن لهفته إلى السيجارة، فيما لم يأتِ كريم لوداعهما. وفي المساء، كان مستعداً للتوسل إلى أي رجل عابر كي يعطيه سيجارة، ليبلّ غلّته.

ارتدى ثيابه، وخرج، دون أن يقول شيئاً. زار المعلّم في بيته. وحين جلس، وشرب فنجان قهوة، قال دون تردد: «معك دخان أبو فيصل؟». فأعطاه سيجارة، وأشعلها له، وراقبه، وهو يشهق الأنفاس الأولى. ثم لا يسترد منها سوى غمامة صغيرة، نفثها من أنفه. اشتكى مسعود من ذلك السفر الباهظ، فقال المعلّم: «ليش؟». قال: «أنت بتعرف إني بحبّ المصارعة».

«لكن هذي لعبة متفق عليها».

«كيف يعني؟».

«يعني قبل المباراة يتفق هذا مع هذا: أنت بتربح، وأنت بتخسر. هذا كل شيء».

كان هذا شاقاً عليه أكثر. واضطرب حين فكر أن لوزية تعرف ذلك، دون أن تخبره. لكن المعلّم قال إنها لا تعرف بالتأكيد. ولا بدّ أن حسن اللوف يدبّر الأمور وحده. فقال مسعود: «هيك صرت خايف أكثر». «خايف؟!» صرخ المعلّم به، ثم أشعل سيجارة ثانية، وأعطاه إياها، وقال بلهجة أبوية: «اسمع يا ولد! إذا ما بدّك تروح لا تروح. لكن إذا رحت، لا تتطلّع لورا. بس واحد يقرر يروح، بيصير وراه ما في شي. سامع؟». فطأطأ رأسه وقال باستسلام: «سامع!».

28

كانون الأول 1959

قبل اعتقاله بثلاثة أيام، سلّم توفيق الخضرا، أوراقاً جديدة من كتاب السفر، لكريم الزهر. قال: «هذي آخر شي كتبته». ثم صمت، وراح يراقب الوعر الشمالي.

في ما بعد، سوف يرى كريم، نقطة سوداء تربض في أفق الصورة الأولى التي التقطها نازي حطّاب لصخور القطا، حيث كان ينظر المعلّم (قال نازي إنها لرجل) محاطة بأكوام من الحجارة الرمادية التي امتصت أشعة الشمس، وتقوّست كالدخان. وضمّت إليها أشجار اللوز القديمة الناشفة، وعرزالاً مهدماً. بدت صورة عشوائية، يمكن أن تكون الكاميرا قد التقطتها، أثناء خطأ تقني. إذ إنّ رجل الوعر، اندمج بالأشياء. لم يظهر كبشر إلا في الصورة الثانية، حين كان قد اقترب كثيراً، وراح ينظر إلى منزل المعلّم، على تلة المطحنة.

أما في الصورة الثالثة، فقد جاءت سيارة بيك آب غريبة ضخمة، تتقدم زوبعة من الغبار الأبيض الذي ملأ يسار الصورة، وأعماه. وفي الرابعة التقى رجل الوعر برجال السيارة. كانوا يتحدثون، وبدت يده اليسرى تشير نحو منزل توفيق. ليظهر المعلّم في الخامسة مقيّداً، يحيط به رجلان، يحمل

أحدهما الأصفاد التي كبّلوه بها، ويمسك الثاني بذراعه. وفي السادسة اختفوا جميعاً، داخل السيارة التي أرسلت بوزها مثل وحش، وانطلقت مسرعة، باتجاه الطريق البعيدة.

سوف يرى أيضاً، في الصور الأخرى، أن السماقيات فرغت من البشر، فلم يظهر في مساحتها، وأسطحة منازلها، أي ظلٍّ لبشريّ، لحظة اعتقال المعلّم. بينما بدت زوجته شبه ميتة في الصور الأخرى. كانت تجلس قبالة الباب المشرّع على الجنوب، وتشد رأسها بعصابة وتنظر بعينين زائغتين إلى العماء.

وفي أول زيارة، لم يستطع كريم أن ينطق كلمة. كان البيت خاوياً، وفيصل يسند ظهره إلى الحائط، دافناً رأسه بين ركبتيه.

غازية السهلي اعتقدت أنهم أخذوه بسبب إعاشة الطحين. وفكرت أن الله استجاب لضراعتها، حين دعت على المعلّم، وهي تراه ينثر حبوب الرز والطحين في فضاء السهل. فنذرت أن تظل بانتظاره، جالسة أمام البيت، من يوم اعتقاله، إلى أن يعود من سجنه. كان شعور الحب والشوق المضيء لتوفيق، يهيمن على روحها. وآمنت أن ذلك الانتظار الاعتذاري سيضمن لها أن عودته تبقيه حاضراً طوال الوقت، في فراغ عقلها ومشاغلها. ولأنها كانت تتوقع عودته كل يوم (توفيق بريء!)، فقد ألزمت نفسها بشعائر يومية، رسخت من أول يوم؛ فكانت تستحم عند الفجر، وتبدّل ملابسها الداخلية، وترتدي ثوباً جديداً (حزنت لأنه لم يكن لديها سوى أربعة أثواب، أحدها خلقٌ هالك)، وتنظّف المصطبة الملاصقة لباب غرفتها، وتسوّي وضع الطراحة والوسادة، ثم تقعد بلا حراك تقريباً.

المعضلة الوحيدة كانت متعلّقة بفيصل. غير أنها وجدت لها حلاً بسيطاً، وعادياً، بحيث لا يمسّ مجيئه الدوري من السويداء، ترتيبات نذرها بأي خرق، أو فجوة. فتحمّمه مساء الخميس، وتغسل ملابسه ليلاً،

وتنشرها. ثم تعدّ مساء الجمعة، صرر زوّادته، وتشرف من مكانها على كياسته وهندامه، صباح السبت، وتعانقه مودعة، وتلوّح له، حين يمضي نحو الساحة. وكان هذا عدلاً، ضمن لها راحة الضمير، وقوة الالتزام بالنذر، في وقت واحد. ما أدهشها هو أن فيصل كان يتلقى كل تلك التدابير بروح المتفهم. وقد قابل طقوسها بالصمت والتهاون، إزاء جميع المتطلبات التي كان محتاجاً إليها، في إجازاته. وبمرور الأسابيع، قلّص لجاجاته القديمة، وضيّق تحركاته في البيت، بحيث صار يبدو مثل كسيح. وكان يخرج يوم الجمعة، منذ الصباح، إلى ساحة السماقيات، ليلتقي هناك بأقرانه، أو بالمجموعات الأخرى من الفتيان والشباب، ليلعبوا معاً حتى الظهر. ويعود للزمن معنى عندها؛ فقد اعتادت المكان، حتى باتت تحفظ أوقات خروج جميع أولئك الذين يتحركون في البلدة، وعودتهم. غدا الانتظار تعويذة؛ فقد نسيت سخطها على النساء اللواتي لم يأتين لزيارتها. وتلاشى حقدها على الرجال الذين شلّهم الخوف، وأطفأ نبالاتهم؛ فلم يقدّموا لها أي عون. ويوماً بعد يوم، باتت ترى أن مواقفهم ليست سوى صغائر وانزلاقات ضعف إنساني، في مواجهة قوة عاتية، وبلا رحمة، تراقب المكان بخطوط الجواسيس. ثم فكرت أنه ليس لديها الحق لتلوم أحداً. وقالت إنها لو كانت في مكانهم، لفعلت مثلما يفعلون، دون أن تكون قد فقدت التعاطف. وربما كان هذا أحد وسائل الحماية والحكمة. ولهذا، فقد غفرت لهم، وتمنت أن تستعيدهم ذات يوم. ووعدت نفسها أن تدعوهم جميعاً، إلى الدار، حين يعود المعلّم، وتقول لهم: «معلش، أني ما زعلت». وقالت مثل ذلك لكريم، حين قال إن المعلّم ربما يكون قد حكى كلمات أمام أحد، قال إن الكلمات تخيف الحكّام، لأن المعلّم لقّنهم في المدرسة، أن عليهم دائماً ألّا يجعلوا الكلمات ناقصة عن الأفعال. وعرض أمامها صوراً، أعطاه إياها نازي حطاب، وفيها رأت ظل شبح يجوب

أطراف الدار، لكنّها لم تعرفه لأن العتمة غبشت أركان المشهد، وقال كريم إنّه ربما كان جاسوساً يلملم أحاديث الناس ليلاً، ليكتبها نهاراً في أوراق يرسلها إلى المباحث. فغمغمت غازية: «بس توفيق ما كان يحكي هون». «بعرف» قال كريم: «لكنّو كان يحكي، المعلّم ما بيسكت!». فأخذت الصور وتأملتها مرة ثانية وقالت: «هذا خط وبس». قال إن الجواسيس يظهرون ويختفون، ويصغرون ويكبرون مثلما يريدون، قالت: «لكن هذا خط بس». قال إنهم يصيرون خطوطاً، ومنحنيات، وأطراف دوائر، لأن عملهم يجعلهم يشبهون كلماتهم.

فقالت: «يا ريت فيّ شوفهم!».

فم الضفدع

قصة: فيصل الخضرا

وذات يوم، صار توفيق لا يطيق نفسه. وصارت فخذه تؤلمه كثيراً. وكانت الشظية القديمة تطعنه في اللحم، وتطعنه في العظام، فيصرخ مثل الذيب. ويكاد يطير عقله من رأسه، حين يتذكر أن هذه الشظية أصابته في حرب فلسطين، يوم كان يحارب اليهود، ويوم تعرّف إلى حبيبته، أميرة، هناك. ولكنها اليوم، جاءت إليه في المنام، وصارت تناديه: يا توفيق! يا توفيق! وكان توفيق يعرف أنها تعيش معذّبة في فلسطين، ويعرف أن فلسطين كلها معذّبة. فغضب كثيراً وقال إنه سيحارب. وكان عنده، بارودة جديدة، وسيف عظيم، وفرس صفراء كبيرة. وبدأ يتجوّل في القرى والمدن، ويطلب مساعدة الرجال، ويقول لهم: إذا كان اليهود جاؤوا من روسيا وبولونيا وهولندا وألمانيا وفرنسا وأميركا، فلماذا لا نذهب نحن، من السماقيات والمنارة والحظائر والصخرات، لنحاربهم. فانضم إليه ناس كثيرون، وصاروا يقولون: الله أكبر. وقابله الشيخ علي العز، وهو شيخ قرية الحفائر، وقال له: هذه كبيرة عليك يا توفيق! فقال له توفيق: اسمع هذه الحكاية يا شيخ! مرة صار حريق كبير، فجاء الضفدع وملأ حلقه ماء، وبدأ يحاول إطفاء النار. فقالوا له: ما نفع ما تحمل؟ فقال: كلٌّ من جانبه، يفعل ما بوسعه. فسكت الرجل، وطأطأ رأسه، لأن حجة توفيق

كانت قوية. وكان يحفظ أمثالاً كثيرة، ويقول إن الأمثال تشبه الناس. وكان يحب الناس، ويكره المحتلين ويقول: يا رب! كيف تقبل أن يأتي واحد دفن آباءه وأجداده وراء نهر الفولجا (وأنا لا أعرف أين هذا النهر!) ليطرد واحداً ولد آباؤه وأجداده وراء نهر الأردن؟ ويقول: يا رب! هل صار العالم بلا سمع ولا بصر ولا ضمير؟ وفي بعض المرات، كان يقول إن الرب لا يسمع كلامه. ثم قال: أستغفر الله. وظلَّ يتجوّل في القرى. وصار نحيلاً، وأسمر الوجه، وازداد جماله حتى بدا مثل العريس. وكانت أميرة ما تزال تظهر له، في المنام، وتناديه: يا توفيق! يا توفيق! فتزداد حماسته، ويذهب إلى الرجال. وكان الرجال يستجيبون لندائه، ويحملون السلاح، ويطعمون الخيل ويشحذون السيوف. حتى جاء يوم التقدم. وكان من ورائه، جنود كثيرون. وما كانوا يخافون، لأن الوقت كان صباحاً. وكانت السماء تظهر جميلة، وكان لون الشمس أرجوانياً، وكان شاسعاً جداً. وهكذا، مشوا نحو فلسطين، وفيهم القادة والمحاربون والشعراء، وحاملو الأبواق والمدفعجية والمشاة وحاملو البيارق. وصارت أصواتهم تملأ الجبال والوديان، حتى وصلوا إلى جبل مغطى بالثلج، يسمّونه جبل الشيخ. ثم نزلوا عند عين ماء، اسمها عين الغزال، وأرسلوا العيون ليعرفوا ماذا يفعل العدو. وكان العدو يحتل أرض فلسطين، ويأسر أهلها، ومنهم أميرة حبيبة توفيق. وكان يشتاق إليها، ويتمنى لو يراها. وكان معه، في جيشه، عشرة آلاف رجل. وصار توفيق يقف على رابية صخرة عالية، تطل على مرج ابن عامر، ويخاطب الرب من هناك، قائلاً: يا رب، أنا أكره الحرب، وأنت تكره الحرب. لكن لماذا أوجدت الحرب؟ يا رب، إذا جعلتني أحارب، لماذا جعلتني أحب؟ ويا رب هل صحيح أنك أعطيت سيفك لهم؟ وقلت ليوشع (وهذا واحد من قادتهم): خذ معك رجال الحرب، وقم إلى عاي، انظر قد وقعت بيدك ملك عاي، وشعبه ومدينته وأرضه، فتفعل بعاي وملكها،

كما فعلت بأريحا وملكها. غير أن غنيمتها وبهائمها، تنهبونها لنفوسكم. فقام توفيق يقول: كيف تعطي يا رب، يوشع هذا، أرضاً ليست له؟ ولماذا تريد قتلنا، ونحن نحبّك؟ وصار يقول: هل أنت ربّي، مثلما أنت ربّه؟ وظلَّ حائراً يسأل: كيف يعطي الرب أرض فلسطين للروس والبولونيين والفرنسيين والأميركيين الذين لم يروها أبداً، ويحرم الفلسطينيين منها؟ وإذا جاء الروس إلى فلسطين، ماذا يصير اسمهم؟ وإذا خرج الفلسطينيون من فلسطين، ماذا يصير اسمهم؟ وتعجب حين لم يكلّمه الرب، وقال له: كيف تكلّم يوشع القاتل، ولا تكلّم توفيق العاشق؟! وشعر بالغضب، ونادى جنوده وقال لهم: لا تقتلوا الأطفال، ولا تقطعوا الأشجار، ولا تسبوا النساء. فقال الجنود في صوت وحد: الله أكبر! الله أكبر! وساروا حتى وصلوا إلى بحيرة طبريا، وكان جيش العدو قريباً منها، وتقدّم قائد شجاع من جنود توفيق اسمه ذياب بن غانم، وقائد قوي اسمه عنترة، وطلبا أن يأتي فرسان العدو لمبارزتهما. ولكن العدو قصفهما بالمدافع. فقام توفيق، وقال لجيشه: هذا يومكم قاتلوا العدو بشجاعة. وكان القادة في المقدمة. ولم يتراجعوا إلى الوراء، مثلما يفعل الجبناء. وكان الجنود يقاتلون ببسالة، كلما رأوا قادتهم أمامهم، وفتكوا بجنود العدو، وصاروا يسمعون الصراخ بكل اللغات. وجنود توفيق يهتفون بلغة واحدة هي لغة العرب. وسمّوا المعركة «معركة التوافيق» لأن توفيق كان قائدها.

29

كانون الأول 1959

حين دخلت زينب إلى غرفته، سألته: «شو هالريحة؟». فأجفل، وأجاب: «أي ريحة؟». قالت: «ريحة زرقا».

كانت رائحة هلعه وحساباته. وقد أمضى الأيام الماضية، منذ اعتقال المعلّم، قلقاً، مضطرباً، متوجساً، تاركاً بارود يحرس باب الغرفة، طوال الوقت، خائفاً من أن تدهمه المباحث، وتعتقله في أي لحظة. راقب الدار والطريق الزقاقية، وأطراف الشارع الطويل المفضي إليها. ولم يتمكن من النوم، إلا بضع ساعات، كانت مثقلة بالأحلام الكابوسية المنهكة: سمع قرعاً على البوابة الخارجية. والغريب أنها صارت من زجاج. ومشى في ممرٍّ معتم، ناحية الصوت. وهناك رأى رجلاً متلفعاً، يركع على ركبته اليسرى، ويسدد بندقيته نحوه.. ارتدّ مسرعاً، وفوجئ أن زينب كانت خلفه. وبدا أنها تُعيق فراره، فصرخ طالباً منها أن تتراجع. وملأ صوته الرواق المعتم، والغرف الخلفية، واستيقظ مذعوراً، يطفح بالعرق.. وكانت رائحته كرائحة حيوان هالك. هذه هي الرائحة يا زينب! أراد أن يقول لها، لكنه أيقن أنه لن يستطيع الاعتراف. وعجز بعد ذلك عن تناول الطعام. وكان يأس ثقيل مشوّش يداهمه، وشعور بالضباب يبدد

أحاسيسه كلها، فخرج من البيت متجهاً إلى الوعر مصطحباً بارود معه، أما حين وصل إلى غدير المرايا، فقد أدرك أنه لم يكن عاجزاً عن ضبط مشاعره وحدها، بل باتت عضلاته رخوة، ومفاصله متلاشية، ولا يستطيع السيطرة على ارتعاشات خدّه، وأصابع كفيه، وأسفل بطنه. وهناك روى لبارود أنه لم يجرّب هذه المشاعر أبداً. وأن فكرة الاعتقال كانت متسللة من الكتب والروايات وأحاديث الآخرين. ولذلك، بدت جامحة، مسرفة في البطولة. غير أنه يعلم الآن، أن ذلك ليس سوى بلاهة. وقد صار يعرف (وهو يحس باقترابهم منه) أن التفكير في الاحتمال يفسخ القلب، ويطوي الأمعاء (لذلك رآه ليلاً وهو يتقيأ)، ويسمم الدم، ويجعل الإنسان يعتقد أن لا شيء في الحياة كلها، يساوي لحظة حرية. لا الأفكار، ولا الأحلام، ولا الأحزاب. وقال له إنه مستعد من أجل حريته، أن يهرب إلى أي مكان في الدنيا. ما رأيك؟ ستزعل؟ كان الكلب ينصت إليه، وهو يضع رأسه بين ذراعيه الممدودتين. فأنَّ أنيناً طويلاً، وحزيناً. «فهمت علي! ها؟» فدبّ بارود، واحتضن قدم كريم بقائمتيه الأماميتين. ربت على رأسه، وكتفيه. «كان المعلّم يقول لي كل مرة بتحس إنك بخطر. تصرّف مثل الحيوان! شوف بارود شو ممكن يساوي، وفكر مثلو، فهات لنشوف!». ظلَّ الكلب رابضاً قربه. كان جسده ساخناً، وأنفاسه لاهثة. غير أنه بدا كسولاً، يعمّد نفسه بحضور صاحبه، كأنهما لم يلتقيا منذ دهر، وبدل الجزع الذي كان يقوّض كريم، ران على بارود، ألق شفيف. كانت تلك طمأنينة غريزية، لم يستطع كريم (بسبب الخوف) رؤيتها. فاعتقد أنها خمول، ووهنٌ كسول ينبعث من جسد كلب عجوز، خرف، فاقد الإحساس.

شعر بالبرد. لم يكن ثمة برد اليوم. كانت شمس كانون دافئة، بلا ضوضاء. لكن البرد تغلغل إلى عظامه: بردٌ راعش، يحتشد في الصدر والساقين. بردُ ذعر أو توجّس، وحسابات قاتمة. لم يعد يعرف أي منها

سوف تدهمه. لم يجرؤ على العودة إلى البيت. وظلَّ يجول في الوعر الشرقي، بعيداً عن السماقيات، وعن وعر الذئاب. وجد فطراً والتهمه بنهم، بعد أن تقاسمه مع بارود.

في ما بعد، بدا الوعر، أجرد خاوياً، لا حياة فيه؛ فالأمطار القليلة التي هطلت، تبخّرت. كانت مطراً ملفقاً، غشَّ الوعر، مرة أخرى، فأنبت ما لديه من الأعشاب، لكنها خابت جميعاً، فأزهرت تيجاناً شاحبة، ناحلة، متراخية. ما بقي كان قد تمكن من اكتشاف واحة قرب كعب صخرة، فاخضرّ ونما قليلاً. دار في المكان، متخفياً وراء أكوام الصخور، أو ذاهباً وسط الفوالق. يطل كل ساعة، على البلدة، ليرى ما إن كان ثمة وجود غريب مشبوه خطر. لم يرَ أحداً. لكنه لم يطمئن، فظلَّ في الوعر، ظاناً أنه يسلك طريقة بارود، خاصة أنّ الكلب لم يتركه. بقي ملتصقاً به تقريباً. يصعد إلى التلال الصخرية، إذا صعد، وينزل إلى الوهاد، إذا نزل. لم ينبح، إلى أن سأله كريم (كانا جالسين على حافة الغدير): «مين بتظن وشى بالمعلّم يا بارود؟». فالتفت الكلب نحوه، بعينيه السوداوين، وأذنيه المشدودتين. «حليم مثلاً؟ ابن مالك؟ لقمان؟ عمار التوت؟ سالم الهراس؟ رندة؟ حسن اللوف؟». فنهض بارود، وتطلع إلى المدى، وأطلق عواء ذئبياً عصر به أحشاءه. ومن بعيد، من الشمال والغرب، أجابته بضعة ذئاب. «شو قلت؟» وأعاد الأسماء مرة أخرى، فردد بارود كل اسم كالصدى. لن يكون بوسعه، أن يعرف أحداً. ولا بدّ أن بارود لم يتمكن من مراقبتهم. وربما كان مثله، بلا اتجاه، وقد أضاع دليله. فاكتفى برفقته مرة، أو ملاحقته مرة، أو العدو أمامه، مرات أخرى.

مساء، تسلل إلى الدار. رأى المكتبة مضاءة. وهناك وجد فيصل يقرأ، وحيداً صامتاً، وراء ظل المصباح الذي كان يضيئه. بدا الولد جزءاً من المكان. وأمامه، كتاب صغير أخفاه حين دخل كريم، تحت راحة يده.

لاحظ أنه كان يسرق الكلمات منه، سطراً بعد آخر، فمشى يتفرّج على الكتب. ثم غافله، واختطف الكتاب. كانت تلك هي رباعيات الخيام. ترجمها عن الفارسية، السيد أحمد الصافي النجفي. لم يقل فيصل شيئاً. وحدّق إليه، بعينين مشعتين، كعيني قط. قال كريم: «شو فهمت من هالشعر؟». كان راغباً في الشجار. لكن فيصل قال: «ولا شي! بس حاسس إني صرت بحب عيش كثير». فشهق كريم دنّاً من الهواء، وهتف: «ولك إي والله! ما في أحلى من العيش».

غير أن هذا زاد في رعبه. إذ عبّرت جملة فيصل عن حاله، فلم يكن حب الحرية فقط، هو الذي يدفعه لهذا الهروب، بل حب الحياة ذاتها، والرغبة في أن يعيش طويلاً وعريضاً. شعر الآن، أنه متعلّق بكل شيء: نباح بارود. متعة سيجارة. استقصاء الوعر. مذاهب البنات في التلصص. لغط الناس الساهرين. صداقة مسعود.

خرج إلى الشوارع، واستمع إلى الراديو، في مضافة علي شمال، كان يبشّر مواطني الإقليم الشمالي، باقتراب موعد زيارة الملك محمد الخامس. تذكّر أنه رأى صورة الملك المغربي مرتدياً زي بلاده. لا يعرف اسم تلك الملابس البيضاء التي يحرص الملك على تأكيد انتمائه المغربي بها. فكر أنه يجب أن يكون هناك. وسوف يعلم الرئيس بخبر اعتقال المعلّم. وسوف يباغت بكل يقين، ولن يرضى بتكرار ذلك. يكفيه مقتل فرج الله الحلو. سيهتف له قائلاً: يا رئيس! أو يا سيادة الرئيس! وسيراه مبتسماً.

سخر من أحلامه التي يهدهد بها هواجسه، وأحس بوخزة في صدره، حين تذكّر التحليل السياسي الذي سمعه، قبل أيام، من شاكر ذي رائحة الفم. فقد رأى أن جميع الشروط السابقة، ليست سوى تشكيل خارجي متعمّد، من أجل تسويق دكتاتور. كمال قال: «لكن الناس بيحبّوه»، لكن شاكر، حدجه بعينين ناعستين وقال: «مع الأسف، والمصيبة إنو ما بحبّهم».

30

كانون الأول 1959

ما شغلها، أنها لم تعرف ما إن كان كريم خرج من غرفته، بعد أن عاد من السماقيات، أم لا. فبسبب الدانتيلا السميكة التي فرضتها على نفسها، منذ أن بدأ الجزيري يتدخل في نظام حياتها، لم تعد ترى جيداً. فقد تراءى لها أنه لم يخرج. إذ كانت موقنة أنّ عينيها لم تغفلا لحظة واحدة، عن مراقبة الغرفة والممر والبوابة الكبيرة. والمشكلة الوحيدة، وهي مشكلة حيّرتها، أنها اضطرت في الثامنة إلا ربعاً، لدخول الحمّام! صحيح أنها أنجزت ذلك بسرعة، وعادت شبه راكضة، ولكن الساعة كانت تشير إلى الثامنة إلا سبع دقائق. وهذا يعني أنه ربما غادر الغرفة فعلاً. ويمكن أن تستدل على ذلك، من الستائر المسدلة (في العادة، كانت أول حركة يقوم بها هي أن يرفع ستائر النافذة)، لكنها تذكرت أنه لم ينفّذ أي حركة من تقاليده اليوم، وأنه بدا مشوّشاً، وارتطم بأحد الولدين في طريقه، وبدا غاضباً، وأغلق الباب وراءه، بقوة (وهو يسلك سلوكاً خطيراً قد يؤلّب الجزيري ضده من جديد). وسوف تستنتج من هذا كله، أنه لم يخرج. وأسعدها الاستنتاج قليلاً، لكنها سرعان ما اكتأبت، وشعرت أنها مخذولة وخاسرة، إذ لم يُلقِ أحد من الأولاد عليها، تحية الصباح، ولم يلتفتوا نحوها، لا أثناء

وصولهم، ولا بعد خروج فيصل وطلعت، السريع الراكض إلى المدرسة. وزاد كربها وهي تفكر في ما حدث. وعلى الرغم من أن جارتها سارة، رأت فسحة بياض توشّحها شجرة متاهة، في قعر فنجان القهوة، وقالت إنها، ربما ستكلّفها بعض العناء، فإنّ لؤلؤة تمكنت من ترميم الإنذار، وهي تَعِدُ نفسها بالدقائق السعيدة لعودة الأولاد، صباح السبت، وبالساعات الطيبة التي قد تلتقي فيها بهم، بقية الأسبوع، لاجئة إلى فسحة البياض وحدها، دون متاهات السواد. غير أنها الآن، بدأت تشتكي. لقد أدركت أن شيئاً ما، صعباً، جرف (يومي الخميس والجمعة الفائتين) آمالها، محققاً مدونات القهوة. ماذا حدث؟ سألت نفسها، ثم بدأت ترسم الاحتمالات. لم تكن ذهبت إلى أي قرية في حياتها. وكانت تفترض، من قبل، أن الناس يعيشون هناك، مثل مواضيع الإنشاء: سهول مزهرة، ومياه رقراقة، وحقول خضراء، ربما شابهت تلك السهول التي تظهر لها بعيداً، في الغرب، حين تصعد إلى سطح بيتها، لتنشر غسيلاً، أو تطعم الدجاجات. ولهذا، فإن كل ما استطاعت أن تجمعه في ساعة من التأمل والتكهنات، لم يزد عن زعل والدين، أو خسارة بقرة، أو غياب حبيب. فقررت أخيراً، أنها لن تستطيع البقاء هنا، تحدّق إلى التوقعات، وتنتظر ما يأتي. راقبت دار الجزيري أكثر من ربع ساعة، ولاحظت أنها شبه خاوية. كان أبو محمود في الدكان، وقدّرت أن زوجته نائمة، أو خارج المنزل (هذا ما تمنته)، ففتحت النافذة، وصرخت: «كريم». رأته يفتح الباب، ويخرج، ويشير إليها برأسه مستفهماً. فقالت دون تردد، ودون تفكير: «تعال!».

هذه المرة، لم يسأل، وأشار برأسه موافقاً. غاب في الداخل قليلاً، ثم غادر غرفته، والدار، مسرعاً، بلا حذر.

كان باب البيت مفتوحاً، وكانت بانتظاره. صافحته، وشدّت ذراعه. قال: «صباح الخير». ولكن الكلمة الأخيرة اختنقت في حلقه، كان

الخجل قد أخزاه. ولم تكن لؤلؤة أكثر منه تماسكاً؛ فالإعداد المرتجل للدعوة من جهة، والاستجابة الجامحة من قبل كريم، من جهة ثانية، أربكاها. وقفا بضع ثوان (بدت مثل ساعة انتظار) قبل أن تنجح هي في استعادة المبادرة، وتقول: «تفضَّل»، مشيرة إلى غرفة الجلوس ذات المقاعد. فسار أمامها، متعثراً، وجلس على أول مقعد، مثلما فعل أول مرة. ابتسمت له، ابتسامة امرأة، وهي تحاول دعم موقفها المهلهل، وتبديد التوتر. لاحظت أنّ كريم بدأ يعرق، ويمسح الماء المنهمر عن وجهه، بكف يده، وقال: «الغرفة دافية»، فخففت وقود المدفأة، وتفرست في عينيه، فأغفى. بدا معطوباً وشبه عليل، فقالت: «شو بك؟ مرضان شي؟». قال: «يا ريت!»، فجحظت عيناها، دون إرادة. وقبل أن تنزلق من جديد، إلى موقع أم أو خالة، تحاشت أن تسأله عن سبب أمنيته التعيسة. وقالت: «أكلت؟»، ثم ذهبت لإعداد الإفطار، دون أن تسمعَ جوابه.

نادته بعد دقائق. كانت طاولة صغيرة معدّة، في المطبخ المستطيل العميق، بأكثر من صنف. أكل بلا شهية. وكانت لؤلؤة تحدّثه عن أفكارها الجديدة، لإعادة ترتيب أثاث البيت. ستضع المقاعد في الغرفة الداخلية، وتحوّل الصالون إلى غرفة نوم، كي تبقى قريبة من النافذة التي تطل على سكنهم، وتبدّل مكان البوتوغاز، فتضعه في صدر المطبخ، وتفتح نافذة صغيرة من أجل بخار الطبخ، لأنه يفسد الأواني، ويسبب الصداع. لاحظت أنه ظلَّ فاتراً، طوال الوقت. كأنه لا يسمع، ولا يرى. شعرت بالخيبة، لا لأنه لم يبدِ أي رأي حول مشاريعها التجديدية، وإنما بسبب فشلها في استدراجه. لا تنكر أن فضولها كان قوياً، لكنها آثرت التجاهل، آملة أن تكون مشكلته أقوى من صمته. شربا معاً، بعد ذلك، فنجاني قهوة. أشعل سيجارة دون استئذان، ودخنها. تحدثا عن انقطاع المطر، وقال لها إن الفلاحين سيجوعون هذه السنة، إذ لم يبقَ لديهم مؤونة. قال إنهم لا

يملكون مالاً أيضاً، وقال إنهم لا يجرؤون على المطالبة بحقوقهم، وإن الدولة لا تسأل عنهم. قالت: «شو دخل الدولة؟». قال: «شو شغلها إذاً؟». «ما بعرف». «إذاً، من دون دولة أحسن». «لأ، لازم يكون في دولة منشان ما حدا يعتدي على حدا». «ليش شغل الدولة تخويف الناس بس؟». «لأ، الدولة منشان تدير بالها على مصلحة شعبها كمان... لكن إذا انقطع المطر وصار محل، شو دخل الدولة؟ شو ذنبها؟». «ما لها ذنب ولكن هذا شغلها، لازم توزّع الغذاء، وتعوّض عَ الفلاحين الخسارة». قالت: «مش فهمانة شي» غير أنها حافظت على تعاطفها، وعلى فضولها الذي جعلها راغبة في معرفة الفكرة الجديدة، أكثر من ذلك. لكن موقفها لم يكن واضحاً لكريم تماماً. واعتقد أن آراءها في الدولة، كانت دفاعاً، أو إيماناً بالوجود القمعي لهذه المؤسسة الخائنة التي لا تعرف إلا اضطهاد الشعب.

زعل من لؤلؤة، واستعاد فجأة، فكرته عن الأغنياء. وشعر أن بلعومه ناشف. وخجل من طلب الماء (ألم يشرب الشاي منذ قليل؟)، ولام نفسه، مثلما كان يفعل دائماً، حين يدرك أنه انقاد إلى أمكنة غريبة. لكن لؤلؤة حطّمت شروده (كان يسميها تأملات)، وسألت ماذا يفضّل أن يتغدّى. فذهل لأن الساعة كانت تشير إلى الواحدة ظهراً. فاعتذر، باستعجال قروي، قائلاً إن عليه أن يذهب. لم تصدّق أنه سيغادر فعلاً، إلّا حين اكتشفت أنه يكاد يصل إلى باب البيت، فوثبت، ومنعته بحركة اعتراض حاسمة، حين حجزت الباب بجسدها، وقالت، وهي تكاد تموت من الاختناق: «لا تروح!». كانت تصرخ تقريباً، وقد جعلها الاضطراب مثل هرة. شعر أنه وحيد، وبلا سند في المواجهة الطارئة. ولم يعرف ماذا يفعل، إذ صار خلال ثانية حائراً بين ميله الكلبي إلى الفرار، ورغبته الآسرة في البقاء. وخلال الثواني التالية، لم يستطع أن يتجاهل حركة صدرها المتوهج، حيثُ كان ثدياها قد انتفخا، وازداد حجمهما،

ونفرا قليلاً من فتحة الفستان المزهر. تلاشى من مكانه، وانقاد لحركة الاستحواذ التي قبضت فيها على ذراعه، بيدها اليمنى، وأحاطت خصره باليسرى، ثم أعادته إلى مقعده مثل طفل عليل. ولكي تحطّم الارتباك، شهقت فجأة، ووضعت كفها فوق فمها، وحدّقت إليه، وهمست: «ي ي ي! نسينا الأولاد!». كان ذلك صحيحاً، فوجود كريم ألهاها عن برنامج استقبالها اليومي، لعودة الظهيرة.

غير أنه لم يكن مبالياً، ولم يكن راغباً في ما اعتبره نكوصاً صبيانياً لدى امرأة غنية، ومتبطلة، لا يهمها سوى إلهاء الوقت أو تبديده. وانتظر إلى أن عادت من طقسها. بدت حزينة ومتعبة، فالولدان لم يلتفتا نحوها، رغم الإشارات، والهمسات والنداءات المخبوءة التي كررتها كالمجنونة. «ليش؟»، ثم قالت بنبرة آمرة: «لازم أعرف!». وحدّقت إليه، وقد اصطبغ وجهها بالصرامة الضرورية كي تضيف: «هذا حقّي». فيما لم يجد ذريعة تعينه على التزام الصمت، فأفضى لها بكل شيء. وأنهى حديثه، طالباً اللجوء إلى بيتها، ريثما تنتهي الأمور، ويتأكد من أن المباحث لا تريدُ اعتقاله. «إي» قالت. «إي إي إي!» كررت موافقتها، بانبهار غير المصدّق. ثم جرّته من يده، عابرة به، الممر الطويل المعتم، وفتحت باب آخر غرفة، وأدخلته، وقالت: «هذي غرفتك». كان فيها سرير حديدي قديم، يغطّيه شرشف أزرق، وكومودينة بيضاء صغيرة، وخزانة، وثلاثة كراسيّ، وإبريق فخّار، ونافذة علوية يتسرّب منها ضوء شحيح ناعم. كان لها رائحة فندق، ووحدة زنزانة، جعلت جلده مثل قشرة ميتة. لكن لؤلؤة، كانت بانتظاره هذه المرة. «لا تشغل بالك» قالت: «هذي الغرفة للنوم بس». وأخذته من يده التي لم تكن تركتها بعد، في جولة اطلاعية على بقية غرف المنزل. ثم لقّنته دروساً في إضاءة المصابيح، وإقفال باب الشقة، وإزاحة الستائر، وتفادي الإطلالات المشبوهة، ومراعاة التحركات والابتعاد عن النوافذ

المطلة على دار الجزيري، والشارع الجانبي، والاكتفاء بغرفة الضيوف، والمطبخ، والممر المقفل، وغرفة النوم، بالطبع.

وكي لا يثير الشبهات، واظبت على الجلوس أمام النافذة. وإمعاناً في البراءة، أزاحت جزءاً من الدانتيلا، ليراها الجزيري، إذا ما كان يراقبها، وتحادثت مع فيصل قليلاً، ثم دلّت السلة بعد أن ملأتها طعاماً يكفي لأسبوع. لكنها لم تستطع التغيّب كثيراً عنه. وكانت تأتي إلى غرفة الجلوس، كل ساعة تقريباً، وهي تحمل الشاي أو القهوة أو قطعة كعك أو خبزاً مدهوناً بالسمن والسكر. وفيما اعتبر ذلك مبالغات ضيافة لا يريدها، كانت تعلم هي أنها ذرائع سخاء من أجل الثرثرة.

بعد الغداء، سألته فجأة: «شو يعني شيوعي؟». فبهت في البداية، ثم شعر بالذعر، ولكنه صمم على الإجابة. كانت تلك هي أول مرة يُسأل فيها عن مبادئه. واحتاج إلى بضع دقائق، كي يدرك أنها لم تكن تسأل بسبب حب المعرفة أو الميول السياسية، وإنما بسبب الفضول من جهة، والشائعات التي كانت تملأ تلك الكلمة بكل الرذائل والأوزار، والانحرافات الأخلاقية، من جهة ثانية. فكّر أن يبدأ تعريف الاسم هكذا: «شيوعي، يعني أنا». غير أنه رأى في هذا الجواب، خيلاء تفخيمية، تعرِّف به، لا بالفكرة. واختار بعد ذلك، أن يخلص للفكرة، فقال (لاحظ أن أصابعه بدأت ترتعش): «الشيوعي بدّو يغيّر هذا العالم. لأنو عالم غلط، مليان ظلم، واستغلال. الشيوعي بدّو يوزّع الخيرَ عَ الكل. ما عاد يظل فقير ولا غني، وكل واحد بياخذ قد ما بيشتغل. وكمان بدو نصير أحرار. أحرار نحب، ونعيش، ونحكي مثل ما بدنا، من غير ما حدا يمنع حدا، لأنو الإنسان بيستاهل هيك».

بدأت لؤلؤة تبكي. وانتبه إلى أن صوته كان مشبعاً بالأسى، فصمت. قالت: «كمِّل!». قال إنه لا يفهم لماذا تبكي. قالت: «ما عليك مني. كمِّل!».

قال: «خلصت»، فقالت: «حلو!». قال: «منشان هيك بكيت؟». قالت: «لأ، أني عم ببكي لأني مش مصدقة إنو في حدا بيقدر يحقق شي من هذا». «ليش يا لولو؟» سأل، دون أن ينتبه إلى أنه استخدم اسم دلع. فابتسمت برصانة، وتابعت: «مش ممكن لأفكار حلوة هيك، أنها تتحقق عَ هالأرض، لأنو الإنسان مش خيّ الإنسان». أراد أن ينقض أقوالها، لكنه تذكّر المعلّم، تذكّر لقمان، وحسن، تذكّر حروب العالم، فسكت. قالت: «خلّيك هون شويّ» ثم غابت قليلاً. سمع ضجة في الداخل، واكتشف بعد ذلك، أنها وضعت طاولة صغيرة في غرفته، وكرسياً، وقالت: «هذي منشان تقرا». كانت أول مرة يجلس فيها إلى طاولة، ليقرأ، فقال: «شكراً».

وفي المساء، خطَّ رسالة قصيرة لفيصل: «أنا موجود! لا تسألوا عني!»، ثم رماها من النافذة، ككرة. وتذرع بالرغبة في القراءة، وقرأ بالفعل، عشرين صفحة من كتاب الأخلاق المقرر. ورأى أن الدروس تستقر في رأسه بيسر. وعزا ذلك إلى الطعام النوعي، والرفقة الطيبة. وتذكّر كلمات المعلّم: «إذا قرأتم فافترضوا أنه لا يوجد في العالم كله، أحد سواكم أنتم وموضوع الكتاب. وإذا كرهتم درساً فاقرؤوه لتعرفوا لماذا تكرهونه. أو اقرؤوه مثلما تلعبون». اشتاق لرؤيته. وظنّ الآن، أنه غاب منذ سنين. ولم يستطع تذكُّر صورة وجهه. واستقرت مكان ملامحه، أشكال ندوب، وفراغات شِباك، ولمعات نجمية، ثم سمع صوته، كأنما يناديه، قائلاً: «اقرأ!».

من كتاب السفر

حزيران 1958

في شبابنا، أحببنا صالحة جميعاً. لم يبقَ شاب منا إلا ادعى أنها ابتسمت له، وهي راجعة من البئر، أو لوّحت له بيدها، أو رنت إليه في عرس. ولكن

أي واحد منا لم يستطع أن يثبت للآخرين، صحة الوقائع التي يسردها. مثلما لم يستطع أي منا أن يكذِّب رواية الآخر، أو يخلخل أقواله. لذلك ظلت صالحة حلمنا.

لم تكن جميلة، كما اقتنعت في ما بعد. لكنها بدت لي فاتنة. شيء ما في وجهها، مثل نظرة عينيها، وانضمامة شفتيها، ولون الحنطة الذي يشعّ منها، كان يوقظ في دمائنا، ذلك الحنين الجواني الدفين إلى المرأة. كانت امرأة زهراوية، تضحك بلا حساب، وتكلّم أي شخص كأنها تعرفه منذ سنين. وتخلق حوارات أليفة، مع أي رجل أو شاب، يبدأ حديثاً معها، دون أن يصيبها ذلك الاضطراب الجزع الذي يصيب النساء عادة، حين يبادر واحد من الجنس الآخر بسؤال حشري ما. ويقيني الآن، أن طريقتها كانت تكسر الفجوة التقليدية بين الرجل والمرأة، من جهة. وتوحي لمن لا يستطيع أن يصدّق استجاباتها البريئة، بأنها امرأة قريبة، يمكن جذبها إلى المواعيد بيسر.

غير أنني لا أعرف واحداً استطاع أن يصل إليها. يكفي أن يُظهر أي شاب إشارة، أو حركة مشبوهة، ليرى كيف ترد صالحة، كعقرب، موجِّهة إليه لدغة يمكن أن تعطبه أو تسمّمه. ولكن هذا لم يتكرر. لم يحدث سوى مرة أو مرتين، لأنّ ردّها كان يترسخ بيننا، كأمثولة، فنتعلّم، دون أن نفقد الأمل في أن يتمكّن أحدنا من أن يحظى بعواطفها.

فجأة، علمنا أنها خطبت. كان الخاطب هو بشير الصافي. شاب ضعيف كنا نلقّبه «الخرقة» بسبب تهاونه وتراخيه وحركاته النيئة وحكيه المعجون بلسانه. وقبل أن ندهش، أو نذهل، انفجرت في السماقيات، قصة أخرى لم نكن نعرفها. عرفنا أننا شلّة حمقى! جاهلين! فالشخص الوحيد الذي فاز بحب صالحة، لم يكن بشير، كما اعتقدنا. وإنما ملحم الصافي ابن عمه الذي جُنّ تقريباً، حين علم بالنبأ من والده. في البداية، أراد أن يكتم سره،

لكنه في المساء أصيب بتشنّج معوي كاد يقتله. شحب لونه، وصارت شفته السفلى ترتعش، وارتفعت حرارته، وأمسكت معدته، قبل أن يفشي كل شيء. ما العمل؟ فأبوه سيكون في الغد، أحد المشاركين في الوفد الزائر إلى منزل والد صالحة، محمود علم، لطلب يدها، خطيبة لبشير ابن أخيه. هل يمتنع عن المشاركة؟ هل يذهب قبل ذلك، ليطلبها لابنه؟ (وهو يراه عليلاً مشرفاً على الموت!). الحقيقة، كما أذكر، أنه لم يتردد. كان يعرف أن إقدامه على عمل من هذا النوع، سيكون مدمراً. وليس بوسع شخص مثله، يعتبر القبيلة أساس الوجود، أن يخرق اتفاقاً معدّاً من قبل!

وهكذا، شارك في خطبة صالحة لبشير. تحدّث كأنه يعقد راية. قال ملحم لنا في ما بعد، ربما ظنّ أنهم سيكتشفون مشاعره، إذا لم يشارك. أقول، ربما، لأنه في مساء اليوم ذاته، أرغم ابنه على القسم أمامه، بأنه لن يذيع أي تفصيل من أمر علاقته، حتى الموت. مقابل ذلك، أقسم ملحم، أمام أبيه أيضاً، بأنه لن يتزوج أبداً امرأة غير صالحة. لقد برَّ بقسميه معاً. أما هي، فقد هدمت زواجها منذ البداية، وحوّلت حياة بشير (الذي أُرغمت على الاقتران به، بقوة قوانين العائلة) إلى نار هشّمته. وكانت تطلب الطلاق كل يوم تقريباً، وتحاول قتل الأجنّة، في بطنها، دون جدوى. تفعل أي شيء كي تحطّم ذلك الرجل الذي ظنّ أنه قطف وردة السماقيات.

أظن أنها نجحت. فبعد سنتين من زواجهما، صار بشير خرقة بالفعل. بدأ ينحل ويتهاوى. ولكنه ظلَّ متشبثاً بها، مثل عنكبوت. المدهش، وربما كان عجيباً، أنه استطاع أن يزرع في بطنها جنيناً كل سنة! هل كان يغويها؟ أم كان يغلبها في الفراش؟ غير أن الأجنّة لم تكن تكتمل أحياناً، فتطرحها باكراً، أو أنها ما كانت تعيش أكثر من بضع سنوات، ثم تموت، كانت صالحة تقول: إن «تابعة» وهي جنٌّ خرافيّ، هددتها بقتلها جميعاً. وكأنها تثأر لملحم (هل كانت تساند بشير؟). ولم يبق لديها من عشرة

بطون حبلت بها، سوى اثنين، كبرا، وسط الغبار، داخل اقتتال، ومداهمات متواصلة، طوال عشرين سنة، ظلت صالحة فيها متقدة، حامية، تقاتل، كما أفترض، أو تخطط لأيامها المقبلة، أو تطمر كربها وقهرها. بينما كان بشير يتحوّل إلى شبح، أو إلى رمّة يابسة. هل كان يعرف؟ الأرجح أنه لاحظ شيئاً ما. فملحم لم يطأ عتبة بيته طوال تلك الأعوام، على الرغم من أنه لم يقاطعه. كانا يلتقيان مصادفة في سهرات الليل، أو اجتماعات العزاء أو الأفراح، يتبادلان كلمات المجاملة العابرة، ثم يمضي كل منهما إلى طريقه. هل كان ملحم يلتقي بصالحة؟ سؤال معلّق غامض سيظل مغلقاً إلى الأبد، كما أظن، مثل الأسئلة الكثيرة المترمدة، داخل تلك العلاقة. فبعد ثلاثة أيام من طلاق صالحة، الذي فازت به أخيراً، مات ملحم. هل مات بسبب الفرح؟ جائز! لأنني رأيت ذلك العازب الموعود بلقاء الحبيبة أخيراً، في حالة نشوة، لا يستطيع أن يتنفس أو يتحدث أو يصغي. وكل ما قاله، لم يزد عن بضع كلمات: «شفت يا بو فيصل؟ شفت؟!»، ولم يقل لي ماذا رأيت؛ فقد سكت قلبه فجأة، مساء. سافر إلى الدار الأخرى، وترك صالحة وحيدة، مبددة، عند حافة الفردوس الذي لم تدخله.

بعد أسبوع من موته، أدركت أنها لم تصبح وحيدة فقط، وإنما وحيدة إلى آخر العمر. فولداها وقفا إلى جانب أبيهما (لم أعرف ما إن كان أحد ما، سرّب إليهما أسباب طلاقهما)، وأهلها لم يرحبوا بها. وحدها تماماً، بجمالها الذي ذوى، وحبّها الذي أخذه الموت. جلست ترقب الخسارات، وهي تحاول أن تجد جهة الشمال في بوصلة عمرها! هل وجدتها؟ لن يعرف أحد. فجأة علمنا أنها سافرت. لم تخبر أي شخص، ولم تطلب إذناً أو موافقة. ولا بدّ أنها حصلت على تصريح السفر من الشرطة، بمساعدة حسن الماكر، ومضت برفقته، إلى حيث المجهول. فالأنباء الأولى التي وردت إلى السماقيات، بعد سفرها بأسبوع واحد، كانت مشوّشة: سالم

علي قال إنها ذهبت إلى طرابلس، ونواف بن سليم قال إنها وجدت عملاً لدى أسرة بيروتية تستعد للسفر إلى قبرص (قبرص؟). وفرحان الخاوي قال إنها ذهبت إلى الجنوب، أو إلى الجبل. وفي ما بعد، بدا لي أن هذا الطابور من الأخبار المتضاربة، مدبّر من أجل غاية واحدة هي: محو آثار خطوات صالحة. وكان هذا منطقياً من امرأة خسرت كل شيء، ولم يبق إلا أن تضع ستاراً كثيفاً، تمنع فيه الماضي، من أن يلاحقها. ومن يعرف صالحة، يعلم أنها ستنجح في ذلك.

الآن، أفكر: كنت أظن أن ملحم الصافي من حجر. إذ من يقوى على البقاء في الصمت، مدة عشرين سنة، لا يفصح فيها عن مشاعره وأشواقه، ولا يظهر منه أي دخان، وهو يُشوى بالنار، حين يرى المرأة التي يحبها، في حضن رجل آخر؟! لكنني اكتشفت أن ملحم ظلَّ حياً بفضل الأمل. ومات بسبب تحقّقه.

*

أغلق كريم الكتاب بعنف. كانت ملاحظة المعلّم مثل هزّة، جعلت قلبه يضطرب، ويضخ دماء عشوائية إلى رأسه وصدره وأطرافه. فكر أن يلحق بها، ويضيف صفحة جديدة إلى كتاب المعلّم. ولكن لؤلؤة صرخت: «لا»، في الصباح، حين أخبرها بأنه سيسافر، دون أن يحدّثها عن محمودة. كانت لا من الرعب، لا من الرفض، جعلت كريم ذاهلاً، فقالت: «آسفة!»، ثم استدركت حالاً: «لأ مش آسفة!»، وهربت إلى غرفتها مثل طفلة. وهناك بكت بصمت، وأكلت كراميلا، وفكرت أنها مستعدة للتضحية بأي شيء، من أجل أن يبقى. تمنّت أن تمتلئ الشوارع برجال الشرطة، والمباحث، وأن ينشروا صوره في كل مكان. وعندئذ، لن يتمكن من مغادرة بيتها أبداً. ستقفل الباب عليه، وتثبته إلى الهواء والماء، وتحنو عليه، وتطعمه، وتلبسه. وتحكي له عن حياتها كلها، منذ طفولتها، حتى اليوم الذي جاء فيه. لكنها بكت - رغم ذلك - بسبب رداءة تفكيرها، ولعنت نفسها في

المرآة، ووجدت أنها كانت هناك منفوشة الشعر، داكنة، غائرة العينين، حبيسة فكرة رعناء طائشة.

شعرت بالكمد، وهزئت من مشاعرها، ومن الحل المتسرع الذي خطر لها. فاستلقت على السرير. تأملت السقف. كانت هناك رسوم حائرة تقبع في الوسط: نعاج، دواب أو ثعالب أو غيمات أو أشخاص مشوّهون. إلى متى ستظل رفيقة هذه المدونات الكلسية الغامضة؟ صحيح أنها كانت في الماضي (منذ أيام فقط)، تجد في حضورها، بواعث لتصوّرات وأفكار وافتراضات، تقدّم لها حلولاً لا نهائية لمصاعبها، أو وجوداً متنوّعاً لحاجاتها، لكنها لا ترى فيها الآن سوى العماء. أشكال بلا حصافة، اقتراحات مشوّهة أو مخذولة لعاطفة جدباء بلا ربّان. لن تبقى أيضاً رفيقة الأشياء وحدها، فوجود رجل (وقد نفذت إلى أنفها، رائحة كريم حين كانت تستمع إليه) يمحو كل صور الكراسي، والمقاعد والسجاجيد والستائر وعدة المطبخ. وجدت نفسها تبكي من جديد، فالتهمت حبة كراميلا، وشعرت بالرضا لأنها استخدمت لاءها ضد فكرة السفر. وفرحت لأنها تصرفت مثل راعية (لم تجرؤ أن تقول مثل أم) أو مثل مربية. وقررت أن تحوّل رفضها إلى زاد يومي تغذي به كريم. ثم فوجئت، بعد ذلك بساعتين، أنها حشدت عشرات البدائل لسفره: الشهادة والدراسة والبحث عن عمل. وقالت له إنها مستعدة دائماً لتمويل أي مشروع، شرط أن يلغي الموضوع. لم يقل أي شيء. كان ينظر إليها بفتور وتراخ. لم يكن يعتقد أن فكرته يمكن أن تستفزها، ولا فهم سبب الاستفزاز. وهو ليس سوى لاجئ مثير للشفقة والعطف. أما اقتراح السفر، فيمكن أن يكون حلاً لإحراجات بقائه الثقيل. ولم يجد ما يردّ به على عروضها السخية. وشعر بالخجل من أن يكون قد أوحى لها، في أي وقت، بأنه محتاج. وأراد أن يصرخ قائلاً: «لا!»، وأن يشرح لها بأنه يفكر في الاستيلاء على الأشياء والأقدار بالقوة،

لا قبولها كإحسان. ولكن الكلام قد يجرحها. وهو لا يخوض معركة حزبية، ولا يقدّم حصة في الدعاية السياسية، وليس لديه مكان يذهب إليه. وهناك احتمال أن يكون ملاحقاً بالفعل، وأن يقبضوا عليه في اللحظة التي يقدّم فيها هويته من أجل الحصول على تصريح السفر. وسوف يقبل كل شيء، دون علل، إذاً.

هكذا، وجد نفسه يقول لها: «شكراً»، فقالت: «لا تشكرني لأني مش عَ بقدم واجب، أني بحب كل شيِ عَ بيصير. قول موافق، وخلص!». قال: «موافق!»، فصفقت وهللت، ثم قالت: «شو رأيك نتعشى؟». كان العشاء ثقيلاً. وشعر برغبة في النوم باكراً، فقالت: «قرا شوي ونام!».

استلقى في سريره، وبدأ يقرأ:

من كتاب السفر

كانون الأول 1959

بالأمس، عرفتُ أنها ستسافر. كانت هذه هي المرة الوحيدة التي أؤمن فيها بأن السفر يشبه الولادة. وأعتقد أن الصورة غير ملائمة؛ فالولادة مجيء غامض، يرتمي فيه المخلوق إلى هذا العالم، دون إرادة منه. ولذلك سوف أقول إن قرار السفر الذي اتخذته خيرية بنت حامد النخيل، يشبه إعلان حرب. نعم، هذا ما عليّ أن أقوله، بشأن هذه المرأة المدهشة التي باغتتنا جميعاً، ونحن نيام.

فلأول مرة، أرى امرأة تخرج من قاعة المذهبية، وهي ترفع ورقة طلاقها مثل راية. بياض مربع مسوّد ببضع كلمات، اضطر حليم الزهر أخيراً أن يوافق عليها، أمام القاضي المذهول، الذي كان يتوقع أن يرى دموع امرأة، فإذا به يسمع زغرودتها!

كان الطلاق، بالنسبة لخيرية، شهادة زهو، عدالة أرضية لم تنتزعها من يدي حليم وحده، بل من أيدي رجال السماقيات جميعهم. نعم، فإصرار هذه المرأة على الخروج من بيت الزوجية، وطلب الطلاق، حوّلاها إلى امرأة أوزار، كأنها خاطئة تمضي إلى طريق الدعارة، غير آبهة بشيء، أو بأحد، ويستطيع أي شخص أن يتكهن بالعبارات أو الألفاظ التي وصفوها بها هنا. المشكلة عندي، لم تكن في اعتراض الرجال على إجرائها العنفي، ضد الإهانة التي لحقت بها من زوجها، بل في ذعر النساء!

إحداهن (أظن أنها نوفة زوجة علي عجيب) اقترحت أن تعاد إلى بيتها مقيّدة، وأن تجوع هناك، وتموت، مثلما ماتت سلمى، على يد صياح الذيب، في الحفائر. امرأة أخرى (هي ثلجة زوجة حمد شمال) ملأت صدر آل الزهر، بالحقد على آل النخيل كلهم. وثالثة ورابعة وخامسة. كلهن تقريباً، أبدين حقداً وكراهية لخيرية. وقالت إسكندرية، زوجة لقمان، إن خيرية تشبه شخصاً يشلح ثوبه في عز الشتاء، وإنها ستبرد وتتجمد. كانت تحاول أن تتفلسف وتحوّل المثل الشعبي إلى وقائع، من لحم ودم. غير أنني أحسب أن قرارها نزع عن كثير من النساء، ذلك الستر الغامق القديم من الاستخذاء والخنوع والصمت المرير على الجَوْر الذكوري. لكن التفسير لا يكفي للتبرير أو للفهم، أيضاً؛ فما زلت عاجزاً عن تمثّل هذا السّعَار الشقي الفالت الذي يدين خيرية.

في البداية، حين سمعت عن نيتها أن تسافر، فكرت أنها تريدُ التملص من الضغط والعزلة اللذين فُرضا عليها. لكن خيرية بددت افتراضاتي، تحدثت عن السفر كحياة. لا أعرف من أين استمدت هذا الحنين الغريب إلى فردوس مختلف موجود خارج حدود السماقيات. ويمكن للعديد من الناس، أن يقولوا إنه ميل شعري، يجذب النساء إليه. معقول! غير أن خيرية أكدت أنه اندفاع حيوي متعلّق بالحياة نفسها. وقد قالت لي إنها اكتشفت،

يوماً بعد يوم، إثرَ خروجها من البيت، أن بإمكان الإنسان، أن يعيش بألف طريقة. وبعد أسبوعين فقط، أيقنت أن الزواج قبر. وشبّهت نفسها بالنعجة: مخلوق راضٍ منقاد، لا يفعل شيئاً سوى أن يطأطئ رأسه ليتقي حجارة الرعاة، أو يحتمي بالأخريات من الحر. وليس بوسعه، سوى أن يثغو، أو يسعل كي يفهم الآخرون أنه مولع بهم، ومستعد للموت في سبيلهم. وقالت إن الزواجَ مثل الموت، نهاية أخيرة للحياة. لم تكن تعبّر بكلمات مماثلة، لكن مضمون أفكارها اشتبك بكل هذه المفردات. وقد رأت، بالممارسة والعيش، أن طرق الحياة متشعبة وملونة، ومحتشدة بتفاصيل تزيدُ مئات المرات عن تفصيل ضئيل واحد، يلّخصه النوم في حضن الزوج (وأظن أنها كانت محرومة من هذا أيضاً)، لهذا اتخذت قرارها بالسفر. وبفضل قوة الإرادة التي نفعتها في اكتساب تأييد ومناصرة أبيها حامد النخيل من أجل الطلاق، نجحت هذه المرة، في إقناعه بالسماح لشقيقها الأوسط، بمرافقتها. وحين جاءت لوداعنا، بدت نضرة ومزهوة، بحيث عجزتُ عن لومها؛ فقد باغتتني باندفاعها النذوري المأهول بالرغبة في تغيير ذلك النمط المعتاد الباهت، من حياة السماقيات. وفهمت منها عندئذ، أنها قد أتمّت جميع الاستعدادات لمغادرة البلدة، برفقة مسعود شمال، وزوجته لوزية، وفرحان وابنته، يقودهم جميعاً حسن اللوف، بالطبع!

كانون الأول 1959

لا أصدّق أن مسعود شمال يمكن أن يصبح مصارعاً. فهذا الشاب الذي يملك قوة فيل، يحمل في صدره، قلب حمار. وبسبب ذلك، يمكن لهرة أن تفترسه، إذا عاملته بكياسة. والمرات القليلة التي رأيته ينتحل فيها صفة المقاتل، كان سببها انعدام الوسائل الأخرى اللازمة لحل مشكلة. نوع من التعبير عن نفاد الصبر. وغالباً ما كنت أكتشف أن قتاله نفسَه

شحيح ومدقع، لا يتضمن أي ابتكارات، ويقتصر على لكمة واحدة، أو صفعة محسوبة، حين يخطئ غريمه، ويضع صفحة خده في الاتجاه المطلوب. وكان يقول إنه يختار الصفعة لخوفه من أن تتسبب لكمته في إصابات تفوق التقديرات المفترضة لطبيعة المعركة. لأنه يكون عندئذ، في الحالة القصوى لفقدان العقل. وكان ما لديه منه لا يكفي لحل مشاكل البيت. ولكنني أعتقد أن مسعود كان يتحاشى استخدام قبضته المضمومة، بسبب الرحمة. وأذكر أنني كنتُ أراقب التلاميذ من نافذة غرفتي، وهم يلعبون، أثناء إحدى استراحات الدروس. ورأيت مسعود يلكم محمود عجيب، لكمة على بطنه، فانطوى مثل دودة. وحين هرعتُ إليه، وجدته شبه ميت، عاجزاً عن استنشاق الهواء، وقد جحظت عيناه، وانفتح فمه، واصطبغت أطرافه بزبد حليبي. هرب جميع التلاميذ، باستثناء مسعود الذي ظلّ واقفاً، هناك.

أسعفت الولد بإجراءات تنفسية بسيطة (فالألم هو الذي سبب الاختناق). والتفتُّ نحو مسعود. كان متيّبساً مثل خشبة، وليس فيه أي شيء حي، سوى عينيه اللتين كانتا غارقتين في بركة دموع. لم أجد كلمة واحدة لتوبيخه، فيما سار بضع خطوات، وحمل محمود بين ذراعيه، وركض به في الباحة الصغيرة، وهو يصرخ.

في ما بعد، لم أره يضم قبضته قط. وأعتقد أنها كانت المرة الأولى التي أرى فيها صبياً - ورجلاً - ينظر إلى قوّته العضلية كبلاهة. فالعادة هنا، أن تعتبر القوة ضرورة، أو مجداً، وأن تسمع الناس يلوكون حكايات عزيزة جداً عنها، لأبنائهم، تمكّنهم، غالباً، من تبرير الحياة التي يعيشونها. أما العائلات التي حرمها الاختيار الرباني من وجود رجل قوي فيها، فإنها لا تعيش بلا حكايات وحسب، بل بلا حقوق أيضاً. فالقوة ميزان الحقوق! ويخامرني اليقين أحياناً من أن جميع القوانين، وضعها الأقوياء في تاريخ

البشر. وأشك فيما إذا كان ثمة ترقيم واحد يُعنى بحقوق الضعفاء، في ذلك الكتاب الخرافي، منذ حمورابي إلى يومنا هذا. لذلك فإن مسعود شمال، يبدو، كأنه يعيش خارج حالة الطوارئ التي يقطنها غيره من سكان السماقيات. فهو خامد كبغل، كسولٌ كقطٍّ شتاءٍ. لا يريدُ أن يفعل شيئاً سوى الشخير قرب اللوزة الجميلة التي زوّجوه إياها. ولهذا، أظن أن سفره إلى لبنان سيبلبله. وهناك احتمال ما، في أن يحطّم سكينة حياته. وعندئذ، قد لا يجد ما يملأ به الفراغات الناتئة سوى العنف، لكنه لن يكون مصارعاً أبداً.

*

استيقظ مذعوراً، آخر الليل، حين سمع صوت طلقات قريباً، ودبيب أرجل، وصرخات رجال: «هون! هون!». ورأى فجأة، شبح لؤلؤة، وهي تقتحم الغرفة، وتندسّ قربه، وهي ترتجف. «خايفة!» همست مذعورة: «خايفة!»، ثم بدأت تنتحب: «فكّرت إنهم جايين ياخذوك! وبعدين عرفت إنهم حرامية». لكنه كان محتاجاً للطمأنينة. وحين سيعلم في الصباح، أنهم أطلقوا النار على شابَّين كانا يوزعان المناشير، سيمتلئ بالذعر، وسوف تهزه قشعريرة كالموت، ترغمه على البقاء في الفراش، نهاراً كاملاً.

ربما لم يكن الخوف وحده هو السبب. فما حدث في الليلة ذاتها، قوّض أمانه أيضاً؛ فلؤلؤة، رفضت العودة إلى غرفتها. وكان جسدها يرتعش. ولم تكن قادرة على ضبط كلماتها، بسبب اصطكاك أسنانها. تدثرت باللحاف والبطانية، وظلت بضع دقائق، مختبئة هناك، إلى أن نبّهها سعاله إلى وحدتها في الداخل، فجرَّته من ذراعه وقالت: «تعال! نام!».

لا يعرف متى استيقظ كالحالم. كانت شفته السفلى داخل فمها، تُمتصّ كالكراميلا، بلا توقف، بحركات رضاعة شفيفة مرة، أو تُمرّغ بالأسنان واللثة مرة أخرى، أو يمشّطها لسان ساخن مرة ثالثة. استسلم كطفل، ممعناً

في اصطناع إغفاءة مغشوشة، ظانّاً أنه يخدع شريكة الفراش، متواطئاً مع اللذة. كانت القبلة طويلة. وحين انتهت، شعر أنّ شفته السفلى قد انتفخت، وأضحت سميكة وثقيلة، يغمرها خدر أبيض كالدقيق. وبسبب الارتباك، لم يجرؤ على التحرك، ولم يستطع أن يرى من الشق الرفيع لجفنيه اللذين ظلت رموشهما مشتبكة، أي شيء. أحسّ أنها تحتضنه. وقد أتاح لها وضعه الجنيني أن تدفعه إلى انحناء جسدها المتمدد. شدته إليها حتى التصق بها. وعندئذ عانقته، ثم قبلته مرة ثانية. شمّ رائحة هيل مدوّخة، وكتم أنفاسه، مفسحاً للسانها أن يتسلل من جديد إلى فناء حلقه. وبسبب الذعر من انتفاخ عضوه الذي ظنّ أنه يمكن أن يصدمها، اضطر أن يتحرك قليلاً، لكي يضعه تحت جسده، مدركاً أنه لم يعد بوسعه، أن يظهر كبريء أو غافل. شعر بالخجل، واعتقد أنها الآن ستطرده، عندما تكتشف أنه كان يغويها بالتناوم. غير أنها ظلت تعانقه. ثم لاحظ أن إيقاع تنفسها صار رتيباً. سمع أنين نائمة، وفكر أنها تدبّر له دسيسة، أو أنها تختبر كياسته. وخشي أن يتحرك مرة ثانية، خوفاً من أن يكسر سمات البراءة التي أظهرها. ثم فكر أن كل ما حدث كان تطبيقات عفوية لحلم عابر خامره. وفرح لأنه لم يقامر بالظنون، ويحاول إدارة الأمور نحو الرذائل.

وفي الصباح، لم يجدها قربه، وظلَّ في فراشه خائفاً، خجلان، إلى أن جاءت لتوقظه. وباستثناء عينيها اللتين كانتا تشعان نشوة، فإن كل شيء ظلَّ عادياً: تحية الصباح، ابتسامة الترحيب، والدعوة إلى الإفطار. كانت الساعة تزيد عن الثامنة، فقال إنه سيبقى في غرفته. وزاد حصة القراءة - رغم مشاعره المتضاربة - متعمداً الهرب من أي مواجهة محتملة. كان موقناً من أنه سيهزم فيها، معتقداً الآن (بسبب انتظام الحياة اليومية) أن لؤلؤة لا تذكر شيئاً مما حدث ليلة أمس. واستناداً إلى استنتاجاته، فقد تصرف كما كان من قبل، أي كضيف خفيف بلا أطماع.

وفي الليلة التالية، اضطرب نومه. كان لحمه مشدوداً مثل طبل، يستيقظ بضع دقائق، بسبب أوهام وتشويشات وأصوات، ثم يتخيّل أنه يراها قادمة من جديد، لتقول: «أني خايفة». لكنها لم تأت. وجفل مرة واحدة، حين تناهى إليه صوت إغلاق باب. كانت هي هناك، تمضي إلى الحمّام، وتعود كما كانت دائماً إلى غرفتها. وفي الهزيع الأخير من الليل، فقد آماله، فنام متعباً خائباً، ونعسانَ حتى الموت.

غير أنها عادت ليلة الأربعاء. اندسّت في فراشه، وهي تقول: «قلقانة، مش قادرة نام»، ثم أضافت، حين لاحظت أنه التصق بالحائط: «ليش بعّدت؟!». وقالت إنها ترغب في الكلام، وهي آسفة لأنها ستحرمه من النوم. قال: «لا» بحيوية وحماسة، خائفاً أن تلغي فكرتها. ران صمت قصير بعد ذلك، ثم قالت لؤلؤة: «قل لي! شو بتتمنى؟»، فشحذ عقله وخيالاته، وراح يدوّن أمانيه على صفحة الظلمة. واكتشف بعد دقائق، أنه كان يهتف تقريباً، مبشّراً مضيفته بالأيام الجميلة القادمة التي سيتمكن فيها العمال من بناء العالم الجديد الطيب. فوضعت كفّها فوق شفتيه، وهمست: «قول لي أنت شو بتتمنى؟». «أنا؟!». قالت: «إي». قال إنه يعرف عجزه عن تحقيق أي أمنية، دون المشاركة الجماعية. فصارت تضحك، وأدخلت أصابع كفها الطويلة في شعره، وخربطته، ثم استلقت، وقالت: «صار لازم ننام»، فأطاعها، واستدار نحو الحائط، وسمعها تشهق هواء المحيط إلى رئتيها.

هي، ظلت حائرة وراء حاجز ظهره. ماذا جاءت تفعل؟ ومن هذا الرجل النائم قربها؟ وما حيّرها أنها، قبل ليلة أمس، لم تفكر. فقد ذعرت بالفعل، من الحسابات التي خطرت لها، حين سمعت طلقات الرصاص، وصخب الرجال في الشارع. بدت أصواتهم مثل حصار ينغلق حول بيتها. لم تجد مفرّاً تذهب إليه سوى سرير كريم، إذ كان وجودها هناك، شهادة

على استعدادها لأن تضحي بكل شيء، من أجل حمايته. وحين لم يأتِ أحد، وزال الخطر، كان المكان دافئاً، وحميماً كميثاق، فقررت ألا تغادره، وأن تظل هنا. ولكنها لم تستطع النوم، مثلما لم تستطع أن تصمد أمام أنفاسه الرطبة المخضلة بالشهوات. فالتقطت شفته السفلى، كأنها ترشف ماء، وهي تظن أنه مستيقظ، وأنه يقدّمها لها كإيماءة. وحين أدركت أنه كان نائماً بالفعل، لم يكن ممكناً أن تتراجع. وزاد في رغبتها، أنه اتخذ وضع الاستقبال، فكبحتها من جهة، ولم تجد أسلوباً لمواصلة العناق، بوجود شريك مستسلم طائع لا عمل له سوى تلقي القبلات، من جهة ثانية.

بدأت الليلة، تسخر من نفسها؛ فالعفوية المجيدة التي اكتسبتها تلك اللحظات الطافحة بالنشوة، أعطبتها مراجعات التفكير. وبدل أن تندفع الليلة إليه، وجدت نفسها تجمجم بالالتزامات المكلفة التي ترمّد القلب، خفتت حماستها أيضاً، وفكرت أن تغادر الفراش، عائدة إلى غرفتها. وزادت هذه الفكرة في غيظها، فقرصت خدها، وشدّت شعر رأسها، ولكمت خدّها، ثم هدأت واستدارت إلى جهة الفراغ، ونامت.

ليلة الخميس، التصقت به، حين نفّذ اقتراح الأمس، وأدار لها ظهره. كان جسده يرتعد. وسمعت صوت عظامه، فهمست: «شو بك؟ بردان؟». لم يجبها، عجز عن الكلام، فقد انفجرت في داخله، مخازن الغلمة كلها، حين مسَّت أصابعها، في مرور عابر، من فوق قماش بيجامته، شيئه. عرته قشعريرة، وكاد يصرخ، ولم يستطع أن يهمد، بسبب حركاتها العجيبة التي لم يكن ممكناً بالنسبة له، أن يتأكد ممّا إذا كانت تحرشات مشبوهة، أم استقصاءات فاحصة، أم براءات حنان وعطف. ولم يجد في المساحة الضيقة التي تركت له، مكاناً يفرّ إليه، فآثر أن يستسلم من جديد، طوى جسده وأطرافه، كي يقلل المسافات المحتملة لالتصاقها به. غير أن الوضع الجديد منحها حرية أن تحيط به من جميع الجهات، فأنفاسها

سخّنت رقبته، ويداها أحاطتا بجسده: واحدة تسللت من الفراغ بين الوسادة والفراش، والثانية عانقته من أسفل الصدر. ذُعر، وازداد ارتجافه، وامتلأ وسطه بالدماء. ولم ينقذه من الدمار، سوى تلك الاندفاعة السريعة المباشرة التي اخترقت فيها يدها اليسرى، دكة بيجامته وسرواله، نحو باطن فخذيه، لتمسك به من هناك، بلا هوادة، وترفعه كراية.

كان حلاً اصطفى الغلمة، دون ارتباكات اللقاء. ظلَّ بضع دقائق، قانعاً باستحواذها على وسطه. وتململ قليلاً، ليترك لها الحرية في حراثة المنطقة كلها، يمشّطها كفها الناعم العرقان. ضبط شهوته وكبح ميل غرائزه للانفجار، قبل أن يستدير فجأة، ليواجهها، بكل شيء. ابتسمت له، ثم قبّلته. عندئذ لم يعد يرى، ولم يعد يذكر سوى أنها كانت تمسك بغرّته، وتشدّه، وهي تقول: «مش هيك!»، فعرف أنه ما يزال جاهلاً، وانخذل، وارتمى قربها حزيناً آسفاً. غير أنها لم تدعه. عانقته، وقبّلت أذنه، وهمست: «لا تزعل! أني رح علمك كل شي!».

يوم البطل

قصة: فيصل الخضرا

كان اليوم موعد المباراة، وقد استعد لها البطل مسعود شمال منذ شهر. تمرّن بالحديد، وشال الأثقال، وتعلّم ضرب البوكس، حتى صارت زنوده سمراء، تظهر فيها شروش الدم. وصار صدره عريضاً، ونبقت عضلات بزّيه، وصارت تشبه الدروع الحديدية. وكان في كل يوم، يركض ألف متر، حتى يصير العرق ينزل من جسمه. وهذا مفيد، لأن الغدد العرقية يأتي إليها الدم كثيراً، حين يركض الإنسان، فتطرح العرق منها، وهو عبارة عن سوائل زائدة، فيها أحماض ضارة بالجسم (لم يكن مسعود يعرف ذلك. ولكنني قرأت عنه في كتاب العلوم)، وكان يذهب إلى الغابات، ويستنشق الهواء حتى تكبر رئتاه، لأن الغابات مليئة بالأوكسجين. والأوكسجين هواء ضروري جداً لجسم الإنسان (ولا أعرف لماذا؟). ثم يذهب إلى حلبة المصارعة، ويتدرب، ويضرب الكيس الجلدي الكبير، مئة مرة، ويخرج من بطنه، صوت مثل الرعد، يهرب منه الفتيان الذين يتدربون، ويحسده عليه الشبان، ويقول المصارعون الكبار: «ما شاء الله!». لو لم يقولوا ذلك، لمرض مسعود، إذ من الجائز، أن يصيبوه بالعين.

وقبل أن يخرج إلى المباراة، وصلنا كلنا إلى الشارع، وصرنا نهتف له، ونحييه ونقول: عاش مسعود شمال! ثم خرج وخرجت معه لوزية

الجميلة، زوجته، وباسته أمامنا كلنا، فصرنا نضحك. ضحكنا كثيراً، لأنه عيب على المرأة، أن تبوس زوجها أمام الناس. ولكن لوزية الجميلة صارت مثل بنات المدن.

وأمسكت يد مسعود، وسارت إلى جانبه. وسرنا وراءهما، ونحن نغني ونصفق. وحين دخلنا إلى القاعة، وقف الناس وصفقوا للبطل مسعود، وسارت لوزية الجميلة إلى جانبه، ثم جلست في الصف الأول، ثم جاء المصارع اللبناني إدمون، وصفق له الناس أيضاً. وكانت زوجته معه، وجلست في الصف الأول، مقابل لوزية. وبدأت بنات السماقيات يغنّين، ثم يأكلن البزر، ويعلكن العلوك. وتسلل فضل الله عجيب، ووضع خرزة زرقاء، في الجهة التي يقف فيها البطل مسعود، فانبسط الجميع، وصفقوا له. وأخيراً جاء الحكم، وصعدوا إلى الحلبة، وأشار إلى مسعود، وقال: هذا مسعود، وأشار إلى إدمون وقال: هذا إدمون، وأمسك الصفّارة ثم صفّر. وكان المصارع إدمون كبيراً جداً، ووزنه يساوي مئة كيلو. وقال أهل السماقيات: الله يعين مسعود عليه! فقالت لوزية: هذا مسعودي، ورح تشوفوا.

تقدّم البطلان، ودار كل واحد منهما حول الآخر، وهزّ مسعود بزّيه، ورقّص كتفيه، ثم تكامشا، وسمعنا أصواتهما، وكان صوت مسعود مثل الرعد، وكان صوت إدمون مثل المدافع. ثم استطاع البطل مسعود أن يشيل المصارع إدمون، ويرفعه عن الأرض، ثم ينزله بقوة، فصاح أبناء السماقيات، وكان معهم ناس من المنارة والحفاير، وصاروا يهتفون: عاش الرئيس جمال عبد الناصر. فنظر إلينا أبناء لبنان، بغضب، وصاروا يهتفون: عاش الرئيس كميل شمعون. وقام إدمون، وصار يضرب مسعود بالبوكس، وصار مسعود يضرب إدمون بالبوكس، وسمعنا المصارع إدمون يقول: «أخ». وضرب مسعود بقوة. وصار الدم يسيل من أنف البطل مسعود،

فجاء الحكم وسأله، إذا كان سيوقف المصارعة. ولكن مسعود ضحك وقال: عادي! دم أنفي يسيل إذا باستتني لوزية! وضحك الحكم، وضحكنا، وضحك الناس. وصعدت لوزية ومسحت الدم عن أنف البطل مسعود، فقال لها لا تبوسيني أحسن ما يسيل دمي مرة ثانية. فصفق الناس للنكتة. وكان مسعود خفيف الدم كثيراً. وتقدّم نحو المصارع إدمون، وأمسك كتفه، وهزّه هزّاً، وقال له: أتجعل دمي يسيل أيها الجبان؟ فاندهش المصارع إدمون من الكلام، ولكنه لم يستطع أن يجيب، لأن البطل مسعود لكمه بيده اليمنى، على حنكه، فداخ، فلكمه على حنكه الأيسر بيده اليسرى، فانقلب على الحبال، فجاء البطل مسعود وجرّه من يده، ورماه بعيداً، فوقع على الأرض، ثم حمله ورفعه إلى الأعلى، وصرخنا: هي ي ي ي ي!

ونظر إلينا البطل مسعود، ونظرنا إليه، وقلنا: ارفع راسنا يا أخي! فرمى المصارع إدمون على الأرض، وانبطح فوق كتفيه، وصار الحكم يعدّ، ونحن نعدّ، ولوزية الجميلة تعدّ: واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، ستة، سبعة، ثمانية، تسعة، عشرة. فأمسك الحكم بيد البطل مسعود، ورفعها، وقال: مبروك لكم يا أهل السماقيات. فرقصنا كلنا، وحزن أبناء لبنان، وخرجنا من القاعة الكبيرة، وحملنا البطل مسعود على أكتافنا، ونحن نغني:

وإن هلَّلتِ هلّلنا لِك — صفّينا البارود قبالك
ون هلَّلتِ يا لوزية — الواحد فينا بيسوى ميّة

31

كانون الثاني 1960

لعبوا الورق، بحضور الشرطة. فجلس ابن مالك مقابل علي الطبال، بينما جلس عمار التوت مقابل سلمان الجدي. وتقرر أن يُسمى الفائز، بعد ثلاث جولات، في حال التعادل في الجولتين الأولى والثانية، وفي اثنتين، إذا فاز أحدهما فيهما. وتمكّن الرقيب بيرم من حل الخلاف المبدئي حول القيمة العددية الكاملة في كل جولة، فاتخذ قراراً ملزماً بأن تكون مئة وسبع عشرة نقطة.

دامت المباريات ستّ ساعات، وأُجريت على دفعتين، خلال يومين. استطاع فريق ابن مالك، وعلي الطبّال، خلالها، سحقَ الفريق الآخر، بضربات حظّ، وشطارة، شهد لها كلُّ الحاضرين الصامتين الذين كانوا يراقبون اللعب. كان الورق جديداً، فتحه الرقيب. ثم رمى قطعة نقود، وطلب من عمار التوت، وابن مالك، أن يختار كل منهما أحد وجهي العملة، فاختار عمار النقش، وتُركت الطرّة لابن مالك الذي وجدها ناصعة مستقرة على كف الرقيب البيضاء. وحرصاً على النزاهة، خلط الرقيب الورق بنفسه، وأعطاه لابن مالك الذي قدّمه أيضاً، دون تردّد، لعمّار كي يختار القطع المناسب له.

بدا علي الطبال زاهياً، يبتسم بخبث، منذ أن رتّب الأوراق الثلاث عشرة، وضمِن اللعبة بعشر نقاط، دون أن ينظر إلى رفيقه. وحين وقع الاختيار عليه، قال بصوته الخشن، وهو ينفث دخان سيجارته، من أنفه وفمه: «الطرنيب سباتي». كانت تلك الرسوم الشبيهة بدعسات القطط، ترهق قلب عمار. ولم يستطع إخفاء تشاؤمه، وأغمض عينيه من القهر، حين وجد أنه لا يملك سوى خمسة السباتي. ولم يكن بوسعه، تبادل أي إشارة مع سلمان؛ فالرقابة التي وضعها الرقيب كانت مشددة، إلى حد أنه اعتبر أيّ كلمة ملغزة، أو حركة مشبوهة، مثل حكّ الأنف أو الأذن أو الشعر أو تبديل شكل القعود، دون استئذان، محاولة غشّ يعاقَب مرتكبها بخسارة نقطتين من رصيده. كما تلغى الجولة، إذا كان الضمان بيده. وهكذا، فقد تلقّى تنبيهاً، منذ البداية، وطُلب منه ألّا يكرر الإشارات، ثم صمت الجميع.

ما لم يكن متوقعاً، هو أن يكسب فريق ابن مالك اللعبة كاملة. فابن مالك تخابث في اللعب، في مرحلته الأخيرة، على الرغم من ضمان الفوز. نفّذ لعبته الأثيرة في إخفاء الورقة الضاربة حتى النهاية: كان آص الكُبّة في حوزته، بينما ظنّ عمار التوت أنه في أوراق سلمان. ولهذا فقد احتفظ بالملك بين أوراقه حتى النهاية، ليرميه على البساط أخيراً كي يكسر التفوّق المطلق. ولكن ابن مالك ردَّ بورقته، قاذفاً إياها بخفّة ونعومة جعلتها تطير كسنونو، لتحط على لهفة الحاضرين. صفّق مؤيدوه جميعاً، وربّت عبود الزهر على كتفه، وقال: «لك عندي حلاقة ذقن ببلاش!».

الثانية ضمنها ابن مالك بسبعة، فقال عمار: «ثمانية»، وقال علي الطبّال: «باص!»، وقال سلمان: «باص!»، فقال ابن مالك: «تسعة»، قال: «عشرة»، فردّ ابن مالك فوراً: «أحد عشر» لاجئاً إلى الفصحى. حدجه التوت بمقت، ثم راح ينظر في أوراقه، يتفحص حجم المقامرة، ومخاطر الضمان الأكثر. ران صمت منذر، قطعه عمار قائلاً بحزن: «باص!».

فاز فريق ابن مالك باثنتي عشرة درجة، على الرغم من أنه لم يكن يملك من طرنيب الديناري، سوى سبع أوراق، واثنتين قويتين من الكبة. ولكنه راهن على إهمال فريق عمار لأوراق البستوني. وفيما اعتقد عمار وسلمان أن السباتي هي أوراقه الضعيفة التي راما أن يكسراه منها، فقد تخلّيا معاً عن البستوني. والأرجح أن علي الطبّال، اندهش أيضاً من لعبة المراوغة التي نفّذها شريكه، بمهارة، جعلت علي يصرخ في نهاية اللعبة، وهو يرمي ورقته القاتلة: «انتصرنا!». ولكن الرقيب بيرم نهره قائلاً: «يا طبّال! استنى بكرة!»، فقال ابن مالك موافقاً: «حقّ حضرة الرقيب! حقّ! لكن الصباح رباح!».

تفاؤله تجلّى في اليوم التالي، بانتصارٍ فعليّ منذ الجولة الأولى، حين غامر عمار التوت، بأمر من لقمان، وضمن تسع درجات. كانت قراءة لقمان، وأنصاره، حين اجتمعوا في الليل، لتقييم اليوم الأول، مختلفة عن موقف النهار؛ فتقديراته هي أن عمار التوت وسلمان الجدي جبانان، وأن الورق ليس لعبة حظ وحسب، ولا شطارة فقط، بل مغامرةُ شجاعةٍ، جرأة تزيد أحياناً عن جرأة معركة. في الورق، يجتمع الارتجال والإقدام والخبث والخيانة وانعدام الضمير والمعرفة والتكهنات والضرب السريع المفاجئ. الحساب واللاحساب. الورق لعبة المجانين، المؤرّقين، العاجزين عن العودة إلى بيت وزوجة، لا العقلاء الرسميين. الورق قاتل الوحشة، ورفيق الملل. ثم وبّخ سلمان: «ولك مفكّر إنو لعب الورق طبخة مجدرة، ما فيها إلّا العدس والبرغل وقلية البصل؟ لعب الورق سباحة، يعني مرّة بتسبح عَ بطنك ومرّة عَ ظهرك ومرّة فراشة، ومرّة ضفدع، ومرّة حصان، ومرّة كلب. وأنت ما لعبت غير سباحة الكلاب». والتفت نحو عمار وقال باحتقار: «وأنت يا عمار؟». قال عمار خجلاً: «ها يا بو علي!». «شو يمكن يقول بو علي لجندي مثلك؟». «ولا شي». وفكر قليلاً

وأضاف: «طول عمري مفكر إنو الورق لعبة، وأمس عرفت إنو حرب، معركة، لازم يفوز فيها الشجاع».

غير أن عمار وسلمان لم يحققا شيئاً، إذ اكتشفا أن الورق اشتبك بالحظ هذا النهار. سمعوا عواء ذئاب. وغمغم عمار: «لعنة الله عليكم!». كان دور سلمان في الضمان الأول، فقال سبعة، كبداية. كان الورق لديه قوياً، وقد جمع بنت السباتي، وآص الديناري، وملك الكبّة. وسُرَّ في أعماقه، بسبب غياب دعسة القط السباتية، وافترض أن وجود الأوراق القوية لديه، يُظهر تلقائياً ضعف أوراق أعدائه. كما يحتمل أن يكون السباتي غالباً، على أوراق ابن مالك. وهذا يعني خروجه من اللعب، منذ البداية. وحين رأى أن عمار ضمن ثمانية بعد إعلان الطبّال عن عجزه، فسّر ذلك بأنه تعبير عن التكافل، وترجمة لقوة المساندة. ولذلك، فقد ردَّ على ضمان ابن مالك بالتسعة، بزيادة عددين ليصبح ضمانه أحد عشر. ولكنه لم يدرك تهوّر خطوته، إلا حين رفع ابن مالك يده، وقال: «باص». فالحظ فسخ اشتراطاته الذهنية، حين وجد أنه تقاسم الورق مع خصميه، لا مع شريكه. وسرعان ما بدأا يسلبانه تكتيكاته. وبدل أن يقود اللعبة، بأوراقه القوية، وضمانه، وجّهها ابن مالك بحظوظ الورق المضاد. وهكذا، وجد سلمان نفسه محاصراً، داخل مغامرته. فكر أن ينسحب، لكنه لم يجرؤ. كانت عينا الرقيب بيرم تحدّقان إليه قائلتين: «العب!». حاول أن يستعيد المبادرة من ابن مالك، ولكن هبوط ذلك الآس الأحمر ذي القلب المنتفخ، بدّد آماله تماماً. وبلا تفكير، ومثلما كان يفعل في تلك الجولات البريئة، قبل هذه المباريات المضجرة، رمى الورق كله من يده، بينما وقف ابن مالك، وبدأ يدبك على إيقاع طقطقة لسانه: تررم تررم ترم ترم تررم.

بدا الرقيب غاضباً، ولكنه اكتفى بتسجيل الجولة لمصلحة ابن مالك، وأعطى الإذن، خلافاً لما اتفق عليه من قبل، بمواصلة اللعب.

كان التأويل الوحيد لذلك، هو التواطؤ. ارتبك ابن مالك، وخفّت حماسته. هل تجاوز المسموح؟ لم تكن لديه فكرة، عن مشاعرِ السلطة تجاه المباريات. ماذا يفعل إذاً؟ هل يحرف اللعب؟ لكن أيَّ تخاذل أو تراخٍ سينكشف بين ثلة من محترفي اللعب المتزاحمين على رصد الجولات. ولم يستطع التخاطر مع الرقيب؛ فقد صمّ الشرطيُّ عقله، وامتنع عن إرسال الإشارات الأثيرية. لذلك صمم على الالتزام بنهجه، دون التفكير في العواقب. وهكذا فاز في الجولة التالية، بكل يسر. وحين حسم الأمر، تطلّع حوله، بعينين محمرّتين دامعتين، وقال لعبود الزهر: «بعدك عند وعدك يا بو حليم؟».

يوم الرئيس
قصة: فيصل الخضرا

استيقظنا عند الفجر، يوم الأربعاء، لأن الرئيس سيأتي لزيارتنا. كانت السماقيات مليئة بالأعلام. كانت مثل الغابة. وكان الراديو يغني في بيت لقمان لقمان: يا جمال يا حبيب الملايين. فذهبنا إلى هناك، وغنّينا معه. ولكن ابنة لقمان طردتنا. وقالت لنا: إذا لم تذهبوا، فسأنادي الشرطة. وكان رجال الشرطة كثيرين، يملؤون القرية، والطرق البعيدة، وهم يراقبون الناس والبيوت. وقال قائدهم: ارقصوا! ادبكوا! فقلنا لنوفة إن الشرطة يريدون منّا أن نغني. وتركنا بيت لقمان، ونحن نغني. ورأينا ابن مالك يقف على حائط بيت سالمة المهدّم ويصرخ: آآآآ. فقلنا له: لماذا تفعل ذلك؟ فقال إنه يمرّن صوته من أجل الخطاب الذي سيلقيه أمام الرئيس. فصفقنا له، ثم سار أمامنا وسرنا وراءه حتى وصلنا إلى طريق الشام. وكان الرئيس سيأتي من هناك. وهناك، كان خلقٌ كثيرون من المنارة والحفائر والصخرات، والسماقيات. وكانوا جميعهم يغنّون ويدبكون. ورأيت أحمد شمال يلبس ثياباً جديدة، اشتراها له أبوه من بالة حسن اللوف. أمّا نعمان عجيب، فكان يرتدي بيجامة مزهرة، قال لنا إنّ أخته أرسلتها له من بيروت. فقال له طارق الزهر إنها تشبه شلحة ست الشام المجنونة. وقال إنه رآها، وإن لونها أسود، وفيها أزهار زرقاء. فضحكنا كلّنا، وسألناه إذا كان رأى ما تحتها،

فقال لا. فقلنا كلنا إننا لم نره لا عند ست الشام، ولا عند غيرها. وكنا نتمنى أن نراه، ولكن هيهات! وهذا يعني أنّ الأمر صعب علينا.

وغضب نعمان عجيب، وقال إن بيجامات الرجال لا تشبه ملابس النساء. وبعد قليل، جاء أخوه فرحان، وكان يلبس بيجامة صفراء، وقال إنّه يريد أن يراه الرئيس، وهو يلبسها. وظهر فجأة، بسّام التوت، وكان يلفّ ربطة عنق على رقبته العارية، وقال إنّ أمه غسلت قميصه هذا الصباح، وإن القميص طار عن الحبل، وتوسّخ بالتراب، فغسلته أمه مرة ثانية. فقال علي الخضرا، إن بسام ليس لديه قميص. قال بسّام إن الكرافتة، على اللحم، أجمل. وقال إن الأجانب يلبسونها هكذا، وقال إنه سيسير في المقدمة، لأنه يلبس الكرافتة. وصار يهتف ويقول: عاش الرئيس. وكان بسام فقيراً جداً، وليس لدى أهله مصاري. وأبوه يشتغل عتّالاً في بيروت. وقال إنه سيطلب من الرئيس، أن يساعد والده، لأن الرئيس يحب الفقراء، وكان أهله فقراء. فقلنا كلنا: عاش الرئيس جمال. وبدأ فندي العلم يعزف على المجوز، وكان عزفه مثل النسيم العليل. وأمسك أبناء الشعب بأيدي بعضهم وصاروا يدبكون، وجاءت النساء والبنات وأمسكن أيدي الرجال. ثم أتت بنات المدرسة مع المعلّم (لأنّ الأولاد جاؤوا وحدهم). وكان الجميع يلبسون ثياباً جديدة من بالة حسن اللوف. وأحبوا حسن كثيراً، هذا اليوم، لأن الشرطة أمروا الناس أن يرتدوا الثياب الجميلة. وقال قائدهم إن الرئيس يحب الثياب الجميلة، وإنه عيب على الناس، أن يأتوا لاستقباله، بثيابهم العتيقة والمرقّعة.

وفي ساعة الضحى، جاء عشرة فرسان يَعْدون. ولكن الخيول كانت هزيلة وضعيفة، فغضب قائد الشرطة، وأمرهم أن يرجعوا بها، وقال لهم إن ما يفعلونه أسلوب قذر، لأنهم يريدون أن يعلم الرئيس بأننا جائعون، فإذا كانت خيولنا هزيلة، فهذا يعني أنه لا يوجد لدينا طعام. قال الفرسان

إنهم لا يقصدون ذلك، وإنما أرادوا أن يقدّموا للرئيس، ألعاباً بالخيول والسيوف. فصار الضابط يسخر منهم، وقال: روحوا. أنتم صرتم خارج الزمن. فلم يفهم أحد ماذا يعني ذلك. وابتعد الفرسان عنه، ووقفوا حزينين وزعلانين، لأنهم كانوا يريدون أن يلعبوا. وذهبنا نحن، وأخذنا عيدان قصب من سطح بيت سالمة، وعملنا منها خيولاً وسيوفاً، وصرنا نركض في السهل، ونصهل مثل الخيل، ونصرخ مثل المحاربين. وشلحنا قمصاننا ورفعناها مثل البيارق، وغنينا: الله أكبر فوق كيد المعتدي. وكانت البنات يتفرجن علينا، ويضحكن لنا، وكان الكبار يظنون أن البنات يبتسمن من أجل أن ينبسط الرئيس عندما يأتي. وكانت الشمس قوية وحارة، وتشوي الرؤوس. وتأخر الرئيس، وقال قائد الشرطة إنه لم يتأخر. وقال عيب عليكم أن تقولوا إنه تأخر، لأن الرئيس لا يتأخر. وقال: غنوا وارقصوا! فصرنا نغني من جديد. وعزف فندي العلم على المجوز، ونزل الفرسان عن خيولهم، وربطوها بالحجارة وجذوع الأشجار اليابسة. وظلّ ابن مالك واقفاً على برميل فارغ ملفوف بالعلم. وكان يحمل في يده الورقة التي كتب فيها الخطاب، وكان ابن مالك قد شلح غطاء رأسه، وظهر شعره الطويل مثل الغابة. وكان نصفه أسود ونصفه أبيض. وصار وجهه أحمر مثل الدم، من حرارة الشمس. وقال أحمد الخضرا إنّ رأس ابن مالك سيصبح مثل البطيخة الخربانة. وعندما جاء الرئيس، فرحنا كلنا. وكان الرئيس يركب في سيارة مكشوفة، وكان يضحك لنا، ويلوّح بيده. وكان طويلاً وأسمر اللون. وبكت أم نعمان، وزغردت زوجة علي شمال، وقالت له رندة: «تسلم هالقامة!». وركضنا نحو سيارته. وصار رجال الشرطة يضربوننا بالخيزرانات، ويقولون: ارجعوا يا حيوانات، يا بقر، يا حمير، يا أولاد الكلب. ولكننا لم نرجع، وتعربشنا على السيارة، فقدّم الرئيس لنا يده، فأمسكنا يده. وكانت كبيرة جداً، وطويلة. وصار يسلّم

علينا ويسألنا ما اسمك؟ في أي صف أنت؟ فنقول: أنا فيصل الخضرا! أنا ابن المعلّم توفيق! أنا طلعت الزهر. أنا أحمد عجيب. أنا سالم لقمان! وتقدّمت صفصافة وقالت للرئيس: نحن فقراء يا رئيس. وابني مريض. فقال الرئيس: أنا أحب الفقراء، وأرسلي ابنك إلى المستشفى. وجاءت لطيفة وقالت: ونحن فقراء يا رئيس، والدنيا لا تمطر. وليس عندنا قمح أو شعير أو رز. فقال الرئيس لقائد الشرطة: أحضروا لهم القمح والرز. قال قائد الشرطة: لعنة الله عليهم. فقال له الرئيس: لا تقل هذا يا بني. إنهم فقراء وشرفاء. فقال قائد الشرطة: أمرك يا رئيس. عندئذ قلت للرئيس: يا رئيس إن قائد الشرطة هذا حبس المعلّم توفيق الخضرا، وهو المعلّم الذي علّم جميع أبناء القرية. فتعجب الرئيس وقال: لماذا يا قائد الشرطة؟! فكذب عليه قائد الشرطة، وقال له إن المعلّم لا يحبه، ولذلك حبسناه. فتعجب الرئيس مرة ثانية، وسأل: أين المعلّم توفيق؟ فجاء المعلّم توفيق، وقال: الناس يحبونك يا رئيس، ولكنهم يكرهون الشرطة والمباحث. وكان المعلّم توفيق لا يخاف من أحد. قال الرئيس: ولماذا يكره الناس المباحث والشرطة؟ قال المعلّم: لأنهم يضربون الناس، ويعذبونهم من دون سبب؟ فقال الرئيس: ولماذا لا تحبني أنت؟ فقال المعلّم: وهل من الضروري، أن أحبك؟ فتعجب الرئيس من كلامه، وقال له: أنا الرئيس. فقال توفيق: وأنا المعلّم. ثم جاء ناس كثيرون، وكان بينهم فندي العلم، وعزف على المجوز، أغنية جميلة، وكانت ألحانها جديدة. وقال طارق الزهر إن في رأس فندي العلم، غيمة موسيقى، ففرحنا بكلامه. والكلام الجميل يبعث الفرح في القلوب. وصارت الأعلام ترفرف كثيراً، ولكن أشعة الشمس كانت قوية جداً. ورأينا ابن مالك دائماً فوق البرميل، وكان يمسك الورقة بيده، ولكن قالوا إنه لن يلقي الخطاب. فقال: سأشتكي عليكم للرئيس. فقال له قائد الشرطة: اخرس يا كلب. وصفعه على خده، فحزن الناس

كثيراً. وهمست صفصافة: الله يكسر إيدك. وخاف الناس من كلامها. نزل ابن مالك عن البرميل، وتعثر ووقع على الأرض. وتدافع الناس لكي يسلّموا على الرئيس، وكان الرئيس يبتسم. وقال علي لقمان إنهم دعسوا على ابن مالك. ثم ركض الأطفال، وتعربشوا على السيارة، فجاء رجال الشرطة وضربوهم بالقشط والخيزرانات، فقال لهم الرئيس: اتركوهم إنهم أطفال أبرياء. فصفق له الجميع، وقالوا إنّ الرئيس يحب الأطفال، ولكن قائد الشرطة قال لرجاله: جرّوهم من شعورهم، واضربوهم والعنوا أبوهم. فهجموا علينا، وضربونا كثيراً. ولم يكن البطل مسعود معنا، ولم يدافع عنا أحد. وكان الرئيس بعيداً جداً.

32

كانون الأول 1959

كان الطنين يخلخل أذنيه، فتشاءم من دأبه واستمراره. وزاد في كربه، أنّ حذاءه بدأ يضغط على أصابع قدمه ولا شك أنه يدفع الآن ثمن إهماله. وسوف يشتري علبة بويا لتليين الجلد، ولكن دون ملمّع. فالتلميع وصفة رديئة تليق بالبورجوازية وحدها. وتمنى لو كان يعرف كيف تكتب القصص، ليؤلّف واحدة عنوانها: «الفرّان والحذاء الملمّع»، يسخر فيها من تورّط فرّان مسحوق في شكليات الطبقة المستغلة. وسوف يكون القميص المخطط سعيداً بها، دون أن ينسى إضافة ملاحظة عن ضرورة اختيار نماذج إيجابية من بين الكادحين، لكتابة القصص، بدل البحث عن الشخصيات السلبية الراغبة في الانفكاك من الالتزامات الطبقية، أولئك الحثالة، كما يسميهم القميص، الذين لا يقلون خطراً عن البورجوازية نفسها، لأنهم يقدّمون جيشاً من الانتهازيين المخربين. غير أن عليه أن يجد حلاً لمشكلة الحذاء، دون أن يفكر في البورجوازية أو غيرها، ويمكن أن يلمعه - إذ كان هذا حلاً - رغم ما تقول به النظريات أو القادة. وهي مشكلة غير معقدة، على كل حال، إزاء مشكلة اختفاء كريم، من جهة، وطمأنينة الولد فيصل الذي ظلَّ يردد، من بين أسنانه الجرذية الصفراء: «موجود!

موجود!» من جهة ثانية. فهذا ما يسبب كربه، في الحقيقة، ويورّم قدميه؛ إذ مضى النهار كله، وهو يتنقل بين غرف الطلاب، من زملاء كريم، ليسأل عنه، دون أن يحظى بأي خبر؛ وبات ضميره مشغولاً أيضاً، لأنه يزيد في ارتكاب المخالفات الحزبية الخطيرة، التي قد تكشف أمره أمام المباحث، أو تضطره لتقديم نقد ذاتي، لن يعرف كيف يدافع فيه عن نفسه. إضافة إلى خطر ثالث، هو احتمال انفضاح حبه لبنت التلال؛ إذْ سار في الأزقة المحيطة ببيتها، أكثر من خمس مرات. وقد يتعرّض للسؤال من قبل شباب الحي: «شو عَ بتساوي هون؟». وسيقول لهم: «شو علاقتكم؟». وعندها يمكن أن تبدأ معركة، ويصل الجميع إلى مخفر الشرطة. ويفتضح كل شيء. سيكتفي إذاً بمشوار الظهيرة وحين ينتظرها، وهي تخرج من دائرة النفوس، حيث تعمل، ويسير وراءها من بعيد، حتى بداية صعودها نحو منزلها. وهو المشوار الحميم في برامج أيامه، أو هو الجزء الحي الوحيد من ساعات يومه.

وقد بدا له، أن كل ما فعله، اليوم حتى هذه الساعة، هو ارتكاب مخالفات. ولهذا، فقد تضاعف قلقه، وتضخّم طنين أذنيه، مما زاد في يقينه، أنه مقبل على مصيبة. فالطنين جرس داخلي مصمم للتحذير من التبدلات المفاجئة أو الصاعقة. ولكنه كان متأكداً بالمقابل، من أن قوس الخطر يحيط بكريم وحده. وربما لن تُرى تحركاته كشبهة بسبب ذلك. وهذه هي البداهة التي تجعله يواصل بحثه عنه، إضافة إلى أنه يبحث عنه كصديق، لا كرفيق (هذا ما سيقوله للقميص، إذا سأل عن ذلك). ولن تكون المباحث وراءه هو بالتأكيد، إذا ما كانت تجري وراء كريم. وهذا ما يوفّر غطاء آمناً مؤطراً بالسلوك اليومي. فممّ يخاف إذن؟ لا شيء. فكر أن الخوف موجود بداخله، تحت طيات جلده هو. والسبب هو الحياة السرية نفسها، التي تتغذى من التوجسات البلهاء، والتحذيرات الهذيانية،

والمغالاة في الشكوك بكل شيء. وسوف يمشي، ويتجوّل، ويتسكع في كل الشوارع، دون أي كلفة. ولكن ذلك غير متوفر، بكل أسف؛ فالمباحث والوشاة موجودون في كل مكان. والمراقبة ليست اختراعاً مَرَضياً ابتكره الناس، بل تهديد عملي مجرّب ينال منهم في أي لحظة. أما استنتاجاته عن الخوف، فليست سوى غش، تمويه شخصي، الهدف منه طمر الخوف. صار الآن يرتعش، فثمة، دورية تربض على مفترق طرق. ولن يستطيع العودة، لأن الارتداد عن الطريق، قد يثير الشبهات أكثر. أرأيت يا سيد كمال؟ تريد أن تقول إنك مريض من الداخل فقط، أو إنك صرت معتاداً على الريبة، وإن معاناتك مصطنعة؟ طيّب! دبّر نفسك الآن، مع دورية الخراء التي تنتظرك.

لاحظ أنه كان قريباً من دار الجزيري، وأنه قريب من منزل الجارة التي يسميها كريم «امرأة العلّية»، فانعطف يساراً، وصعد الدرج، ودقَّ الباب بيقين رسولي جازم من أنه سيجد كريم وراءه. غير أن الأرملة المندهشة، ردت بجفاء تأنيبيّ، أنها لم تره، واكتفت بذلك. فاستدار وعاد. وبدا أنها شعرت بالذنب، بسبب برق من الحب الشفوق، تجاه لهفته الصادقة، فصححت ردها، بطلب معافى حين قالت: «تفضل!». قال: «شكراً!» ثم تمهّل لحظة، وأضاف: «إذا شفتِ كريم قولي له إني مشغول بالي عليه». فردت بلا تفكير: «اطمّن!»، ثم انتبهت إلى لهجتها المكتملة، فاستدركت قائلة: «يمكن ظل بالبلد. سألت الأولاد؟». قال: «إي. وكل شي قالوه إنه موجود». كادت تضحك، لأن فيصل لا ينسى أي تفصيل، وانضباطه مثالي. ثم شعرت بالذعر من أن يكون هذا الشاب عرف مكان كريم. وحين أغلقت الباب، وعادت، رأت وجهها في المرآة. كانت عيناها هائجتين، تشعان كعيني قطة. عينان مسلّحتان، لم ترهما من قبل، ولا تعرف صاحبتهما، لكنها حاولت أن تنسى أمرهما، وبدأت تتلهى بأروقة البيت. ولم تنظر

إلى وجهها في المرآة، كل ذلك النهار، متخلية عن أفضل تقاليدها اليومية: تسريح الشعر، وضفره، ودهن البشرة، وإزالة البثور السوداء، الصفراء. واكتفت بقليل من التبرج العشوائي، عديم النكهة.

ومن النافذة، رأت كمال يعود إلى دار الجزيري، ويقرع باب غرفة كريم، ثم ينظر نحو نافذتها، بلا حيطة. نهرته من مكانها، كأنما كان يسمعها، ثم تنفست بقوة، حين غادر المكان.

33

كانون الثاني 1960

مساءً، انتفخ بطن لقمان. ولم ينفع العشرق الذي شرب منه إبريقاً كاملاً، في زحزحة الإمساك. فمسح، في البداية، كبادرة حسن نية، على الانتفاخ الرجراج، براحة يده، وقال برجاء: «مش وقتك»؛ فالمعركة كانت قد أفضت إلى الهزيمة الماحقة. وقد امتلأ عقله بالشكوك حول فريقه نفسه، وفيما إذا كان عمار، أو سلمان، قد تواطأ في الخفاء مع حلف الشمال. إذ لا يعقل أن يكون الحظ منذوراً لابن مالك وحده. ولا يمكن أن يكون هذا المأفون النغل، عديم الأصل، قادراً على تسوية جولات، كانت البداهة وحدها (أو اللعب الغشيم) قادرة على كسبها أو التعادل فيها. ولأن توبيخ عمار التوت أو سلمان الجدي، أضحى بلا جدوى، فقد فتح السخط شهيته، فالتهم ثلاثة أرغفة ونصف طنجرة مجدرة، ومقلاة كاملة من البامياء اليابسة، ودخن ثلاثة أرباع علبة طاتلي سرت، وشرب بطحة عرق ملوكي، دون أن يحسّ بالشبع. وقال لزوجته مازحاً، إنه قد يأكلها مثل غول، إذا ما فُقد الطعام من المنزل. فرنت إليه، بالشوق القديم الذي كان بينهما، وغمغمت، وهي تحاول عامدة، إضفاء رائحة جسد على كلماتها: «سقا الله هذيك الأيام». تذكّر أنه لم ينم في فراشها، منذ شهرين، وفكر أن يفعل

ذلك الليلة الماضية، غير أن بطنه صارت تتحجر. بدأ ذلك من الأسفل، فوق العانة، ثم تسلق الأمعاء، إلى أن أغلق المعدة. ومجرى الماء صار يضغط بلا رحمة، ويشوّش تفكيره، ومشاعره، ويفقده، لحظة بعد أخرى، شهواته ورغباته ومزاجه.

شعر بقرف من جسد زوجته، وفكر في ذكريات عصمت. ولكن الآلام التي اقتحمت بطنه، طمرت شهواته إليها أيضاً. أحس بالغثيان، وحاول ابتداع حالة إقياء، بسبابته التي حشا بها حلقه. ولكنه لم يجنِ سوى تقلصات قاتلة لعضلات صدره وبطنه. أعاد المحاولة سبع مرات. وفي آخر الليل، شعر أنه مرهق ومكدود، وبلا نفع. وقاوم الرغبة في الطعام بروح فارس. وخجل أن يستدين بطحة عرق أخرى من دكان نخلة، فعوَّض عن غلته إلى الملوكي، بكأس باهتة من النبيذ. وتجشأ مرة واحدة، فحمد ربه، إذ بدا أنّ ذلك الهواء المباغت الذي طردته معدته، قد أراحه قليلاً. ولكن رأسه ظلَّ خاوياً. ولم تكن هزيمة الورق هي التي تؤرقه. وإنما تلك الفكرة المقرفة بأنّ رجلاً صغيراً، بلا وزن، صار يقود خطا السماقيات، ويقرر مصير الناس، ويرغم لقمان لقمان نفسه على الخوض في وحل تافه اسمه «الطرنيب!»، في وقت بدأت تنتزع فيه منه كل المقادير، والقدرات، والحلول التي لم يكن من قبل، يسأل أحداً عنها. تذكّر توفيق الخضراء، الذي قال له بعد انقلاب الحناوي الأول: «مع العسكر ما عاد لغطا راسك أي قيمة!». في ذلك الوقت، ظنّ أن المعلّم يستلف حججه من الجرائد والمجلات والكتب، إذ لم تكن بينه، وبين الضابط الذي استولى على مقعد الرئاسة في الشام، أي علاقة. ولم يفكر في المنازعات المحتملة. والمرة الوحيدة التي اقترف فيها خطأ، كانت بعد الاستقلال، حين أصرّ على بيع محصول الحشيشة، بدل إتلافه، كما أمرت حكومة القوتلي. وحين استولى الشيشكلي على السلطة، لم يحاول انتزاع زعامته وحده،

وإنما أراد انتزاع حناجر السوريين جميعهم. ولهذا، لم يشعر بوطأته كعسكري. وكاد يصل إلى البرلمان، في زمن الرئاسة الثانية للقوتلي، لولا ورطة الحزب. هل كان رهاناً خاسراً أضاع فيه تاريخ آل لقمان الذي صنعه أبوه وأجداده من حصانات وسياسات عرفوا فيها دائماً، كيف يوازنون بين الأخضر والأحمر والأبيض والأسود؟ وقد فكر ذات يوم، أنّ الأحزاب دمّرت كيانه وقوّته. غير أنه يكتشف اليوم، أن المباحث وحدها، هي التي مرّغت أنوف الجميع، في الوحل، ومنحت ابن مالك صك الملكية الخاص بكلام السماقيات. وفي آخر الليل، خرج إلى البلدة، محاولاً تبخير الأرق كعادته. لاحظ شبحاً يتعقبه، فتباطأ في مشيته، إلى أن صار خلفه. كان حليم الزهر، فقال: «مسا الخير يا بو نجوى». قال حليم: «قول صبحك بالخير، الوقت صار وجه الضو». فقال لقمان: «يظهر إني ما عاد شوف الدنيا إلا مسا». «ليش يا بو علي؟». «أنت شايفها غير هيك يعني؟». فارتبك حليم، واختبأ قليلاً، وراء متراس الصمت، ثم قال: «الإيمان القوي بخلّي الإنسان يشوف الدنيا مضوية».

وعلى الرغم من أن حليم صاغ العبارة في قالب العظة، فقد وصلت إلى لقمان، مدهونة بالتماعة تعريض. شعر بالكرب، وغمغم لاعناً أجداد حليم. كانت رائحة الخمر والدخان، ما تزال تعشش في فمه، فزفر في وجه حليم وقال: «بس إيمانك ما بيمنع كريم يعطي كرم السماق للفلاحين مثلاً». «كيف يعني؟» أجفل حليم.

«إي! هذي هي مبادئ كريم. الأرض بتصير ملك الشعب. ومين الشعب؟ ابن مالك مثلاً، وسلمان الجدي وحمد عجيب. وساعتها كيف بيصير لون الدنيا؟ صبح ولّا مسا؟ ولك كلو بعر!».

أغمض حليم عينيه، كأن جفنيه سيصمّان أذنيه. رأى في الظلمة، أشباحاً طويلة، أيادي قاسية، وجوهاً بيضاء شاحبة تجرّه إلى نفق بلا

نهاية، تمتم: «بسم الله!» وفتح عينيه. كان لقمان ما يزال يشرح فكرته، فهمس بحشرجة: «خلص يا بو علي! خلص!»، ثم ودّعه: «بخاطرك». فكر أن لقمان هو الشيطان نفسه. وبدا له أن الشيطان لا يوسوس بالشرور وحدها، وإنما يمكنه أن يشير ويوضّح شرور الآخرين. وعليه أن يمنع كريم من القيام بمثل هذا العمل المشين. وكاد يجن حين تخيّل أن كرم السماق سيصبح ذات يوم، ملكاً لحمد عجيب أو ابن مالك، لأن أحد هذين التافهين لا يملك أرضاً! فهل تعب أبوه أو جده من أجل توريث عرقهم لأيادي صغار أمثال هؤلاء؟ «لأ» قال لنفسه، «لاااااااا» صرخ في الفجر المضيء.

وعند الضحى، طهَّر رفضه باحتلال الكرم، وبدأ، كإثبات للملكية، بحراثته، فاستعار من ابن مالك، حمارين، وقرنهما إلى النير القديم، وسكة الحراثة، وصرخ: «حا!!».

كانت الأرض أقسى من جرِّ محراث بداخلها. ولم تنفع العصا الطويلة التي وضع في نهايتها، مسماراً للوخز، في حثّ الحمارين لفعل أي تقدّم. كان حليم يعرف حماقة الحراثة ذاتها، في تراب ناشف جاف متشقق. لكنّ المحاولة ذاتها كانت هي الرسالة التي أراد أن يعلنها لكل من رآه من الفلاحين المشدوهين، على أسطحة المنازل في السماقيات.

إضافة إلى ذلك، تمنطق بالخنجر العماني الذي ورثه عن جده لأمه، وأخذ الدبوس ذا المسامير.

وخلال ساعة، كان يرى ظلال الناس الواقفين على أكتاف البلدة، كلما اتجه الحماران نحو الشرق، في ثلم الإياب. ويتاح له مراقبة الطرق المتشعبة، حين يشد حبل قيادتهما، ذاهباً نحو الغرب.

غير أنه لم يرَ أي قادم. وخامرهُ شعور بالفشل، بسبب ضياع المجازفة. ولعن كريم أكثر من مرة، ثم دمدم، ضارعاً إلى الله، كي يلهم أباه بالمجيء

إلى هنا. وسيكون رضاه شاملاً إذا استدعى وجهاء البلدة من أجل تقديم الخدمة الكافية، لهذه اللحظة المختارة.

ومن شرفته، راقب لقمان ما يحدث في كرم السماق. كان سعيداً. وشعر أن ما يفعله حليم، يثير في أعماقه، لذة خفية، ربما كانت لذة انتصار سري. فحليم لم يرفس إرادة الأب وحدها، وإنما داس اليوم، على فوز حلف الشمال كله بالأمس وجعله في خبر كان. تذكّر المعلّم مرة أخرى، وأشفق عليه، لأن الرجل صار في الخبر الذي كان يضع فيه خسارات الحياة. لكن «خبر كانَ» ضمَّ اليوم حادثاً سعيداً يا بو فيصل! ثم شعر بالكمد، وقال: «كلو بعر!»، وأسف لأنه بات مثل الغراب، ينعق في الخراب، ويسعد بالهدم. ولعن ابن مالك في سره؛ فهو المسؤول عن هذا كله. وكاد يشتم الملازم عصام والمباحث. وفكر أنه لن يتمكن من ضبط حنقه وبغضائه، إذا ما أفلت حبل شتائمه، وقال: «كله بعر»، كأمان للنفس، ومحاولة لتهدئة الانفعالات. غير أنها كانت بلا جدوى، إذ لم يستطع أن يكبح رغبته في الشماتة بنكبة حلف الشمال، التي ستتجسد في شجار ابني عبود الزهر المقبل. في ذلك الوقت، سيقف مكتوف اليدين، لأول مرة، يرى، ويضحك إذا لزم الأمر، وينتظر.

34

كانون الثاني 1960

وفي اللحظة نفسها، لاحظ عبود أنّ كريم كان واقفاً على السطوح، جامداً، يراقب الغرب، حيثُ كان غبار حليم. وعلى الرغم من أنه ردّد «الحمد للّه» أكثر من مرة، فإنّ شعوراً يشبه العلَقة أمسك بحنجرته، لم يدرِ بعده، إن كان عليه أن يكون سعيداً، أم يغرق في الغمّ والكآبة.

كاد يصرخ فيه: «ليش واقف مثل الحمار؟ واحد عَ بيسرق أرضك وأنت عَ بتتفرّج؟». ولكنه تذكّر أن ذلك السارق كان ابنه الآخر. فصعد إلى جواره، وهمس: «السلام عليكم»، وجلس قرب الحافة وقال: «تعال اقعد جنبي». ثم وضع يده على شعر كريم، ومسح رأسه بحبّ وقال: «معلش. لا تزعل!».

قال كريم: «مش زعلان، بس خايف».

«من شو خايف؟!».

«خايف يكون حليم ما بدّو الأرض بس».

«شو بدّو يعني؟».

«مش عارف ومنشان هيك خايف!».

«لا تخاف. حليم ما بيريد غير كرم السماق».

«إذا كان منشان الأرض ما في مشكلة. هذا تراب بالأخير. تراب رخيص إذا جمعوه كلّو ما بساوي قطرة دم من إنسان».

«شو هالحكي!» ردَّ عبود، ساخطاً. «مش صحيح». تابع: «ومنشان كمشة تراب يمكن مشِّي ساقية دم».

فحدّق كريم إلى أبيه حائراً. لم يكن يريد أن يقول له: «هذا دم أخي أو دمي»، لأنّ الفكرة كانت أكثر اتساعاً ورحابة في صدره، وأضيق من أن تصاغ في كلمات. وربما كان عاجزاً عن توصيلها إليه، رغم إحساسه الشديد بها. كان يعرف أن والده لا يريده أن يخوض عراكاً مع أخيه، فقط لأنه أخوه، دون أن يتنازل أبداً عن إيمانه العميق بالقاعدة الفلاحية التي تثمِّن التراب، وتستخفّ بالدم في أي مواجهة بينهما.

وقبل أن يفصح عن أي فكرة، سمع أباه يقول: «بعدين هذا كلام الكتب يللي عَ بتقراها؟».

فقال كريم: «لأ. كتبي بدها تمشِّي نهر دم منشان تاخذ أرض». شعر بغصّة لأنه لخّص موضوع الاستيلاء على وسيلة إنتاج كالأرض، بعبارة قاتلة، ونهائية. أراد أن يعتذر عن ذلك، ويقول إن الكتب التي يقرؤها، تحب الناس والأرض، بعكس حليم الذي يكره الناس. ولكنه وجد الفكرة ناقصة أيضاً. وأفضل من ذلك، أن يقول إنه لا يريدُ شيئاً ما، وإنه يكره أن يكون مالكاً لأرض. ويجب أن تصير أرض السماقيات كلها ملكاً لأهل السماقيات جميعاً. وأراد أن يشتم الملكية «لأنها أصل الشرور يا أبي!». ومن السخافة، أن يموت إنسان، أو يُجرَح، من أجل تراب سيصبح بعد زمنٍ ما، ملكاً لغيره. وفكّر معي يا أبي: لمن كان هذا الكرم، قبل مئة سنة، قبل خمسمئة، قبل ألف سنة؟ ولمن سيكون، بعد مئة سنة؟ ولكن أبوه لم يكن يدعوه للحرب، بل للاستعداد لها، ويجب أن يقول له إن على الإنسان، أن

يقاتل من أجل الأفكار العظيمة، مثل الحرية والعدالة والمساواة بين الناس. ولكن الكلمات تبددت. وعرف أنه سيبدو مثل خطباء المدارس، إذا ما بدأ شرح قناعاته، كان عبود ما يزال يحدّق إليه، بانتظار استيضاح موقفه، وقد وجد نفسه في ورطة. فمن جهة يرفض شجار ابنيه من أجل قطعة أرض، ومن جهة ثانية، يشجب فكرة كل واحد منهما عن الحياة. فحليم يستولي على الكرم، وهو يدعو الناس للزهد بالحياة، من أجل استرضاء الآخرة. وكريم يتخلى عن الكرم، وهو يدعو الناس إلى حب الحياة وحدها. ما نفع الحياة بلا أرض مثلاً؟!

كريم قال: «وشو بتنفع الأرض، إذا كانت سبب موت الحياة؟».

شعر عبود أن ابنه يقضم لحمه، فقال: «وعن شو بدنا ندافع إذاً؟».

«عن الفكرة»، قال كريم: «لأنو إذا خلّينا الفكرة الرائعة عن الحياة تنتصر، منكون ألغينا الحرب والمعارك والدم وغيرو».

أغمض عبود عينيه، وهو لا يفهم، ونهض وقال: «بكرة بس تروح عَ السويداء لا ترجع قبل شهر، أني ببعثلك مصروفك وزوادتك».

لأول مرة بدا اسم المدينة طريّاً ومليئاً بالماء. وفي غرفته، استلقى على فراشه، وراقب السقف: هناك ظهرت لؤلؤة. كانت تبتسم، مثلما رآها في العتمة الشفيفة، من قبل، وهي تدلّه بطيبة ومهارة، إلى حيث عليه أن يمضي. ثم تعانقه حين يفشل ويخطئ، وتهمس في أذنه: «مش هون! مش هون!». وتضطر لاستخدام يدها، وترفع حوضها، في حركة بطيئة مروّضة، ليشعر أنه صار هناك، داخل وسطها المخضل الدافئ. بدا له ذلك مثل السحر (يفكر الآن أنه كالأحلام). وتمنى لو استطاع أن يقول لأبيه، إن تلك اللحظات تساوي كل ما في الدنيا، من رزق ومال، وإنه مستعد للتضحية بكل شيء، من أجل استمرارها. اشتاق لها، ثم حزن لأنه نسي صورة وجهها ولون عينيها، وشكل أنفها. وأدرك أنه كان يرى وجه

محمودة. وذُعر حين فكر أنه خانها، دون أن يستطيع الذعر إتلاف مشاعر البهجة التي تتوهج داخل نفسه. هل يمكن أن تكون ليلة أو ليلتان، في حضن لؤلؤة، قادرة على إقصاء تراث من الحب؟ «لا» قال، «لا». وأراد أن يشتم لؤلؤة التي جرّته إلى فراشها، لكنه لم يستطع. كان طعم الجسد الحار الذي احتضنه، يزيد ألف مرة، عن معنى متحيّز مستلّ من الكتب. وقال إنه يعشقها. يحب محمودة ويعشق لؤلؤة. ثم سخر من كل شيء، وشعر أن أمعاءه تخزه، ثم تسرّب الألم إلى صدره كله، فهبَّ واقفاً. كان قلبه يكاد ينفجر. وظنّ أنه سيموت، فخرج إلى فناء الدار، وهو شبه أعمى، واتكأ إلى الحائط الحجري، يحاول التماسك، حين سمع صوت حليم يخترق مسامعه: «بعدك هون ياكلب!». فظلَّ واقفاً، ودفن رأسه بين ذراعيه. فسمع أخاه يناديه مرة ثانية: «أنت يا كلب!». استدار نحوه، ولم يصدّق أن الرجل الواقف هو حليم. لم يكن يشبه أحداً، تفوح منه رائحة عرق وحقد. وكانت عيناه قد ضاقتا، وانكمش خدّاه، وراح جفن عينه اليسرى يرتعش. رغب في الفرار، ولكن بارود نبح فجأة قربه. ولاحظ أنه كان يهدِّد حليم، فنهره: «بارود! روح من هون!»، فأقعى الكلب على الأرض، وناحَ بصوت عال، موجهاً بوزه نحو السماء. قال كريم: «ليش يا حليم؟»، لكن سؤاله خرج محشرجاً، مخنوقاً.

لم يكن حليم يتوقع هذا الرد الهامشي المسطّح. وبرد فجأة، وكاد ينسحب ويتراجع، متهالكاً أمام الطراوة الرخوة التي أظهرها أخوه. غير أنه رأى نجوى تنظر إليه، من وراء مصراع الباب الموارب. وخُيِّل إليه، أنها كانت تتفحص رجولته، وأن شيئاً ما في عينيها يقول له، إنّ كريم وراء اليُتم الذي انزلقت إليه، وإنه لولا هذا العاق المحبوك من نار جهنم، ما هجرت خيرية البيت، وما وقفت هي، هناك فقيرة، رثّة، مهملة. استعاد قوة المشروع من أجل إرث أسرته، قبل أن يضيّعَه أخوه. فقال: «ليش ها؟ لأني

أخذت كرم السماق، وعينك تشوف!». فأخذ كريم نفساً عميقاً من الهواء، وقال: «خُذو!».

ذُهل حليم، ووقف حائراً مرة ثانية، أمام الكلمة البسيطة اللامبالية التي منحته أرضاً، ظلَّ يحلم بها، طوال السنوات الماضية. بدت أحلامه تفاهة، بلا وزن ولا لون ولا رائحة. وسخر من نفسه، حين استعاد الساعات الأخيرة التي أمضاها في الكرم، ينتظر وصول كريم إلى هناك، لتصفية حسابات العمر. كل شيء صار لا شيء، ولا احتمالات. لم يفرح أيضاً. وظهر الكرم حلماً مجرداً من البهاء. مساحةً جافةً خاويةً لا ألق فيها. ثم فكّر أن كريم يستخفّ به، ويعامله كما يعامل ولداً طائشاً. ثم ازداد حنقه لأنه وقف كالأبله، وحيداً، صغيراً أيضاً. فخطا نحو أخيه وصرخ: «أني أخذت حقّي. هذا إلي». فرمى كريم نحوه، أصابع يده اليمنى، بحركة لا مبالاة كليلة، ثم التفت نحو زينب وقال: «رايح نام يا زينب. خليني نام شهر». فالتقط حليم ذراعه وهزّه، وزعق: «لمّا بيحكي معك يللي أكبر منّك، خليك عَ بتسمع!».

انتزع ذراعه من قبضته، وغمغم: «أني صرت أطرش. وبدّي صير أعمى كمان! هه!» ثم مدَّ ذراعيه أمامه، ومشى كالضرير. فازداد إحساس حليم بأنه يسخر منه، سخرية فظّة ترتدي عباءة حرير مُسالم، فخطا خطوة واحدة، محاولاً منعه مما اعتبره تمثيلاً. ثم ارتد إلى الوراء، حين سمع زمجرة بارود، ورأى وجه الحيوان الذئبي المتحفز للوثوب. توقف كريم، وصرخ دون أن يلتفت: «بارود!»، فتراجع الكلب، وبدأ يدور حول نفسه، ثم اختبأ وراء ظل صاحبه. بينما قفز حليم ليصير في مواجهة كريم، وتأهّب كمصارع، وقال: «مع الكلب أو بدونو! قاتلني إذا كنت رجّال». صرخت نجوى: «لا يا بابا!»، وبدأت نجاة تنتحب، وهرعت زينب راكضة نحو المضافة، وهي تصرخ: «يا بيّي! يا عبود! تعال شوف ولادك! تعال!».

ومن هناك، جاء عبود يركض، وارتدّ كريم نحو أخيه ليقول له: «لا»، ويقسم إنه لا يريدُ شيئاً. ويمكن أن يسترضيه أيضاً، ويقبِّل جبينه إذا أراد، ويهتف: خذ ما تشاء! خذ أملاك الأرض ووعود السماء! فكر أن يفرَّ من أمامه (وقولوا إني جبان)، أو أن يطلب النجدة، غير أن الوقت بدا أضيق من الأمنيات. وقد رأى ذلك البياض المشحوذ في يد أخيه (خنجر أم سكين؟). شعر بتفاهة كل شيء، وفكر أنه بائس، وفاشل، ومسَّته رغبة لهوفة في تلمُّس الجسد الشفاف الناصع لآلة الموت، ورغب أكثر من ذلك، في تجربة ولوجها داخل لحم الجسد. سيكون ذلك فاتناً بالتأكيد، ويمكن أن يمرَّ الحديد البارد في ثانية واحدة، ثم ينتهي كل شيء. وهكذا، تقدّم نحو حليم، ورفع طرف قميصه، وكنزته، ليظهر بطنه الخاوي، وصدره المشعر، ويقول: «اقتلني إذا بتريد!». عوى بارود كذئب. وصرخت البنات، بينما حجز عبود الزهر المسافة بينهما، بجسده، رافعاً ذراعيه كطائر. كان وجهه أصفرَ كالنحاس، وعيناه ذابلتين كقشرة تين يابس، ضارعتين كمتسوّل: «لا! يا أولاد! لا!» جأر برجاء كسير.

آخر الليل، سمعوا عواء قريباً طويلاً: «عووووووو!»، استجابت له بضعة ذئاب من الوعر: «عووووووو!».

ثم عمّ الصمت.

35

كانون الثاني 1960

لوّحت له لؤلؤة من نافذتها، فلم يجب. خيّبها تجاهله، وظنت أن هناك من يراقبه. وخُيّل إليها، أن شخصاً ما يقبع وراء جذع شجرة الكينا العالية، ثم اكتشفت أنه خرقة معلّقة بحافة جذع مقطوع. وارتاحت حين ابتسم لها فيصل، ورقّص كفه، تعبيراً عن الشوق. ولكنها ما لبثت أن اكتأبت من جديد، حين خرج كريم مسرعاً، وعبَر الممر، دون أن يلتفت نحوها. كادت تصرخ، وفكرت أن تخرج وراءه. ولكن حسابات الاستعداد للخروج، أقنعتها أنها ستخسر الوقت. غمغمت: «لعنة الله عليك»، وهي عاجزة عن فهم سلوكه المباغت الخالي من أي معنى.

لكنها لم تكن تعلم أن كريم ظلَّ في الشارع، بضع دقائق، يحاول الاستفهام من نفسه، عن أسباب ما فعل. بدا أرعن وفاسداً. وعرف أن الأمر لم يكن سوى ارتخاء شحيح في تفكيره، يقوده دائماً إلى انتحال مواقف حمقاء، ضد أمنيات أو رغبات يريدها. فكّر أن يصعد إلى بيتها، ويعتذر إليها عن الشرود المصطنع الذي تقنّع به، ويقول إنه كان يتمنى أن يلوّح لها بذراعه كلها، ويصرخ من مكانه: «صباح الخير يا لولو!»، لكن الأوان فات. وراح يؤنّب نفسه في الطريق إلى الثانوية.

أمضى حصص الدراسة بلا انتباه. وعجز عن استعادة فقرات الدرس، وخجل من العودة إلى البيت عند الظهر، فذهب لزيارة كمال. وهناك وبّخه صديقه بسبب الغياب، فقال: «لا تزعل مني كنت خايف»، ثم أخبره عن اعتقال المعلّم، عن الشائعات التي روّجها لقمان، عن احتمال اعتقاله، فقال كمال: «وأنت مفكِّر إنو المباحث لو بدّها ياك ما كانت أخذتك؟!».

«فكّرت».

«ولمّا تأكّدت إنهم ما بدهم ياك ظهرت».

«إي».

«وبعدك خايف؟».

«كثير».

«وهذي الثورة، كيف بدها تصير بإيدين ناس خايفين؟».

«شو بعرّفني؟ بعدين لا تحكِ مثل القميص!».

قهقه كمال، وربّت على كتف كريم، وقال: «صار القميص يخوّف؟ بس خلينا نتركه، وقول لي: وين كنت مختفي؟».

«خلص... ظهرت!».

«قبل ما تظهر، وين كنت؟».

«سرّ... ما حدا لازم يعرف غيرك! كنت متخبّي عند جارتي».

«توقعت هذا» قال كمال بروح المكتشف: «أكيد عرفت إني سألت عنّك عندها»

«لأ.. ما عرفت» قال كريم مندهشاً. ثم فكر قليلاً، ومطَّ شفتيه، وقال: «عجيب!... هذا شي جديد!».

«إي شو عملت عندها؟».

«درست».

«درست؟» سأل كمال ضاحكاً.

«إي... صدِّقني! قريت أكثر من ثلاثين صفحة بكتاب التاريخ».

«عظيم!... وغير الدراسة؟».

«حكينا».

«أكيد حكيت لها عن الثورة ولينين و...

«وعن المباحث» قاطعة كريم: «والسرّاج، والسجون».

«وهي... كيف كانت؟» سأل كمال بلهفة.

«لولو؟! أعظم مرة بالدنيا!».

«كيف يعني؟».

«يعني... بالأول فكّرت إنها بدّها تحميني بس... لكن بعد يومين نامت معي».

شحب وجه كمال، وحدّق إليه بعينين جامدتين وهمس: «إي ي!».

«نامت معي».

«نامت! نامت!» ردّد كمال، كالصراخ.

«إي نامت... نامت!» أجاب كريم ببرود مصطنع أراد أن يكون مغلّفاً بطابع الرجولة المجرّبة.

«احكِ لي كيف... شو شفت؟ شو حسّيت؟».

حماسة كمال، واندفاعته، ذكّرتا كريم بعثراته. لام نفسه لأنه أراد أن يظهر كعارف، بينما كان في الحقيقة، طوال ذلك الوقت، مجرّد صبيّ معلّق بإجراءات المرأة. وشعر بالندم لأنه أفشى سرَّه، وذُعر (أكثر من ذلك) من أن تعلم لؤلؤة بأن ما فعلاه في ليل الغرفة الصامتة، صار الآن له صوت. لعن خيلاء الرجولة التي تغلبت على فضائل الصمت، وكتم الأسرار.

اشتاق لها، واشتعل بداخله طعم مذاقها، فأدرك أنه عاجز عن تقديم أي كشف عن الإحساس الذي عاشه.

لكن كمال لم يهدأ، وأمسك به من كتفه، وهمس: «من شان الله احكِ لي» حين لم يستطع أن يتوقف عن التفكير بالمرأة التي رآها قبل أيام، وهي مستلقية عارية قرب صديقه. لم يكن في الأمر، رغبة، أو غلمة، وإنما شعور غامض بالسعادة. شيء ما شبيه بالدغدغة أو الظمأ.

كريم قال: «لأ... ما بقدر إحكي». وقد فسّر لهفة كمال وإلحاحه، كتدخُّل في الخصوصيات العميقة.

«بس أنت بدأت وحكيت شي... لتكون عَ بتكذب؟».

«إي» قال كريم: «أني كذاب. تمنّيت يصير شي، وتخيّلت إنو صار»، فرمقه كمال من وراء حاجبيه. الآن كان شعور بالحياء يغمره. فالاندفاعة الحماسية التي أبداها لسماع التفاصيل، بدت حماقة مراهق. وفي الوقت الذي كان عليه فيه أن يلقّن صديقه، ورفيقه، درساً في معنى الصمود المبدئي النزيه، وجد نفسه يلهث مثل كلب، بحثاً عن شهوات كاذبة يخترعها خيال محروم مثل كريم. وبدل أن يزدري الحادثة، سواء كانت حقيقية أم وهمية، لأنها تكشف سلوكاً وضيعاً يجد فيه الشيوعي نفسه، يخون الأمانة، تجاه من ضمن له ملجأ في ساعة ذعر، وجد أنه يقف كمشجع، تسوقه غرائزه وحدها. لماذا يصدّق الناس دون تفكير، دون نقد؟ فالتفاصيل غير معقولة، تفتقر إلى المنطق. والأرجح أنّ كريم كذّاب. ولا انسجام في روايته. رواية مخيّلة، لكنها مخيّلة قاتمة شهوانية وضيعة. هنا قرر أن يغفر لنفسه، ولكريم أيضاً. ولهذا، قال: «لا تحكِ»، ثم استدرك: «لكن لا تكذب مرة ثانية».

ابتلع كريم العبارة كسمكة، وتخبّط، وهو يحاول الوقوف، لمغادرة غرفة كمال، فارتطمت كتفه بحافة الباب، واصطدمت إصبع قدمه برجل الكرسي. فقال كمال: «خلِّيك، وين رايح؟».

قال: «عَ البيت».

«والغدا؟».

«ما عاد لي نفس».

وفي غرفته، تناول ما تبقى من غداء فيصل وطلعت. وبّخ نفسه ثم نام. وحين استيقظ، لم يكن الولدان موجودين. وكان ليل، فراقب نافذة العلّية، وحزن لأن لؤلؤة موجودة هناك، ثم انتعل حذاءه وخرج شبه راكض.

كأنها كانت تنتظره. فتحت الباب بعد الرنين الأول، وقالت بلهفة «فوت!» وعانقته، وهي تتمتم: «اشتقتلك» ثم أبعدت وجهه قليلاً، وتأملته. كانت عيناها تطفحان بالدموع، وهمست: «دخلك! طوّلت». فرغب في أن يقول لها، إنه مشتاق أيضاً، ولكنه سمع صوتاً غير صوته، ولغة غير لغته، وهو يقول لها: «بدِّك تعلّميني اليوم؟!» فضحكت، وقرصت خده، وهمست: «صاير ملعون!»، لكنه قبض على معصمها، وشدّها نحو الداخل، وقال: «تعالي!»، فسحبت يدها، ثم لمست شعره بكفِّها وهمست: «بكِّير بعد، ليش مستعجل؟»، فشعر بالخزي، لأنّ الكلمات بدت ساخطة، في الوقت الذي بدا فيه صبياً قليل الخبرة. وقال إن العبارة التي استخدمها كانت بلا ظلال، مباشرة وتفتقر للخيال.

نكص وانقاد لها، آملاً أن تكون قادرة على التسامح من جهة، وأن يكون مستعداً للمبادرة من جهة ثانية. ولكي يصحح الموقف، قال لها: «كنت عَ بمزح». وعرف أنه أخطأ مرة ثانية، حين رأى كيف اكتسى وجهها مسحة حزن. وأراد أن يعتذر، غير أنها كانت أسرع منه، وقالت بحبور حاولت أن تكسبه حباً: «بتتعشّى»، ثم أضافت دون أن تنتظر جوابه: «يا ريت تنادي فيصل وطلعت»، فقال: «تركوا البيت». قالت: «طيّب!».

كان عشاء بلا بهجة. شبع منه بعد بضع دقائق، وأخفق في أن يعوِّض

ذلك بالكلمات. ولم يجد موضوعاً يتحدّث فيه، رغم جهوده، فشتم رأسه الفاسدة التي لا تستجيب لرغباته الطارئة، وخشي أن يودي الصمت بالألفة التي استعادها. ثم فكر أن تباطؤ لؤلؤة نوع من الغوايات التي تنفّذها النساء، لضمان نجاح اللقاء المقبل. وبسبب هذه الفكرة، قرر أن يقاوم حماقات تصرفاته، فظلَّ قاعداً، وابتسم لها مرة أو مرتين، حين التقت عيناهما، وتأمل أصابع يديها، وهي تحيك بالسنارة، أشكال زهور على نول دائري، وسألها ماذا تصنع، فقالت إنها تتسلى. قال إن الشغل جميل. قالت: «والله!». قال إن زينب تصنعُ أطباقاً من القش، تكتب عليها عبارات وكلمات. وقال إنه لم يعد لديها قش بسبب القحط، وقد استهلكت كل ما خزّنته من قبل. وإنها الآن تطرّز وجوهاً للوسائد، وتكتب عليها: «نوم الهنا»، و«مبروك». قال إنه هو الذي يخطّط لها الكلمات لتخيطها، لأنها لا تعرف القراءة. فقالت لؤلؤة إنها مستعدة لشراء زوج أو زوجين من شغل زينب. فتثاءب، وتمطّى.

عندئذ، رنت إليه، وقالت: «بس اليوم ما فيك تنام هون».

اضطرب، وأجاب بوهن: «إي مش مهمّ». فأمالت لؤلؤة رأسها بحركة اعتذار، وهمست: «آسفة». قال: «أني رايح إذاً»، ثم نهض واتجه نحو الباب، قبل أن تستطيع منعه أو استرداده. سمعها تهتف بأسى: «سهار... طيّب!». قال: «عندي دراسة». وحين صار قرب الباب، شعر بأنفاسها وراء ظهره. رغب في معانقتها، ولكن إحساسه بالمهانة والضجر، منعه. سمعها تقول: «لا تزعل... ها!». «معلش» قال. ثم خرج من الباب، قفز الدرج راكضاً. وحين صار في الممر المفضي إلى غرفته، لم يلتفت نحوها. كانت تراقب خطواته من وراء الدانتيلا، إلى أن اختفى. عندئذ ذهبت إلى الحمّام، لتستبدل منشفة دمها.

36

نهاية كانون الثاني 1960

أفرجوا عن توفيق الخضرا، عند الضحى. وحين صار في الشارع، شمَّ الهواء ببطء، ثم مشى من السجن، نحو مركز المدينة. وهناك، تفرَّج على الناس، بإشراق خاص. كانوا يتسوّقون أو يروحون ويجيئون، أو يجلسون صامتين وراء بسطات محلاتهم، أو يحمِّلون شاحنة، أو ينادون بألحان خاصة على بضاعة أو مسافر. بدت الشوارع دافئة، رغم البرد الكانوني الجافّ (لم تمطر بعد، كما قدّر). ولا شك أن قاطنيها أو الجوّالين فيها لا يعرفون شيئاً عما يحدث هناك (هناك، حيث ترك سجناء ومعتقلين وراءه)، وربما كانوا لا يريدون أن يعرفوا. هل هي براءة؟ أم خواء ولا مبالاة؟ لا يهم. في هذه اللحظة، فكر أن يمسك يدَ أيِّ شخص، ويقول: «تعال نَدْبُك!»، جنون؟ سيعترف بأنه أهبل، مأخوذ بهذه اللحظة القدسية التي رأى فيها الشمس، بعد كل هذه الأسابيع من الغياب. ثم خطر له أن يقف وسط الساحة، ويلقي كلمة عن الحرية. الحرية البيضاء! سُرَّ من الصفة المباغتة التي ستلغي الاحتفال بقصيدة الأمير، لأن الحرية تشبه الشمس والضوء والهواء. الحرية شوارع مليئة بالبشر. أما حرية أمير الشعراء، فهي تفترض أنها لا يمكن أن تحضر، إلا إذا غبنا نحن. فكرة جديدة يا توفيق،

تتمرد على اليقينيات. ومن الجيد، أن يملأ هذه اللحظة التي يعيشها بمعنى حياتي. ثم ابتسم لأن رجلاً كان يراقبه، وهو يكلّم نفسه. استدار وعاد إلى شارع انطلاق سيارات القرى. ومن بعيد، رأى سيارة عمار خالية ومغلقة بجانب جدار المطبخ الكبير الذي كانت تفوح منه نتانة، ويصمُّه نقيقُ ضفادع. ثم بدّل رأيه، وذهب إلى الإعدادية، وطلب فيصل، وعانقه بقوة، شدَّه إلى صدره، وشمَّ رائحة شعره، دون أن يتكلم. فكر أن الحرية تساوي عناق الأبناء أيضاً. واستأذن من المدير، لاصطحاب فيصل. وفي الطريق قال فيصل إنه يريدُ الذهاب معه إلى السماقيات. فقال: «لأ، أنا باقي عندكم اليوم». كان القرار مفاجئاً له. ولكنه فكر أن الانتقال التدريجي من السجن إلى البيت، سيفيدُ، كخطوة علاجية، لترويض النفس.

في غرفة الأولاد، ساهم الاستقبال الاحتفالي الصاخب لكريم وطلعت، والزيارة الترحيبية التي قام بها أبو محمود الجزيري، في تكبير إحساسه باللحظات الجديدة. تغدّى مع الأولاد، وأراد أن يستلقي قليلاً بعد الظهر، لكنه لاحظ شبح امرأة تعبر أمام النافذة. ثم سمع صوت دقّات ناعمة، ورأى لهفة الأولاد الثلاثة، وهم ينهضون لاستقبالها.

كانت لؤلؤة. وقد حسمت أخيراً، حيرة أسبوعين، وانشغال اليوم. فطول هذه المدّة، رفض كريم أن يكلّمها. يأتي ويذهب، دون أن يلتفت نحوها. ولم تستطع أن تصل إليه، في ظل الإجراءات المشددة التي اتخذها الجزيري. كأنه أحسّ بمشاغلها، فبدأ يطيل من بقائه خارج الدكان، أو يحرث سطح المنزل، ماشياً في ساعات القيلولة، أو يقف في الشارع، متدثراً بفروته، بعد غياب الشمس، يتأمل الظلمة. ثم غازلها في الدكان، حين أرادت أن تشتري برتقالاً. ورفض أن يأخذ الثمن، وقال إنه مبلغ تافه، ويمكنها أن تأخذه كهدية، واتهم نفسه بالتقصير في شؤونها. نظرت إليه ذاهلة، وحاولت في البداية، أن تحسم العرض بالليرات التي

وضعتها في كفة الميزان. غير أنها لم تدرك غلطتها إلا حين لحق بها، وحاول حشو القطع الورقية في فتحة نهديها. عندئذ كادت تجنّ، انتزعت يده بفتور، ودمدمت: «اكسِر إيدك!»، وشعرت بالغثيان حين رأته يبتسم. بدت أسنانه البيضاء المصفوفة كمسبحة، واستطال شارباه، وارتفعت عقفاتهما. ولم يبقَ لديها ما تفعله. رمت البرتقال في الشارع، ومضت إلى بيتها.

لا شك أنّ رفضها قد أشعله. وبدل أن ينكص ويتراجع، كما توقعت، بحساباتها الأنثوية، وجدته في الأيام التالية، يغيِّر طرقه. ابتدع قاموساً من كلمات ملغزة تنفع كتحرّش، وتصلح كواجهة للمجاملة والترحيب. كانت رائحة الفحش تقدح من عينيه، ومن مفرداته التي صار يحاول أن يُكسبها غنّة ناعمة، وطولاً زائداً (ماذا يظن هذا الوحش؟). وفي كل مرة كانت تعود إلى بيتها، تلعن كريم، وهي تستنجدُ به، وتستغيث، وهي تحترق: «يا ربّي!»، وقد ازداد شعورها بالحصار والخسارات، بينما كان كريم ينأى عنها، ويزيدُ في بناء حصون التجاهل واللامبالاة. تمنّت أن يأتي إليها مرة واحدة، لتشرح له خذلان النساء في أوقات الدم. وتقول إنهن يصرن مغلولات، عاجزات، ينبذهن الرجال والشرائع. كأنّ حيضهن لعنة! غير أنه صمَّ أذنيه، وأطبق عينيه، وتركها كليلة، لتواجه حرب الإغواء.

كلُّ ذلك حيّرها. ويوماً بعد يوم، تآكلت آمالها، فلم يستجب لنداءاتها، ومنع الولدين من زيارتها، أو تحيّتها، إلا في غيابه. وتشدّد في ضبط الستارة على النافذة. وبدا كأنما نسيها، إلى أن لاحظت اليوم، حضور الضيف الجديد. من هو؟ سألت نفسها. ولم تستطع معرفته إلا حين وضعت الغداء لتأكل: المعلّم؟! اكتشفت هويته بحبور، وهتفت تؤنّبُ نفسها: «يا غشيمة!». عافت الطعام، فأعدّت زجاجة كبيرة من شراب التوت، وارتدت ثياب السفر، وحملت أربع كؤوس، وهرولت نحو دار الجزيري.

«من زمان حبّيت اتعرّف عليك يا معلّم!» قالت. ثم صبت الشراب في كؤوس ضيافتها وقالت: «الحمد لله على السلامة!».

وعلى الرغم من نظرة عينيها المباشرة، وابتساماتها المتكررة، وحركة شفتيها البشوشة، فإن كريم ظلَّ جامداً. طوى وجوده في الغرفة، وصار كتلة صغيرة ملمومة في أطراف الركن. لم يجرؤ على الكلام، خشية أن يتلجلج أو يفأفئ أو يتباله. بدأ قلبه يدقّ، وخوى رأسه من الأفكار، وبدا الجميع أمامه مغلقين، لا يمكن أن يرى من خلالهم، أي شيء. وبدأ يفسر حركات لؤلؤة أمام المعلّم، أو تجاه فيصل وطلعت، كإيماءات إغواء. وشعر بضيق شديد في الصدر، وإحساس بالنكبة، ولم يفهم كلمة من التلميحات التمجيدية التي كانت تزجيها لجيرانها الصغار، أمام معلّم السماقيات. ولا شك أنه كان نائماً، حين لكزه المعلّم بأصابع يده، في ركبته، ليجيب عن السؤال، فقال: «ها؟!». قهقه فيصل وطلعت. ثم قطعا ضحكهما، حين شزرهما المعلّم وكريم معاً. بينما ومضت عينا لؤلؤة بالتماعة حب. وغمزت فيصل متواطئة، ثم سألت كريم مرة ثانية، إن كان يرغب في كأس ثانية من الشراب. فقال: «لا شكراً». قالت إن لديها، فائضاً من الفرش واللحف والوسائد. وهي تريدُ أن يأتي معها ليحضر ما يحتاجونه من أجل الضيف. فشكرها المعلّم وقال إن أبا محمود دعاه لينام في مضافته. تبدّلت ملامحها، وارتبكت، وكادت تفشي حنقها على جارها المخادع الذي يتقدّم هنا، كمضيف طيِّب، بينما يحاصرها كمراهق أزعر. ثم تمكّنت من ضبط انفعالها، واتجهت نحو كريم مرة ثانية، وقالت بلهجة نصف آمرة: «ممكن توصِّلني؟!». لم يكن بوسعه الرفض. وأيقن أنها هزمته، وشعر بالكراهية تجاهها؛ فلم ينسَ بعد، ما حدث، ولم يغفر لها وزر الإهانة التي ألحقتها به، حين طردته من البيت. كان ذلك فظاظة غير مفهومة من امرأة بادرت إلى إغوائه ومعاشرته. لماذا؟ لا يعرف. ويزيد

في حقده، أنه لا يعرف. وصار يُفكّر أنه أضحى شهيد نزوات امرأة بائرة، أمام فحل جماع. تذكّر أنه لم يكن فحلاً. ولهذا فإنّ عليه، أن يبحث عن مسوّغات البراءة المخدوعة فقط. لكن المشكلة أمامه، أنه كلما ازداد كراهية لها، ازدادت غلمته إليها. وما شغله أكثر، أن الكراهية اختلطت دائماً في وجدانه، بالشوق. شوق مجبول بغضاضة التجربة ونضارتها وحيويتها التي ظلت تحرك لحمه، وتربك أيامه. فلم تمضِ ليلة دون أن يُعيد تدوين التفاصيل التي حدثت، مستثاراً بذكرى الملامسات وتسلّلات الأيدي إلى هنا وهناك، ذكرى هذيان الكلمات والمعانقات والاتصال الدافئ. وفي كل مرة، كان يضيف، إلى اللقاء، فرعاً جديداً يطعِّمُ به النواقص والهلهلات التي بدأت تتآكل، بفعل التقادم. وما عذّبه، في الوقت نفسه، أنه ظلَّ يشعر بالذنب، كلما التقى كمال، وكاد يعترف بكل ما حدث، ولكنه فكر أن الاعتراف انتحار. فمن جهة، سيظهر ككاذب أمام كمال. ومن جهة، سيبدو كخائن وغد أمام الخليّة. وهناك احتمال أن يُقدَّم لمحاكمة. وقد يُطرَد من الحزب، ويشهَّر به. وعندئذ من يحميه؟

سمع المعلّم يقول: «روح معها يا كريم!»، فنهض مسرعاً. انتعل حذاءه، وقال: «يا الله!»، فخرجت أمامه، وقد ارتسمت ابتسامة الانتصار على شفتيها، وهي تقول: «تصبحوا على خير!».

في الشارع، أمسكت أصابعه بقوة، فانتزعها مذعوراً، وهمس بصوت مبحوح: «بشوفونا الناس».

«يشوفونا! ما عاد يهمّني».

«كيف؟».

«هيك» قالت. ثم أمسكت يده ثانية، وقادته، وصعدت به إلى بيتها، وقبّلته أمام الباب، وقالت: «تعال بكرة بالليل! تعال هه!» ثم دفعته برفق.

حين اختفى، شعرت أنها مبهورة مثل بنت، ثم بدأت تبكي، فتناولت

حبة كراميلا، وانتحبت لأنها لم تعش مثل هذه اللحظات من قبل، أبداً. فؤاد مثلاً، لم يقترب منها عندما كانا مخطوبين، لم يلمس يدها. وإنما كانت تنتشي وتزهو بنظرات عينيه وحدهما. ولكن ذلك بدا لها، في تلك السنوات، كافياً. وهي تعجب الآن من تلك الرزانة التي كانت تطبع علاقتهما. وتساءلت كيف أنهما لم يفكرا قط، في أيِّ التفاتة خارج لعبة العيون. واعتقدت أن فؤاد كان جباناً، ثم اتهمت نفسها أيضاً بالجبن، وقالت إنها خسرت سعادات لا حصر لها، دون أن تتنكر لليالي الحب التي عاشتها معه. غير أن ما يحدث الآن، جديد تماماً؛ فالقبلة التي اختلستها ما تزال تملأ شفتها السفلى كلها، وحافة شفتها العليا، بطعم رطب وساخن. طعم شاب مثلاً؟ يجوز! ويمكن أن يكون بكراً أيضاً. ولكنه لا يمكن أن يكون وحده السبب، في ما تحس به. وهي لا تعرف بالضبط، ما تحس به: سعادة، أم حب للحياة، أم شبق محض؟ ولكن كيانها كله، وجودها، مشاعرها، تشارك في جعلها خفيفة، طيِّعة، قادرة على الطيران. فرقصت على ألحان أغنية «يا غزيِّل»، وجُنَّت حين غنت نجاح سلام «يا ريم وادي ثقيف»، وفكرت أن الراديو يغني لها، وتأملت جسدها في المرآة، واكتشفت أنها ما تزال صبيّة بلا عيوب أو أخطاء.

بردت؛ فهي لا ترتدي إلّا الشلحة، فلبست قميص نومها، ثم أطفأت ضوء العليّة، وجلست تتأمل دار الجزيري.

قرب شجرة الخروب، رأت بصيص نار. عرفت أن كريم يجلس هناك ليدخن. فهمست له في نفسها: «تسلم لي!».

كانت تلك هي سيجارته الثالثة من الطاتلي سرت. وقد دخّنها، مغامراً بانتهاك مؤونته؛ إذ لم يستطع البقاء في الغرفة، بعد عودته، أكثر من بضع دقائق. كان يرتعش. وحاول، عبثاً، أن يتماسك أمام المعلّم، جاهداً لمنع ارتعاش أحشائه من الانقلاب. جلس صامتاً؛ فالكلمات ستفضحه إذا ما

نطق بأي شيء. وتوقف عن الحركة، يساعده على ذلك، صمته أثناء زيارة لؤلؤة. وعجز عن السيطرة على هياجه، واشتهى سيجارة. ولكنه خجل من أن يدخّن في حضور المعلّم. وقد حرص دائماً، على ألا يراه. ولن يفعل اليوم بالذات، ما يمكن أن يكدِّره. لهذا، خبأ العلبة داخل قميصه. وأوصى فيصل وطلعت، حين ذهب المعلّم إلى المرحاض، ألّا يفشيا السِّرّ. ولكن الإجراءات الاحترازية لم تنفع في إطفاء رغبته في التدخين. كاد دماغه يحترق. ووصلت الرغبة إلى أطرافه السفلى، وإلى أسنانه. وبقدر ذلك شعر أنه محتاج ليجلس وحيداً. وكانت السيجارة تعينه على توسيع حدود التأملات، في الأوقات التي يختلي فيها بنفسه، من أجل استقصاء التفاصيل الماضية، في مجريات أيامه. وحين أشعل أول واحدة، بعد اعتذاره من المعلّم، وخروجه من الغرفة، انتشى، أسرته الأنفاس الحارة التي زحمت رئتيه. وبدت الزفرة التالية التي أخرجها من أنفه وفمه معاً، دافئة. وزاد هذا في اشتداد تأثير ملامسة شفتيه لشفتي لؤلؤة. واكتشف الآن، أن سخطه كله قد تبدَّد. كان سعيداً، وتمنى لو كان يستطيع أن يتسلق الجدار، ويتسلل إلى بيتها. وشكر المعلّم لأن ما حدث كان بفضل وجوده. لكنه حين عاد، لم يكن يعلم أن عيني لؤلؤة حرستاه من الأعلى، طوال الوقت.

37

كانون الثاني 1960

«اهرب!» صرخ كمال بصوت وحشيٍّ مبحوح، ثم مضى مهرولاً باتجاه الحي التحتاني. كانوا قد اعتقلوا القميص المخطط، قبل دقائق من بدء الاجتماع، لكن كريم لم يتراجع. واصل طريقه بلا ذعر، وهو يصفّر لحن أغنية لعبد الحليم، إلى أن صار في ساحة السير. وهناك، بين المارة، شهق ملء رئتيه من هواء المساء، وغمغم: «خلصت». لكنه ذُعِر في البيت؛ فمن الممكن أن يفشي أبو سهيل أسماءهم، إذا لم يستطع الصمود أمام التعذيب. ولكن البشر يصمدون ويعاندون، وتصبح رؤوس بعضهم مثل الحجارة، إذا عذّبتهم، كما قال المعلّم. ولهذا، لا يمكن أن يتخاذل القميص. حاول أن يسمو بقائده. اخترع له نبل فارس، وشعر بالحب تجاهه، وأغمض عينيه، ليتفادى رؤيته معذّباً وممزّقاً، بين آلات بدائية. لكنه لم يتمكن من مسح الدماء عن مخيّلته. فقد شهيّته، ودخن بشراهة، سيجارة وراء أخرى. وفي المساء فرطت معدته، رغم أن القميص ظلَّ صامداً في افتراضاته. وبدأ رحلة مكوك إلى المرحاض، وأشار إلى معدته، رداً على استفسار لؤلؤة المشغولة، داخل إطار النافذة العليا. وارتاح لأنه خدعها، فرمت له كيس بابونج. ثم سخر من نفسه، حين فكر أن ذلك النبات الذكي يمكن أن

ينفع في طمأنة مخاوف الاعتقال. وعندئذ، يمكن أن يقدّم منه وصفة لتهدئة غضب السياسيين. وهناك احتمال قوي بأن يكون مناسباً للتقدّم باتجاه الحرية. أُعجب بالفكرة، وتمنى أن يكون خارج ذلك المكان الخانق، كي يكتبها كملاحظة، ويقدّمها للمعلّم. غير أن أمعاءه كانت تتحوّل إلى ماء، لحظة بعد أخرى. ولم ينفع أيُّ استقصاء في ضبط تقلّصاتها. وفي الليل، ذُعر أكثر؛ فقد نام فيصل وطلعت مبكّرين. وللمرة الأولى، لم يسخر من رحلاته المرحاضية. كأن ذعره الذي كتمه تماماً عنهما سرى إليهما، عبر هواء الغرفة. وربما رأيا ذلك في عينيه، أو في حركاته المرتبكة. لم يكن ارتباكاً، بل ارتعاشاً أو ارتجافاً ظهر في العظام.

لاحظ أنهما لم يكتبا أي وظيفة مدرسية. وظلَّ موضوع الإنشاء، في دفتر فيصل، ناقصاً. وفي التاسعة، شعر أن ساقيه ترتجفان. وحين أراد أن ينام، دهمه الخوف مرة ثانية، إثْر سماعه صوت محرك سيارة تقف في الشارع. «جاؤوا» فكّر، وأقفل الباب، ثم فتحه وتسلّل خارج الغرفة. لطا خلف جذع الخرنوبة، وراقب المدخل، فسمع لؤلؤة تناديه: «هي ي ي ي!»، وطلبت منه أن يأتي إلى بيتها. قال إنه لا يجرؤ على الخروج من البوابة، فأشارت إلى الخراب، وقالت: «اطلع من هون!»، ثم نبّهته: «دير بالك من المصايد»، فتسلّق الحائط الحجري، ونجا من إحدى المصائد، حين سطع ضوء القمر على الحبال المشدودة. وفي الداخل، قالت لؤلؤة: «أكيد أمّك دعت لك!»، فقال: «ما بظنّ.. لأني وين ما رحت بتلحقني المصايب!».

وفي الفراش، عجز عن فعل أي شيء. وظلَّ عضوه رخواً مصاباً. شعر بالخجل، وكاد يشتم لؤلؤة، ويتهمها بالعهر حين حاولت أن تحثّه (تذكّر نجيب الخميري وازداد خجلاً)، فقال لها في النهاية: «شفت؟ الظاهر إنّو أمي دعت عليّ مش إلي!»، فعانقته وهمست: «لا يهمّك.. أني مش زعلانة!».

قال: «وإنتِ يمكن تصيري تدعي عليّ».

قالت: «لأ، لا هذي ولا هذي.. أني عَ بشكر الله بس».

«على شو؟!».

«يمكن أشكر الله على كل شيء.. لكن هالمرّة عَ بشكرو لأنو عطاني أكثر ما بستاهل».

«أفّ.. ليش شو عطاك؟».

«عطاني ياك» قالت وهي تمسح جبينه وخدّه: «خلص هيك اكتفيت.. صبرت ونلت».

أحسّ بخضّة في أمعائه، ولكنه لم يجد شيئاً في المرحاض. وتمنى لو استطاع أن يفرَّ من بيتها، فقد أنهكه صدقها. لم يكن يفكر بهذا. وكان يظن أنها ترغب في المضاجعة وحدها. «كان ناقصني هذا!» قال لنفسه. وازداد شعوره أسىً حين وجد أنها أعدّت له كأس بابونج. وقال: «ما عاد ينفع».

أراد أن يشرح لها أن اضطراب أحشائه، لم يحدث بسبب البرد، وإنما بسبب المعاناة، ولكن أي معاناة؟ اكتشفت أنه قد صار لديه سجل ثقيل من أشكالها. وبإمكانه، أن يقول خيبة. فشل. ذعر. خيانات! نعم؟ هل قبضوا على القميص، بسبب خيانة؟

«شو بك؟» قالت، حين رأت شحوب وجهه.

فأخبرها عن اعتقال القميص. وبفضل تقاليد السرية، لم يذكر اسمه أو لقبه. وإنما صفته الحزبية فقط: «القائد». فأبدت لؤلؤة الشّفقة وقالت: «يا حرام!»، فظهرت خاوية وعجراء. ورأى ظل حبور خبيث في عينيها. ولم يفكر به كثيراً. وقال إنه كان طيباً وكريماً، وقد جعل بيته مقراً لنشاط الحزب، على الرغم من الأخطار المميتة. قال لها إنّ القائد التزم دائماً بالمواعيد، وقدّم لهم شاياً مغلياً على الحطب، إذ إنه لا يملك مدفأة. ولكنه لا يعرف ماذا يعمل. وربما كان عاملاً؛ فصلابته وقوته الروحية

صفتان تليقان بالعمال. قالت إنها لا تعرف ولا تفهم لماذا يكون العمال أكثر رهافة، وحساسية من غيرهم، من بقية البشر. فقال لأنهم مضطهدون أكثر من غيرهم. فسألت: «كيف يعني؟». أراد أن يشرح لها موضوع فضل القيمة، ولكنه تلجلج، ولم يعرف كيف يحسب الفرق بين ساعات العمل، والأجور الفعلية، والأجور المدفوعة. ولم يجد في المدينة كلها، أو في محيطها، مصنعاً واحداً يمكن أن يجعله مثالاً. «مدينة بلا مصانع؟!» فكّر: «يعني بلا عمال!». لكن لؤلؤة قالت إن جميع الناس يدّعون أنهم يأخذون أجراً أقل مما يستحقون. فصاح كالمنتصر: «هذا هو الظلم»، فقالت إنها تدفع كل مرّة، لمن يعملون في أرضها، الأجر الذي يطلبونه. قال: «هذا عدل!». سألته إن كان يعتبرها ربّة عمل، فمطّ شفته، ورفع حاجبيه، وقال: «إي!»، فاستفسرت إن كانوا سيأخذون الأرض منها. قال: «أظنّ».

«ولمين بدكم تعطوها؟».

«ما بعرف. يمكن للدولة، ويمكن للفلاحين الفقرا».

«لكن الأرض كانت لفؤاد. ومن قبلو أبوه اشتراها من تعبو، حرام تاخذوها؛ ليش؟».

«معك حق. لكن ما بعرف. لازم ناخذ الأرض. بس حرام ناخذها». ثم فكر قليلاً، وأضاف: «يمكن الثورة بدها تاخذ الأراضي الكبيرة بس».

«لكن أرضي كبيرة وكلها مزروعة عنب، وفيها تفاح».

«كبيرة؟» ردّ حائراً ومعذباً: «شو مساحتها؟».

«أربعين دونماً وشوي».

«إي.. كبيرة» قال.

شعر أنه يخسر، وأن شيئاً ما، ناقصاً وغريباً في الموضوع. غير أن المبادئ تظل صحيحة دائماً. وليس من الإنصاف، أن يغشّ في المسائل

المصيرية. ولذلك، قال لها إنه لا يعرف بالضبط، ما هي المساحة التي ستقرر حكومة الثورة الاستيلاء عليها، وتوزيعها على الفقراء. ولكن من المؤكد، أنهم سيتركون لها ما يكفيها، كي تعيش مثلما يعيش غيرها، من أبناء الشعب الكادحين.

«والأغنياء؟!» سألت.

«مش راح يبقى أغنياء».

فحدّقت إليه برعب: «يعني كلنا منصير فقرا؟».

«لأ».

«لا أغنياء ولا فقرا؟».

«أظن».

«مستورين؟!».

«أظن».

«طيّب أني ليش بدكم تاخذوا أرضي؟ إن شا الله مفكر إني غنية؟ أني عايشة مستورة».

«ما بعرف» قال.

شعر بالصداع، فلم يكن متأكداً من معلوماته عن الإجراءات التي اتخذها الرفيقان لينين وستالين تجاه مُلّاك الأرض. لكنه فكر أن لؤلؤة نوع من الفلاحين الكبار. وقد تُشكّل، مع أمثالها، خطراً على مصالح الشعب. فما العمل؟ اعترف لنفسه بأنه يشفق عليها. وسوف يكون حزيناً وساخطاً أيضاً، إذا ما أخذوا أرضها. وليس من العدل أن يحرموها من حياة الهناء التي تعيشها. وعليها في الوقت نفسه، أن تتساوى مع أبناء الشعب. ولا معنى لقعودها الخامل هذا. والمبدأ هو أنه من كلٍّ حسب طاقته، ولكلٍّ حسب حاجته. فما حاجة أرملة وحيدة، إلى كل هذه الملكية؟ ويمكن أن

يتدخل في المستقبل، ليجد لها عملاً لائقاً. لكن ما العمل اللائق؟ لا شك أن الثورة نفسها ستجده. أما الآن، فليس في رأسه، أي فكرة. فما الحل؟ قال لها، من المبكر، أن يناقشا هذه المسائل؛ فالحياة نفسها سوف تجيب عن الأسئلة. وسُرَّ في نفسه كثيراً، لأنه استخدم إحدى أفكار لينين، للمرة الأولى، في حياته. غير أن لؤلؤة بدت غاضبة، وأخذت البابونج دون أن تعرض عليه كأساً ثانية. وحين عادت، جلست بعيداً عنه، وقالت: «يعني هيك بدكم تغيّروا الدنيا؟». وحدّقت إليه مباشرة، وأضافت: «والدنيا ما بتتغيّر إلا إذا أخذتوا مني أرضي؟». كانت مستعدة للقتال، كأنهم سيأتون الليلة. أراد أن يقول لها إن الوقت ما زال مبكراً للحديث عن الثورة، فلم يستطع، لأن ذلك سيكون خيانة للتفاؤل. فكر أن الحقيقة أهم من كل شيء. وليس ممكناً أبداً، أن يساوم بشأنها، حتى لو زعلت لؤلؤة. ولهذا، فقد أجابها بأنهم سيستولون، كذلك، على نصف بيتها، حين سألته عما إذا كانت المنازل ستوزّع على الفقراء أيضاً. فأحضرت سفط الكراميلا وتناولت حبة، وبدأت تبكي. ثم سألت فجأة، وهي تنظر إلى صورة عبد الناصر: «أني سمعت إنو الرئيس جمال وزّع الأرض عَ الفلاحين الفقرا كمان. بس شوف كيف! ما حدا قرب عَ أرضي. يعني أني مش غنية». فتجهّم وجهه وقال: «عبد الناصر عمل إصلاح زراعي. ونحنا بدنا نعمل ثورة! فرق كبير».

«شو الفرق؟» سألت محتدّة.

«الفرق؟!» أجاب غير مصدّق؛ إذ اكتشف أيضاً، أنه لا يعرف بالضبط ما الفرق فعلاً. وراح يفكر في الإجراءات التي اتخذت ضد ملّاك الأرض في الاتحاد السوفييتي. ولكنه لم يذكر التفاصيل. ورأى عبد الناصر يبتسم، فاعترف لها قائلاً: «ما بعرف شو الفرق. بس أكيد في فرق بين الثورة والإصلاح».

«شو الفرق؟» قالت بغضب.

ففكر قليلاً، وقال: «نفترض إنو هالبيت مش عاجبك. الثورة إنك تهدِّيه من الأساس، وتبني بيت جديد عَ الأرض نفسها. والإصلاح إنك تعملي رقعة هون، ورقعة هون».

«وإذا كانت هالغرفة عاجبتني، والمطبخ مش عاجبني».

«لازم تهدّي كل شي» قال، ثم تألقت عيناه، وتابع، كأنما اكتشف كل شيء: «هذه هي الشيوعية يا لولو: هدم وبناء».

كمال عنّفه بعد أسبوع، وقال إن الشيوعية، كما يعتقد، تعني بقاء الأشياء الجميلة، وبناء أشياء جميلة أخرى بجانبها، أو فوقها. ولكن نموذج البيت الذي قدّمته لؤلؤة، استحوذ على تفكيره، وخلّف فجوة بين الطراز الذي يبشّر به كمال، والحقيقة؛ إذ بدا له من المستحيل، أن يتمكن أي مهندس عمار، أو نظريات، من البناء في مثل هذا المكان، دون هدمه. سخر منه كمال، وسأل إن كان يظن أن الاشتراكية تشبه الموت فعلاً. قال كريم: «شو بتشبه إذاً؟». قال كمال إنها تشبه شجرة. ثم قال لا. إنها لا تشبه شيئاً محدداً. الاشتراكية مثل... سكت هو أيضاً، وسرح بعيداً. شعر كريم بالارتياح لأنه وجد أن كمال مثله، لا يعرف الكثير. وتمنى لو كان القميص موجوداً، إذ إنه الوحيد القادر على تقديم الأجوبة الصحيحة والمؤكدة عن كل سؤال.

المريع في الأمر، أن لؤلؤة رفضت أن تنام معه، وقالت له: «أني زعلانة منك». فتمنى لو استطاع أن يغادر البيت. غير أنه، في الليل، ندم على موضوع النقاش كله؛ إذْ كان ممكناً تأجيله، وهناك احتمال أن تكون حكومة الثورة أكثر تساهلاً منه. وليس شرطاً أن يكون ما يطبّق هناك، صالحاً للتطبيق هنا.

وأسف لأن لؤلؤة بدت حزينة، ومتذمّرة تقريباً. وأدرك أنها حاولت أن تغطي بكلمة زعلانة، هلعاً دفيناً من الأيام القادمة. لا بدّ أنه خذلها.

ولم يفهم كيف يمكن أن يكون مبشِّراً بالثورة، ثم يترك وراءه بين الناس الذين يحبهم، هذا الأسى. يحبهم؟! هذه هي المرة الأولى التي يعترف فيها أمام نفسه، بأنه يحب لؤلؤة، وأنه لم يتذكّر محمودة، إلا آخر الليل، حين كان يدخن سيجارة، ويشتهي أن يقف في الخراب القريب ليعوي. بدت مثل ذكرى مطفأة. ليس فيها سوى رائحة رماد. بينما اتقدت صورة لؤلؤة: جديدة مثل جمرة. ناطقة تتدفق بالكلمات، فتضفي على وجوده، سكينة وأمناً فريدين. غير أنه خاف من أفكاره وتخيّلاته، وشكر الله لأن أحداً لن يتمكن من معرفة هواجسه التي بدت الآن، في ضوء المراجعة المبدئية، مجرّد هراء تحريفي أرعن. فلا يمكنه خيانة حب محمودة، لأنّ البنت لم تتركه، وقد أرغمها الفقر على السفر، وسوف يكتشف حين تعود أنها فهمت جيداً معنى أن تكون عاملة. صحيح أنها لا تشتغل في مصنع (لكن ربما كانت كذلك. فهناك احتمال أن تكون الآن إحدى العاملات في مصنع للنسيج أو الريجي أو الزجاج أو الأسمنت) لكنها تبيع قوة عملها، وتتعرض للاستغلال. أحنقته كلمة استغلال، حين تراءت له دلالاتها المتعددة. ومن بينها، موضوع استغلال الجسد. ارتعشت أوصاله. اكتأب وأصابه الغمّ، وقد رأى، في صفحة الخيال، جبيبته ترقد في حضن رجل. خبط رأسه بقبضته، محاولاً انتزاع الرؤيا الفاسقة. وراح يمجّد الحب الذي أيقن أنه سيكون معقل الحصانة والرفض لأي محاولة أو إغراء. ولعن لؤلؤة التي كانت السبب في انزلاقاته، وأخطائه العملية أو النظرية. فكر ألا يكلّمها بعد اليوم، أو أن يرفض إشارتها، وينفر من دعواتها، دون أن يتردّد في تقديم الشكر لها، على الضيافة الشجاعة التي تقدّمها له. مع أن الحياة تضعه في مفارقة ساخرة جداً. فالكادحة مضت إلى السفر دون أن تودّعه، والمزارِعة تستضيفه، وتحنو عليه، وهو حائر مطارَد، مثل كلب.

38

كانون الثاني 1960

لم يأتِ أحد للسلام عليه، فقال لغازية إنّ الريح الشرقية هي السبب. وبعد العشاء، خرج ليمشي. وكانت شوارع السماقيات خاوية تقريباً. قادته قدماه إلى منزل عبود الزهر، فاعتذر صديقه منه عن التقصير، وعزا ذلك إلى الروماتيزم الذي سلق ركبتيه، منذ الصباح. فقال المعلّم: «المهم.. النيّة يا بو حليم». وازداد حزنه حين سمع قصة كرم السماق، وبدأ يهزّ رأسه آسفاً. وهمس لعبود، ولنفسه أيضاً: «شو صاير؟!». وفوجئ حين خرج، بأنّ مضافة حسن اللوف مضاءة، وممتلئة بالساهرين. ربما كانوا يشربون الشاي. فضحك، ومضى إلى البيت، ويداه خلف ظهره.

وفي الصباح، سمعوا الحوّاط ينادي لاستلام إعاشة جديدة. التقت عيناه بعينَي غازية، فأغضى. ولم يقل أي كلمة حين رآها تعدّ أكياسها. ثم غمغم بلا مبالاة: «أني مش رايح»، وابتسم بمرارة، حين سمعها ترد: «أحسن!». كان بودِّه أن يقهقه. ولكنه اكتشف أن كلمتها بعثت في نفسه، حزناً أقوى من الرغبة في السخرية. فغازية، امرأة منزل أولاً وآخراً، وأمّ، ولا يمكنها - بسبب الحقيقة أو الأفكار - أن تنسى أن لديها أفواهاً يجب أن تأكل. وإذا كان لا يستطيع أن يرافقها إلى المنارة، لاستلام الإعاشة،

أو يمنحها الموافقة على ذلك، فإنه لن يتمكن من منعها. خشي أن يكون السجن هو السبب الخفي، ولكنه استبعد ذلك؛ فالأيام التي أمضاها هناك، لم تؤثر في قناعاته. والإفراج عنه لم يكن ناجماً عن تنازل أو انسحاب، وإنما عن سياسة ما، لم يستطع فهمها حتى الآن. وابتسم حين لاحظ أن غازية صارت بعيدة، تمشي نحو ساحة البلدة. فالموضوع إذاً غدا بلا قيمة، ولا معنى وراء التمادي في اختيار المسوّغات.

انتظر الضحى، ثم خرج يمشي في شوارع البلدة الخاوية، فالتقى بلقمان عند طرف الساحة الشرقية. تبادلا التحية، وقال لقمان: «قصّرنا معك يا بو فيصل!». فتجاهل إشارة المجاملة، وسأل بلا ودّ: «شو؟ شايف ما رحت عَ المنارة؟».

«منشان الإعاشة؟!» أجاب لقمان، ثم أضاف: «ولك كلّو بعر!».

قال توفيق: «لا والله، كلّو سوس!».

فقهقه لقمان، وقال وهو يحدج المعلّم: «ما تبت يا توفيق؟!».

فحدّق المعلّم إليه لحظات، ثم سأل: «مين وشى فيّ يا لقمان؟».

نكس لقمان رأسه، وبدا كأنه يفكّر، ثم نظر إلى عيني توفيق وقال: «إذا قلت إني ما بعرف مش راح تصدِّق. لكن صدِّق إنو مش أني. صدِّق يا بو فيصل!»

39

كانون الثاني 1960

كأنما كان عمار التوت يراها لأول مرة. وحين سأل سلمان الجدي، الذي كان يجلس قربه، عنها، وعرف أنها زينب بنت عبود الزهر، هتف بأسف: «كَهْ!».

لم يستطع أن يأخذها بسيارته. وشعر بغصّة وهو يتركها وراءه، في طريق العودة، وظلَّ يراقبها في المرآة الجانبية وهي تبتعد وتصغر، ثم تلاشت وراء الغبار، وعلى كتفها حمل الإعاشة.

غير أنها لم تختفِ بعد ذلك. وقد ظهرت في الحلم مرة أثناء النوم، وسيطرت على أفكاره، بلا توقف، أثناء اليقظة. صارت تقتحم أيّ فرصة، وتنظر إليه برقّة (هذا هو التفسير الخاص به)، كما لو أنهما متعارفان منذ دهر.

ومرة، أشارت إليه من إحدى ثغرات الشرود. وكانت هذه هي المفاجأة التي لم يتوقعها. وظنّ طوال النهار، بأن ذلك كان حقيقياً. واستغرب لأنه لم يبادلها الإشارة بالمثل. ثم اكتشف أنه كان خائفاً، ومرتبكاً. «مرتبك؟!» سأل نفسه: «أنت يا عمار؟». فاللقاء بالنساء كان يشحن أفكاره، ولغته، ويثير جسده، وحركاته. وغالباً، فإن المبادرة تكون ملكه، وليس ملكهنّ. وهذا هو الصحيح، كان يقول لأصدقائه:

«لا تستنّاها، لأنو يللي بيستنّى المرة مثل يللي بيستنّى الحظ. يمكن يجي ويمكن ما يجي».

ما لا ينكره هو أنّ الحلم كله بدا لذيذاً، ولم يكن هذا غريباً عن أحلامه النسائية. الغريب هو أنه لم يستطع ترويض زينب، في أي لحظة من لحظاته. كانت هي التي تضع نفسها في الأمكنة المختارة. والأصعب من ذلك، أنها بدأت تختار الأزمنة أيضاً. فعجز، مساء اليوم التالي، عن استحضارها مثلاً، لتأتي ساعة العشاء دون استئذان. وكانت ترتدي وشاحاً أخضر، وكان هذا مذهلاً، لأنه مولع بذلك اللون. وحين نام رأى أنه هو الذي اشتراه لها. وظلّ مؤمناً بالرؤيا في اليوم التالي، وقد جلسا معاً، وتحدّث إليها ملياً، وكانت تصغي، وهي تبتسم ابتسامة مليئة بالرغبات.

غير أنّ صوته تلاشى حين التقى بها على طريق البئر، وهي تحمل المنشل المليء بالماء. خرجت التحية مرتعشة وناقصة، وقد أرغمه الارتباك على ابتلاع الحرف الأخير من التحية. فوبّخ نفسه بلا رحمة. وضرب جبينه «يا حمار!». وأخبر حسن اللوف حين زاره، فسخر هذا منه، وقال: «عاشق؟... والله عشنا وشفنا!». لكنه قال إنه لا يعرف ماذا يحدث له، ولا يظن أنه يحب. فقال حسن إن انحباس الصوت، وارتجاف اليدين، من علامات الحب. ثم سأله بغتةً: «يعني بدّك تتجوزها؟».

لم يكن فكر في هذا. ولكن السؤال بدا مثل قرار قديم قابع داخل رأسه، منذ سنين، فنظر إلى حسن مندهشاً، وقال: «ليش لأ!».

الفكرة عن الزواج ازدادت رسوخاً وقوة، حين عاد إلى البيت. فقد بدا الآن، لأول مرة، أن هذا المكان الأزرق الواسع موحش وعسير. وفي الليل، ازداد قنوطه، وخامره إحساس بأنه عجوز، بلا سند، مفرد ولا أحد يحبه.

وفي السويداء، سمع السائقين يتحدثون عن رجل وحيد، لم يعرف أحد أنه مات، إلا حين تعفّنت جثته. ارتعش جلده، وعرت أوصاله رعدة

قاتلة، فمضى إلى سيارته هارباً، ثم عاد منها، بسبب المشاعر ذاتها، وجلس قرب النار الموقدة، ولم يستطع أن يتماسك قبل مجيء حسن. كان رعبه بادياً، ولاحظ اللوف شحوبه، وضعف حركاته، فقال إنه بردان، وإن صدره منقبض. كان صوته واهناً. وخرجت الكلمات من فمه مُرّة وخاوية. وحين أبصر ابتسامة حسن المعبأة بالشكوك، قال: «لا تضحك! الموضوع جدّ!».

لكن حسن اتخذ مظهر الحكيم، ولكز عمار، وقال: «قوم من النوم!»، واستغرب أن يكون مضطراً لشرح الصورة الحقيقية لوضع عائلات السماقيات. قال: «هذا زواج من نار. إما انت بدّك تنطفي أو بدّك تحرق البنت!».

بدا المجاز حصيفاً، فتراقصت عينا عمار وهمس: «ليش؟ يمكن سخِّنها! خليها تغلي!».

«يعني مش خايف!» سأل حسن.

«لأ» قال عمار. ثم سكت، لأن الكلمات كانت أقل من الحالة. ولهذا بدت صراعات السماقيات، وخلافات أهلها، وتواريخ حروبهم، مجرّد فقاعة يمكن أن يفقأها، ويمشي نحو نصيبه دون وجل. وزيادة في تمتين عقد الآمال. قال لحسن، إنه لا يريد منه سوى الوساطة: «قول لرندة منشان تحكي معها»، فلوّح بيده علامة اليأس. ثم شرد قليلاً، وقال، وهو يهزّ رأسه: «مع إني حذّرتك. لكن المحاولة ضو»، فأمسك عمار بحزامه وهتف: «إيدي بزنّارك! المهم البنت توافق».

*

تلك الرسالة أذهلت زينب، وقالت لرندة: «من زمان ع بستنّى يجي ابن الحلال ليخطبني. بس بعمري ما فكرت إنو رح يكون ابن حرام».

غير أنّ رندة التي لم تكن أقل منها شكّاً بعمار التوت، كانت ملزمة بنقل

التعليمات التي تلقتها من حسن؛ فلم تجرؤ على رفض المهمة، على الرغم من شعورها العميق بأنها ستغشّ في الكلمات. ولهذا قالت إن الرجل يريدها فعلاً، وأن من يطلب امرأة للزواج لا يمكن أن يكون مخادعاً أو كذاباً. ودون أن تدري، وجدت نفسها ترسم صورة بهيّة عن الموضوع؛ فشرحت لزينب أن الرجال الأغنياء وحدهم هم الذين يمكنهم أن يضمنوا للنساء، حياة بلا منغصات، ويحموهن من الفقر، ومن الحاجة إلى أي إنسان، حتى لو كان أخاً. شعرت أنها تندفع إلى غرضها بحماسة المتشيّع، فقالت إن إخوتها تخلّوا عنها بلا ضمير، وإنهم لم يورثوها قشة تبن من رزق أبيها. وهي تتمنى لو ظلَّ محمود حياً، كي تعيش معه على حصيرة. ثم سألتها، دون أن تخجل: «عَ بتستنِّي إنو حليم يعيّشك»، فطفرت دمعة من عيني زينب، وصفعت وجهها بيديها، وقالت: «لأ!».

لم تستطع أن تجمِّل صورة عمار كثيراً، فلجأت إلى المعتقد وقالت لزينب: «إذا كنت مؤمنة بالنصيب يمكن يكون هذا نصيبك. وهيك الله بيريد». فحدجتها زينب بطرف عينها، ومطّت شفتها بازدراء، ودمدمت بلا رحمة: «ولك رندة، منشان شوية برطيل عطاك ياه، صرت بدك تساويه نبي؟ ولك هذا عمار التوت، شوفير الحنطور. قولي إنو قواد، وخنزير، وابن كلب. وقولي إنو بدّو يتجوزني، بس هيك! سامعة!».

بهتت رندة، وشحب وجهها كحصيرة، وعانقت زينب، وقالت بحزن: «سامحيني.. صحيح.. يمكن كنت عَ بحكي عن حالي، بس يلعن حياتي أنا. وأنت بتعرفي إنو لولا لقمة العيش ما كنت بطلّع بهالنجس».

قالت زينب: «بعرف». كان في نبرتها، خليط من اليقين والقناعة والسخط والتبرير. وبدا لرندة، أن فيها أيضاً رضا شفيفاً يمكن نبشه، وإعلانه بقليل من الصبر. ولكن من سيصبر، إذا كان حسن لا يريد الرسالة فقط، بل عودتها ممتلئة ومبجلة ومدعمة بالموافقة؟ وإذا كانت تعرف أن

رجوعها الخاسر يمكن أن يتسبب في طردها من رعاية بيته. فإن هذا وحده يجعلها مستعدة لإجراء المساومات. شعرت بالأسى تجاه زينب أيضاً، لأنها ما كانت تتمنى أن تكون لعمار، أبداً.

رأت الآن أنها جميلة. ولم تستطع العنوسة الطويلة، وأدوار الأم وربة المنزل التي تولّتها، منذ سنوات، أن تنتزع منها فضائل البنات. بدا وجهها بريئاً. حتى إنها عجبت كيف تمكنت من اكتشاف روح الدسيسة في رسالتها. ولكن ذلك سهّل الطريق، بدلاً من أن يعقّده. وصار عليها الآن، أن تشرح لها أن مصيرها حي، ومستقبل أولادها مرهون بحمل الجواب السعيد.

زينب قالت: «يعني لازم موت أنا منشان تعيشي أنت؟».

قالت رندة: «ويعني أنت عايشة هيك؟».

«لا والله» ردت زينب، بلا تردد: «لكن الحياة مع الشوفير مش رح تكون أحسن». كانت ملامحها قد تهدلت. وظهرت تجاعيد حزينة على وجهها، فقالت رندة إن وجودها في بيت عمار، سيجعلها سيدة البيت وصاحبته. أما هنا، فكل شيء مستعار ومؤقت وملك لحليم وحده.

الإشارة إلى حليم، ذكّرتها بابنتيه، فصاحت: «ولك نسينا نجوى ونجاة... العمى! لمين بدّي اتركهم ها؟ لمين؟!».

*

أطرق حسن اللوف مفكراً. لم يكن الرد الرافض الذي حملته رندة هو الذي يشغله، بل الأسباب التي دفعت إليه. قال: «لازم يكون في حل». ثم طمأن المرأة المذعورة، وربّت على يدها المرتعشة وقال: «ما قصّرتِ أبداً يا رندة».

40

كانون الثاني 1960

حين سمع لقمان بالنبأ، سُرّ. وقال لإبراهيم شمال إنّ الشوفير سيعوّض الخسارة في الطرنيب، ويأخذ بنت الكبّا.

غفر له كل شيء، وأسف لأنّ الشكوك خامرته، ذات يوم، في ولاء الرجل وذمته وأخلاقه، وفي ذكائه أيضاً. فالمقاتل الذي أثبت أنه نمر الأدغال، في فيتنام والجزائر وغويانا، أكد اليوم أنه ثعلب اللجاة الحصيف.

غير أن عمار بدا مختلفاً تماماً، وظلَّ ينظر إلى لقمان بنصف عين، وهو يشرح استنتاجاته. دخّن سيجارة وراء أخرى، وهزّ رأسه، دون أن يتكلم، ثم قال فجأة: «لكن أنا بحب البنت فعلاً». «فعلاً؟!» علّق لقمان، ساخراً: «ولك كلّو بعر».

«لا والله يا بو علي» ردّ عمار: «هالمرة.. أظن أنه ألماس!». كانت نبرته هادئة. حاول أن يضفي على كلماته، اللطف الضروري لإظهار مدى جدية مشاعره، في الوقت الذي كان يريد فيه، أن يتحاشى الجدال في أمر حميميّ وصميمي جداً، دون أن ينسى أن احتمال نشوب خصام مع لقمان، أو مع أي رجل من حلفه ضارّ تماماً. لم يكن جباناً كما فكر، قبل أن يأتي إلى مضافة لقمان، ولا عاجزاً عن رفض الوصاية من أي شخص. لكن مشاعره

بدت مرهفة وطرية بحيث قد تنفجر كبارود، تذوب كملح، إذا خاض في المماحكات أو الشجارات التي صار يراها الآن، جانبية وعابرة وبلا معنى، عندما يقارنها بالعاطفة العميقة التي يحس بها، تجاه زينب.

لهذا، تغاضى عن سخرية لقمان، وعن جملة التبخيس الشهيرة التي ازدرى بها مشاعره.

لقمان ظنّ أن التعبير العليل لعمار، لم يكن أكثر من عطب خفيف، يصيب الرجولة في سنه، وفي لحظة غفلة، أو موقف ضعف، سبق له أن عاناه مرات، تجاه نساء أخريات رآهن في أي مناسبة.

صحيح أنه لم يستخدم تلك الكلمة الصبيانية الفارغة. غير أن الأمر لا يزيد عن أنه بعر فعلاً. لأن الحب نفسه ما هو إلا صيغة مهذبة وركيكة من صور الشهوة. واستغرب أن ينزلق رجل مثل عمار، أمضى حياته - على الأقل، كما يروي هو سيرته - في مطاردة أي امرأة ما إن تكشف أمامه، مرة واحدة، عن سنّها، أو عن كاحلها، حتى يحلَّ حزامه ويروح يصهل مثل حصان.

لم يصدّقه. وظلَّ يعتقد أنها مزحة. وربما كانت حالته أمس، مجرد مقابلة اعتباطية لكلمة البعر التي يستخدمها هو. لكنه لم يكن موفقاً بالتأكيد، لأنه يستطيع إدراك القوة الحاسمة لكلمة البعر، حين توصف بها علاقته بامرأة. فالنساء لا يفعلن شيئاً لأي رجل إلا أن يدفعنه إلى الوراء. والمصيبة أنهن يفعلن ذلك بعد أن يكون ذلك المسكين قد ركع على ركبتيه، مقيّداً بهذا الذي يسميه: الحب. وماذا تفعل المرأة عندها يا عمار؟ تتصرف مثل الملكة، تدعوك حين تحتاج إليك، وتبعدك حين تشبع منك، وتظهر غيرتها إذا ما نظرت إلى امرأة غيرها، وتناكدك باهتمامها بالرجال الآخرين، وسوف تظهر أنت مثل المسطول، بين ما يمكن أن تقوله لك، أو تبديه لغيرك. وليس لك سوى رب العالمين ليعينك. وهذا كله بعر. أراد أن

يحكي لعمار عن عصمت، ويقول إنه أحبها فعلاً. وحاول أن ينتشلها من المكان الذي تعيش فيه، ولكنها رفضت. تصوّر! جميع العاهرات اللواتي نمت معهن، اشتكين من جور الأيام، ما عداها. كانت راضية يا رجل، ومبتهجة مثل عنزة. وقالت إنّ ذلك البيت هو المكان الوحيد الذي يسمح لها أن تعاشر ما شاءت من الرجال، من دون أن يهددها زوجٌ أو أخٌ أو أبٌ أو أي واحد من أصحاب الشوارب الكذابين. شو هذا؟ بعر طبعاً.

«ألماس؟!» حدجه من الجانب. كانت غمامة من دخان تلف وجه عمار، فبدا شاحباً وحزيناً ولئيماً. وشعر لقمان أنه يكرهه. ولعن الأيام التي اضطرته أخيراً، للبحث عن تحالفات عليلة ومتهالكة، مع مثل هذا الشوفير! وجد نفسه يضيف: «مليح! أكيد البنت مثل الألماس. بس أني ما عَ بحكي عنها، ولا عنك. لكن أنت نسيان أنهم ما بيعطوك ياها».

لم يكن لهذه الحقيقة، أيُّ أهمية في نظر عمار. وحسب خبرته في شؤون النساء، فإن العواطف التي تخامره، هي المقياس الوحيد. فإذا كان هذا هو الحب، فمن المؤكد أنه مستعد لفعل أي شيء، من أجل الحصول على زينب. والأفضل، في ظل كل هذا اللغط الوخيم، أن ينجز ذلك، بلا ضجيج. ولهذا، حاول أن يصالح لقمان فقال: «أني بدي اتجوز يا بوعلي. وما بدي هاوش حدا».

قال لقمان: «ليش إيمتى كانت الدنيا على كيفك؟».

قال عمار: «لا تسدّها بوجهي».

«الأبواب مسدودة من يوم جدّي وجدّك. ومش أني نجّرتها».

«طيّب خلّيني جرِّب أفتحها بمفتاح ذهب. يمكن!».

«جرّب!» قال لقمان، بنبرة هازئة. كان متأكداً من النتائج، فأضاف: «شو عليه؟!» حين فكر أن الرفض لن يأتي من آل الزهر وحدهم، بل

من زينب نفسها. لم يكن علم بردِّها بعد (وقد حرص عمار وحسن على كتمانه، ظانين أنه قد يكون ذريعة تأخير)، وإنما كان يعرف معدنها. فأي بنت تتمكن من زحزحة إرادة الرجال الذين يحيطون بها، هنا، ستكون أكبر من أن تتنازل عن إرادتها لأي غريب طارئ. فإذا كان هذا الغريب شخصاً مثل عمار التوت، فإنّ واحدة مثل زينب لن ترفضه فقط، بل يمكن أن تشجّ رأسه. لكن هذه الهواجس لم تخفف من حنقه، لإحساسه بأن عمار يخونه، أو يدير له ظهره، عند أول منعطف ظهرت من ورائه، مصلحة شخصية له. شعر أنه لم يعد يطيقه، فوقف وقال: «تأخر الوقت! تصبح على خير!».

وحين صار وحيداً، خرج إلى الخلاء. كانت السماء مليئة بالنجوم، ولكن البرد زاد في خلخلة أفكاره؛ فلم يستطع أن يُقصي حدوسه الكئيبة، مثلما لم يستطع أن يقبض على تأملاته المعزية. وفكر بأن كل شيء صار تافهاً وخاوياً؛ إذ ما معنى أن يضطر لخوض هذه السجالات الباهتة الحمقاء، من أجل استمالة رجل واحد إلى جماعته. الداهية أنه كان في جماعته، ولا يزيد، في جميع الأحوال، عن مرتزق متقاعد صار شوفيراً عمومياً. وزاد كل هذا في سوداوية أفكاره، وراح يفكر في الحال التي انحدر إليها، من سياسي بارع ذي مستقبل، إلى متآمر قروي، يبحث عن دستة من المتعاونين الصغار، لتأكيد سلطة داستها أحذية العسكر.

لفّ رأسه بكوفيته، وتلفّع بالفروة، وبدأ مشواره الاعتيادي. كانت جميع البيوت مظلمة، باستثناء دار سلمان الجدي التي كان يأتي منها ضوء سراج متراقص. كان عليه، أن يرحل هو أيضاً. لماذا بقي سلمان؟! ولماذا بقي لقمان أيضاً؟ وإذا كان جميع أبناء السماقيات قد رحلوا، فإن على لقمان أن يلحق بهم، هو أيضاً! يمكن أن يصبح شيخاً في حي الوطا، مثلاً أو في الكرنتينا! وهذا أفضل ألف مرة، من البقاء هنا، وفي جيبه ليرتان! ولولا كروز الدخان الذي أهداه إيّاه حسن لكان عليه أن يجنّ.

رأى منزل حسن مضاء. وفوجئ أن عمار كان هناك. ولم يستطع إخفاء امتعاضه، لكن الاستقبال الاحتفالي الذي قوبل به، من جهة حسن، خفف ومحا، بعد لحظات، ظلال الوجوم التي ارتسمت على أساريره. لم يعرف أنه شكل المجابهة العفوي الذي سلكه حسن من أجل تغطية الشكوى التي كان يقدّمها عمار عنه. كما لم يعرف أنه كان يحاول إخفاء تفسيرات مليّنة على تدخله في شؤون الحب، محاولاً امتصاص غضب عمار.

بعد العناق، أجلسه حسن في الصدر، وصبَّ له القهوة، في الفنجان الأزرق الخاص به. ثم جاء وجلس بجانبه، ووضع يده على ركبته. تذكّر الآن سؤال لوزية القديم فقال: «بدنا عنب يا بيك ولّا بدنا الناطور؟». فنظر لقمان إليه، بطرف عينه وقال: «بدنا نقتل الناطور». ابتسم حسن، وقال بهدوء: «عظيم! إذا أخذنا العنب، يمكن يموت الناطور».

بدت الفكرة مغرية وجديرة بالاستحسان. ولكن لا شيء يمكن أن يثبت جدارتها، سوى التطبيق العملي. ولكنه رغم ذلك، التفت نحو حسن وقال: «أنت متأكد إنو بموت؟».

فقال حسن: «بصراحة أنا ما بيهمني من الدنيا إلا العنب. أما شغلة النواطير فأمنيتي أنهم يظلوا طيبين وعايشين. ليش؟ لأنهم بيحرسوا العنب».

«يعني هيك صار رأيك؟».

ثم نهض، وغادر البيت، دون أن يسمع الجواب. «تصبحوا على خير».

ربّما - حدّث نفسه - أن الدنيا باتت تسير في طرق أخرى مختلفة عن طريقه. ولكن المهزلة أن يقرر حسن اللوف نفسه هذه القاعدة الآن، وعلى لقمان، أن يرضى ويوافق ويبصم، لأنه صار يتحدّث مثل كريم الزهر. «هذه سياسة. نعم. وهذا برد» قال، ولفّ جسده الكهل بفروته، ومشى بطيئاً، في أزقة السماقيات الخالية.

41

شباط 1960

منذ أن خرجت من دائرة النفوس، سار وراءها. وحافظ طوال الوقت، على مسافة الأمان المحسوبة، دون أخطاء، مراقباً سيرها الخفيف المتوازن، الذي كان يضبطه اليوم، وجود فتاة جديدة ترافقها وتشغلها بالكلام. عبرتا ساحة السير. وتلفعت فتاته بياقة معطفها، حين واجهتا برد الغرب. ضحكتا، حين تحرّش بهما شاب كان يقف أمام دكان جزّار، يدخّن ببلادة، ويضع يديه في جيبي بنطلونه. ماذا قال لهما؟ الأرجح أنه استخدم كلمات غزلية ناجحة. وهذا هو سبب الضحك. خفق قلبه بقوة، وحسد الشاب الجريء، لأنه يستطيع، بكل بساطة، أن يخاطب فتاة، ويبدي إعجابه بها، بلا تردد أو حسابات. وكرهه، في الوقت نفسه، لأنه تحرّش بمحبوبته.

افترقت الموظفة الجديدة (هل هي موظفة أم زائرة عابرة؟) عن فتاته، واتجهت نحو شارع المشنقة. بينما أكملت ابنة التلال طريقها، وانحدرت نحو ساحة الفخار. ولجت زقاقاً ضيقاً متعرجاً، هناك (ماذا تفعل؟ أين تذهب؟). الغريب أنها لم تبدّل طريقها، مرة واحدة، منذ أشهر. وواظبت دائماً، كل يوم، على المشي في الاتجاه ذاته. فما الذي حدث اليوم؟ بدأ قلبه يخفق، وشمّ رائحة شياط، وكاد يرجع إلى البيت، مستجيباً لنداء

التحذير الذي أطلقته ظنونه. غير أنه فكر بأن ذلك سيكون عملاً جباناً. ينزع عنه آثار الهوى من جهة، والرغبة في استقصاء التغيّر المفاجئ الذي طرأ على جدول فتاته، من جهة أخرى. ورغم أنها صارت الآن بعيدة، فقد خُيّل إليه أنها أبطأت مشيتها، وتمهلت أكثر، عند أحد المنعطفات. وربما نظرت إليه. ارتبك، ولم يستطع إصلاح مشيته، فازدادت ضربات قلبه، إذ بعد دقيقة واحدة، سيكون وراءها تماماً. سوف يتباله كحمار، ويتخشب، وقد فقد بصره وسمعه. ظنّ أنه يسير نحو شرك. وفكر أن يفر ويهرب. لكنه طرد الشكوك الدميمة حالاً، ورافع عن فتاته بكلمات الحب. وقال لنفسه إنه يكفي أن يحب الرجل فتاة، كي يطهّرها من الدناءات، لأنه سيكون هو أيضاً، طاهراً ونقياً مثل نبع! أعجب بالتعبير، وظنّ أنه قرأه في مكان ما. لا يذكر أين. وسيكون سعيداً لو تأكد أنه من تأليفه.

اختفت الفتاة فجأة، فركض بلا وعي. وفي أول منعطف مال إليه، رآها. كانت واقفة هناك، تنتظره. شعر بالارتباك من ركضه المحموم، ووقوفه الوجل.

لكنها ابتسمت له، وقالت: «اسمي عايدة». كان صوتها ناعماً كالحرير، فشهق كل ما استطاع من الهواء، وقال بصوت يخنقه الانفعال: «أنا كمال». قالت: «امشِ بجنبي»، ثم أوضحت: «بس شويّ!».

أطاع أمرها. وأراد أن يقول: إلى أين؟ ولكن صوته لم يخرج من حلقه. وظنّ أن البرد القارس والريح الجافة هما اللذان نشّفا أوتاره. غير أنه حين نبش رأسه، وجده خاوياً، وأدرك أنها العلل القديمة التي تعلق به. فاستسلم لقدره بروح مغلولة. واشتهى أن يدخن، ولكنه خجل. ولم ينقذه من اضطرابه، سوى صوتها، وهي تقول: «ليش بتلحقني كل يوم؟»، فأحس بالرعب، وظنّ أن اللقاء ناجم عن رغبة في الاستفسار أو التعبير عن الانزعاج. وعلى الرغم من هذا الاستنتاج، فإن كمال وجد فيه روحاً إنقاذية

خلّصته من إرباك الصمت. ولا يعرف من أين جاءت كلمتا الجواب الذي لم يكن يجرؤ عليه، كي يقول: «لأني بحبّك!».

التفتت نحوه بسرعة. لم تكن لديه الخبرة الكافية، ليدرك أنها كانت التفاتة إشراق. ولم يلاحظ أن وجهها تضرج بالدماء، فظنّ أن الكلمة جفّلتها، إلى أن سمعها تقول، وهي ترتعش: «وأني كمان».

لم يكن يتوقع جوابها أيضاً؛ فبدا أوسع من أحلامه. ولهذا، فقد شعر أنه مريض، وظنّ أن البنت مجنونة، أو أنها تمثّل دوراً ما. وكاد يقول لها ذلك، لولا أنها ابتسمت له وقالت: «والله!». كان هذا القسم مفاجأة أخرى موازية. فواصل المشي بجانبها. وبدل الخوف حلَّ شعور بالكبرياء. ومكان الرغبة في التخفي، خامرته غواية سعيدة بأن يلتقي بواحد ممن يعرفونه: عامل من عمال الفرن، شاب من أبناء قريته، كريم الزهر، لكي يتباهى أمامهم بالرفقة الأنثوية الممجدة. أما حين بدأت عايدة بالكلام، فقد ازداد صلفاً، إذ بدأت تحدّثه مثل زوجة. أما التفاصيل التي احتواها الكلام، مثل مصاعب العمل، أو نشاط أسرتها أو طرائف المراجعين في الوظيفة، فقد نسي نصفها بعد عودته. وما ظلَّ راسخاً في ذاكرته، هو شكل شفتيها، والمقطع اليساري من وجهها المبني بتناسق هندسي ماهر، إضافة إلى وجود شامة صغيرة، تضفي تنويعاً على الرسم الجميل. وعلى الرغم من أنهما سارا نصف ساعة، دون أن يلتقيا بشخص يعرفه، فإن فكرة المباهاة، حتى مع أشباح مفترضين، ظلت تخصب خياله. غير أن عايدة أفسدتها بعد ذلك، حين قالت: «خلص! بكفّي. خايفة حدا يشوفنا». كان واضحاً، أنها قد استيقظت من حرارة لحظة التعارف، فيما كان كمال ما يزال متقداً بنارها. واحتاج إلى هزّة تحذير، كي يستعيد قليلاً من الخوف.

الهزة جاءت من كريم الزهر، هذه المرة، في تبادل طريف للأدوار. وقد نبّهه إلى أن لقاءهما في المكان ذاته، أو في أي مكان آخر (سيكون

شارعاً أو زقاقاً حصراً في مدينة بلا أسرار)، لن يفضي إلى حكاية حب، بل إلى فضيحة. فانكشافهما الذي فكر أن يتباهى به، سيكون أساساً لاحتمال سحقه من قبل أقرباء موتورين، يدافعون عن شرف ملطّخ.

أطاع بلا تردد. ولم يخرج في اليوم التالي، للقاء عايدة أو المشي وراءها. وقد خُيّل إليه، أن كل من في الشارع، سيكون قد علم بحدث الأمس. شعر بالخوف عليها، لا على نفسه. وقال إن الحب تضحية، استعدادٌ للفداء.

لكنّه بعد يوم، لم يستطع الصبر؛ فمشى أمامها نحو زقاق لقائهما. وهناك بدت غاضبة، وقالت إنها ظنّت أنه تخلى عنها، وتركها، لأنها اعترفت بحبها له. فقال إنه مستعد للموت من أجلها. فصارت تضحك، وقالت: «لأ، لا تموت. وبدل هيك خلّينا نعيش سوا».

«شو يعني؟».

«يعني ليش ما بتجي تخطبني من أمّي، وبتصير تمشي بجنبي كل يوم، قدام الناس كلهم؟».

«أمك؟!» سأل مستفسراً. فحكت له أنها يتيمة. وقد مات والدها متسمماً ببوله، بعد أن عجز الأطباء، في المشفى، عن قسطرة الكميات الهائلة التي تجمّعت في مثانته. وبرغم الفقر، استطاعت أن تنال الشهادة الابتدائية. لكنها بعد ذلك، اضطرت لترك المدرسة، حين رفض أعمامها أن تأتي إلى المدينة لتتعلّم. في البداية، شددوا الرقابة على أمها وعليها وعلى شقيقتها الصغرى أيضاً. لكنهم في ما بعد، تخلّوا عن ذلك، حين لم يكن واحد منهم قادراً على إعالة الأسرة. ولم يبدوا اعتراضاً على هجرتهم إلى السويداء. كانت أمها - وما تزال - ماهرة في شغل أطباق القش، فصارت تذهب إلى البلد في الصيف، لتجلس في البيادر، وتقطع السنابل، لتأخذ

سيقانها، وتعود إلى المدينة لتصبغها وتصنع منها أطباقاً بسعات مختلفة، وقففاً من أحجام عديدة. وحين كبرت عايدة وجدت عملها هذا، في وقت كان القحط قد حرم أمها من شغلها، لتصير هي الوحيدة التي تُعيل الأسرة.

كمال قال إنه ظنّها من أسرة غنية. وكان مذعوراً من ذلك، لأن ملابسها تُظهرها كابنة مدللة ثرية. قالت إنها تشتريها من البالة، وتعتني بها. قال إن ذلك يسرّه جداً، لأنه يعني أنهما من منبت طبقي واحد. فقالت إنها لا تفهم ما يقول. قال إن على الفقراء أن يتزوجوا من الفقيرات فقط. فقالت إن الحب أهم من ذلك، وإنها حين أحبته، لم تكن تعرف ماذا يملك، ولا يهمّها هذا أبداً. فقال إنه أحبها أيضاً، ولكنه خاف من الحب. غير أنه الآن، مستعدّ لطلب يدها متى شاءت. فقالت إنها ستخبر أمها بذلك. ويمكنه أن يزورهم بعد يومين. فقال: موافق.

من كتاب السفر

شباط 1960

اعتُقل بسبب جملة ناقصة كتبها قريب له، معارض لسلطة عبد الناصر، في مفكرته، قبل أن يفرّ إلى السعودية. فحين داهم رجال المباحث منزل نوفل نجم، لم يجدوا من أوراقه، سوى تلك المفكرة التي امتلأت بأفكاره وتأملاته وحدها، إضافة إلى جملة مكتوبة في الصفحة الأخيرة منها، هكذا: اتفقنا أنا وحمد نجم على ا...

في البداية، وصل إلى حمد استدعاء خطي لمراجعة قسم المدينة في المباحث. وهناك سأله موظف مدني أكرش عن فحوى العبارة، وعن الكلمة التي بدأت بحرف الألف غير المهموز، في آخرها. فأنكر معرفته بأي اتفاق مع ابن عمه الفار، على أي موضوع في الحال. ولكن الموظف المجرّب، طلب منه أن يجلس على أحد المقاعد في طرف القاعة المستطيلة، ليتذكّر. ثم واصل عمله، بما في ذلك، إجراء تحقيقات مع مواطنين آخرين، تمّ استدعاؤهم لأسباب أخرى.

وعلى الرغم من أنه حاول مخلصاً، أن يستعيد ذكريات سنة كاملة، مقلِّباً الأيام مثل دفتر، فإنّ الصفحات ظلت بيضاء، أو مسوّدة بأعمال ومقابلات وزيارات مع عشرات الناس، بمن فيهم نوفل نجم ابن عمه،

دون أن تظهر في متنها، أو في هوامشها، أي مشاورات أو أحاديث حول مشروع عمل مشترك. وبدا نوفل نفسه شبحياً، وغامضاً وغير مفهوم. وما يذكره هو، أنهما التقيا بضع مرّات في مناسبات عامة، وزار كل منهما الآخر أكثر من زيارة أقرباء، تبادلا خلالها جذاذات من الكلام العقيم الذي يشغل مثل تلك الزيارات، وبضع أفكار عابرة، وقليلاً من النمائم. وعدا ذلك، فإنّه لم يعثر على نوفل في أي مكان أو زمان آخر جرت فيه شيفرة ما سرّية، للإعداد لعمل مشترك، خاصّة في ميدان السياسة.

الأدهى من ذلك، أن فكرة حمد نجم عن السياسة، كانت سلبية جداً (لم يتراجع عنها داخل السجن)، وموجزها أنها (أي السياسة) قائمة على انعدام الأخلاق، والرغبة في السيطرة والشهرة والمال. وأن رجال السياسة، في السلطة وفي المعارضة، لا يختلفون إلا بالمواقع التي يشغلونها. وخارج هؤلاء جميعاً، يقف جمال عبد الناصر كقدّيس، أو كملاك مكلّف بمهمات قومية جسيمة، دون أن يجد عوناً حقيقياً من أحد.

عجزه عن تقديم بيانات واضحة للمباحث بصدد الجملة الناقصة، جعلهم يوقنون بأنه متورّط في نشاط سري ذي طابع تخريبي. ويستلزم ذلك بالطبع، بالنسبة لسلوك جهاز أمني مثل المباحث، أن يتعرّض المعتقل لجميع صنوف التعذيب التي يدلِّلونها، باسم: «حلّ عقدة اللسان»، ابتداء من الفلقة، مروراً بالدواليب، وانتهاءً بالوسائل المستوردة من سجون النازيين. ولكن كيف يمكن لحمد نجم، أن يقدّم بياناً ثابتاً عن الكلمة المحتملة المكملة لحرف الألف؟ هل هي «أن» مثلاً؟ وأن الناصبة هذه، تتقدم فعلاً مضارعاً، يعني بالضرورة، فعلاً سياسياً. وخاصة أن البيانات أو المنشورات المنددة بظلم السلطة والمباحث، وبالقمع، تكون مطرّزة بالأفعال المضارعة المنصوبة. كما أنّ لوائح المطالب التي تنشد الحرية أو رغيف الخبز أو العدالة، يتصدرها عادة، ويملأ فقراتها، هذا الثنائي

المؤلّف من أنّ والفعل المضارع بعدها. وهناك احتمال ان تكون إشارة تعجب تنقصها نقطة، وهذه فكرة ذكرها حمد نجم في التحقيق، دون أن يعرف أنه يخلق مشكلة جديدة لنفسه، أكثر مما يحلّ إشكالاً.

وبمرور الوقت (يبدو الوقت في السجن محايداً وبارداً)، بدأ المحققون يعتبرون جهل حمد نجم رفضاً للاعتراف. وقال أحدهم أمامه، إنّه لم يرَ في حياته، شخصاً أكثر مكراً، وصلابة منه. ففي جولات التعذيب، لم يكن حمد يتردد في التعبير عن آلامه، بجميع الوسائل، من الصراخ إلى البكاء إلى التوسل إلى الضراعة لله، إلى حركات الأيدي والأرجل العشوائية. بينما يظل يردد: «ما بعرف!». وقد يطعِّمها أحياناً، بالقسم المعتاد: «والله ما بعرف!» ليزيد من هياج جلاديه، ورغبتهم في تعذيبه. وما كان يؤلّبهم عليه أكثر، أنه كان يوافق على تكرار جميع الشعارات التي يريدون منه، أن يهتف بها. وبسبب ذلك العذاب، كان يظل، بعد عودته إلى الزنزانة، يتجوّل في المكان، بلا توقف، لمدة ثلاث ساعات، وهو يردد: عاش جمال عبد الناصر! عاشت الوحدة! عاش الإصلاح الزراعي! عاش التأميم! تسقط الرجعية! يسقط الاستعمار! ثم يستمر أثناء النوم، يهذي بالشعارات ذاتها. ويكون هناك قريباً من الجنون. فتختلط المفردات بعضها ببعض، فيصير العائش ساقطاً، والساقط حياً. وحين يهجع أخيراً، تبقى شفته ترتعش. ويضرب الهواء بيديه، أو يرفس برجله، كأنما يحاول وقاية نفسه من سوط، أو يعبّر عن ألم زلزالي يخترق جسده.

وعلى الرغم من ذلك كله، فإنّ سعيه لاكتشاف مغزى جملة نوفل الناقصة، لم يتوقف، ولم يقلّ حماسة. وبدا لي أن المسألة باتت قضية شخصية له، اشتبكت بمطالب المباحث، مع إضافة خاصة به وحده هي: لماذا كتب نوفل تلك الجملة؟

لم يشك لحظة واحدة في أغراضها، كما لم يشك في جديتها، فأجاب

عن أسئلتي الارتيابية، فيما إذا كان ابن عمه يريد توريطه، باستنكار. وبدأ يسألني كيف يمكن أن تراودني ظنون حول هذه المسألة، ولماذا يريد نوفل زجّه في أمر يعرف جيداً، أنه سيكون محنة؟! لم تكن لدي إجابة بالطبع، وامتنعت عن إثارة شكوك أخرى، خشية أن يؤدي ذلك إلى عذاب طارئ مختلف، يمكن أن يحطّمه تماماً. فضلاً عن أنني، أنا نفسي، صرت مقتنعاً بأن البحث عن اتفاق حقيقي ما، ربما تمّ بينهما ذات يوم، أكثر جدوى في إنقاذه. ولهذا، بدأنا نعمل في ساعات صحوه (وراحته، أو في ساعات صحوي أنا أيضاً)، داخل ذاكرته لاسترجاع سنة من التفاصيل اليومية.

اكتشفت أنه يستطيع أن يستعيد الأيام، ساعة بعد أخرى، كأنما حفظها غيباً. وقد نسينا، في بعض المحطات، أمر نوفل نجم، واندمجنا معاً، في تحليل مشاكل وأحداث وقضايا عائلية وشخصية رسمية، كانت وما تزال عالقة، أو في طور الحل. ومنها، موضوع خطبة ابنته الذي قرر فجأة إلغاءه. لم يكن بوسعه، إبلاغه لأسرته؛ فالزيارات إلى سجن التحقيق مستحيلة. ولكنّه كان موقناً من أن الإجراءات ستكون قد توقفت آلياً، خلال غيابه. ولم يوضح السبب لي، وإنما أجّله فقط. ألغى كذلك، مشروع شراء قطعة أرض وسط المدينة، وحاول أن يزجّني في عملية حساب مضنية لممتلكاته التي وصلت قيمتها إلى مئة وخمسين ألف ليرة. صفّرت مندهشاً من هذا المبلغ، وقلت: «بهذا تستطيع أن تعيش في فرنسا». تعبير بلاغي محض يشير إلى المبالغة وحدها. فنظر إلي بطرف عينه، وهزّ رأسه، وهمس: «هيك هه؟!».

لم أفهم معنى سؤاله إلا في ما بعد. وفي الوقت نفسه، لم نعثر على أي تفصيل يمكن أن يفيدنا في تفسير عبارة نوفل، أو استكمال الكلمات الغائبة. فبحثُنا في سجلات حياته، لم يُنسه في أي لحظة، عبارة نوفل. وبدا كأنّ انشغاله ذاك قد ألهمه، إضافة إلى الأسباب الأخرى، جزءاً من

القدرة على التحمّل. وقد ملَّ المحققون أخيراً، بعد أن مضى شهران. وقال أحدهم ذات مرة، إنّه يعتقد بأن الله نفسه سيملّ، إذا أمضى مثل هذا الوقت، في محاسبة أعتى المجرمين. ولكن حمد نجم لم يملّ. وحدث تحوّل في تفكيره، إذ بدأ يرتاب فعلاً في نوايا ابن عمه. وقال لي إن ذلك اليميني المتآمر أراد أن يثأر منه، لأنه رفض دائماً، الانقياد لأفكاره، أو تقبُّل نشاطه السياسي. فميول نوفل كانت خليطاً من الأفكار الليبرالية، والأحلام الإقطاعية. كان عداؤه لعبد الناصر شخصياً؛ فما عدا الضباط الثلاثة الذين استلموا السلطة في سورية، بانقلابات عسكرية، فإنّ جميع السياسيين البارزين انحدروا من أصول برجوازية أو أرستقراطية. بينما كان عبد الناصر قادماً من الحضيض الفلاحي ذي الأهداف التهديمية - كما كان يقول نوفل - وقد جاء ليحكم باسم تلك الجموع الأمية الجشعة والجائعة. وكان عبد الناصر نفسه، لا نظام حكمه الاستبدادي، هو نقطة الخلاف الوحيدة بينهما. فقد استمر حمد يدافع عن الرئيس طوال الوقت، مؤمناً بأنه قائد استثنائي، ولكن لجوقة من العازفين الناشزين. ومشكلته أنه جاء مبكراً جداً، وربما كان عليه أن يأتي بعد خمسين عاماً. فالزمان ليس زمانه، والمكان ليس مكانه. كان يعبده تقريباً، ويرفض اتهامات الأحزاب اليمينية واليسارية ضده. وقال لي: «طلِّع وشوف! الأرض حواليه كلها ألغام: بسورية في الشيوعيين والبعثيين والقوميين السوريين. وبمصر الإخوان المسلمين، وبالعراق قاسم والمهداوي، وبالأردن الحسين، وبالسعودية فيصل، وبلبنان كميل شمعون، وتركيا بتتحركش كل شويّة، ولا تنسى طبعاً إسرائيل أكبر المصايب. كيف بدّو يعمل؟ ومين بيتحمّل هيك؟».

وفي رأيه، أن الإجراءات التي يتخذها ضد خصومه عادلة؛ فالوقت ليس وقت حوارات أو مناقشات وخلافات في الرأي. «هذه ثورة» قال لي. والرئيس يريد أن يبني وطناً، لا مزرعة.

وفي أحد الأيام غفر لمعذّبيه، ووضع المسؤولية كلها على عاتق نوفل نجم ابن عمه الذي خسر أي إمكانية كي يكون عضواً في برلمان قادم. وحين قلت له إن عبد الناصر لا يؤيد فكرة البرلمانات، قال: «برلمانات؟! طز بالبرلمانات! عبد الناصر معه حق. فهذه أماكن للصفقات والمؤامرات». لست على يقين من صحة رأيه بالمطلق، وإن كنت أجد فيه بعض الصواب. ولكن الأمر الذي ظلَّ يحيّرني هو: هل كان حبه لعبد الناصر ناتجاً عن كاريزما الرئيس الطاغية، أم استناداً إلى حقائق الواقع؟ ويزداد عجبي وحيرتي حين تأتي تلك المفردات من سجين!

منذ أيام، عرفت أنه باع كل أملاكه، وأنه يستعد للسفر إلى فرنسا (فرنسا؟!). والمفاجأة أن ابنته كانت متزوجة هناك، من دبلوماسي لبناني. ولكن حمد نجم لم يكن مجرد زائر، وإنما ثري يريد الاستيطان. وكان عليّ، أن أعرف ذلك من جملة قالها لي حين ودعته. وقد صاغها على وزن أحد الأمثال الشعبية: «البلاد يللي ما بتحمل ولادها هجرها حلال!»

شباط 1960

نصف الحاضرين كانوا في وفد وساطة، لخطبة زينب إلى عمار التوت. ونصفهم الآخر جاء لمؤازرة عبود الزهر، إذا احتاج إلى ذلك، سواء في كلام المجاملات أم في تفاصيل الخلافات أو الاتفاقات. والطريف أن المجلس كله كان يضم عجائز وكهولاً، باستثناء حليم الزهر.

وقد بدأ الكلام، دون استئذان من أحد، فألقى خطاباً عن السماقيات وأهلها، قال فيه إنهم عاشوا، منذ عشرات السنين، معاً، في وئام ومحبة. فبنوا بيوتهم شراكة، ودافعوا عن بلدتهم بشرف ضد الكسّارية، وحزن كل واحد منهم لحزن الآخر، وفرح لفرحه، وتصاهروا معاً، فصار دم هذا

مخلوطاً بدم ذاك، وصار لحم هذا من لحم ذاك، إلى أن تقدّم لطلب يد زينب من أبيها.

لم يكن الكذب هو الذي أثارني في كلام لقمان؛ فقد اعتدت، منذ سنين، على سماع مثل هذه العبارات الفخمة التي يبدّدها الرجال (والنساء أيضاً) هنا، بالأمتار، في لهجة جهورية متخمة بتحريف الواقع.

ما أحنقني هو هذا الإفراط واللامبالاة في استخدام القيم الكبرى، من أجل مساندة مؤامرة دنيئة، ستعطب مخلوقاً نبيلاً مثل زينب الزهر. فبالأمس فقط، قالت لي إنها تفضّل أن تظل عانساً إلى نهاية العمر، على أن تتزوج رجلاً تحتقره. لم تقل إنها تفضّل الموت، كما اعتادت الفتيات أن يهددن أهلهن، إذا ما أرغموهن على الزواج من رجل يكرهنه. فمن فضائل زينب، أنها لا تقول سوى الكلمات الضرورية، ولا تفعل غير الأمور التي تستطيع تنفيذها. زينب امرأة (وهي فتاة) كالماء، صافية وشفافة وبلا غشّ.

وزاد في غضبي، أن يكون الخطيب عمار التوت ذاته؛ فقد أبدى هذا الرجل - في السنوات الماضية - حرداً وتعالياً على الزواج. ولم تنفع ضغوط أخيه أو شقيقاته، في إرغامه على تغيير رأيه؛ إذ كان يقول إنه لن يسمح لامرأة أن تشاركه سريره. لماذا؟! لقد ظننتُ أنه عنّين. وبدت لي تلك الحكايات التي يرويها عن مغامراته الجنسية، في آسيا وإفريقيا، تعويضاً، أو ستارة يخفي وراءها عجزاً خلقياً أو طارئاً، تسببت به رصاصة أو شظية. وفكرت أحياناً أخرى، أن حياته الغبية في الفرقة الأجنبية الفرنسية التي ضمّت عتاة المجرمين من العالم كله، أتاحت له أن يسطو على عشرات النساء (كان يتحدّث عن مئات منهن) من اللواتي وضعتهن الحروب الاستعمارية في الطرق الموبوءة لها، ربما استسلمن بسبب الضعف أو الطمع أو البحث عن حماية، أو بسبب الشهوات الإنسانية البسيطة. ليس

مهمّاً، لأن تلك الحياة، أورثت عمار شكّاً مَرَضيّاً بالنساء جميعهن. وهو ما دفعه إلى رفض الاقتران بأي واحدة.

لكن ذلك كله لم يكن يعنيني، كما لم يهمني أن يكون بدّل رأيه وقرر أن يتزوج. فهذا شأن شخصي محض. غير أن اختياره لزينب أذهلني. لماذا؟ ماذا يريد؟ هل يروم الزواج فقط، أم يحاول أن يمرّر خيوط مؤامرة يحيكها لقمان، مرة أخرى، بعد مؤامرة كرم السماق، من أجل تحطيم الحلف المعارض له؟ الأرجح عندي، أنه اختيار قصدي، وليس عرضياً، دفعه إليه هوى مفاجئ. ففي هذه الأيام، تضطرب السماقيات، وتمتلئ قلوب الناس فيها حقداً وكراهية، في اقتتالهم العجيب حول لجنة استقبال الرئيس عبد الناصر، وحول أشكال الترحيب به: من الذي سيصافحه أولاً؟ هل يقوم بذلك كبير السن في البلدة؟ أم يقوم بذلك، سليل مشايخها، حسب التقاليد العشائرية؟

علي التوت وحسين شمال وذيب عجيب وعبود الزهر، أيدوا الاقتراح الأول، وقد ادّعى كل واحد منهم أنه الأكبر سناً، وأنّ التاريخ المدوّن في بطاقة الآخرين مزوّر، بينما كان لقمان يحاول بناء قوة فتوى من مجموع البلدة تسحق التاريخين الكتابي والشفوي، وتؤكّد الحضور الأبدي للتراتب الطبقي.

فجأة، يتصالح الجميع (دون أن يتصالحوا) فوق الجثة الحية لزينب. أما الخاتمة الساخرة لكل ذلك، فقد تكفّل بها حليم. فبعد نهاية خطاب لقمان، ابيضّ وجه عبود الزهر، وأخذ يسعل، مستعيداً ذكريات سنوات التدخين القديمة. ابتسم لقمان، ودعا له بالصحة، وأظهر حليم امتعاضه، ونهض عمار التوت فأحضر طاسة الماء، وانتظر حتى شرب عبود، ثم أعادها، باحترام، إلى جوار الخابية، وقعد على طرف الطواطي. «حرباء!» قلت في نفسي، وازداد ألمي لأنني لم أستطع أن أقدّم لزينب، أي اقتراح.

وكل ما وسعني أن أقوله لها، هو نوع من العزاء: «كل عمرك مثل الحورة، عالية وراسك مرفوع، فلا تقبلي إذا قدرت». فرنت إلي، بعيني جريح وقالت: «أظن يا عمي إني هالمرة، رح كون مثل النعجة».

أعرف أنها لم تكن تشير إلى الضعف، وإنما إلى أنها صارت ضحية. وهو ما تأكدت منه، حين وقف عمار وقال إنه مستعد لتقديم أي مهر، وأن يأخذ زينب إلى أي مكان في الدنيا. فأسكته حليم بإشارة من يده، وقال: «لأ، بيت الزهر ما يهمهم المصاري، المهم الكرامة. خذوا زينب! خذوها بالثوب الأزرق!».

وكان هذا تلخيصاً لكل شيء.

42

شباط 1960

استقبلته أم ساخطة، وقادته إلى غرفة صغيرة، فيها بساط وفراشان، وبضع طراريح ملونة. ثم جاءت عايدة، فسلّمت وجلست بعيداً. لحقت بها شقيقتها الصغرى، بصينية فيها أربع كؤوس شاي. وازداد عبوس الأم حين لاحظت أن ابنتها نسيت الصحون، فنهضت وأحضرت أربعة صحون زجاجية صغيرة ووضعتها وسط الصينية.

رشف الشاي بحذر، واشتهى سيجارة. ولكنه فكر أنه سيبدو بلا تهذيب، إذا ما أشعل واحدة. وحين سمع أم عايدة تقول: «أهلاً وسهلاً»، عرف أنها دعوة للكلام، فتقدّم بطلبه، دون مواربة.

ظلت تحدّق إليه باستخفاف، ومطّت شفتها، حين ذكر المبلغ الذي يتقاضاه. ثم قالت، رداً على طلبه، إنها لا تستطيع الموافقة على زواج لا يضمن لابنتها أي شيء. ووضعت يدها على كتف عايدة وضغطت بقوة، وقالت: «يكفينا فقر». قال إنه سيضاعف عمله. ويمكن أن يبحث عن عمل آخر أفضل. واشتكى من أن الزمن قد يبدو بطيئاً ومعاكساً، ولكنه متفائل، لأن المستقبل سيكون أفضل.

كان يحكي بثقة العاشق. ولهذا، لم يلاحظ الابتسامة المشفقة التي

ارتسمت على شفتي الأم، إلى أن أشارت له بيدها ليسكت. وقالت بصوت حاسم ونهائي: «شوف يا بني! مالك نصيب عنّا». سمع من الداخل، نحيباً. ولاحظ أن الغرفة كانت فارغة. ولم يكن فيها سواهما. من يبكي؟ سأل نفسه. وقبل أن يجيب، سمع الأم تقول: «ماجدة! اخرسي!».

في اليوم التالي، عرف كمال أنه الرقم الثالث في سلسلة طالبي اليد، المرفوضين (لكن عايدة همست: «بس أنت الأول هون» مشيرة إلى قلبها). والأسباب ذاتها في كل مرة. واعترفت له أنها بكت في المرتين السابقتين، لأنها اعتقدت أن رفض أمها سيحيلها، بمرور الزمن، إلى عانس متعبة، وهي تنتظر العريس الغني. فقال كمال: «بتخافي تظلّي لوحدك؟».

قالت: «إي كثير».

قال: «أني عايش لوحدي من ست سنين».

فهتفت: «بالله؟» ثم ابتسمت وهمست: «مثل فريد الأطرش».

قال: «بس ما بعرف غنّي».

قالت: «أنا بخاف من الموت كثير. وبخاف إني موت لوحدي».

شرح لها أن الموت قد يكون جميلاً، حين يرتبط بالأفكار النبيلة، مثل الدفاع عن الوطن والحرية والعدالة والسعادة.

حدّقت إليه، وهو يتحدّث، فسألها: «شو رأيك؟».

قالت: «ما بعرف! بس عَ بفكر إنو كل شي ذكرتو لازم يخلّي الإنسان يعيش مش يموت».

عندئذ، اكتشف أنه كان يدافع عن الموت لا عن الأفكار. شعر بالخزي لأنه جازف بالوقت القليل المتوفر لهما، من أجل عرض قضية خاسرة. ووبّخ نفسه في الغرفة، حانقاً بسبب الإدارة الخائبة للحديث. فبدلاً من أن يستميل حبيبته إلى مبادئه، بلبلها. وربما أضجرها، بحديث

عن الفواجع والموت. وكاد، زيادة على ذلك، أن يفشي موضوع انتسابه إلى الحزب الشيوعي، في لحظة الضعف التي أدرك فيها أن عايدة أعطته درساً في التفاؤل. وتأكد أن شعوره بالذنب، تجاه ذلك، لا بدّ أن يظهر على وجهه. ثم شعر بالحزن لغياب القميص. وأنّب أفكاره الشامتة. وحين نام بعد الظهر، رأى في الحلم، ملثّماً ينتظره أمام البوابة الكبيرة لبيت جدته، ورافقه في الطريق إلى الفرن. ثم قاده من يده إلى زقاق متعرج، ونزع لثامه هناك، فاكتشف أنه أبو النور نفسه. لم يتكلم، ووضع سبابته أمام شفتيه يأمره بالتزام الصمت. وراء حدود المدينة، كانت بضع حمير واقفة، وكان رجلان يحرسانها، وكانت ظهورها مثقلة بحمولة من الورق، عرف أنها منشورات. وهمس أبو النور بأنه سيتحوّل إلى بائع جوّال يوزّع الأفكار على الناس. عانقه، وحين أراد أن يعتلي ظهر أحد الحمير، سمعا درزة رصاص. وسقط أبو النور على الأرض، وانبجس دم غزير من أطراف جسده كله. شعر كمال أنه يُضرب بهراوة ضخمة. هوى إلى الأمام فرأى جثمان كريم يرقد في قاع من الحصى. وكان القميص يضحك هناك. صرخ بأعلى صوته، واستيقظ ذاهلاً من الرعب.

وفي أول الشارع المفضي إلى الفرن، فوجئ أن أم عايدة كانت بانتظاره. يرافقها رجل ملثّم. كاد يهتف: أبو النور! ولكن الأم أنذرته: «بعِّدْ عن عايدة!».

فقال: «صعب!».

فأطرقت برأسها، ثم نظرت إليه بحقد، وقالت: «بس إنت أكيد بتعرف العواقب!».

قال: «لمّا حبّيت عايدة ما سألت عن العواقب. ومش رح إتخلّى عنها بسبب العواقب».

لاحظ أنها ارتعشت، وشدّت رباط منديلها، كأنها تريد أن تخنق الكلمات. تقدّم الرجل خطوة باتجاهه، فغمغم كمال، بلا أي ظل من الرحمة: «والله غير أقطع رِجلك، إذا مشيت خطوة ثانية». لا يعرف من أي بئر، جاء بتلك الجملة. ولكنه رأى يد المرأة، وهي تمسك طرف جاكيت الرجل، وتشده إلى الوراء. قال: «طيّب! منشوف!».

قال: «أني بحبّ عايدة.. وبتمنى تكون شريكة عمري. ورح ظل أطلبها منك ما دمت عايش!».

فاستدارت، ومضت برفقة الرجل.

وأمام بيت النار، تساءل ما إن كان دافع عن حبه، أم استعاد طباعاً ثأرية قبلية، فشوى رفاً من الخبز حتى فاحت منه رائحة فحم. اعتذر لأبي سالم صاحب الفرن. وعند الفجر، رأى الملثّم مرة ثانية، بين المشترين. كان من عينين فقط. ينظر إليه وحده. ارتعش جسده، ورغب في الخروج إليه، وبدأ يخطئ أكثر في عمله، فأنّبه أبو سالم، لأول مرة، وهمس: «أحسن منّك قدام بيت النار ما في ولا واحد. بس أكيد نارك يمكن تحرق شغلي، إذا ظليت هيك». قال: «آسف عمي بو سالم. مش خبزك يللي لازم يحترق».

وحين عاد إلى غرفته، لم يستطع أن يسيطر على انفعالاته. صار ينهض كلما سمع صوتاً. وازداد اضطرابه حين رأى صاحب الدار يحادث رجلاً غريباً. شك أنه أشار إلى غرفته، وبدأ يعدّ مرافعة عن الحب. ثم فكر أن يخرج إليهما، ويعلن بالفم الملآن، مذاهبه في الحياة. ولكنه تراجع سريعاً، حين خاف أن يثرثر أيضاً بانتمائه السياسي. لم يكن خوفه على نفسه، بل على كريم وشاكر والأسماء الأخرى التي عمل معها من قبل. لأنه، إذا كان يعرف أنه لن يعترف تحت التعذيب، فلا ضمان أن يظل كذلك، إذا ما حقنوه بعقار ما. وعليه الآن، أن يفكر في كل شيء، بطريقة علمية - كما

كان يقول القميص - أو بطريقة شاعرية، كما يقول كريم. ولكي يسيطر على ضجيج دمه، بدأ يرسم لوحة جديدة. وفوجئ أنها بدأت تخلو من الأشكال الآدمية. كما أنها لم تضم أي رسم حيواني أو نباتي. إضافة إلى ذلك، فقد استخدم، لأول مرة، الألوان الباردة والقاتمة التي منحتها حضوراً مجازفاً، جعله أكثر ارتباكاً، لأن روح اللوحة كانت تضخّ نوعاً من اليأس، قد يفسّر لاحقاً، من قبل قادته، بأنه تخاذل أو انحراف فكري. أراد أن يمزّق شغله. لكنه لم يفعل، وحاول أن يأكل، فاكتشف أنه بلا شهية. ولم يستطع أن ينام، فارتدى ثيابه ومضى إلى بيت كريم. وهناك وجده معذّباً أكثر منه، فجلس قربه، وقال: «تعال نحكي!».

يوم الجزيري

قصة: فيصل الخضرا

صباحاً، جاء أستاذ العربي وقال لنا: ضعوا كتبكم في حقائبكم، لأننا سنخرج في مظاهرة. فاليوم هو عيد الوحدة. فهتف الطلاب كلهم معاً: هي ي ي ي! فعبس الأستاذ وقال: اخرجوا بلا فوضى، ولا تشاغبوا. اصرخوا ضد الاستعمار والرجعية. رأيت سعيد طالب سعيداً، فالمظاهرة أنقذته من حصة الحساب، لأنه لم يحلّ الوظيفة في البيت. وكان يقول إنه لا يفهم أي شيء عن الفوائد والأسهم وأسعار الحاجات. وبدأ محمد القرن ينظر إليه بعينين كعيني الثعلب، وقال إنه سيرى اليوم البنت التي يحبها. وكان يحب بنتاً لا يعرف اسمها. ولكنه يراها كل يوم، وهي تذهب إلى مدرسة البنات، فيحبها أكثر. وحين خرجنا إلى الشوارع، رأيناها ممتلئة بالناس، ورأينا مظاهرة البنات مثلما قال عنها حافظ ابراهيم العظيم: «خرج الغواني يحتججن ورحت أرقب جمعهنّه». ورحن ينظرن إلينا، وننظر إليهن، وبدأنا نهتف بقوة. وصرن يهتفن أيضاً. كنّا نضحك، فصرن يضحكن. ثم سِرن باللافتات، وكانت بيضاء، مكتوباً عليها باللونين: الأسود والأحمر. ورفض كثير من الطلاب، أن يحملوها، لأنها ثقيلة، فوبخهم الأستاذ قائلاً: جبناء! أنذال! عندئذٍ هجم أكثر من خمسين طالباً ليحملوها، وحملوها. وارتفعت في الفضاء، وبدأت المسيرة. ولكن طلعت جاء إلى جانبي، وقال لي، وهو

يرتجف إننا سنهرب إلى البيت، حين تمر المسيرة قرب دار الجزيري. واعتقدت أن طلعت بردان، فقلت له: خذ لفحتي. ولكن طلعت قال: أنا خائف. ولم أعرف ممّ يخاف. ولكنه قال لي: إن ذلك الولد السمين الكبير، يلحق به من مكان إلى مكان، ويقول له: «جف مي كِس!» بالإنكليزية. وهي تعني بالعربية: أعطني قبلة. وكان طلعت يظن أنه يريد منه أكثر من هذا. وقال إن الولد السمين عرص، فقلت له: لا تخف. ولكنني خفت مثله، وتمنيت أن أرى كريم، لأقول له ماذا يريد هذا الولد منا. ورحنا نفكر أن نهرب. وكانت المظاهرة تشتد وتقوى. وطلعت يسألني لماذا يتحمسون كثيراً، كثيراً. قلت: لا أعرف. ويمكن أن يكون الصوت القوي مخيفاً للأعداء. فقال: هل يخاف الولد السمين منا، إذا زعقنا؟ فقلت: يمكن. فرحنا نصرخ ونصرخ ونصرخ في وجهه، فخاف وتركنا واختفى. فأخذنا نفكر بالهرب إلى البيت، خائفين من أن يكون السمين ذهب وأحضر عصابة. ولكننا خفنا أيضاً، لأن عريفاً من عرفاء المظاهرة، نظر إلينا، بعينين غاضبتين، وكأنه يقول لنا، مثل أستاذ العربي: جبناء! أنذال! وكان طالب كبير يهتف: يسقط الاستعمار. تسقط إسرائيل. وهتفنا كلنا، وقال آخر: عاش الرئيس جمال عبد الناصر. فقلنا: عاش عاش عاش. وصارت فوضى، واشتبك الطلاب، وتعارك اثنان وتدافشا، وضاع طلعت من يدي، فصرت أصرخ: طلعت! طلعت! وخفت عليه من ذلك السمين الذي يلاحقه بالكلام الإنكليزي. ثم رأيته يبكي، فأمسكت يده وقلت: اقتربنا. وكنا نسير في شارع قريب من دار أبي محمود وقلت: سنهرب حتماً. ولم أكن خائفاً من العرفاء، حتى لو أخذونا إلى المباحث، لأنني سأقول له، هناك، ماذا كان يريد أن يفعل ذلك الولد السمين في هذه المناسبة الوطنية! وعندما صرت أمام الدار، رأيت الجزيري واقفاً أمام دكانه، وكان يصفّق. وفجأة صارت حلقة من الشبان تهتف: سكّر يا قليل الدِّين. ضاعت منك فلسطين! وهجموا نحو

دكانه. تلك اللحظة، خاف الجزيري. رأيت الخوف في عينيه وحركاته. ماذا يفعل؟ اندفع الشباب مثل المجانين، وبدؤوا يقلبون سحاحير البرتقال والليمون والموز والبصل والخس والبقدونس، ويدوسونها بأحذيتهم. رأيت الجزيري يحاول منعهم، ولكنهم كانوا كثيرين جداً، فانقلب أبو محمود، ووقع، فداسوه بالأحذية، صارخين: سكِّر يا قليل الدِّين، وقلبوا قطرميزات الملبّس والقضامة المالحة والحلوة، وكرتونات الهريسة والحلاوة والراحة، ثم أغلقوا الباب الحديدي، وأقفلوه. ورأيت الشبان يزدادون حماسة. وصاروا يهتفون ضد الاستعمار والصهيونية وإسرائيل. ومن بين أقدامهم، رأيت الجزيري ينهض. كان يئن (تعجبت: هل يئن الجزيري؟) وأمامه، وقف طلال الترابي وكريم الزهر، وكانا يقولان له: سكِّر يا قليل الدين، ضاعت منك فلسطين.

فقال طلعت: «صحيح أن الجزيري ضيّع فلسطين؟ العمى!». قلت له: «يمكن لأنه لم يحارب هناك». ولم أكن أعرف إذا كان قد حارب في فلسطين أم لا ولكن كريم كان يعرف، وكان هو ورفاقه يدوسون على الدكان ويدبكون، وهم يهتفون: سكّر يا قليل الدين. ضاعت منك فلسطين.

43

شباط 1960

ذهب كريم إلى السماقيات مشياً، إذ قدَّر أن صعوده إلى سيارة عمار التوت، سيعتبر إقراراً بالمباركة، من قِبل مَن يراه من أهالي السماقيات، وهزيمة مدوِّية أمام نفسه.

وصل إلى هناك عند الغروب. كانت سماء البلدة ملبّدة بسحائب دخان الطبيخ المسائي، دخان ناشف مقيم في ظل برد خفيّ بلا رياح. فاختار أن يمضي إلى الدار، ملتفّاً حول الحواكير الجنوبية، نازلاً إلى طريق الوادي، ليصعد من هناك، نحو البيادر، ويعبر قرب صخرة الحوليات العالية. هناك لاحظ مرور كائن شبحي مسرع نحوه، فغمغم بسعادة: «بارود!». حين التقيا على حافة الجرف تعانقا. وربت كريم على عنق بارود، ومسح شعر جسده، فيما أخذ بارود يلحس ساقيه، ويدسّ أنفه في دفء لفاحه الصوفي. لم يكن لديه أي شيء يمنحه لبارود، كما كانت عادته، فلعن النسيان والمشاغل، وقال له: «لا تزعل مني. بس خلِّص هالشغلة إلك هدية!».

كانت أفكاره تقوم على خلطة هوجاء من الخطط الإنقاذية، دبّرها ورسم تفاصيلها مع كمال. وقد لاحظ، الآن فقط، أن الطابع العسكري يغلب عليها كلها، وأن أغلبها تسوده روح البطولة، أولها اختطاف زينب،

بإرادتها طبعاً، واصطحابها إلى السويداء كي تعيش معه. وسيعيلها بجدارة تليق بمنقذ. ويمكن، إذا لم يستطع اختطافها اليوم، أن يعدّ للسفر إلى لبنان، ويمكن خوض معركة بالأيدي. وفي هذه المرة، سيقاتل دفاعاً عن الإنسان. وإذا كان قد ازدرى موضوع الملكية، فالأمر صار الآن يا حليم، متعلّقاً بروح البشر التي أبدعها الله! وفكر أن يطلب العون من الرب أيضاً، لمصلحة زينب، على الأقل. وفكر أن يلجأ إلى من بقي من الرفاق في المنارة أو الحفائر، لتنفيذ إحدى العمليات الخاصة، والتي قد تشمل إنقاذ نجوى ونجاة ابنتي أخيه. وسيكون دورهم الحماية الرصدية، والتغطية بالأصوات المقلقة.

لكن زينب قالت إنها لن تذهب إلى أي مكان. ويبدو أن ما حدث كان نصيبها من الدنيا. وقد قبلت به برضا، لأنها أيقنت في النهاية، أن الله هو الذي دبّر كل شيء: أن يراها عمار بعين الحب، وأن يُحضر إلى مضافة أبيها عشرين رجلاً لخطبتها. «لأول مرّة حسّيت يا كريم إني مهمّة».

فقال كريم بحماسة: «كل عمرك مهمّة عنّا، أنتِ أمّنا وبيّنا وخيّنا».

فرمقته بحنان، ودسّت أصابعها في شعره، وهمست بصوت مخنوق: «تقبرني!»، ثم مالت نحوه وقالت بمرح: «بعدين بدّك ياني ظل بالبيت. والله ملّيت!... وما بدّك كمان تشوف ولادي؟!».

كان واضحاً أنها قد انحازت إلى قدرها، فأضافت، وهي تمسك يده: «بعرف إنك ما بتحب عمار، بس رندة قالت إنو حنون، وقلبو طيب. ولا تخاف عليّ، أني زينب!»، ثم أخذت نفساً عميقاً وقالت: «اوعدني يا كريم إنك تظل بالمدرسة، وإنك تاخذ البكالوريا السنة. قول: برحمة أمي!».

قال كالعليل: «مثل ما بدِّك».

قالت: «لأ. قول برحمة أمي!».

فقال: «برحمة إمي».

شمّ رائحة عطب، وشعر أن صدره صار ثقيلاً، وخمد جسده كله، فقال: «أني رايح نام».

ولأول مرة، يسمع زينب تقول: «لأ. لا تنام. الصحيح إنك تظل صاحي. اقرا! اكتب! روح مشوار مع بارود! بس لا تنام».

وحين غادر الدار، انهارت في غرفتها. بكت بصمت أولاً، ثم علا نشيجها، وقد استنفدت مخزونها من اصطناع الرضا، ومن الاستعدادات المسبقة لامتصاص غضب كريم، ورميم اندفاعاته التي لا يعرف أحد أين يمكن أن تمضي. فقناعتها كانت أن الأخطار تأتي دائماً من الصامتين، لا من الجعجاعين أمثال حليم. وكانت مستعدة لتقديم أي تضحية، وتنفيذ أي أمر، حتى لو كان يعني إفساد حياتها إلى الأبد، قبل أن تكون سبباً في شجار أخويها، أو في تهديم حجر واحد من جدران بيت عبود الزهر.

وقد أمضت الليل قلقة ومذعورة من الاحتمالات المبهمة؛ فلم تصدّق أنها استطاعت إدارة مشاعر كريم، ولم تصدّق أن حليم تجاهل حضور أخيه دون أن يثير غباراً. وظلت طول الوقت، تراقب حركة سكان البيت، إلى أن انطفأ آخر مصباح.

استيقظت قبل الفجر، وأنجزت شغل البيت، وأعدّت فطور كريم، ثم مضت إلى غرفته، عند شروق الشمس. لكنها لم تجده هناك. كانت رائحته حاضرة فقط. ورغم الخيبة والانقباض الذي بطّن صدرها، فقد خرجت إلى الفناء، وتطلعت إلى السماء، وهتفت تخاطب الله: «كثّر خيرك!»؛ فقد ساهم رحيل كريم المبكر، في تخفيف أعباء مواجهاتها.

الآن، وقد أنجزت مهمتها، شعرت بالبرد. خوى رأسها مثل جراب، إذ لم يبقَ لها أيّ شيء سوى ذلك المجهول الذي ستمضي إليه، وهي

تسأل نفسها: لماذا؟ ومتى تمت صياغة القرار المهلك بأن تكون هي الضحية لأي نذر؟ فقبل ثلاثة أيام فقط، كانت تظن أنها قادرة على قول لا أو نعم، تجاه أي أمر يشغل البيت أو يعني البنات أو يخصّ كريم وأباها ونفسها، إلى أن عرفت كيف تمّت خطوبتها إلى عمار. حينئذ، اكتشفت أنها لم تكن سيدة البيت أبداً، أو سيدة نفسها - كما اعتقدت - وإنما هي مجرد شيء يمكن أن يُهدى، في احتفال قروي، ملفوفاً بالثياب الجميلة، أو شبه عار بثوب أزرق وحيد، ولا يقدّم لها، غير ذلك، سوى إعلام عابر يمرره حليم على أكتاف كلمة «مبروك!» التي قدّمها كحكم قطعي، مضيفاً إليها عبارة أبوية مدبّرة: «يللي صار لصالحك.. وبكرة بتشوفي!» فتتغلغل في جسدها كسمّ، ولا تجد ما تردّ به عليه، سوى تكرار آخر كلمتين: «بكرة منشوف!».

غير أنها الآن، تتذكر أنها لم تكن تجيب أو توافق، بل تهدِّد، دون أن تعرف بماذا تهدد. وقالت إن زينب ستبقى زينب يا كريم. ولكن زينب تريد أن تعرف ماذا ستفعل زينب. يا زينب!

44

آذار 1960

حدّقت إليه لؤلؤة، بوجه عابس، ودمدمت: «وأنت! شو ساويت؟». فقال بوهن: «ما قدرت ساوي شي». وحين لاحظ عينيها الغامقتين المليئتين بالغضب، أضاف: «كل شي كان أقوى مني يا لولو!».

«أقوى منك؟!» صرخت: «ليش؟!». ورأت الكراميلا قربها، على الطاولة، ولم تشتهها، فعرفت أنها باتت على حافة الانفجار. غير أنّ كريم أعاد العبارة، محاولاً أن يضفي على كلماته، نبرة خلاص: «صدقيني ما قدرت. وأمس عرفت إنو كل شي بالسماقيات قوي، وعمرو طويل»، ثم انهار فجأة، ووضع رأسه بين كفيه، وقال: «وأمس عرفت كمان إني عاجز، وما عندي شي قدمو لزينب غير الحكي».

قالت: «ارفع راسك وأنت عَ بتحاكيني».

فرنا إليها بعيني حائر، وقال: «أكثر من هيك. حاسس إنو إيماني بالأشياء تخربط. صرت خايف من هذا كثير، خايف لأني مش شايف أي ضو، يعني ماشي مثل يللي دخل عَ مغارة بالليل وبدّو عمود الذهب، ومش رح يعرفو حتى يطلع النهار. لكني خايف كون بلا حكاية، ولا عمود ذهب كمان، ولا في نهار ولا شي».

«سكوت!» صرخت.

فقال: «خليني احكي!»، ثم أضاف: «أمس شفت إنو هالعالم مش واقف على راسو وبس، لأ، وكمان أضلاعو مفكّكي، وضايعة، العمى يا لؤلؤة! بغمضة عين سرقوا مسعود! مصيبة هالزلمي إنو الله خلقو قوي وبسيط، صار لازم يصير مصارع، كأنو قدر! وبغمضة عين أخذوا زينب. ليش؟ لأنو في زلمي بدّو ياها، وفي زلمي بيقرّر مصيرها! وبغمضة عين ضاع أبو النور. ويمكن يضيع أبو سهيل. لأ، وأكبر الكوارث إنو تكون زينب موافقة. هيك بصير حسن اللوف، وعمار ولقمان صح، وبيصير توفيق الخضرا غلط. مين غلط؟ أمس كنت عند الحوليات العالية. فكرت إنو كل شي آمنت فيه غلط. أفكاري غلط...».

«اسكت! خلص!» صرخت مرة ثانية. ووضعت كفها المفتوحة على فمه، في محاولة لتأكيد قوة النداء. بدت مصعوقة، لا تصدّق ما تسمع. ثم سحبت يدها مخذولة، ونظرت إلى باطن الكف، كأنها تقرأ فيه انطباعات راسخة، وقالت بصوت راعش: «ولك أني حبيتك كثير. وحبيتك أكثر، يوم صرت تحكي عن حالك. حبّيت كل شي عَ بتفكر إنو تعملو. قدّستك يوم عرفت إنك احتقرت حليم. وقلت إنو نقطة دم أغلى من كرم تراب. ولك صحيح».

هذه المرة، كانت كلمة الحب عالية مثل راية، مجسدة ومحسوسة. لها نكهة الأشياء والأفعال، تحاول أن تتسلل إلى المسامات والشقوق. لتزيح شيئاً قديماً ومنتشراً داخل الدم. «محمودة!» انتبه إلى الاسم. تمنى أن يراها الآن، أن تأتي مرة واحدة فقط، ليعرف كيف صارت، وماذا بات يحب فيها. ثم انتبه أيضاً إلى أنها صارت مثل شبح، مثل غلالة، وربما كانت مثل ملاك حارس. ولكن لؤلؤة موجودة هنا، تقدّم له حباً حاضراً، يتنفس ويعيش، ويمكن الإمساك به، وسماع اختلاجاته. ما الذي يفزعه الآن؟!

لؤلؤة كانت تقول: «أني كل الوقت كنت عَ بفكِّر: كريم معو حق يا لؤلؤة. في ناس بياكلو حق ناس. ناس بيظلموا ناس. ناس أغنيا كثير من غير ما يتعبوا، وناس فقرا كثير مع إنهم بيشتغلوا طول النهار! بس شو بدنا نساوي؟ إذا كان فينا نقدر نغيّر العالم، ممكن نقدر نغيّر حياتنا. حياتي أنا إلي أنا. وقلت لحالي: ليش رح تظلّي قاعدة بهالبيت تستنّي؟ لإيمتى؟ وهاي إجا كريم لعندك. ومين بدّك أحلى من كريم! وكريم عَ بيقول إنو بدّو العالم يتغيّر! طيّب! ليش ما تحطّي إيدك بإيدو، وبتصيرو اثنين سوا بدّهم يغيّروا العالم؟!».

انتفض كريم فجأة، وسأل بنبرة حانقة: «شو قصدك؟».

فوضعت يدها فوق يده، وقالت: «تعا نروح! تعا نترك هالبلد ونروح. سوا أنا وأنت. وإذا بدك ناخذ زينب معنا، خليها تجي. مش بدك يتغيّر العالم، أني معكن، تعا نغيِّر حياتنا بالأول، منغيّر حياتنا نحنا، عاجبتك هالحياة شي؟ أني مش عاجبتني! يخرب بيتها ما أبشعها، ومش عارفة كيف بدي عيشها من غيرك يعني من دون ما غيِّرها أني وأنت. تعا نغيِّرها. ناخذ بعضنا ونغيِّرها!».

«لكن أني ما قلت هيك» قال في أول رد خطر له. ثم أدرك أن الوضوح في ردِّه، لم يكن معادلاً للدقة، فأراد أن يصحح أجزاء من النفي الذي أطلقه. لكن لؤلؤة لم تنتظر. شزرته بغضب، ثم سألت: «ما قلت هيك؟! يعني كنت عَ بتضحك عليّ؟ يعني ما في حدا بدو يغيّر العالم؟ وما في حدا بدو يمنع الظلم والقهر؟ وما بعرف شو!».

«لأ! في طبعاً» أسرع كريم يقول.

«إذاً شو قلت أنت غير هيك؟ يعني أني سمعت شي بالمقلوب؟».

قال كريم، وهو يبتسم لاسترضائها: «شوفي يا لؤلؤة. نحنا بدنا نغيّر،

ونثور. إي صحيح. بدنا ثورة نقوم فيها كلنا. إي. لكن أنا وأنت مش راح نغيّر أي شي. يعني الحل الفردي...».

«خلص!» نهرته بعنف: «لا تقول لي كلمات من الكتب!».

«يا لؤلؤة!».

«كريم!» قاطعته: «إنت بتحبّني ولّا ما بتحبني؟».

«اسمعيني بس».

«مش هذا هو الجواب».

«يا لولو!» قال مستخدماً اسم الدلع، في محاولة لاستعادة خسائره. غير أنها تجاهلته، وبدأت تعبث بطرف الستارة، ثم قالت: «كريم أنا عندي شغل كثير. صار لازم تروح!»، ووقفت، ثم مدّت يدها نحوه: «تصبح على خير!». فصافحها مرغماً، وقال: «وأنت بخير».

من كتاب السفر

آذار 1960

كان التأويل المباشر للخطوة التي أقدمت عليها زينب، هو أنها نفّذتها لأسباب كيدية محض، غايتها الانتقام من حليم أخيها. لكنهم لا يعرفون زينب. فامرأة مثلها، لا تزعزعها المفاجآت، مهما كانت قوية، ولا يدفعها أي فعل مؤذٍ إلى رغبات الثأر. ففي رأيها، أن الانتقام ردٌّ فظّ يلوِّث الروح المنتقمة، بأوساخ يصعب غسلها، أكثر مما يدمر الضحية. والمشكلة أنني لم أجد أحداً بين من تحدّثت معهم، عن دوافع زينب، استطاع أن يقبل تفسيري. فما قامت به، إنما كان نوعاً من رد الاعتبار الإنساني، من قبل امرأة قدّرت أنها لم تخسر كل شيء شخصي وحميميّ، يمسّها وحدها، في المعركة السريعة الحاسمة، وإنما انتابها الفزع من أن تكون ابنتا أخيها قد تُركتا في المجهول المفتوح على احتمالات مريعة!

أول تلك الاحتمالات هو أن يتزوج حليم. وهذا يعني أن المرأة الجديدة القادمة التي سترث البيت، سوف تتولى أيضاً، تربية نجوى ونجاة. ولكن سيرة الخالات وزوجات الآباء، في التفكير الشعبي، تمتلئ بتفاصيل عن قهر أولاد الزوج، وضربهم وتعذيبهم. وهي تفاصيل مستمدة من الوقائع الحقيقية، مضافاً إليها توابل من المبالغات، جعلت زينب هلعة، يحرقها

عذاب ضمير من أن تكون، في أعماقها، قد أرادت التخلص من أعباء تلك المسؤولية التي لم تقتصر على تربية البنتين فقط، وإنما الاضطرار لخوض معركة ضد آراء حليم، من جهة، أو قبول تنازلات يفرضها بسلطة الأب، من جهة ثانية. أرّقها أيضاً، أن حليم بدأ يظهر نفوراً مبكراً من حضور نجوى ونجاة. وحاول أن يفرض عليهما، ارتداء زيٍّ خاص يحجبهما عن العالم، فلا يظهر من كل واحدة منهما، سوى عينين متسائلتين.

وهكذا، فإن حليم وجد، عندما عاد من خلوات الزير بعد غياب عشرة أيام، أن ابنتيه صارتا بعيدتين عنه، مسافة خمسمئة كيلو متر، راقدتين، حتماً، في حضن أمّهما.

كأنه لم يصدِّق أخته، وهو يسمعها تردّد أمامه، أنها سفّرتهما إلى لبنان. كانا في الغرفة وحدهما، فشدّها من ياقة قميصها، وصرخ: «قولي مرة ثانية!»، فتأملت أصابعه الثخينة، ثم رفعت بصرها نحوه، وشهقت الهواء، وقالت: «مثل ما سمعت... البنات صاروا عند خيرية». فشدّ قبضته على عنقها، وسحبها خلفه، خارج الغرفة، وهو يزعق: «يا عبود! يا عبود!».

لم تستطع زينب أن تتوازن، وتعثرت، لسوء حظها، بسطل ماء كان في طريقها، فوقعت على الأرض، وتأوهت حين صدمها حجر ناتئ في الفناء. ثار غبار. وسمعت صوت صلصلة الحصى تحت جسدها.

لم يكن والدهما في البيت. وبدلاً منه جاء الجيران يستطلعون ضجة الصراخ المجنون. وحين رآهم، انهال على أخته، بالضرب. رفسها في جنبها، وداس على رأسها، وكتفيها، كأنما كان يحتاج إلى شهود على ذلك. وبسبب الغضب الأعمى، كما قال في ما بعد، وهو يعتذر لرجال الدين، بدأ يشتمها، مستخدماً بذاءات محرَّمة في إيمانه: «يا شرموطة! يا قحبة! يا كلبة! كـ... أمك! خرى على بيِّك!». وحين تمكّن ابراهيم شمس الذي

كان أول الواصلين من الإمساك به، بدأ يسبّه أيضاً: «اتركني يا كلب! يا ابن الشرموطة!».

لقد قال بعدئذ، إن الشيطان هو الذي كان يقود خطاه، ولسانه (اعتذار شائع ومبتذل يلجأ إليه الخطاة والمجرمون وأصحاب الضمائر المزوّرة، وغيرهم، لتسويغ أعمالهم المشينة، أو الدفاع عن أنفسهم). لكن حليم لم يذكر كلمة واحدة عن ملائكة الله، أو عن لطائف رحمته. وقد شاهد النساء يحملن زينب محطّمة ومدماة. لم يذكر ذلك، في تلك اللحظة، ولا في الأيام التالية التي أمضاها يعتذر من سايس البلد، الشيخ أبو أحمد، عن «الحماقات» التي رددها ضد أخته. كان السايس وأركان المجلس، من كبار رجال الدين، قد قرروا إبعاده عن الدين، لمدة شهر، بسبب الشتائم التي نطق بها.

لم يكن شخص مثل حليم، قادراً على تقبّل قرار ديني مثل هذا القرار. وبدا الإبعاد أكثر قسوة على نفسه، من سفر ابنتيه! واعتقد أنه وجد سفرهما حلاً معقولاً ومريحاً، يجنِّبه مشقّة العناية بهما، أو تدبير شؤون حياتهما وصلاتهما بالمرأة الجديدة التي كان قد اختارها بالفعل، في رحلاته إلى خلوات الزير. وسرعان ما تحوّل اضطرابه من الإبعاد، إلى ذعر، حين استيقظ في إحدى الليالي، وهو يظن أنه سيموت. لم يكن بوسعه، أن يتخيّل أن جنازته ستكون خالية من شهادات الرحمة الأرضية التي قدّر أن رجال الدين سيمتنعون عن قولها، إذا ما مات، مبعَداً عن صفوفهم. ولن يجرؤ أي رجل آخر ممن ما يزالون في سلك الجهّال، على قول: «الله يرحمه»، عدا أن شهادتهم وأقوالهم لا وزن لها في أعراف الموت. فتقاليد الجنازة تقتضي أن تكون الرحمة صادرة عن مرجع ديني موثوق به.

منذ تلك اللحظة، نذر وقته كله، من أجل تقديم الأدلة والبراهين على

رغبته في الاعتذار عن فواحش اللسان التي انزلق إليها، في لحظة غضب، وطلب الغفران والتسامح من مرجع السماقيات الديني.

في البداية، ظلَّ في غرفته، يقرأ طوال الوقت، أحد الكتب المقدسة، ويتناول قدراً يسيراً من الطعام الذي تقدّمه له أخته الجريحة زينب (تخيّلوا! زينب نفسها!)، ويشرب قليلاً من الماء، ويُعطّن الخبز، ويقهر مشاعره. ثم ذهب في يوم الجمعة، إلى المجلس، ففرش طرّاحة صغيرة أمام بابه الخشبي القديم، وتابع القراءة في الكتاب، محاولاً أن يمحو الكلمات الملوّثة التي وجهها لأخته، بالعبادة والكلمات المقدسة معاً.

هناك، بدا مثل متصوّف، ابيضّ وجهه، وطالت لحيته، لحية شوكية سوداء، لحية عزلة. وارتدى أسمال فقراء، محقّراً نفسه، على مرأى من جميع سكان السماقيات.

الغريب أنه كسب تعاطفاً عاماً من الناس، تعاطفاً تحوّل بعد أيام، إلى قوة ضغط أوقعت انقساماً بين رجال الدين. قسم منهم أيّد العفو السريع، خوفاً من بعض الألسنة التي بدأت تكشط لحاء الحاضر، لتكشف نخر الماضي الخاص بأيٍّ منهم. وقسم منهم ناصر التسامح، لأن الإنسان خطّاء، وأن الله نفسه غفور رحيم. ولكنهم، رغم ذلك، لم يقرروا إلغاء الإبعاد، إلّا بعد مرور عشرة أيام، كان حليم خلالها، قد قرأ بصوت جهوري، أمام التجمّعات الصغيرة التي كانت تأتي لزيارته، جميع رسائل حمزة، وكتاب مواعظ ذي النون المصري، وقسماً من شرح الأمير السيّد. وبدا كأنّ قعوده التكفيري قد تحوّل إلى مذهب استقصائي للدين.

أما زينب، فقد نسيت ما حدث، وتغلّبت على جراحها وكدماتها. ثم تمكّنت من استعادة قوّتها الروحية، فسخرت من رقاد حليم المخادع، مع أنها تابعت تقديم الضروريات الحياتية له. وما عجزت عن فهمه، هو

السؤال المرير عن موقف الناس الذين تجاهلوا إهانتها كإنسان، كآدمي، كمخلوق لله، وغضبوا لإهانة لغة في مفردات أخيها!

في الوقت نفسه، رفضت أن تشي بمكان وجود البنتين في لبنان، إذ إنّ خيريه نفسها، اختفت من حي الوطا، حيث يتجمع أبناء السماقيات والمنارة والصخرات. ربما كان حسن اللوف، هو الوحيد الذي يعرف المكان الذي فرّت إليه. غير أن الأمر لم يكن يستأهل ذلك كله. فما إن فكّ المشايخ قرار إبعاد حليم، حتى بدا كأنه وُلد من جديد. نسي ابنتيه، ولم يذكرهما أمام زينب. وصالح أخته، دون أن يعتذر إليها، مكتفياً بالمحادثات اليومية المعتادة. وقلّت مطالبه البيتية إلى حدود النسك. وظنّ كثيرون أنه يموت فعلاً.

عبود الزهر، ظلَّ المبعد الوحيد عن الأحداث. ولأن زينب وحليم، رفضا أن يفسرا ما حدث، فقد طلب من جميع زبائنه الذين رغبوا في الثرثرة معه، أثناء جلسات الحلاقة، ألا يذكروا أي شيء عن معركتهما. وقال لي مرة: «إذا تركتهم يتحدثون فإنني سأسمع كل يوم، حكاية جديدة محزنة عن شيء يخصني، وأشعر بالعار تجاهه».

كان هذا هو شعوره بالضبط؛ فقد خذله أولاده كلهم. ولم يكن راضياً عن حليم أبداً، بالقدر نفسه الذي رأى فيه أنّ زينب متآمرة وضيعة، تقبل أن تتواطأ مع حسن اللوف، كي تثأر من أخ ظالم.

أظن أنه لو كان بوسع عبود أن يرحل لفعل. غير أن كتاب السفر أُغلق دونه.

45

نيسان 1960

الكلمة الوحيدة التي استطاعت لوزية أن تقولها، وهي ترى إلى نعش مسعود، يستقر فوق ظهر السيارة اللاندروفر الحمراء، ليرحل باتجاه سورية هي: «يا حيف!». لم يعرف أحد ممن سمعها، إن كانت الكلمة تعبيراً عن الخيبة، أم كانت تعبيراً عن الحزن والقنوط والأسى!

وحين تحركت السيارة من كراج البرج، لم تلتفت إلى الوراء، نحو أيٍّ من الرجال أو النساء أو الشبان أو البنات من مهاجري السماقيات الذين جاؤوا لوداع الجثمان والأرملة الخاسرة معاً. وبدل ذلك دفنت رأسها ووجهها بوشاح أسود، لتمنع، عن عينيها، رؤية أي مكان من تلك الأمكنة التي تجوّلت فيها، شارعاً بعد آخر، برفقة مسعود، وهي تهتف، كلما رأت بناء عالياً أو ساحة مزيّنة بالأشجار والورد، أو شارعاً مزدحماً بالبشر والسيارات: «شوف! شوف!»، وتقول له إنّ القرى مثل القبور لا ترشّح البشر الذين يعيشون فيها إلا للحظة الموت. أما المدن فهي الأمكنة الوحيدة التي ينسى الإنسان فيها، موضوع نهايته، ويعود إلى نفسه، ويفرح، ولا يفكر في المساء، ماذا سيفعل في الغد، لأنه سيكون مشغولاً بما فعل في يومه نفسه. لم يكن مسعود يجيبها. ولكنها كانت متأكدة من أنه كان

سعيداً. فالعمل كان مضموناً قبل أن يصلا. وقد صار ناطور بناية محترفاً، منذ اليوم الأول. ووجدا شقة صغيرة مفروشة بأثاث بسيط ونظيف، في الدور الأرضي. أما المهمات التي كان سكان البناية يكلّفونه بها، في البداية، فقد استطاعت لوزية أن تنفّذها دون صعوبات، باستثناء المشاوير البعيدة، أو الأغراض الثقيلة. كانت تعرف أنه جاء مرغماً، وأن المكان لم يرُقْ له كثيراً. وقد ظنت أن السبب هو افتقاره للإحساس بجمال هذا العالم الجديد من حوله، إضافة إلى ارتباكه، تجاه موضوع المصارعة.

لم يكن الخوف هو السبب قطعاً، ولا ضعضعة قوته، وإنما نوع من الخمول العرضي الذي يدفعه لهجاء أي عنف أو شجار. ففي رأيه، أن الناس يستطيعون حلّ مشاكلهم بالكلام. أما اللجوء إلى الأيدي، فهو بلاهة حيوانية لا أكثر.

حسن اللوف الجالس وراءها تماماً، في المقعد الثاني من السيارة، كان يقول إن شخصاً له مثل جسد مسعود، يرغم أي خصم على القبول بحلول الكلمات. ومن المنطقي، أن يظن بأن من الممكن، حل مشاكل البشر جميعهم، بهذه الطريقة السلمية.

رفضت فكرة حسن، وقالت إن مسعود كان يتصرف دائماً بهذه الطريقة. وقالت: «مسعود إنسان طيب يا حسن. جوّا قلبو في ريحة طيبة. وفي ميّ دافية». حسن قال: «صحيح، ما قلت غير هيك.. بس بكرة بتشوفي.. رح يتعلّم إنو ذراعو أهم من لسانو بكثير.. استني إنتِ!».

لم تكن متلهفة لذلك أبداً. وإذا كانت قد استطاعت أن تخفي دوافعها الحقيقية عن الجميع، طوال الوقت (إذ لم يكن ممكناً أن يفهم أي شخص أنها كانت تهوى المدن)، فقد اختلقت فكرة المصارعة، وروّجت لها، وأغرت حسن اللوف بها، لتتمكن من إقناعه بتدبير أحوال السفر، إلى أمّ المدن في الشرق: بيروت. كان الاسم نفسه يثير شعوراً غريباً يشبه اللذة،

دون أن يكون في هذا، إقصاء للفظ المدينة ذاته. فترتيب الحروف في الكلمة، واجتماعها الأنيق الفخم، ظلّا يبعثان نشوة غامضة في أعماقها، منذ الطفولة. وحين زارت السويداء، أول مرة، ذُهلت بعد أن نزلت من السيارة التي أقلّتها مع والدها، في اللحظة التي رأت فيها السوق الطويل، ذا الانحناءة الخفيفة، والساحة الممتلئة، والسيارات التي تجوب الأمكنة، وأصوات باعة الخضار والفواكة، وصراخ العتّالين، وضجيج الناس الذاهبين والآتين، في كل مكان. لكن شقيقها مطّ شفته السفلى ازدراء، وقال إنه رأى مدناً أخرى، أكبر من هذه. ربما ذكر دمشق أو حلب أو حمص، لا تذكر. ولكن اسم بيروت وحده ظلَّ أليفاً يأتي إلى أحلامها، كفردوس أو كخرافة.

وحين وصلت إلى أطرافها قبل أشهر، شهقت معجبة. كانت المدينة أكثر جمالاً من التخيّلات. أعجوبة تفوح منها رائحة بحر وبشر، فأيقظت مسعود: «قوم شوف! قوم!»، فأفاق ونظر إلى الشوارع الخالية (وصلوا في الصباح الباكر) وسألها: «شو عاجبك؟». عرفت أنه يسأل ليشاركها. فقالت: «كل شي!».

«كل شي بأي شي؟» سأل ببلاهة.

فقالت بحماسة: «ولك البنايات والشوارع والساحات والسيارات الواقفة والماشية، والناس والشجر والألوان. كل شي». ثم أمسكت خده بلطف، وأدارت وجهه نحو الفضاء، وقالت: «طلّع مليح! شوف! بس شوف بحب». لا يهم أنه لم يفعل، لأنها تعرف كيف تجعله يحب ما تريد. فدرس رندة الذي أفادها في قرار السفر، سوف يفيدها دائماً، في تأهيل مسعود، تجاه التفاصيل الأخرى. وهو ما فعلته وفق المتطلبات المتلاحقة.

لا تنكر أنها كانت تتعب في البداية، بسبب اضطرارها لتشغيل جسدها وجسد مسعود معاً، في جماع معدّ من أجل الأغراض اليومية، لا من أجل

المتعة. غير أن التمرين المتواصل، أضاف إلى طاقة مسعود، التي كانت مثل طاقة ثور، خبرة الألعاب. وقد تسبب هذا في خسارة بعض الميول أو المطالب، وربح بعض اللذة. ابتسمت للمفارقة الماهرة التي بدت لها حصافة حظ.

وفي جميع الأحوال، لم تخسر شيئاً. وقد اتضح لها بعد ذلك، أن توقعاتها لم تخب. رأت كيف تأقلم مسعود مع المناخ الجديد، خاصة حين بدأ تدريباته على الحلبة، على يد معلّم مصارعة اسمه زهدي.

«طيّب» قالت لنفسها، ما يهمّ هو النتائج لا الوسائل؛ فزهدي استطاع أن ينظّم وقت مسعود ومزاجه. غير أن التدريبات لم تكن كافية، فخسر في المباراة الأولى التي خاضها، ضد مصارع إفريقي كان يركض كالشيطان، على الحلبة. لم تغلب القوة، المهارة. وفي ما بعد، سمعت أن المصارع الإفريقي قال إنه يشكّ فيما إذا كانت قبضتا مسعود من لحم وعظام، وإنه لم يتلقّ في حياته، لكمات أكثر قوة. فطلبت من مسعود، أن يأخذها إلى الشاطئ. سهرا أمام الروشة، وأكلا البوشار، وتعشّيا في مطعم اسمه «جورج»، ثم عادا مشياً.

وفي المباراة الثانية، هُزم أيضاً. كان خصمه مثل هرّ، يتفادى الضربات، ويفلت من يدي مسعود، ويراوغ. «كأنو من الزيت» قال مسعود، وهو حزين وغاضب بسبب سقوطه المباغت، وعجزه عن الحركة، خلال الثواني العشر التي قررت النتيجة. «ما عرفت شو بدي ساوي يا لوزية. حسيت إني مليت، وإنو هالشغلة كلها سخيفة، وما إلها طعم». ثم رنا إليها بحبّ، وقال: «الله يخليك! ليش ما بظل ناطور بناية وبس؟». فقالت: «مثل ما بدّك». وأمسكت يده الضخمة بيديها الصغيرتين، وقالت: «ولك يقصف عمري!». فنظر إليها برعب، وقال: «لأ، لا تقولي هيك! سلامتك!». ومضى بعد يوم، إلى زهدي، وقال: «درّبني!». وصار يمضي كل يوم،

ست ساعات، فوق الحلبة. ويأتي إلى البيت منهكاً. ينام ساعة، ثم يسأل عن طلبات سكان البناية، ويلبي ما لم تستطع أن تلبيه هي. بدا راضياً جداً، واستطاع أن يفوز على مصارع اسمه «النمر» في الجولة الخامسة. غير أن الانتصار لم يتكرر، بعد ذلك. وفي كل يوم جمعة، كانت تقام المباريات، يذهب مسعود إلى هناك ملولاً، متعباً، ويصعد إلى الحلبة بغير حماسة، يتطلع إليها، ويبتسم، ثم يقاتل. كان يقاتل بشرف. وهذا ما تعرفه، ولكنه لم يستطع أبداً أن يتعلّم فنون تلك اللعبة. وأكثر من مرة، قال لها إنه يريد أن يعود إلى السماقيات. ولكن زهدي كان يقول إنّ الموضوع كله لا يحتاج إلّا للصبر. كان واثقاً من قوة مسعود، وواثقاً بالقدر نفسه، من نفسه، ومن قدرته على تلقينه فنه المحبوب. وبسبب تلك المفردات المشجعة، وربما بسبب ميله إلى مدرّبه، والمؤكد أنه بسبب حبه لها، زاد مسعود من ساعات التدريب. صار يأتي إلى البيت متأخراً. يتناول وجبته المقررة، ثم ينام.

لكنها ما كانت تريد هذا. وقالت إنّ الحياة صارت صعبة، وإنها لا تختلف عن حياة السماقيات في أي شيء. قالت إنها تريد أن تخرج، وتشم الهواء، فقال: «طيّب».

ما لم تعرفه إلا في وقت متأخر، أنّ مسعود كان وقّع عقداً مع إحدى الصالات، برعاية زهدي نفسه، تلزمه بالمشاركة في المباريات التي تقيمها، والرضا بالنتائج، كما تقررها الإدارة، وهناك إجراءات عقابية تمس أي طرف يخلّ بأي بند من بنوده، فصارت هزائمه وانتصاراته، أوقاته ومزاجه، رهناً بإرادة شخص مجهول لم يعرفه أبداً. وصار البيت سجناً لها. كأنما عادت إلى زمن القرى. وصارت المدينة بعيدة وواهية، فصرخت مرة في وجهه: «مش عارفة ليش عايشة هون؟ هذا بيت ولّا سجن. هذي مدينة ولّا مدخل بناية ولّا موت؟!».

ظلَّ ينظر إليها، تلك النظرة البلهاء الفارغة التي تجعلها على وشك

البكاء، ويقف تلك الوقفة المخذولة المستسلمة التي تعني أنه مستعد لعمل أي شيء من البداية. تلك اللحظة، شعرت أنها لا تحبه، وهمست: «سامحني يا الله!». فخنوعه العجيب صار يجعلها كالمجنونة، تعجز عن معرفة ما تريد، وإذا طلبت أي شيء، لا تجد أمامها سوى كلمة «طيّب» المقدسة!

من قبل، كان يعدِّل مساره، وفق رغباتها. لكنه الآن لم يعد يستطيع ذلك؛ فالتدريبات متواصلة، وحفلات المصارعة كانت تتكرر باستمرار، وتتكرر معها هزائمه. مرة واحدة فاز في مباراة تافهة، لكنه لم يفرح. شيء ما كالعلقة، كان يمتصّ وجوده، إلى أن جاء مرة، ووقف أمامها وصرخ: «طلّعي! شوفي! مش حرام هذا ينهزم؟!». فتطلعت إليه، وقالت: «تعال!» ثم خلعت ثيابها، فأغمض عينيه وقال: «من زمان ما عملت هيك!».

كان قد مضى أكثر من شهر، دون أن تنام معه، كما اعتادت، فهمست: «اشلح!» فتعرّى ووقف أمامها، يتباهى بأقواس قوته. وتمشى، وهو يرقص. تذكّرت منظره: كان كتمثال، بعضو فاره منتفخ، وذراعين تفتقهما الشرايين، وصدر عريض مدجج بلحم مقاتل، وفخذين طويلين مشعرين. تلك الليلة، ضخّ ماؤها مثل بئر. وحين بدأ يرهز، همست: «اسمع!»، كان هناك صوت خفق إيقاعي ناعم. فتمهل دون أن يتوقف، ماضياً في شغل هادئ جديد جعلها حية وممتلئة، كما لم يحدث من قبل.

في الصباح، قال إنه لن يصارع، وقال: «أني عَ بصارع منشانك! فإذا كانت المصارعة بدها تخليك تعيسة، يلعن أبوها!».

وبسبب الحب أو الخيلاء (لا تعرف)، لم تقل أي كلمة. لقد خسرت بالفعل، ولم تعرف ما إن كان عليها أن تكون سعيدة أم تعيسة، ولكن صدرها ضيق، حديدي، غامض، يجعلها بلا مشاعر.

زهدي رفض قبول الاستقالة، وصرخ: «بدّك تخرب بيتي؟ بدّك

تموّتني؟». وحين أبدى مسعود لامبالاته تجاه ذلك، حاول زهدي أن يتذلل له، وعرض عليه رحلات إلى أوروبا أو إلى إفريقيا. لكنها كانت تعرف أن صمت مسعود يعني رفضه. إذ ليس بوسع أحد، أن يلوي قراره، خاصة إذا كان راسخاً. فكرت الآن أنه ثبته بفضل الحب والملل: حبه لها، وضجره من تلك الألعاب التافهة.

وسرعان ما انضم حسن اللوف نفسه إلى زهدي. وأوضح، بلا مواربة، أن انسحاب مسعود قد يؤدي إلى السجن. لم تجرؤ على الكلام. وظلَّ مسعود صامتاً، يدع الكلمات تمر به كالذباب، ينظر إلى الوعود والتهديدات، مثلما ينظر إلى تراب، بوجه محايد، وعينين فارغتين.

فجأة، التفت نحو حسن وزهدي وقال: «ألعب بشروطي!». لم يكن ذلك صوته. بدا كأن الكلمتين جاءتا من عالم آخر، أو من مخلوق لا تعرفه أبداً. قال زهدي، بلا تردد: «العب!!»، ثم نهض وقال: «تعا بكرة عَ النادي!». أما حسن فقال بعد مغادرة زهدي: «العب رياضة يا ولد! ولا تلعب بالنار!».

كانت سيارة الموت، في نقطة الحدود اللبنانية. أنهى حسن الأوراق، ثم عاد، فشكرته. قال: «واجبي» وكرر الكلمة مرة ثانية، في نقطة الحدود السورية.

ما تعرفه أنه لم يلعب بالنار. كل ما فعله أنه سجّل ثلاثة انتصارات متتالية. وما تذكره، يبدو لها غريباً الآن؛ فقد بدا زهدي غاضباً، وشحب وجهه حين حادث رجلاً غريباً قرب الحلبة، ولم يهنئ مسعوداً أبداً، وأدار لهما ظهره حين مرّا قربه.

تلك الليلة؛ أخذها إلى شوارع بيروت. كان سعيداً. وحكى عن كل شيء. وقال لها إنه اشتاق للسماقيات، ولكريم، ولبارود أيضاً، وإنهما سيذهبان إلى هناك، في إجازة.

وها قد جاءا. امرأة، ونعش خشبي محمول على شبك سيارة. عادت بموت غامض، لن تستطيع أن تفسره لأحد. إذ كيف يمكن أن يكون مسعود، قد رمى نفسه في مصعد بناية؟ أو - ما لن يصدّقه أحد - كيف تمكّن قاتله من رميه هناك؟ فالجميع يعرفون أنه كان عصيّاً على الموت المدبّر! كيف يمكنها أن تتحدّث عن قاتل لا تعرفه؟ ولا شك أنهم لن يصدّقوا تقرير الشرطة اللبنانية الذي اختصر حياة مقاتل السماقيات، إلى كلمة واحدة: «انتحار!». وفي محفظتها، قصاصة جريدة كتب فيها: «انتحار مصارع سوري في فتحة مصعد!». يلي ذلك، صورته، مهزوماً على أطراف حلبة المصارعة، يظهر فيها كأنه مهزوم أبديّ موشك على موت لا مفر منه. «ليش؟» قالت لنفسها، فيما كانت تنطلق على الطريق الترابية الأخيرة، باتجاه السماقيات.

«يلّله ماش»

قصة: فيصل الخضرا

كان يا ما كان في قديم الزمان، كان في امرأة دلوعة، وجميلة. مثل القمر، كانت تحب الدنيا، وتريد أن تعيش مثلما تعيش الأميرات. وكان زوجها يحبها كثيراً، وكان يقول لها: يا روحي! يا عيني! ويقول إنها إذا طلبت لبن العصفور، فسوف يحضره لها. وذات يوم، حبلت الزوجة وبدأت تتوحم، واشتهت ثمرة يقال لها «ماش!». كانت الثمرة لذيذة الطعم جداً، وجاءت إليها في المنام، وصار ماء مثل العسل يقطر من قشرتها. فقالت في الصباح لزوجها: أشتهي يا حبيبي أن تحضر لي فاكهة الماش. كان لا يعرف ما هو الماش، فذكرت له اسم مدينة صغيرة تقع في شمال بلاد السند. وقالت: إذا كنت تحبني أحضر لي ثمر الماش، فقال أحبك وأمري لله. ثم سافر نحو بلاد السند ولكنه نسي اسم الثمرة، بعد مسيرة يوم، فرجع إلى البيت، وقال: نسيت اسم الثمرة. فزعلت منه زوجته وقالت: يا غشيم، امشِ وردد دائماً: يلله ماش! يلله ماش! فسافر الرجل ومرَّ بصيادين يصيدون السمك، عند نهر عظيم. وكانوا يتراهنون: من منهم يصيد سمكاً أكثر من الآخرين. فسمعوه يقول: يلله ماش! يلله ماش! فظنوا أنه يسخر منهم، ويدعو عليهم، وقاموا إليه، وضربوه، فقال المسكين: ماذا أقول إذاً؟ قالوا: قل «يلله ستة سبعة كبار! يلله ستة سبعة زغار». فمشى يردد هذه العبارة، إلى أن التقى

بجماعة يحملون نعشاً، وهو يكرر قوله يلله ستة سبعة كبار! يلله ستة سبعة زغار! فظنوا أنه يرجو الله أن يفنيهم كلهم، فجاء إليه جماعة منهم، وضربوه، فقال: ماذا أقول إذاً؟ قالوا: قل «رحمة الله تنزل عليه». فواصل طريقه، وهو يردد الدعاء، فالتقى ناساً يغنون ويرقصون لزواج شاب، جميل، بهي الطلعة، يرتدي ثياباً فاخرة، ويركب حصاناً أبيض. وسمعوه، وهو يقول: رحمة الله تنزل عليه! رحمة الله تنزل عليه! فلحق به الشبان المغنون، وضربوه، وقالوا له: لا تقل هذا. فقال: ماذا أقول إذاً؟ قالوا: قل «تصلح لي! تليق لك!». فتابع طريقه، وهو يكرر هذه العبارة، إلى أن التقى بخيّال أعور يمتطي بغلة عوراء. فلما سمعه الرجل يقول ذلك، ترجّل، وضربه وقال: لا تقل هذا! فقال: ماذا أقول إذاً؟ قال: قل «تاكل وتشرب من تحتك»، لأن الرجل الأعور كان بائعاً متجوّلاً. فواصل طريقه، وهو يردد: تاكل وتشرب من تحتك. فمرَّ برجل يقضي حاجته، فظنّ الرجل أنه يسخر منه، فلحق به وضربه، وقال: لا تقل هذا. قال: ماذا أقول إذاً؟ قال: قل «تفو هالريحة! تفو هالمنظر!»، فمشى، وهو يردد العبارة، فمرَّ بسرب من البنات المتعطرات، وظلَّ يقول: تفو هالريحة! تفو هالمنظر! فغضبت البنات منه، ولحقن به، وضربنه. فقال: ماذا أقول إذاً؟ قلن: قل «آخ ما أطيبها! آخ ما أحلاها!»، فواصل الرجل طريقه، إلى أن التقى رجلين يتعاركان، فكان إذا رأى الأول يلكم الثاني، قال: آخ ما أطيبها! وإذا رأى الثاني يضرب الأول قال: آخ ما أحلاها! فظنّ الرجلان أنه يسخر منهما، فتعاونا عليه، وضرباه. فقال: ماذا أقول إذاً؟ قالا: قل «إخوانكم الشرفا، يفكّون بينكم!»، فمشى، وهو يردد العبارة، فرأى كلبين مشتبكين في عراك، داخل حلقة يحيط بها الناس، وسمعوه وهو يردد: إخوانكم الشرفا، يفكون بينكم! فلحق به جماعة منهم وضربوه. قال: ماذا أقول إذاً؟ قالوا: قل «وِشْتْ وِشْتْ طلعْ برّه!» فمشى، وهو يردد العبارة، حتى وصل إلى مدينة صغيرة، ومرَّ

بإسكافي يشد قطعة من الجلد بأسنانه، فسمعه، وهو يقول: وشت وشت طلع برّه! فترك الإسكافي شغله، ولحق به وضربه وقال: لا تقل هذا. قال: ماذا أقول إذاً؟ قال: قل «شدّها ومطّها بتصير نعل للمداس». فمشى يكرر العبارة، فالتقى برجل يمشّط لحيته، وظلَّ يردد: شدها ومطها بتصير نعل للمداس. فخرج إليه أبناء الرجل، وضربوه، وقالوا: لا تقل هذا! قال: ماذا أقول إذاً؟ وكان بينهم شاب عاقل سأله ماذا يريد، فشرح له أسباب رحلته، ونسي اسم الفاكهة التي تريدها زوجته. قال الشاب: لا تقل أي شيء إذاً. بل قل: يلله ماش! يلله ماش! فحمد ربه، وعاد إلى بلده، ووصل إلى بيته، وهو يردد: يلله ماش! يلله ماش!

من كتاب السفر

نيسان 1960

ما صرّحت به صفصافة، كان منطقياً، كذريعة للرحيل. فبعد كل هذه السنوات من العلاج، لم يبدُ على نازي، أي تحسّن. وقد عجز الأطباء عن اللحاق بذلك الحيوان البدائي الذي التصق بجذر أمعائه، ولم يتمكنوا من الوصول إلى رأسه الشره الذي كان يمتص دمه، ويحيل جسده إلى خواء عظمي محض.

هذه هي ذريعتها. غير أن الحقيقة كانت في مكان آخر؛ إذ إنّ هذه المرأة المخذولة ظلت طوال تلك السنوات لا تنتظر شفاء ابنها وحسب، بل أن تتمكن من طيّ هذه الحياة القاتمة المريرة التي أُرغمت على تجرّعها يوماً بعد يوم، منذ أن سافر صبحي حطاب، مهاجراً.

في البداية، كان يواظب على إرسال مبالغ ضئيلة، كانت تكفي لتناول القوت الضروري وحده، بضعة أشهر. ثم توقف فجأة، عن إرسال المعونات، ولم يعد يرسل رسائل. لاذ صبحي بالصمت واختفى - لا من دوائر البريد وحده - بل من صفحات رسائل المهاجرين الآخرين الذين كانوا قد سبقوه أو رافقوه أو سافروا بعده. وعجزت صفصافة عن التقاط

إشارة تدل على وجوده أو على مصيره. وراح كل من سألته، عبر رسائل الأهل هنا، من المهاجرين، يردد كلمة واحدة هي: لا نعرف.

بعد عام، صار صبحي ذكرى. وصارت صفصافة تقول إنه ضاع. وفي رأيها، أن الرجال لا يضيعون إلا بسبب أحد أمرين: أن يكونوا قد قُتلوا (وفي القتل، يمكن أن تختفي الجثة)، أو تزوجوا امرأة أخرى. وفي كلا الحالتين، ليس على الزوجات (وهنّ اللواتي يقبعن في متاهات الانتظار، عادة) إلا أن يغلقن خطوط الأخبار والاستفسارات، إذ سيكون مستحيلاً، أن يعود رجالهن إليهن.

أولادها الكبار كانوا قد سافروا أيضاً. ذهب رومل إلى نيجيريا. وسافر هتلر إلى الأرجنتين. أما ابنتاها، فقد أخذتا ترسلان لها، بين وقت وآخر، بضع مساعدات، كانت تعينها على البقاء، وشراء الدواء أو الأفلام لنازي.

وباستثناء اليأس، فإن صفصافة لن تتّبع التقليد النسوي المعتاد الذي كان يبقي على صلة ما روحية - على الأقل - بالزوج المختفي (القتيل أو الهارب). لا، صفصافة قطعت كل صلة بصبحي، فأوقفت أسئلة الاطمئنان التي كان يزجيها متعاطفون أو فضوليون، وأحرقت رسائل الغربة، وتبرّعت بما تبقى من ملابس له، لفقراء من السماقيات. ولو كان بوسعها - كما قالت لي - أن تنتزع اسمه من كنية ابنها، لفعلت. ثم ذهبت سراً إلى القضاء المذهبي، لتسأل ماذا تستطيع أن تفعل. وهناك قال لها القاضي إنه لا يمكن تقديم مساعدة من أي نوع لها، في هذا الشأن.

تفكيرها انصرف إلى أن صبحي قد تزوج هناك، أو صاحب امرأة، بعد أن صار الناس هنا، يتداولون حكايات عن النساء اللواتي يستطعن العيش في أحضان رجل، دون أن يعقد زواجه عليهن، في مهاجر أمريكا. لم تكن روايات كاذبة بالطبع، إذ كانت ممتلئة بالتوابل الجنسية التي أثارت يقيناً لديها، بأنه فعل ذلك. لم تكن بحاجة إلى القيام بدوريات ميدانية،

على المهاجرين العائدين للزيارة، لتتأكد من ذلك؛ فقد كانت تعلم جيداً، اندفاعات زوجها الفحولية، وحجم رغباته وشهواته، وضعفه تجاه النساء، أو تجاه الجنس، حصراً.

لكن هذا التلميح الذي فهمته منها، لم يوهن عزيمتها البتة. وبدلاً من أن تضع نفسها في صف المطلّقات، على افتراض أن صبحي قد اقترن بغيرها، آثرت أن تميته غيلة، أو غرقاً، أو فريسة لحيوان غابيّ، كي توضع في مراتب الأرامل.

«هذا أفضل» قالت. وكان نوعاً من التدبير الوقائي الذي أمكن لها أن تقوم به. فلا يعقل مثلاً، لمن استطاعت أن تقدّم مئات الوصفات الشافية، لنساء السماقيات (ولبعض رجالها، وشبانها أيضاً) عبر قراءة أطراف فناجين القهوة أو كعوبها، أن تُهزم أمام احتمال اختيار زوجها لامرأة أخرى غيرها (وهو اختيار يمكن أن يتحوّل إلى طرفة، يتندر بها الرجال هنا، في مضافاتهم، حاسدين صبحي فقط، دون أي ظل من الإدانة الأخلاقية). ولم تستطع أن تفهم ذلك - وقد عجزت عن أن تراه في أي طريق من تلك الطرق المتشابكة، لآثار القهوة - فكيف تقبل أن يصير حقيقة في الحياة؟

هذا، إلى جانب يقينها من أن وضع الرجل ميتاً، في حكاية الغياب، يترك الباب مفتوحاً لاحتمال عودته حياً، أكثر بألف مرة، من انزلاقه إلى أحضان امرأة أخرى. فكثير ممن وصلت أنباء عن اختفائهم في أدغال الأمازون، وجبال الأنديز، من أبناء هذه المنطقة، ما لبثوا أن ظهروا مرة ثانية، بعد سنوات، وقد امتلأت جيوبهم مالاً. بعكس أولئك الذين اختطفتهم النساء؛ إذ لم يعد أحد. وسرعان ما أرسلوا إلى زوجاتهم أوراق الطلاق، واستقروا هناك، بعيداً عنهن.

وعلى الرغم من أنها استطاعت أن ترسي خبر الموت (كاحتمال)، وتبعد شبح المرأة عن أذهان الناس هنا، فقد فشلت، طوال الوقت، في

محوه من ذهنها! هذه واحدة من مصائب العقل البشري. إذ قد يستطيع المرء أن يكذب أو يخدع الآخرين، أو يضلّلهم، لكنه لا يستطيع أبداً تضليل نفسه. ولهذا، فقد ظلت صفصافة رازحة تحت تأثير قلق جارف من أن تأتي أخيراً، تلك الورقة الحاسمة، يحملها شرطي كهل، أو مختار شامت، تخبرها بأنها أضحت مطلقة رجل مهاجر اختار امرأة أخرى غيرها. «قذارة! وسخ» قالت لي: «لا أعرف لماذا سمحت لذلك الثور أن يهرب وحده. كان عليّ، أن أضع رجلي على رجله، وأسافر معه، بدل أن أبقى هنا، أسيرة الوعود مرة، والوعيد مرات ومرات، أشرف على علاج ولد عليل يرفض أن يموت، ويرفض أن يُشفى».

كان هذا غريباً! إذ كيف تقبّلت صفصافة تلك الوحدة، طوال السنوات الخمس الماضية، دون شكوى تقريباً، لتنفجر الآن، في هذا الصراخ الاحتجاجي المجنون؟ هل كان السبب خسارة الأمل؟ جائز. وقد بدا لها أن العلاج الأوحد لليأس، هو الرحيل!

أظن أن هذا الدواء مجرّب من قبل الإنسان، منذ القدم، وأن له مفعولاً طبياً ناجحاً. وأعتقد أننا جميعاً، فكرنا ذات يوم، بأن نمضي بعيداً عن الأمكنة التي تحاصرنا، بحثاً عن هوية، أو وجود مغاير، أو هرباً من القتل أو القمع، أو الحروب أو الوحدة أو الحب الخاسر. وما فعلته صفصافة كان إعادة خلق للتجربة الجمعية الراسخة، داخل أعماق النفس الإنسانية.

غير أنها عجزت عن إقناع نازي - وإن كانت أرغمته على القبول - إذ لم يتمكن من استيعاب الطفرة المفاجئة لأمه، تجاه البقاء في السماقيات. فقد كان نازي يعمل دون حساب للوقت. كان الوقت بالنسبة إليه، مجرد لحظة متساوية الأبعاد، ليس فيها ماض أو حاضر أو مستقبل. كان الوقت صورة، نوعاً من الثبات والديمومة، حيث نجح طوال السنوات الماضية،

في التقاط الناس، وتثبيتهم داخل مستطيل ورقي مغذّى بحبيبات الفضة، ليحشرهم بعد ذلك، في ألبومات سوداء، سرّية، يحتفظ بها، لنفسه.

لماذا كان يفعل ذلك؟ ربما كان تعويضاً عن حرمانه من الحضور الإنساني المكتمل، أو هو حضور خاص، يخلق فيه نازي بنفسه ولنفسه، حواراً مع أهالي السماقيات الذين عجزوا عن قبوله بينهم، كذات، أو كواحد منهم، على الأقل. ضعيف، عليل، مصاب، لكنه إنسان.

فمنذ أن كان في المدرسة، لم يعامله أحد كولد، بل كحشرة، فحضوره كان يثير الاشمئزاز والتقزز لدى أولئك الأطفال الذين قد يلحظ أحدهم، ذات مرة، تسلل واحد من أجزاء الدودة الشريطية، من فتحة الشرج، إلى الفخذين فالكاحل. أو يصعد إلى العنق، ويظهر هناك، باعثاً الرعب والنفور والكراهية. أضف إلى ذلك، أن نازي نفسه كان أضعف من أن يستطيع المشاركة في أي لعبة من ألعاب الأطفال. وبهذا، فقد أُخرج من لغة الجماعة. واستمر عزله حين صار شاباً، في وقت، ازداد فيه شبهه بضيفته المعتدية. صار طويلاً جداً، مطوي الجسد عند الركبتين، والظهر. ناعم الصوت، بلا حنجرة تقريباً. أمرد، خفيف الشعر، ذا بشرة بيضاء شاحبة كبشرة ميت.

كان صعباً عليه، بعد ذلك، أن يكون واحداً منهم. والظاهر أنه رضي بقدره، فمضى إلى الرسم، وقد وجد أنه يستطيع أن يخلق فيه عالماً آخر أليفاً، ومتعاطفاً. أما الكاميرا فقد أعادته إلى العالم الحقيقي، إلى عالم البشر الذي حرمه منه، ذلك الكائن الغوليّ المستبد في أمعائه.

وجود الكاميرا بدّل طباعه. وربما أعاد إليه إنسانيته. فالعزلة الطويلة التي امتدت من الطفولة، جعلته يكره الناس جميعاً، لا أهل السماقيات وحدهم. كان يهرب من أي شخص، هربه من وحش. وصار يرفض الكلام مع أحد، منذ أن سخر أحدهم من صوته المخنث، ويهرب من

زائرات أمه، لينزوي داخل غرفته (وقد حوّلها في ما بعد، إلى استوديو صغير، فيه غرفة تظهير، بعد أن تعلّم الصنعة على يد مصوّر في السويداء) رافضاً أن يأتي للسلام على النساء، معتقداً أنهن يردن اكتشافه، أكثر مما يبغين الاطمئنان عليه.

أما بعد مجيء الكاميرا، فقد صار يلاحق الناس مثل ظل. لم يكن يحضر وسطهم، وإنما على أطرافهم. وكان هذا طبيعياً؛ فالمصوّر لا يستطيع أن يكون داخل الحدث، بل خارجه. مهمته المراقبة والرصد والتنصّت، أي القيام بتلك الأعمال التي يكون المرء فيها محايداً، أو متفرجاً سلبياً، لا يشارك البشر في أقدارهم، بل يصوّرهم. يلتقطهم، ويراهم كما يشاء، ومتى يشاء.

الغريب أن أهالي السماقيات، استقبلوا شغله بلا حساسيات. وأظن أن السبب هو تلك الرغبة السرية الموجودة داخل كل واحد، في أن يرى نفسه بنفسه، في لحظة ما من لحظات عمره.

صحيح أنهم كانوا يفضّلون أن يكونوا في أفضل حالاتهم، لكن ما العمل؟ هذه هي الدنيا - كان نازي يقول لهم - فالكاميرا لا تنتظر، إنها تأخذ البشر كما تهوى، لا كما يتمنون. وبهذه الطريقة، تمكّن نازي من استعادة وجوده. وقد صار كثيرون يخشونه، ويحذرون من أن يرتكبوا هفوات حركية في حضوره. ويبالغون في ارتداء أقنعة مرضية - كما يعتقدون - كي تلتقط الكاميرا صورهم المحبوبة. لكن نازي، الذي اكتسب الخبرة يوماً بعد آخر، كان قد سبقهم بخطوات. وهكذا فإن ما احتفظ به في ألبوماته، إنما كانت حقيقتهم، كما يراها.

لكن رفضه لاقتراح أمه، لم يدم؛ فقد تفوّقت عليه، حين صرخت في وجهه، هذه المرة، قائلة: إما أن تموت أنت، أو أموت أنا، أو نرحل معاً.

فطأطأ رأسه مهزوماً، وسأل: «إلى أين يا أمي؟». كانت ما تزال ساخطة، فقالت بلا تفكير: «إلى جهنم!».

هكذا، وجدت نازي أمامي يطلب مني أن أساعده في دفن جميع ألبوماته. «دفنها؟ لماذا؟». قال إنه لا يستطيع أن يرحل، ويتركها وراءه. قلت إنني أستطيع أن أحتفظ بها لدي دون أن أمسّها أبداً. قال: «أعرف يا معلّم، ولكن ما الفائدة، هذه الصور لم تعد لي!».

فكرته (وأنا أكتب كلامه هنا بلغتي) أنه إذا كان سيبدّل مكان إقامته، فإن صور السماقيات لا تعود لها أي قيمة في نظره. وقد أحس أن أمه لم تكن تنوي السفر، بحثاً عن مورد رزق، بل كانت تريد تبديل العالم ذاته (عرفت في ما بعد، أن صفصافة قد تلقّت بالفعل، الخبر الأكيد عن المصير الذي كان يرعبها. وهو أن صبحي تزوج من امرأة كولومبية. ولم تكن مستعدة أبداً، لمواجهة أي شخص من السماقيات، ليسألها عن تدابيرها القديمة الخائبة).

غير أن نازي انهار فجأة، وقال لي، وهو يبكي، إنه لم يعد يؤمن بشيء، وإن الدنيا حوله، صارت معطوبة وخاسرة. ثم فتح أحد ألبوماته، وبدأ يسرد مصير كل واحد، أو واحدة من صورهم. منهم من كان فتى لاهياً، تزوج الآن، وأنجب أولاداً، وبدا مهموماً، متعباً. منهم من كان يلبس ثياباً قديمة، ويشرب بكفَّيه من ماء الوادي، وصار الآن يلبس البنطلون، ويدخن الغليون. منهن من كنّ ضاحكات سعيدات، مثل نوفليّة، وهي الآن تلبس الحداد، حزناً على شقيقها الميت. ومنهن من كنّ متزوجات، صرن اليوم مطلقات، أو أرامل. ومنهم ومنهن، مئات الصور التي تتابع مصائر الأفراد.

قلت له: «هذا نهج الحياة».

قال: «ولماذا تسير الحياة إلى الوراء مثلاً؟».

قلت: «لا! لا تسير إلى الوراء، بل إلى الأمام، إنها تتقدم».

قال: «كيف؟!»، ثم قدّم لي صورة مسعود شمال، وهو يرفع الحديد ويبرز عضلاته، أو يركض، حول المضمار الجنوبي، أو ينقذ أبناء البردي. وقال: «هذا صار تراباً! إلى أين مشى يا معلّم؟».

قلت دون تفكير: «كلنا سنصير تراباً».

قال شبه صارخ: «شفت؟»، ثم أضاف: «تعرف يا معلّم؟ أنا كنت أفكر، منذ زمن، في دفن هذه الصور، لأني حرت، وأنا أسأل نفسي: من عليه أن يبقى؟ صور الماضي أم حال اليوم؟ لم أعرف الحقيقة. هل هي موجودة لدى الناس، أم في ألبوماتي؟».

قلت حالاً: «لا يستطيع أحد أن يفلت من صورته، أو من وضعه».

فهزَّ رأسه وقال: «يمكن! ساعدني إذن... لندفن هذا الخراء!».

لم يكن هذا كل شيء. والمفاجأة الحقيقية كانت في النهاية، إذ بدا بعدها فعلاً، أن كل ما حاولت أن أفسره، هراء فعلاً (أو خراء حسب لغة نازي الجديدة). فالصور التي التقطها لم تكن صور الآخرين أبداً. وربما كان هذا أحد أسباب حذره وحرصه على إخفائها، أو دفنها الآن. فقد سألني، بعد أن أهلنا التراب فوق ألبوماته، كما نهيله على ميت: «تعرف ماذا قبرنا هنا يا معلّم؟». كنت أظن أنني أعرف كما أسلفت. فالصور التي تراكمت في بيته، كانت تدوّن أزمنة السماقيات، وأمكنتها، فتثبتها بالأبيض والأسود، إلى زمان ومكان أبديَّين، لا يتغيّران. لذلك قلت: «نعم. أعتقد أنك دفنت الماضي. ويمكن أن أقول إنه تاريخ البلدة مثلاً». قال: «لأ!». كانت هذه أول مرة أسمع فيها كلمة «لأ»، كأني أسمع الخواء نفسه. سرت قشعريرة باردة في لحمي وعظامي، حين نظرت إليه. وقلت متسائلاً: «ماذا قبرنا إذاً؟». عندئذ عرفت أن هذا الشاب المنهك الذاهب إلى السفر، لم

يكن يدفن أحداً سوى نفسه! ربما أسرع قليلاً إلى جوابه، لكن كان واضحاً أنه لم يكن يصوّر أحداً من السماقيات، أبداً، لا مسعود ولا لقمان ولا توفيق ولا علي ولا كريم، إنما كان يسجّل تاريخ ذاته. ولهذا، فقد أغمضت عيني كي لا أراه، وهو يقول، كأنه يتقدّم إلى الموت فعلاً، لا إلى الرحيل: «أنا وأنت يا معلّم قبرنا نازي.. نازي وحده!».

يوم الليل

قصة: فيصل الخضرا

قال سعيد شمال: تعالوا نلعب عسكر وحراميّة. فانقسمنا فريقين. ولعبنا طرّة ونقش بفرنك، مع شكيب الخضرا. وحزرنا مكان الطرّة، فصرنا العسكر، وصار الفريق الثاني حرامية. وكان معنا أجود العالي، وهو ولد فقير يلبس الشروال دائماً، لأن أهله لم يشتروا له بنطلوناً. وقال لنا إن أخاه أسعد سيرسل له واحداً من بيروت. ومعنا حسين أبو بطن، وكنا نسميه أبو بطن، لأن كرشه كبير جداً ومنفوخ. وكان سليم الأحمر يقول إنها غازات. وقال له إن الرئيس سيؤمم بطنه، من أجل استخراج الغاز منها. وكان حسين فقيراً جداً مثل أجود، ولم يكن أحد يحبه من الفريق الثاني، لأنه فقير ومنفوخ البطن، فجاء إلى فريقنا. وكان معنا حمود الجزار وسالم أبو قرعة. وهذا كان يخيف الجميع في الليل، لأن قرعته كانت تلمع مثل الصينية. وقال سعيد شمال: ليته لا يلعب معنا، لأنه سيكشف مكان اختبائنا. أما فريق الحرامية، فكان فيه عمر لقمان، وهو ابن لقمان لقمان. وكان يقول إنه سيصير شيخاً مثل أبيه، عندما يكبر. وصار يتكبّر علينا، ولكنه كان كسلان في المدرسة، وكان الأستاذ يقول إنه حمار. وكان عمر ينقل في المذاكرات، ويكتب الدرس على ذراعه، وعلى فخذه، وكان يدخّن، ويلمّ أعقاب السجائر (ونحن نسميها القرمات) بعصا من أعواد التوت، غرس في كعبها

رأس دبوس يشك به الأعقاب المرمية، لكيلا ينكشف، ثم يضعها في جيبه، ويذهب إلى باكة خاله ليفرطها هناك، ويلفّها في ورق شفاف يأخذه من دفتر صغير اسمه دفتر الشام. وكان معه في فريقه، عدنان أبو جمل، وغسان الظاهر، وهذا ولد ملعون وابن حرام. وكان أبوه سراقاً يكسر أقفال البيوت، وينهب الأثاث ويبيعه في الشام. وكانت الشرطة تقبض عليه، وتدخله إلى السجن، فيخرج من هناك، ومعه مصنوعات من الخرز. وكان الناس يقولون إن علي الظاهر فنان، ولكن الجوع جعله سراقاً. أما غسان ابنه فكان يسرق كتبنا، ويمحو أسماءنا عن غلافها، ويكتب اسمه فوقها. وكان يحلف بالله إنه اشتراها. ومرة سرق علبة الطباشير من المدرسة، وباعها، وسرق دراجة من عند أبو سليمان البسكليتاتي. وكان معهم في الفريق، عامر الفايز. وهذا عاقل جداً، وشاطر في السباحة، في بركة عَلَمْ. وكان يستطيع أن يسبح على ظهره، ويسري في الماء، فلا نراه إلى أن يطل علينا مثل السمكة، من خلف صخرة القداح التي تشرف على البركة. ثم انضم إلى فريق الحرامية، أبناء العجّي كلهم، وهم مشهورون بالركض السريع. وأجسامهم مثل الغزلان، وقد خفنا منهم. ولكن العسكر يغلبون الحرامية، دائماً.

وبدأت اللعبة، وكان القمر مغطى بضباب غامق. لا نعرف من أين جاء الضباب الغامق! هل هو غيم؟ ستمطر؟ لأن الليل برد. وصرنا نرتجف، ونحن نقف مثل الحراس أمام بوابة القرية، وننظر إلى الحرامية. وكان سعيد شمال متحمساً، وقال: اثبتوا في مكانكم، ولا تخافوا من عصابة ابن لقمان. وقال: هذه بيوتكم، فدافعوا عنها. فصرنا نحس أننا نحبها. وقال أجود العالي إن الوطن ليل يضيئه قمر. ولكن حسين أبو بطن صار يضحك علينا، وقال: هذه لعبة يا حمير! فقال له سعيد شمال إذا كانت لا تعجبك، فاتركنا. فقال: أنا أحب أن ألعب هذه اللعبة. فقال سعيد: إذاً، دافع عن وطنك. فقال أبو بطن: أين وطني؟ قال سعيد: هذا وطنك. وأشار

إلى السماقيات ولكن أبو بطن قال إنه لا يحب السماقيات. وكان يقول لنا إنه سيصبح مغنياً كبيراً. وكان الأولاد يضحكون عليه، لأن صوته بشع جداً، فزعلنا منه كلنا، لأن اللعبة صارت لعية. ونحن لم نعد عسكراً بل أولاداً. ولكن سعيد شمال صار يشجعنا، وقال: لا تسألوا عن حسين أبو بطن. فقلنا: ولكننا نريد سلاحاً. وأراد حمود الجزار أن يقطع العصيّ من الأشجار، فقال سعيد لا، وقال إن الشجر من الوطن، وسندافع عنه وعنها بأيدينا، فصارت اللعبة جميلة. وهتف شكيب الخضرا: عاش الرئيس. فقلنا: عاش جمال عبد الناصر. وتوزعنا في كل مكان من السماقيات، فبدأت الصراصير تطلق أصواتاً كثيرة، وفضحت مكاننا. فقال حسين أبو بطن: لعنة الله على الصراصير. ولكن الحق لم يكن عليها، لأننا انهزمنا، بل على أبو بطن. وقال سالم أبو قرعة ثاني يوم: انهزمنا من أبو بطن خايف من لعب الصراصير. أبو قرعة كان يخاف من الليل، وكانت أمه تنطره كي يخرج إلى المرحاض. وهكذا، صار يرتجف، وهو واقف، وبدأ يبكي حين سمع صوت الحرامية، وظنّ أن الحرامية حرامية. وعندما انقشع الغيم، ظهرت قرعته لامعة، فرآه الحرامية، وهجموا علينا، وهم يصرخون: عليهم! عليهم! فبدأ أبو بطن يبكي ويقول: أريد أمي. وكان مع الحرامية عصي، فضربونا بقوة، ورأينا عمر لقمان وحسّان العجي يغلبان أجود العالي. وهرب شكيب الخضرا. وأصابني عدنان أبو حجل بالحجر، على كتفي. وضرب غسان الظاهر حمود الجزار، من ورائه، ثم دحرجوا أبو بطن عن سطح بيت حمود الخضرا، إلى المزبلة القديمة. أما سعيد شمال فقد اختفى، وكان يقول إنه وقع في مغارة. وعدنا إلى السماقيات، ونحن حزينون. وكنا نبحث عنه، ونحن نقول: يا أبونا قتلونا، دقّ الكبه دقونا، وعَ المزابل رمونا.

من كتاب السفر

نيسان 1960

كانت العبارة الطائشة التي وجّهها فضل الله شمال (وهو شاب متبطّل، نصف أبله أحياناً، وبلا أخلاق) إلى حسن اللوف مذهلة. ففي اللحظة التي انعطف فيها حسن نحو محفل الرجال، الذين جلسوا على الحجارة المبعثرة، قرب حيطان بيدر الصوالحة الثلاثة، برفقة عمار التوت، صرخ فضل الله بصوت راعد ومهدد: «يا حسن!!»، فالتفت هذا إليه (وقد تطلّع المحفل كله نحوه). «بتقتل القتيل، وبتمشي بجنازته؟!» أضاف بنبرات حادة تنم عن حقد دفين مبيّت.

لم يجب حسن، وتابع المشي أمام النسق الأول من الرجال الذين وقفوا لاستقباله، وهو يمسك أصابع عمار، كأنه يريد أن يستعين به كي يرى طريقه. وحين وقف والد مسعود وأعمامه وإخوته، بدا مظلماً، غائر العينين، محني الرقبة، يرتعش كمحموم.

ومن المؤكد أن العبارة الاتهامية قد بلبلت عقله حالاً، فلم يستطع أن يقول جملة واحدة ذات معنى لتعزية ذوي الميت. فعلى الرغم من أن عبارات التعزية لا تزيد عن حزمة محفوظة مؤلّفة من ست أو سبع جمل، يرددها الجميع بلا متاعب عادة، فإن حسن خلط المطالع بالخواتم،

بالمتون، بلا ضابط. ثم علك الكلمات، كأنما كان شيء ما يلجم لسانه، وحين انتبه لزلاته الغريبة، ازداد ارتباكه. وسكت فجأة، قاطعاً إحدى العبارات (إن كان ما يقوله عبارات) ثم رفع يده اليسرى، مشكّلاً من كف يده، وعضده، إشارة استفهام.

اعتقدت في تلك اللحظة، أنه سيقول شيئاً ما يرد به على الاتهام المخبول الذي طُعن به. غير أنه توارى وراء صمت ثقيل مشغول من قامة مهدمة، ويد متسائلة حائرة.

لم يكن علي شمال، وأشقاؤه، وأبناء عمومته أقل ارتباكاً. فالرعونة التي تصرف بها فضل الله، كانت ترجمة جهيرة لفكرة ملتبسة شغلت العائلة كلها خلال اليوم الفائت. وإذا كنت لا أعرف ما إذا كانوا قد أسرّوا بها في ما بينهم، في خلوات الليل، فأنا متأكد من أن الحسابات المنطقية لديهم ستحيل أسباب الموت المفاجئ، والصاعق مثل موت مسعود إلى الإرادات البشرية، أكثر مما يمكن أن تحيله إلى القضاء الإلهي، مع استثناءات عابرة ربما تجعل واحداً أو اثنين منهم يرددون أن عمره انتهى، أو إنها إرادة الله. وقد خُيّل إلي، حين سمعت راضي شمال، يقول ذلك، أنها مجرد مداجاة تطهيرية، يحاول بها ذلك الكهل المتديّن، أن يسرّب إلى أهالي البلدة قناعات مزوّرة على أنها إيمان عفوي عميق، في الوقت الذي كان وجهه يشي بالشك والسخط، والاحتجاج، أي بكل ما يمكن أن يرد إلى المعارضة الإنسانية لمثل هذا الموت.

غير أنهم لم يفطنوا إلى احتمال أن يبوح واحد منهم بهاجسهم، ويوجّه إلى حسن مثل هذا الكلام. وحين يفكر المرء بأنّ عبارة فضل الله التي كانت مثقلة بالتهديد، بالقدر نفسه الذي أُثقلت فيه بالاتهام، قد قيلت وسط المعزّين (وكان نصفهم من خارج السماقيات فقد جاء وفد من المنارة، وآخر من الحفائر، وثالث من الصخرات)، فإنّ الوعيد يصبح شركاً، وربما

ورطة، إذا لم يتمكن واحد من عقلائهم من تدارك مضاعفات ذلك، لا على حسن وحده، بل على أقربائه، وحلفائهم من عائلات البلدة.

وقد تقلّد هذه المهمة علي شمال نفسه، فمقابل حسن المعقود اللسان، قال، كأنه يجيب عن الكلمة الأخيرة التي افترض أن حسن سيقولها: «صبحك بألف خير! تفضّل يا أبو سليمان».

لم يستجب حسن، شلّه العطب، وظلَّ ينظر إلى الأب الكسير بعينين خامدتين، لكن عمار التوت أنقذه (ربما أنقذ الموقف كله)، فأمسك بذراعه، وقاده إلى حجر بعيد عن مجلس العزاء. ليجلسا معاً هناك، وسط الذهول.

وبعد رفع الجنازة مباشرة، تقدّم علي شمال ثانية نحو حسن واعتذر منه علناً عما سماه طيشاً وجنوناً من جهة فضل الله. كان حسن قد استعاد هدوءه القديم، ودبلوماسيته المتألقة، خلال الساعة والنصف التي أعقبت حرج الدخول، فتمكن هذه المرة من تقديم العزاء بعبارات حاذقة، وبلا غمغمة. وحين أعلن عن أسفه على خسارة مسعود، قال علي شمال، دون أي مواربة (عندي اليقين من أن الرجل كان صادقاً، وجاداً، ومؤمناً، بما يقول) بأننا نحن البشر محكومون بأحكام الله وحده، ولا اعتراض لديه على قضائه وقدره.

لا شك عندي أن علي شمال (وهو رجل عاقل بامتياز أيضاً) قد أراد بهذه التصريحات العلنية المشغولة على خلفية مكان حاشد بالشهود، أن يحسم القلاقل المحتملة التي يمكن أن تبنى على اتهام فضل الله، خاصة أنه يعرف جيداً بأن الحماقة ليست حكراً على قريبه وحده. بل هي كالهواء موزعة على مورثات الأفراد من جميع الأسر والعائلات.

كان هذا كافياً، ومرضياً في النهاية لحسن، فأخذ يمجّد آراء علي شمال ويطري إيمانه، ويحمد الله الذي منعه من الرد على فضل الله.

ماذا حدث؟ كأنما كان يستيقظ من كابوس، يرى أنه كان يحلم، أو أنه

لم يسمع شيئاً، شهق الهواء بقوة، وملأ رئتيه حتى انتفخ صدره وقد شعر أن روحه باتت حرة، وطليقة، وطيبة أيضاً.

عند هذا عانق علي شمال بقوة، ربت على كتفيه وهمس: «شدّ حيلك!»، ثم أضاف بنبرة رحيمة: «بعرفك مؤمن والحمد لله مخلّف». وكانت هذه الدفعة الجديدة من الكلمات بديلاً معقولاً لتأتأة اللسان التي انتابته قبل ساعتين، ومبادلة عادلة لاعتذار الرجل. وإمعاناً في انتحال صفة المتسامح الملهوف، أوعز لعمار التوت كي يدعو أحد الوفود القادمة من القرى للغداء في بيته، هذه هي العادة، وقد اختار عمار عمداً وفد الحفائر الذي كان يضم صديقاً قديماً وشريكاً حالياً ومعاوناً دائماً لحسن في أشغال لبنان هو إسكندر الهدهد.

تعانقا خراج بيدر العزاء، وبدا في تلك اللحظات أن الحكمة، والحذاقة، قد تغلّبتا على الحقد والحماقة، وقد سكّنت الكلمات الطيبة التي رددها بعض الرجال المدعوين إلى بيته أوجاع روحه، حين أشادت كلها بتعقّله وتعاليه عن الاستفزاز، وسعت إلى زيادة حصانته تجاه النكران والخيانة.

الخيانة؟! كلمة عجيبة أضاءت له في تلك اللحظة حقيقة كان يحاول أن يبعدها عن تفكيره، خوفاً من أدرانها. غير أنها الآن بدت ثوباً للناس من حوله وقد صار موقناً من أنهم جميعاً هنا في السماقيات، بلا أخلاق. فعدا بضعة رجال من أقربائه، لم يأت واحد لمواساته، أو إعلان تعاطفه، أو شجب كلمات فضل الله، أو توبيخه. ولأول مرة ينتابه شعور بأن البشر فعلاً بلا أمانة (وقد قال لي في المساء إنه كان يعتبر ما يردده بعض الناس من أن الإنسان خوّان، مجرد ألعاب لفظية سببها الغمّ أو الفشل أو الحدوس الخاطئة)، وأنهم غدارون، لا يحفظون الذمة، ولا يذكرون الجميل. وكان بودّه لو يستطيع استعادة الماضي، كي يعالجه من جديد على ضوء معارف الحاضر.

وبسبب الإحساس بهذا الجور، أو بسبب التفكير الحصيف، فقد غدا مستعداً للقول بأن مسعود قد انتحر، ولم يمت مقتولاً، فالأرجح أنه فعل ذلك بعد أن لاحقته الهزائم واحدة بعد أخرى، والمؤكد أن عقلاً ريفياً صغيراً، يمتلك جسداً وحشياً مثل جسده، لا يمكن أن يقبل الهزيمة دون أن ينفرط شريان ما في رأسه. وإذا كانت الهزيمة في المصارعة مؤقتة، فإن مسعود كان يراها مذلّة وقاصمة، ولم ينفع شيء في إقناعه بأنها مجرد جولات عابرة يمكن تعويضها في مرات قادمة، في الوقت نفسه الذي لم يفده التدريب في أي شيء، فظلَّ أداؤه متواضعاً، يميل إلى المباطحة، وصراع الأزقة، أكثر من ميله إلى المهارة، والحركات المدروسة، واللكمات المتقنة. ولكن ماذا يفعل؟! لقد وجد نفسه مضطراً للمتابعة، في حين كانت زوجته تطلب كل شيء. امرأة فاجرة مسكونة بالثياب، والموضة، والمشاوير. وهكذا وقع بينها، وبين ضربات الحبال المشدودة، إلى أن انتحر.

الداهية أنه لن يستطع أن يكشف فاتورة خسائره في هذا الاستثمار البليد، أمام أحد. فعلى الرغم من أنه دبّر العمل منذ البداية بطريقة صحيحة، علماً أنه لا يعرف أي معلومة عن أسرار الحلبات والمصارعين والمقاولين، فإنّ كل ما فعله مسعود كان يفضي إلى خرابه! فقد رفس جميع الاتفاقات ونسي (عامداً كما يظن) الوصايا، والتعليمات التي كان زهدي يقدّمها له، وخان العهود، ورفض الترويض مثل حمار، وفاز فوق ذلك كله، في المباراة الوحيدة التي راهن فيها حسن بخمسة آلاف ليرة على خسارته، مضيّعاً أتعاب سنة كاملة، دون أي رادع. فما الذي يمكن أن يفعله به؟ لا شيء، وأقصى ما سمح لنفسه، أن يقوله، في السر، داخل الجوانح وحدها هو: «إن شاء الله بتموت!».

نعم، لقد اعترف أنه تمنى الموت لذلك الوحش الغبي، غير أن الجملة

كانت دعاءً مجرداً من المعنى الحقيقي، كلمات تنفيسية يستخدمها أي شخص للتعبير عن قهر فاجع مغلق، دون أن يكون مستعداً أبداً لمسّ الآخر بأيّ أذى، هذه هي اللغة، والناس يتكلمون حين يعجزون عن فعل شيء، يتكلمون أو يدخنون. وقد اكتشف أن علبته فارغة، وليس لديه في البيت أي علبة احتياطية، مثلما كانت عادته حين يأتي من لبنان، مموّناً حقيبته بالعشرات منها. فالرحيل، وإجراءات الجنازة هناك، ورعاية شؤون الأرملة، وضجيج الناس، والتخليص من جمارك الحدود، كل ذلك ألهاه عن سجائره العزيزة، ولهذا فقد طلب من ضيوفه منحه بضع دقائق ليشتري دخاناً من دكان نخلة.

لماذا رفض عرض عمار الصادق بأن يذهب بدلاً عنه؟ لم يعرف، وقد كان ذلك نحساً. ففي الدكان كان فضل الله شمال مرة أخرى، بصحبة اثنين من أقربائه هما فرحان وعابد شمال. لعن شهوته وشهامته معاً، وأغمض عينيه معكوراً، ثم تطلع ناحية نخلة وحده وقال: «عطيني باكيت!». «من أي نوع؟». «بافرا.. زفت.. أي شي». قهقه الرجال الثلاثة ساخرين، فكظم غضبه، ولكنه حين أراد أن يخرج وجد أنهم يسدّون الباب، وقال فضل الله: «يعني مفكّر إذا غمضت عيونك ما بتشوفنا». قال حسن: «عدم المؤاخذة، معي ضيوف ومستعجل». «مش مهم» أضاف فضل الله كأنه لم يسمع ما قال: «المهم تعرف إنو دم مسعود مش رح يضيع!». كانت عيناه مليئتين بالدموع، وكان خده الأيمن يرتعش، فخطر لحسن فجأة أن أي لمسة يد، أو فلتة لسان، أو التفاتة ملغزة، أو أي إشارة مجنونة هالكة، يمكن أن تنزلق به إلى العدم، لاحظ أن نخلة غمزه، ففكر أنها مكيدة أعدّها آل شمال كي يجرّوه إلى شرك مميت. لكن كيف عرفوا أنه بلا سجائر؟!

وإذا كان قد ابتلع الكلمات، فقد تقلصت معدته وشعر بالغثيان، واكتفى بالجلوس إلى المائدة، مضطرباً، حائراً، مرهقاً من هذا الطارئ المكرب.

لماذا كل ذلك؟ ماذا فعل من الشرور كي تتهدد حياته؟ فالتهمة التي توجّه إليه، باتت الآن أكثر من حماقة عادية يلوّح بها أمام وجهه رجل أبله من آل شمال، إنما هي فكرة ثأرية تغلغلت في وجدان العائلة، وتجاوزت الخطوط الحمراء لوصايا علي شمال، أو تنبيهات أي واحد من العقلاء. وفي الحسابات العشائرية التي يعرفها حسن جيداً، صار يعلم أن الأمر خرج عن نطاق ردود الأفعال، فإذا كان قد نجح في امتصاص استفزازات فضل الله في العزاء، فإنه لن يتمكن بعد الآن من كبح الاندفاعة الجديدة له، ولا لابني عمومته عابد وفرحان وغيرهم ممن تثيرهم شهوة الدم.

الغريب أنه شرح لوفد الحفائر الضيف أنه لا يخاف من الموت، بقدر ما يخاف من المضاعفات المحتملة لشجار عائلتين دون حقيقة ثابتة. جائز. ولكن حسن كان يمهّد للاعتذار عن الحضور إلى مساء العزاء في مضافة أبي مسعود وقال: «يظهر إنها جمر، وخايف تشعل بوجودي».

لم تكن جمراً، بل لهباً، فعدم حضور حسن إلى العزاء ، كانت مغامرة حقيقية. فقد كسر تقليداً قوياً يلزمه بالمشاركة في التعزية. وترك الباب مفتوحاً أمام الكلام. فما اعتبره هو نية حسنة، رأى فيه آل شمال احتجاجاً، أو مقاطعة مشبوهة منظّمة (حين وجدوا أن رجلين آخرين من آل اللوف لم يأتيا). وقد اكتشف رجال الحفائر الذين كانوا في ضيافة حسن أن حادثة الدكان، التي لم يشاهدوها بأعينهم، وإنما رواها لهم حسن، حاضرة في رواية مختلفة، ومقلوبة، في مضافة الحداد. وفيها أن حسن هو الذي تطاول على فضل الله، وأهانه، وأوضح له أن آل شمال لم يجرؤوا على قول كلمتهم في وجه حسن، فندبوه ليلقيها من وراء ظهره.

لم يتمكن الضيوف من نفي الرواية، وحكوا رواية حسن وفاء للخبز والملح الذي شاركوه فيه قبل ساعات، وحاول إسكندر الهدهد ترميم النواقص في الحكايتين بحديث عن الأخوّة والأهلية، آملاً أن يكون رسول

خير. لكن شهادته جُرحت منذ أن أشار فرحان شمال إلى أنه شريك حسن في تجارات الهجرة والسفر. فصمت إسكندر، طأطأ رأسه، ومطّ شفته، وأدرك أن الوقت قد فات على خطابات الحب، ومواعظ المصالحات.

ولم يستمع أحد بعدئذ لأي وساطة أخرى. وقد بدا أن الضوضاء صارت سيدة المكان، أُقصي عقل الضحى الذي تحدّث به علي شمال، وحُجبت القرابات (ثمة صلات رحم بين آل اللوف وآل شمال، فنجمة شمال شقيقة والد علي هي جدة حسن اللوف لأبيه)، وبدأت الآراء العشوائية تتقدّم لتجعل حسن مسبباً لموت مسعود، ثم متواطئاً. وحين غادر آخر غريب كان حسن قاتلاً دون أي شك.

تلك الليلة اكتشف حسن أنه غطس في الطين كثيراً، فمن نومه خرج رجال، ونساء، وبنات، وأولاد يحملون خناجر، أو مسدسات، أو عصيّاً واتجهوا نحوه. عرف معظمهم، وذُعر لأن أسئلته ضاعت واستنكاراته تلاشت، وهو يرى أولئك الذين قدّم لهم خدمات وفوائد لا تعدّ يريدون قتله. وصار يصرخ: «أنا بريء! أنا بريء! زهدي السبب». وحين استيقظ كان هلعاً من أن يكون أحد قد سمع هتافه، ومضطرباً من تسلل هذه الفكرة إلى أحلامه. لكن الكوابيس ظلت حية في اليقظة أيضاً، وخُيّل إليه أنه يسمع وقع أقدام في الخارج، ودبيب تحركات، وعيون تتلصص.

وما لم يعلمه هو أنه حين خرج إلى الخلاء يحمل مسدسه، ويصرخ: «مين؟ مين؟» كان هنالك وراء شجيرات البطم اثنان من آل شمال، يترصدون حركاته، وقد تسللا هاربين، خوفاً من أن يمضي حسن وراء سلاحه.

ما كانا يعرفان شيئاً عن كوابيسه، ولكن رائحة الموت كانت تفوح من ظهوره المفاجئ المترقب. وهي قرينة جديدة قدماها لأقربائهم لإثبات روحه المجرمة. سُمعت طلقات بنادق في الليل، وهرع عشرات الرجال نحو بيت حسن، أو بيوت آل شمال لكن الصوت لم يكن قادماً من هناك.

غير أن حسن لم يكن موجوداً في السماقيات صباحاً، فرّ أثناء الليل بسيارة عمار التوت إلى السويداء، ومن هناك قال لي أنه سيذهب إلى الشام، ثم يرحل بلا عودة إلى البرازيل.

لم يكن يكذب، ولم يسافر إلى بيروت بالتأكيد، ففي مدينته المحبوبة كان يقبع الكثير من أبناء السماقيات، سواء من آل شمال، أو من أولئك الذين كرهوا حسن، بقدر ما احتاجوا إليه.

ما عُرف أيضاً أن حليم الزهر رافق حسن في الليل وعاد بصحبة عمار التوت، وقد بدا وجوده وسط تلك الساعات تنافراً جداً في رأي آل شمال. وربما قال أحد ما إنه نوع من التدخل الفظ والمغرض واللئيم في شؤون أقرباء يعرفون وحدهم كيف يحلّون مشاكلهم.

تطوّر طارئ صار فجأة جوهر كل شيء. فانصبّ غضب العائلة المنكوبة المكبوت طوال نهار الدفن وليلة العزاء على انحياز حليم الزهر إلى صف حسن اللوف وتطوّعه لحمايته. ولم يكن لدى حليم أي ذريعة يفسّر بها، لمن سأله من أقربائه وحلفاء عائلته، سفره المفاجئ بصحبة حسن الفار من وجه العدالة المفترضة من آل شمال.

عند ضحى النهار نفسه تفاقم الخلاف بسرعة. وبدا الناس مثل هشيم الفلا ذاته، يابسين، قساة، لا ينتظرون إلا شرارة. وكما هي العادة، فقد أشغل الحمقى المعركة، فضل الله شمال نفسه وعابد، وناظم اللوف، وسالم، وعلي عجيب، وقد فرَّ عابد وفضل الله في المواجهة الأولى مع آل الزهر، ويبدو أن أحداً ما تحدّث تلك الدقيقة عن فداحة غياب مسعود فانخرط الشجعان عندئذ في الشجارات.

المعتاد حسب القاعدة أن يفوز الجبناء في معركة مثل هذه، غير أن اللصوص هم الذين استحوذوا على أمجادها هذه المرة.

استثناء مباغت لم يكن في أي منعطف، أو زاوية، أو ركن، أو ظن، أو عقد، من عقل أي شخص هنا. كانت نتيجته نهب مكتبة السماقيات.

وحين وصل عصام الديدي مساءً (لم يأت إلا في المساء!) وجد مكتبة بيضاء (ربما كانت بنيّة أو زرقاء) خاوية، ليس فيها أي شيء. وقد اختفت جميع الكتب، والسجلات، والصور، ودفاتر الإعارة، ولم يبق سوى مزق مبعثرة من أوراق بلا هوية، وبقايا أقلام محطّمة، ونثار زجاج، وبضع شعارات.

لم يجد شاهداً واحداً يقول الحقيقة، وامتلأ الضبط بأكثر من خمسين تصريحاً وشهادة مختلفة. ويبدو أنه لم يستطع الإمساك بأي اسم. وكل ما قيل هو أن واحداً (واحداً ما بلا اسم!) اندفع إلى المكتبة بغتة، أثناء العراك، وكسر زجاج الخزائن، وحمل تحت إبطه أول مجموعة وجدها من الكتب، ثم خرج يعدو بها، وقد رآه الجميع وخُيّل إليهم أنهم يتشاجرون من أجل اقتسام تلك الذخيرة الصامتة وراء خشب السنديان.

فتش رجال الشرطة المنازل تفتيشاً دقيقاً (الصحيح أن أقول تخريباً)، لكنهم لم يجدوا كتاباً واحداً. تبخّرت الكتب كالضباب، ولم يجنِ الديدي سوى إجابة واحدة، بدا كأن الجميع قد اتفقوا على قولها: «ما حاجتي للكتب؟!».

ولم أستطع مقابلة الضابط، فقد رفض أي حوار، ودفع رجاله لتفتيش بيتي، واقتحام مكتبتي، وقد أفسدوها أيضاً وهم يبحثون عن كتب مسروقة (كانوا سيعرفون ذلك من أختام المكتبة لا من عناوين الكتب). ولهذا لم أعرف إن كان ساخطاً وغاضباً بسبب المعنى الحقيقي لإجابة أبناء السماقيات، أم بسبب معناها المجازي.

غير أن الملازم عاد بعد يوم واحد أكثر غضباً، واعتقل ثلاثين رجلاً من أبناء البلدة، باحثاً هذه المرة عن أسماء الكتب وحدها، إذ إن رئيسه وبّخه،

وربما اقترح معاقبته، لأنه لم يستطع ضبط واحد من ثلاثي الخطر الذي نبهه إليه قبل أشهر، وسمح لأهل السماقيات أن يضيعوا سجلات المكتبة أيضاً.

أعرف أن الكتب بحوزة أبناء البلدة، ولكن السؤال المرير الذي سيظل يوقد تفكيري: «من منهم أخذ هذا الكتاب أو ذاك؟ ولماذا؟».

مجانين؟ ربما كانوا كذلك حين اشتروا المكتبة.

ولكن ما همّ؟ وماذا نقول عنهم حين نهبوها؟

نيسان 1960

لم يذهب إلى الخشخاشة، في المشوار الأخير الذي كان عليه أن يمضي فيه وراء جثمان مسعود.

ومنذ اللحظات الأولى التي رأى فيها تابوت صديقه المسمّر، راقداً وسط الساحة، على حجر الموت، وقد أحاط به سبعة مصلّين، داهمه إحساس بالنفي. لم يعد له مكان هنا، ولم يعد له أحد.

في الطريق إلى السماقيات بالأمس، كان يفكر أنه سيعانق مسعود، عناقاً أخيراً، ويقول له (له هو، لا لخشب تافه) كلمات ما عن الغربة القاتلة والسفر الخاسر. لكنه لم يستطع ذلك، لأن مسعود كان مختفياً وراء السطح الأملس للتابوت، ممنوعاً من الخروج إلى الأبد، ومحاطاً بعشرات النساء النائحات. تذكّر في الصباح، أن صديقه كان يهوى ذلك النواح الجنائزي المديد المبدّد في أشعارهن، أو ذلك الندب المستوحد الذي تطلقه واحدة منهن، غارقة وسط كومة الحداد. وفي كل عزاء، كان يقوده من يده، ويتسللان مبهورين، إلى نشيج الوداع الأخير لأي ميت. فمضى اليوم إلى ركنهما القديم، وجلس هناك: هل يمكنك أن تسمع من وراء خشبك القاحل - يا مسعود - نواحهن الخاص بك؟ إذا لم تستطع، فأنا أنقله إليك!

ظلَّ هناك طوال الوقت، عاجزاً عن الذهاب إلى حيث يجتمع الرجال. يهلكه شعور بأنه عليل ومتعب، وليس لديه أيّ ذريعة. ماذا سيفعل هناك؟ يثرثر بالذكريات مثلاً؟ يعدّد مناقب الراحل؟ أم ينصت للأحاديث العابرة المشغولة بهموم يومية، ينثرها رجال وشبان جاؤوا لأداء واجب؟

لا يعرف كم مضى من الوقت، وهو يجلس في مكان الماضي، مكتفياً بالنواح وحده، قريباً من مسعود الذي مضى من الأيام. لا يعرف ما إن كان قد نام، أم أن الهواجس جعلته ذاهلاً، إلى اللحظة التي سمع فيها لغط الرجال الآتين لأخذ النعش إلى موقفهم. فكر أن يفرّ بعيداً، ثم دفعه وزر طارئ ثقيل من أن يكون بذلك، قد تخلى عن مسعود. فنهض ولاقاهم. كان أكثر من مئة رجل يهرعون نحو البيت الذي يعج بالرجال. وعند الباب، تدافعوا معاً، داخلين، وهم يرددون جمل الوداع المحفوظة أو جذاذات كلام معاد مكرر، سبق أن قالوه لموتى آخرين. تسلل برفقتهم، وحين صار في الداخل، رأى التابوت الخشبي الأبيض، لأول مرة. لم يشعر بأي شيء. وتخيّل أن من المستحيل أن يكون مسعود هناك، إذ لا يمكن لأي خشب، أن يتسع لذلك الرجل الطويل المأهول بالعضلات. شعر بالراحة، وآمن أنهم يحملون وجوداً مزيّفاً لخديعة اسمها: موت مسعود.

فجأة، رأى أم مسعود، تندفع من بين الحشد الذي كان يرفع التابوت على الأكتاف، وتنقضّ على عنق لوزية (لوزية التي غابت عن تفكيرها) وهي تزعق بوحشية: «إنتِ قتلتيه!». غير أن لوزية، انتزعت تلك اليدين الناحلتين عن مجرى تنفسها، كأنها تنتزع قيداً، وصرخت: «لأ! لأ! أني ردت إنو يعيش... وعاش»، ثم حدجت الحشد المتجمد، بعينين ناريتين، وأضافت: «سامعين؟ كلكم سامعين؟! مسعود عاش». هل سمعوا؟ هل كان ما تقوله لوزية صحيحاً؟ فكر الآن، وهو يجلس وسط خراب أم الجرابيع: هل الخراب دليل الخطأ؟ ماذا يمكن أن يقول إذاً عن آل الفضل

الذين عمّروا ذات يوم هذا المكان الآفل؟ ولو كان الميت الذي حملوه إلى القبر، جاء حياً، وغنيّاً، وشهيراً، فإلى أي جهة كان يمكن ليديّ أمه، أن تذهبا؟ فكر أن كل ما سعت إليه لوزية، هو أن تبدّل بحياة كاسدة، حياة مكتوبة، وأن تهجر مكاناً عطناً، راحلة إلى مكان ظنت أنه يعج بالحركة. وإذا كانت قد حصدت موت شريكها، فإن النتيجة لا تبدّل نبل الغاية.

لأول مرة، يحس أنه لا يستطيع أن يؤيّد الكتب. وإذا كان يشعر بالارتباك من أخطار الأفكار التي تنسلّ إلى عقله ومشاعره، فإنه لا ينكر أن شيئاً ما، لذيذاً وآسراً، ملأ سماء حلقه. لم يقل - مثلما كان يقول كل مرة - إنّ من يذهب وحده يموت وحيداً، إذ لا أحد يموت برفقة أحد، ولا أحد يذهب إلى أي مكان، حتى لو كنا سنذهب إلى الثورة، برفقة أحد، فكل واحد يذهب وحده، وينتصر وحده، ويموت وحده. أعجبته الأفكار أكثر، فأضاف إنّ أمور الحياة كلها تشبه الطعام أو القبلة. أشياء خاصة يلمسها ويشمها ويتذوقها ويعرفها كل شخص. كما لا يمكن لأحد آخر غيره، أن يفعل ذلك. شعر الآن، أنه مشتاق لمحمودة، ثم فكر فجأة: من محمودة؟ حاول أن يتذكّرها، فلم يجد سوى شروخ مكسّرة من الملامح الليلية المظللة. هل تحبه تلك البنت فعلاً؟ ليس لديه أي دليل: قصاصة ورق مثلاً! محرمة! سلام أبيض! ولكن هل يحبها هو؟ هل يحب امرأة من غياب أو من سفر أو من ذكريات؟ ربما كان يحب قصته عنها. بينما تجلس هناك، وراء شباك العلّية، امرأة من لحم ودم وكلام وابتسامات وآمال! تمنى لو كان يستطيع أن يمشي اليوم، إلى هناك، ليطلب، أن تغفر له، ويجيبها عن سؤالها الحائر هاتفاً: «إي بحبك! بحبـــــك!». عندئذ سوف يكون قد فعل شيئاً ما يساوي نفسه وأعماقه، لا قشور الجمل التي تشبه كلام الآخرين.

أحس أنه صار خفيفاً، تخفق بداخله، وعود أخرى، زاخرة بمعانٍ كثيفة وحية. قرر أن يعرض على زينب، حين يعود إلى البيت، فكرة لؤلؤة.

وسوف يقول للوزية كلمات عزاء، منها أنه إذا كان مسعود قد مات، فإن عليها ألّا تسمح لأحلامها أن تموت.

فرح بسبب روح الحكمة المصطفاة التي استقرت داخل وجدانه. وفكر: «غداً إذاً... غداً!».

في صباح اليوم التالي، ظلّ يركض من جانب المطخ الكبير، حيث وقفت سيارات القرى، إلى دار الجزيري. ومن الشارع، شاهد نافذة العلّية مقفلة، يظهر خشبها الرصاصي العتيق. واصل الركض، وصعد الدرج كالمجنون، وراح يدق على بابها، ويصرخ: «يا لولو! يا لولو!»، فسمع صوت أبي محمود ينبّهه من أسفل الدرج: «راحت يا ولد! راحت!».

تلك الليلة امتلأ ليل الحي بنداء ذئبي، هالك، طويل:

«عووووووو!».

«عووووووو!».

«عووووووو!».

2004

ممدوح عزّام:

روائي سوري، من مواليد عام 1950. ترجمت رواياته إلى اللغة الألمانية واللغة الإنكليزية.

أصدر الكتب التالية:

- نحو الماء، مجموعة قصصية، 1985.
- معراج الموت، رواية، 1987. حوّلت إلى فيلم سينمائي بعنوان «اللجاة»، من إخراج رياض شيّا، وإنتاج المؤسسة العامة للسينما 1993.
- قصر المطر، رواية، 1998.
- جهات الجنوب، رواية، 2000.
- الشراع، مجموعة قصصية، 2000.
- أرض الكلام، رواية، 2005.
- نساء الخيال، رواية، 2011.
- أرواح صخرات العسل، رواية، 2018.



اختفت محمودة!

وطوال سبعة أيام، ظلَّ كريم يكرِّر مجيئه ليلاً، إلى الحوليات العالية، ليختبئ وراء الصخرة البيضاء الكبيرة، ويطلق نداءه الكلبيّ، المغزول بأناقة تشبه أناقة الثعالب. منتظراً أن يراها تأتي - كما كانت دائماً - منسلّةً، راكضة، عبر الرواق الحجري المسقوف، قافزة كأرنبة إليه.

غير أنها لم تأتِ، وراحت نداءاته سدى: عوووووووو!! وزاد في ارتباكه، أن بارود، كلبه، توقف عن الاستجابة كل الوقت، وفضّل الوقوف هناك في الأسفل، بلا حراك، تحت القشرة الخشبية المتبقية من شجرة التين المنخورة، يراقبه بحذر، دون أن يشارك - كما كان يفعل دائماً - في المؤامرة الطيبة التي اتفقا عليها منذ سنوات، لتزوير النداء البشري، كي يظهر دائماً، في أسماع الناس، على أنه صيحة ثعلب جائع وحيد، يحدّق في العتمة، بحثاً عن صيد.

سرد
دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع
ISBN 978-9933-540-43-2
9 789933 540432 >